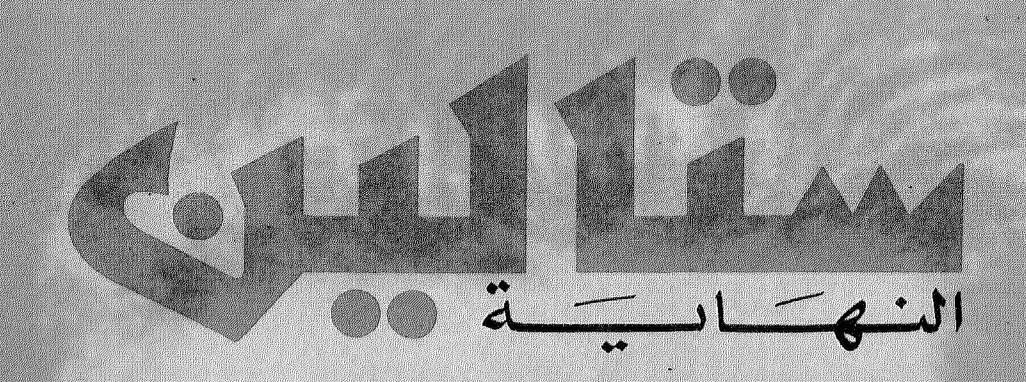
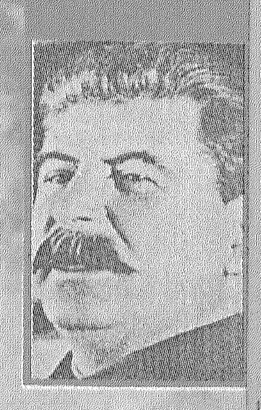
الجزء
الثالث
١٩٤١ ـ ١٩٥٣





تأليف الكاتب الروسي

ديمتري فولكوغونوف



ستالين

النهاية

الجزء الثالث

١٩٤١ ـ ١٩٥٣

تأليف الكاتب الروسي

ديمتري فولكوغونوف

ترجمه عن الروسية

حازم حجازي

ســــتالين
النهـــاية
الجزء الثالث
١٩٤١ ـ ١٩٥٣

الطبعة الأولى
١٩٩٥

منشورات:
دار المشرق للطباعة والنشر والتوزيع
قبرص ـ نيقوسيا ـ جادة مكاريوس ـ ٩٢
هاتف: ٣٥٣٤٣٤ فاكس: ٣٥٤٣٤٣

الفصل الأول

بداية مفجعة

«الأمة هي التي تدفع الثمن
لقاء الأخطاء التي يرتكبها قادة الدولة»
ن. بيردياييف

ستالين يستوعب مغزى ما قاله جوكوف بصعوبة بالغة، وجوكوف يتابع، بقلق تشوبه الدهشة، قَذْف سماعة الهاتف بسؤاله:

ـ الرفيق ستالين، هل تسمعون؟ هل فهمتموني أيها الرفيق ستالين؟ هالو... الرفيق ستالين...

أخيراً، صدر عن الرجل ـ الذي انهال على عاتقه عبء خيالي الثقل ـ جواب مكتوم النبرات:

ـ اذهبوا أنتم وتيموشنكو إلى الكرملين. قولوا لبوسكريبيشيف أن يستدعي جميع أعضاء المكتب السياسي...

وضع ستالين سماعة الهاتف وظل جامداً لدقيقة قرب الطاولة، وعيناه اللتان أعمتهما الصدمة تنظران إلى عقارب الساعة العتيقة المعلقة في زاوية الغرفة: العقرب الصغير لم يتجاوز إشارة الساعة الرابعة إلا بقليل. البارحة كان التوجيه رقم ١ الصادر عن المكتب السياسي بمثابة تنبيه خفيف للمجالس العسكرية في المناطق الغربية. مع التأكيد على أن «مهمة قواتنا هي عدم الانجرار إلى أية أعمال استفزازية»[١]، ومع ذلك فإن التنبيه جاء متأخراً، ومن المشكوك به أن تكون الجيوش قد اتخذت أية اجراءات نشيطة. في اللاوعي كان ستالين يدرك ما حصل: لقد بدأ شيء مريع وهائل ومأساوي في مصير البلد والشعب و ـ بالطبع ـ في مصيره هو أيضاً بوصفه الشخص الأول في هذه الدولة العملاقة. لكن حتى هو، الذي كان يعرف جيداً حجم القوى التي تقف وجهاً لوجه عند الحدود، لم يكن يتصور كم هي مفجعة بداية الحرب. رغم معرفته للكثير من نقاط الضعف التقنية والعملياتية والتنظيمية لدى الجيش الأحمر، ما كان يسعه أن يتخيل كيف ستسقط مدينة مينسك بعد ستة أيام وكيف ستخترق رؤوس مثلثات من الدبابات الألمانية الخطوط الدفاعية واحداً تلو

الآخر... راح ستالين، على نحو آلي، يزرّر جاكيته العسكري الشهير (الذي يعرفه ملايين الناس من الصور)، غير قادر أن يسمع الدوي البعيد لعشرات الآلاف من المدافع الألمانية وهي تنهال بالقذائف على مواقع القوات السوفييتية ومخافر الحدود والتحصينات. في اللحظة التي ركب فيها سيارته، كانت القنابل الألمانية تتفجر في بريست وبوبروييسك وفيلنوس وفنتسبيلس وغرودنو وكوبرين وكييف ومينسك وجيتومير وسلونيم وسيفاستوبول وعشرات المدن الأخرى، إيذاناً بقدوم الإله مولوخ (إله سامي كان يُعبَد بتضحية الأطفال على مذبحه ـ المترجم) في هيئة حرب شنيعة. كانت سيارة ستالين منطلقة، برفقة سيارتي حراسة، عبر شوارع موسكو نحو الكرملين، في الوقت الذي كانت فيه آلاف الدبابات الألمانية تهرس بجنازيرها صلب أراضي الوطن. إن من قُيّض له ولو مرة أن يرى حريقاً في غابات التايغا يعرف كيف تسوق الرياح موجة النيران عبر قامات الشجر... كذلك كان لهيب الغزو الألماني ينداح سيلاً حارقاً يلتهم آلاف المدن والقرى وملايين أرواح البشر.

كيف تمكن هتلر أن يغامر بخوض الحرب على جبهتين؟ هل هو مجنون حقاً؟ لم يكن ستالين يريد أن يفهم أن هتلر بعد احتلال باريس قد انتهى فعلياً من الجبهة الغربية وراح يأمل في أن الحملة الشرقية على روسيا ستكون خاطفة هي الأخرى. كانت أفكار ستالين تبحث عن قصبة النجاة: هل يكون العسكر قد شعروا بهلع، ليس إلا، أمام خطوة استفزازية نظمها هتلر؟ ألم يرسل بافلوف قبل يومين برقية يطلب فيها «السماح بشَغل التحصينات على طول خط الحدود»(٢)، فكان توجيه ستالين لتيموشنكو أن يجيب بافلوف، قائد المنطقة العسكرية الغربية، بالرفض: تقدُّم قواتنا من شأنه أن يستفز الألمان، فهم يبحثون أصلاً عن ذريعة... قبل كل شيء يجب سؤال برلين: قد يكون الأمر مجرد استعراض قوة! وهل أدت المعارك حول بحيرة خاسان إلى حرب مع اليابان؟

دخل ستالين من المصعد الخاص به وحده وصعد إلى مكتبه مجتازاً ردهة الاستقبال، وقال لبوسكريبيشيف:

ـ ليدخل الجميع فوراً.

دخل أعضاء المكتب السياسي دون ضجة وبحذر، ودخل بعدهم تيموشنكو وجوكوف. قال ستالين، دون أن يحيي الحضور ودون أن يقصد شخصاً معيناً بذاته:

ـ اتصلوا بالسفير الألماني...

خرج مولوتوف وحل صمت ثقيل... خلف الطاولة كان يجلس: أندرييف، فوروشيلوف، كاغانوفيتش، ميكويان، كالينين، شفيرنيك، بيريا، مالينكوف، فوزنيسينسكي، شرباكوف. عاد مولوتوف وشعر فوراً أن كل القيادة الحزبية تنظر إليه بأعصاب متوترة. اتجه وزير الخارجية إلى مقعده واعتصر جملة مكبوتة:

ـ السفير يقول إن الحكومة الألمانية أعلنت علينا الحرب... ثم نظر مولوتوف

إلى الورقة التي بين يديه وأضاف: ـ الذريعة الشكلية عادية تماماً: ألمانيا قررت أن تسبق هجوماً روسياً وشيكاً عليها.

أصبح الصمت المطبق كثيفاً، لا بل لزجاً. جلس ستالين إلى الطاولة ونظر إلى مولوتوف متذكراً كيف أن هذا الأخير قال له واثقاً بعد عودته من برلين قبل نصف سنة:

هتلر يطلب منا العون في صراعه مع انكلترا وحلفائها. يجب أن نتوقع احتداد النزاع بينهما. هتلر يتلوى ومن الواضح أنه لن يُقدم على خوض الحرب على جبهتين. أظن أن لدينا من الوقت ما يكفي لتوطيد الحدود الغربية، لكن علينا اليقظة، فنحن نتعامل مع رجل مغامر...

نظر ستالين إلى مولوتوف مرة أخرى، لكن شزراً: «... أظن أن لدينا من الوقت...» ـ يا لك من متنبىء! كان القلق في نفسه يتعاظم، فهو يشعر أنه خُدِع بشكل صفيق. للمرة الأولى منذ سنوات، يحس «الزعيم» بالارتباك وعدم الثقة بالنفس، وهو المعتاد على أن تسير الأمور بما يتناسب مع إرادته. لاحظ رفاقه المطيعون حالة الضعف عنده، وما كان يريدهم أن يلاحظوا. كان الجميع ينتظرون منه الرأي والإرشاد.

قطع حبل الصمت الثقيل وزير الدفاع تيموشنكو:

الرفيق ستالين. هل يمكن عرض الموقف كما هو؟

ـ هاتوا!

دخل إلى المكتب النائب الأول لرئيس الهيئة العامة للأركان الجنرال فاتوتين وتلا تقريراً مختصراً لا يحوي معلومات جديدة: بعد زوبعة من القصف المدفعي والغارات الجوية في عدد من المناطق على المحورين الغربي والشمالي الغربي، دخلت قوات ألمانية كبيرة إلى الأراضي السوفييتية. الكثير من المخافر الحدودية استقبلت العجلات الضخمة للآلة الحربية الألمانية في أول معركة وأبيدت، لكن أحداً لم يترك مواقعه القتالية. طيران العدو يقصف مطاراتنا بلا انقطاع. لا توجد لدى الهيئة العامة للأركان معلومات أخرى. لم يكن بوسع أحد من الحضور في ذلك المكتب أن يتخيل مدى المأساوية والسرعة اللتين ستتطور بهما الأحداث اللاحقة.

شلل الصدمة:

لا، لم يكن ستالين في يوم الحرب الأول قد أحس بالصدمة الكبرى بعد. كان يشعر بذهول وبحنق على الجميع ـ ما أقسى الخدعة التي تعرض لها ـ وبقلق إزاء المجهول. في ذلك اليوم الأول بقي أعضاء المكتب السياسي حوالى ٢٤ ساعة متواصلة في مكتبه، بانتظار الأنباء الواردة من الحدود. كانوا يخرجون من حين لحين للاتصال بالهاتف أو شرب الشاي أو التحرك قليلاً بعد الجلوس الطويل. وكانوا قليلي الكلام. فجميعهم يأملون في أعماق نفوسهم أن الهزائم ظاهرة عابرة، ولا شك لديهم في أن.

هتلر سيجد الصد الحازم، وأن معارك حامية ستنشب في المناطق الحدودية بعد أسبوع أو أسبوعين... الحرب الآن هي حرب مواقع، ريثما يقوم الجيش الأحمر بتوجيه الضربة الجوابية الساحقة إلى المعتدي.

في المصنف الذي بين يدي مالينكوف نص التوجيه المزمع إصداره باسم إدارة التوجيه السياسي «حول مهام التوجيه السياسي في الجيش الأحمر خلال المستقبل القريب»، الذي استلمه في أواسط حزيران (يونيو) من رئيس تلك الإدارة زابوروجيتس (والذي استبدله ستالين في اليوم الثاني للحرب بالقوميسار ميخليس). في ٢٠ حزيران (يونيو) كان ستالين قد استدعى مالينكوف الذي سلم «الزعيم» نص ذلك التوجيه (وهو قد صيغ أثر اجتماع المجلس العسكري الأعلى وخطاب ستالين أمام خريجي الأكاديميات العسكرية في ٥ أيار ١٩٤١). كان «الزعيم» في خطابه آنذاك واضحاً: الحرب في المستقبل واقعة لا محالة، ويجب الاستعداد لـ «تدمير الفاشية الألمانية حتماً». لم يمهل الزمن توقيع ذلك النص من قبل ستالين (الذي صاغ معظم خطوطه الأساسية)، فقد بدأت الحرب، بينما يرى النص أن الظروف الجديدة التي تنطوي على مفاجآت، تتطلب منّا حزماً ثورياً واستعداداً دائماً للانتقال إلى هجوم كاسح على العدو... كل أشكال الدعاية والتحريف والتربية يجب تسخيرها لهدف واحد هو الجاهزية السياسية والمعنوية والقتالية لدى الجنود لخوض حرب عادلة هجومية كاسحة... تربية الجنود بروح الحقد الفاعل ضد العدو والطموح إلى مقارعته والاستعداد لحماية الوطن على أرض العدو وتوجيه ضربة قاتلة إليه هناك...»[٣]. كان ستالين، إذاً يتأهب للهجوم!!

بالإضافة إلى مالينكوف اطلع على نص التوجيه جدانوف أيضاً. وفي آخر المطاف ليس الأمر في هذا التوجيه، بل في ثقة القيادة السياسية بأن البلد قادر على صد أي هجوم وسحق المعتدي. كان نص التوجيه قد أُعِدَّ بروحية اقتراحات جوكوف حول خطة الانتشار الاستراتيجي للقوات المسلحة السوفييتية التي تم تسليمها لستالين في شهر أيار (مايو). ويتحدث النص أيضاً عن ضرورة «استباق الخصم وسحق قواه الأساسية على أراضي بولندا السابقة وبروسيا الشرقية»[٤]. كانت الهيئة العامة للأركان والإدارة العامة للتوجيه السياسي تفترضان أن الدفاع يمكن أن يكون فقط قصير الأمد، لأن القوات كانت تستعد للهجوم المعاكس: صد الهجوم والهجوم المعاكس... لذلك لم تكن القيادتان الحزبية والعسكرية في اليومين الأول والثاني تفكران بأن فاجعة قد حصلت، فهي لم تكن واردة.

أما في واقع الأمر، فقد حدث ما يلي: رغم أن القيادة العليا للبلد كانت تستلم معلومات عن الهجوم الوشيك لألمانيا الفاشية عبر قنوات مختلفة، لم تتخذ الخطوة الطبيعية التي كان يجب اتخاذها: وضع القوات الحدودية في حالة التأهب القتالي. لقد تأخر «التوجيه رقم ١»، إذا تذكرنا الغرض منه، يوماً كاملاً على الأقل. فلم يكن ستالين والمقربون منه يستطيعون فهم الموقف، ولم يخاطر العسكريون بأن يشرحوا له (تيموشنكو كان يخشى «الزعيم» بشكل فظيع) أن التأهب القتالي يتطلب مدداً زمنية

صارمة، وأن الزمن اللازم لاستنفار كتيبة وسَوْقها واحتلالها للمواقع المعنية يتراوح بين ٤ ساعات و ٢٠ ساعة (في المنطقة العسكرية الغربية، مثلاً، يلزم ما يتراوح بين ٤ ساعات و ٢٤ ساعة)(٥). أما التوجيه رقم ١، فقد بدأ إرساله من قبل الهيئة العامة للأركان في ٢٢ حزيران، الدقيقة العشرين بعد منتصف الليل، وتم استلامه في المناطق بعد ساعة (في الواحدة وعشرين دقيقة). بعد ذلك، كان على قادة الوحدات انفاق ساعة ونصف تقريباً على المناقشات والتحضيرات اللازمة في حالات كهده. هذا يعني أن الجيوش كان قد بقي في حوزتها ساعة واحدة فقط للتنفيذ.

لقد تم استنفار عدد كبير من الكتائب ليس بسبب التوجيه، بل بسبب الغارات الفاشية والقصف المدفعي الألماني. أما الوحدات والتشكيلات التي بدأت تتحرك نحو المواقع المشار إليها فلم تصل لأنها أُجبِرت على الدخول في اشتباكات مباشرة حين اصطدمت بأرتال الدبابات الألمانية. وفعل الخصم كل ما بوسعه لقطع خطوط الاتصال وشلّ الإدارة الميدانية. كانت المفاجأة الصاعقة للجميع هي تقدم التشكيلات المسلحة الألمانية إلى عمق ٥٠ ـ ٦٠ كم في الأراضي السوفييتية خلال أول يوم فقط... وبدأت تشكيلات الحزام الدفاعي الثاني تتقدم نحو الجبهة تحت ضربات متواصلة من الطيران المعادي (الذي كان مسيطراً على الجو منذ اللحظات الأولى)، وإلى ملاقاة تلك التشكيلات تسير جماهير اللاجئين من المناطق الحدودية. الاتصالات مقطوعة. الضباط لا يعرفون واقع الأمر. المناطق التي يجب التوجه إليها احتلها العدو الذي تمكن من إحراز المباغتة التكتيكية والعملياتية ومن ثم الاستراتيجية أيضاً. نعم، هكذا، بالضبط لم يكن هنالك مباغتة سياسية، لكن المماطلة الإجرامية من قبل ستالين وضعت الجيوش في ظروف سمحت بتحقيق أكثر النوايا طموحاً لدى القيادات العسكرية الألمانية. فيما بعد، كتب رئيس هيئة الأركان في القوات البرية لجيش فيرماخت، الجنرال هالدر، قائلاً: «لقد باغتت القوات الألمانية الخصم بهجومها. لم تكن الترتيبات القتالية للخصم، على الصعيد التكتيكي، صالحة للدفاع. فقد كانت قواته في الشريط الحدودي مبعثرة على أراضٍ شاسعة ومتمركزة في مناطق انتشارها الدائم. وكانت حراسة الحدود بالذات ضعيفة»(٦).

لم يكن ستالين، الذي يروح جيئة وذهاباً إلى مكتبه، يعرف أن القيادة العسكرية الألمانية قد وضعت رهانها الرئيس على التقدم الحاسم لمثلثات من الدبابات إلى عمق الأراضي السوفييتية، دون الاهتمام ببقاء القوات السوفييتية في مؤخرتها، فقد تم إحباط الآليات التعبوية في عدة مجالات: خلال اليومين الأولين وضع العدو يده على أكثر من ٢٠٠ مستودع للمحروقات والذخائر والعتاد العسكري وعلى الكثير من المستشفيات. كانت البلبلة وغياب الإدارة المتينة يؤديان إلى إحباط معنويات الجيش... في البيان العسكري رقم ١ (٢٤/٦/١٩٤١)، الذي وقعه رئيس هيئة أركان الجيش الرابع، العقيد صندالوف، جاء ما يلي: «قوات المشاة محبطة المعنويات بسبب القصف الشديد والدائم، وبالتالي لا تبدي صموداً أثناء الدفاع. يضطر الضباط إلى إيقاف الوحدات العسكرية، التي تنسحب عشوائياً، وتوجيهها نحو الجبهة من جديد، وهذا يصح على قائد الكتيبة وعلى قائد الجيش، لا فرق. ورغم أننا نصل أحياناً حتى إلى استخدام السلاح، لا تأتي هذه الإجراءات بالمفعول المنتظر»(٧).

أما ستالين فكان ما يزال ينتظر أنباء تجلب العزاء...

في صباح ٢٢ حزيران (يونيو)، حين برز سؤال: من الذي سيتوجه بكلمة إلى الشعب حول هجوم ألمانيا الفاشية؟، التفتت جميع الأنظار نحو ستالين، لكنه فاجأ الحضور بالرفض. دونما تفكير، تقريباً، وكان رفضه حاسماً. وتُجمِع الأدبيات التاريخية حتى اليوم على رأي مفاده أن ستالن اتخذ هذا القرار، لأنه (على حد رأي ميكويان، مثلاً) كان في حالة ارتباك و «لا يعرف ماذا يقول للشعب، الذي كنا نربيه على أن الحرب لن تقع، وإذا وقعت فسوف يتم تحطيم العدو على أراضيه، إلخ، والآن يجب الاعتراف بأننا أول ساعات الحرب ننهزم».

أظن أن الأمر خلاف ذلك. كانت مسألة التوجُّه إلى الشعب تناقش في موسكو صباحاً، حين ما كان أحد يعرف بعد «إننا.. ننهزم». لقد كان الكلام عن الحرب وخطر الحرب على مسمع الشعب دائماً. كان الاستعداد للحرب قائماً، ومع ذلك كانت مفاجئة. لم يكن ستالين على بينة من كيفية تطور الأحداث على الحدود. الأرجح أنه لم يكن يريد أن يقول شيئاً للشعب قبل استيضاح الموقف: لم يسبق لستالين قبل ذلك (على الأقل خلال فترة الثلاثينات) أن اتخذ خطوة كبيرة دون أن يكون واثقاً من كيفية انعكاسها على وضعه الشخصي، فهو دائماً يسهر على استبعاد المخاطرة التي يمكن أن تهز هيبته كـ «زعيم».

في صباح ٢٢ حزيران (يونيو)، لم يسمع ستالين صيحات النصر... كان على قلق لا بل في ذهول، لكن لم تكن تفارقه الثقة الداخلية بأنه خلال أسبوع أو أسبوعين سيعاقب هتلر على غدره، وعندئذ يحين بالنسبة لستالين أوان «الظهور أمام الشعب». سوف يُطبق شلل الصدمة على ستالين بعد أربعة أو خمسة أيام، حين يقتنع أخيراً بأن الاجتياح ينطوي على خطر مميت ليس فقط بالنسبة للوطن، بل وله أيضاً بوصفه «الزعيم الحكيم الذي لا يُقهَر». ومما يدل على أن الأمر كان على هذا النحو بالذات، توجيهان تم إرسالهما إلى الجيوش (في الساعة السابعة والربع صباحاً والتاسعة والربع مساء) بعد الموافقة عليهما في مكتب ستالين وتوقيع تيموشنكو ومالينكوف وجوكوف.

في الصباح، كان القرار أن مالينكوف هو الذي سيتوجه إلى الشعب وأن من الضروري إعلان التعبئة على مساحة ١٤ منطقة عسكرية: لم يكن ستالين يتصور بعد حجم الكارثة، فراح يطلب من العسكريين «تحطيم العدو الغازي بضربات ساحقة». وأمر تيموشنكو بإعداد الوثيقة التي أصبحت تُعرف في التاريخ تحت اسم التوجيه رقم ٢ للمجلس العسكري الأعلى:

«إلى المجالس العسكرية للمناطق العسكرية (لفوف، البلطيق، الغرب، كييف، أوديسا).

نسخة إلى وزير الأسطول الحربي:

في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١، في الساعة الرابعة صباحاً، قام الطيران

الألماني، دون أي ذريعة، بشن غارات على مطاراتنا ومدننا على طول الحدود الغربية وقصفها بالقنابل.

في نفس الوقت، فتحت القوات الألمانية في مناطق مختلفة نيران مدفعيتها وعبرت حدودنا.

نظراً لهذا الهجوم، الوقح إلى حد منقطع النظير، من قبل ألمانيا على الاتحاد السوفييتي نأمر:

١ ـ كل القوات أن تنهال على الجيوش المعادية بكل الطاقات والوسائل لتدميرها في تلك المناطق التي تم فيها اختراق الحدود. ويجب الامتناع عن عبور الحدود من قبل قواتنا البرية حتى إشعار آخر.

٢ ـ الطيران الاستطلاعي والطائرات المقاتلة أن تحدد نقاط تمركز الطيران المعادي وتجمّع قواته البرية، وأن تدمر، بضربات قوية من القاذفات والطائرات المقاتلة، طيران ومطارات العدو وتقصف تشكيلاته العسكرية البرية. يجب توجيه ضربات الطيران إلى عمق ١٠٠ ـ ١٥٠ كم في الأراضي الألمانية وقصف مدينتي كينيغسبرغ وميميل، والامتناع عن الإغارة على أراضي فنلندا ورومانيا حتى إشعار آخر.

تيموشنكو، مالينكوف، جوكوف
٢٢/٦/١٩٤١. الساعة السابعة والربع»[٨]

لا يشبه هذا النص وثيقة عسكرية، فطابع الإنشاء السياسي في الكلام واضح وهو يعود لستالين. إنه فعل ناجم عن الإرادة السياسية والنوايا الحاسمة لمعاقبة الجار الغادر، والنص لا يكاد يكتم الأمل بأن إطفاء حريق الحرب ربما كان ممكناً خلال فترة قصيرة. وإلا من الصعب أن نفهم لماذا «... الامتناع عن عبور الحدود حتى إشعار آخر». حين يأمر ستالين بقصف التشكيلات العسكرية المعادية لا زال يجهل أن قوات المنطقة الغربية وحدها وفي اليوم الأول فقط قد فقدت ٧٣٨ طائرة، منها ٥٢٨ على أرض المطارات مباشرة. كذلك كان الوضع في المناطق العسكرية الأخرى (كييف ولفوف والبلطيق). منذ الساعات الأولى أحرز الألمان تفوقاً مطلقاً في الجو ودمروا، خلال يوم ٢٢ حزيران وحده ١٢٠٠ طائرة.

كثيرة هي القرارات المتخذة في ذلك اليوم. لذا، أكرر: لم يكن ستالين يعرف بعد حجم الكارثة على حقيقته. فقد زال لديه الذهول والارتباك البدائيين، لكن فكرة ملحاحة كانت تدور في رأسه: كيف كان بوسعه أن يصدق هتلر؟ كيف تسنى للـ «فوهرر» أن يخدعه؟ لله درّك يا مولوتوف، ما شاء الله! معنى الأمر أن بلاغات المخابرات والمعلومات المماثلة عبر القنوات الأخرى حول هجوم ألمانيا وتوقيته كانت صحيحة! معنى ذلك أنه لو وافقنا مع بافلوف قبل أيام وأمرنا باستنفار الجيوش لكانت الأشياء جرت بشكل آخر! كان يتهيأ لستالين أن رفاقه اليوم، أثناء جلوسهم في مكتبه ينظرون إليه بعين اللوم على أخطائه، لا بل إنهم يشكّون في قوة البصيرة لديه. وكان مجرد التفكير بأن الناس (ليس فقط هنا، داخل الكرملين) يمكن أن يشكّوا في حكمته وبُعد نظره وعظمته، أمراً لا يطاق...

اقترح تيموشنكو تحويل المناطق العسكرية في البلطيق والغرب وحول كييف إلى: الجبهة الشمالية ـ الغربية، الجبهة الغربية والجبهة الجنوبية ـ الغربية. وظل ستالين يطلب معلومات عن الوضع على الحدود وعن الإجراءات المتخذة لتطبيق التوجيه رقم ٢، ويتوجه مراراً إلى تيموشنكو وجوكوف وفاتوتين وبنفاد صبر وحنق:

ـ ماذا يفعل بافلوف وكيربونوس وكوزنيتسوف (قادة الجبهات المذكورة)؟ ماذا تفعل الهيئة العامة للأركان؟

جلب فاتوتين مرة أو مرتين خريطة العمليات إلى الكرملين. ولكن لم يكن فيها ما يعزي: علامات الأقلام الملونة تشير بدقة إلى مناطق وجود جيوشنا وفيالقنا وطيراننا وخطوط اتجاه التشكيلات الاحتياطية،... ولا شيء محدد عن مواقع دوران المعارك أو تواجد العدو أو عن طابع الأعمال التي تقوم بها الجيوش السوفييتية. لم يكن الجالسون في الكرملين يعرفون بعد أن القوات الألمانية قد عطلت (وفي الجبهة الغربية شلت تماماً) نظام الاتصالات والإدارة الميدانية: بعد ساعات معدودة من بداية الهجوم، فقد الجنرال بافلوف كل خيوط الإدارة في جبهته. لقد سمحت تحليقات الطائرات الألمانية المتجسسة قبل الحرب (على هواها، دون عقاب) ومعطيات الاستطلاع العسكري الألماني أن تتمكن القيادة العسكرية للعدو من التحديد الدقيق لكل نقاط الإدارة وخطوط الاتصال والمطارات والمستودعات وأماكن إقامة القوات السوفييتية. لذلك كانت الضربة الأولى للمعتدي (بالطائرات والمدفعية والدبابات) فعالة إلى أقصى حد. تمكن العملاء الألمان، الذين تم انزالهم جواً، من قطع خطوط الاتصال، التي كانت آنذاك تتمتع بأهمية أكبر بكثير من الاتصال اللاسلكي.

لم يكن الوضع أفضل على الجبهة الشمالية ـ الغربية. ففي مذكرات سوبينيكوف (قائد الجيش الثامن هناك، ومن ثم قائد الجبهة لبضعة أسابيع) نقرأ: «لم يكن لدينا أية خطة واضحة لحماية الحدود. كان أغلب الوحدات مشغولاً ببناء مناطق التحصينات وتشييد المطارات، والقطعات العسكرية تتكون من طواقم غير مكتملة، والمباني غير جاهزة. عند الصباح، كانت كل طائرات منطقة البلطيق تحترق في المطارات. مثلاً، في الساعة الثالثة ظهراً من يوم ٢٢ حزيران، كان قد بقي ٥ أو ٦ طائرات من الكتيبة الجوية التي كان يُفترض بها دعم الجيش الثامن...». فيما بعد، يشير سوبينيكوف (الذي اجتاز الحرب ونجا، بعد أن شغل عدة مناصب) بمرارة، أنه بعد بداية المعارك «راحت تصل إلى نقطة القيادة، عبر الهاتف والتلغراف، توجيهات متناقضة حول بناء الحواجز وزرع الألغام، إلخ: بعض التوجيهات تأمر بإجراء هذه الأعمال فوراً وبعضها الآخر يلغيها، ثم من جديد... في ٢٢ حزيران (يونيو) ليلاً، تلقيتُ شخصياً أوامر من رئيس هيئة الأركان في المنطقة الجنرال كليونوف بلهجة قاطعة: سحب القوات من الشريط الحدودي عند فجر ٢٢ حزيران (يونيو)... وعلى العموم كنا نشعر بوجود جو عصبي متوتر وعدم تناسق وعدم وضوح وخوف من استفزاز الحرب... لم تكن الطواقم، لا في الوحدات ولا في هيئة أركان الجيش جاهزة للعمليات الحربية»[٩]. هذا ما يقوله قائد أحد الجيوش التي دخلت الحرب منذ الساعات الأولى، وليس هو الوحيد الذي كان في مثل الوضع الذي يصفه.

أما ستالين، فكان لا زال ينتظر بلاغات عن النصر أو عن مسببات للتفاؤل، والبلاغات لا تأتي: حين ينفتح باب المكتب، يرفع «الزعيم» رأسه ويتفحص وجه الشخص الداخل. خلال اليوم الأول من الحرب لم يتناول ستالين سوى كأس شاي واحد: لا أنباء تدعو إلى الاطمئنان و «الزعيم» في حالة عصبية. كان يتهيأ له أن القادة العسكريين يبطئون ويُبْدون تردداً ولم يفهموا مغزى التوجيهات المرسلة صباحاً إلى القوات. يتذكر ستالين الآن أنه غالباً ما كان يُرسَل إلى مختلف الجبهات بصفة ممثل الحزب، فآمن بفعالية الضغط النشيط على هيئات الأركان والقادة العسكريين من خلال الأوامر الصارمة والتهديدات ومختلف الإجراءات الإدارية. كان الموقف الغامض الآن يضغط على أعصابه، ولم يعد بوسعه الانتظار. دون أن ينتهي من المناقشة مع مولوتوف وجدانوف ومالينكوف حول تأسيس «مقر القيادة العامة» باقتراح من تيموشنكو، نهض ستالين فجأة وتحرك في المكتب ثم أمر:

ـ أرسلوا ممثلين عن القيادة العامة للجبهتين الغربية والجنوبية، على وجه السرعة. ليذهب شابوشنيكوف إلى بافلوف وجوكوف إلى كيربونوس. حالاً.

ثم اقترب من الطاولة ونظر إلى جميع الحاضرين وقال من جديد بتوعد وصرامة:

حالاً!

هزَّ الجميع برؤوسهم علامة الموافقة. كان يُخيَّل لستالين أنه لا بد الآن من إشارات نشيطة متواصلة من المركز لحمل الجيوش وهيئات الأركان على خطوات أكثر حسماً: بمبادرة منه أعد فاتوتين بعد الظهر توجيهاً جديداً باسم المجلس العسكري الأعلى (القيادة العامة برئاسة المارشال تيموشنكو تكونت في اليوم التالي). وصحح ستالين الصفحة الأولى للوثيقة، التي عُرفت فيما بعد بـ«التوجيه رقم ٣»، وهي فضفاضة، مما يجعلني أورد فقرات قليلة منها:

«إلى المجالس العسكرية في الجبهات الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الغربية.

١ ـ تمكن الخصم من إحراز نجاحات ليست كبيرة بتوجيه ضرباته الأساسية من منطقة سوفالكي إلى «أوليتا» ومن منطقة زاموستيه إلى فلاديمير ـ فولينسكي ورادزيخوف وضربات ثانوية باتجاه «تلزيت» و «شاولياي» و «سيدليتس» وفولكوفسك خلال يوم ٢٢/٦، وتكبد خسائر كبيرة. هجمات الخصم على باقي الحدود مع ألمانيا وعلى طول الحدود مع رومانيا جرى صدها بعد تكبيده خسائر كبيرة.

٢ ـ المهمة الملحة للقوات خلال ٢٣ و ٢٤/٦ هي:

أ ـ محاصرة العدو بضربات مركزة ومتلاقية من قبل قوات الجبهتين الشمالية ـ الغربية والغربية في سوفالكي وتدمير وحداته هناك حتى مساء ٢٤/٦، واحتلال منطقة سوفالكي.

ب ـ محاصرة العدو بضربات قوية مركزة من قبل الفيالق الآلية وطيران الجبهة الجنوبية ـ الغربية وقوات الجيشين الخامس والسادس وتدمير وحداته المتقدمة باتجاه فلاديمير ـ فولينسكي وبروديه، واحتلال منطقة لوبلين قبل مساء ٢٤/٦...».

ثم تمضي الوثيقة إلى تفصيل المهام الهجومية التي كانت غير واقعية على الإطلاق. أما الفقرة الرابعة التي أملاها ستالين شخصياً فتقول:

«على طول الجبهة من بحر البلطيق إلى حدود هنغاريا يُسمَح بعبور الحدود والقيام بالإجراءات القتالية دون النظر إلى خط الحدود»[١٠].

إن تكرار كلمة «الحدود» ثلاث مرات في عبارة واحدة يدل وحده على أن ستالين كان خارجاً عن طوره. يحمل التوجيه رقم ٣ تواقيع تيموشنكو وماليكوف وجوكوف. ومع أن الأخير كان قد سافر إلى كييف، أمر ستالين بوضع توقيعه في النص.

انتهى أول أيام الحرب. كان ما زال في نفس ستالين أمل في أن الجيش سيتمكن من إيقاف التشكيلات الألمانية المتقدمة نحو العمق ومن ردها على أعقابها فيما بعد. هذا سيما وأن فاتوتين جاء في العاشرة مساءً بنشرة الهيئة العامة للأركان، وهي توجز متفائلة: «مع اقتراب الوحدات الطليعية للجيوش الميدانية بدأ صد الهجمات الألمانية على معظم مقاطع الحدود والجيوش الألمانية تتكبد خسائر»[١١]. انتعش الجميع، لا بل بدت عليهم البهجة. لم يكن ستالين وكل الجالسين في مكتبه يعرفون بعد أن القوات الألمانية خلال يوم واحد قد اجتازت ـ في بعض الاتجاهات ـ عشرات الكيلومترات إلى عمق الأراضي السوفييتية.

ابتداء من صباح ٢٣ حزيران (يونيو)، راحت الأوهام، التي كان ستالين لا زال يضمرها، تتلاشى بسرعة: حاول بنفسه الاتصال مع بافلوف مرتين، لكن العاملين في هيئة أركان الجبهة الغربية يجيبون «قائد الجبهة في الوحدات المقاتلة». ولم يأتِ الحديث مع الجنرال كليموفسكي ، رئيس الأركان هناك، بأية فائدة. فجأة حزَر ستالين الأمر وارتاع: هيئة الأركان فقدت القدرة على إدارة القوات ولا تستطيع التحكم بتطور الأحداث التي تسير نحو كارثة.

بالفعل، كانت هيئة أركان الجبهة الغربية بعد اكتمال اليوم الأول قد فقدت قدرتها على إدارة الجيوش. هنا وثيقتان كتبهما ووقعهما بافلوف في تلك الأيام المأساوية:

«شيفرة برقية رقم ٥٣٥٢/ ٢٣ حزيران (يونيو)، الثامنة وخمس دقائق إلى قائد الجيش العاشر:

لماذا لم يشن الفيلق الآلي هجومه؟ من المسؤول عن ذلك؟ عليكم فوراً تنشيط العمليات ولا يصيبكم الهلع. عليكم إدارة القتال. اضربوا العدو بشكل منظم ولا تتراجعوا دون إدارة. عليكم أن تعرفوا كل كتيبة: أين هي ومتى وماذا تفعل وما هي النتائج...

بافلوف، فومينيخ»[١٢]

في اليوم الرابع للحرب، تمكن قائد الجبهة (الذي كان قد بقي له في هذا المنصب أسبوع واحد)، من خلال المعلومات المتقطعة الواردة إلى هيئة الأركان، أن يدرك أن جيوش العدو يمكنها بعد يومين أو ثلاثة أن تصل إلى مينسك من الشمال الغربي والجنوب الغربي. قوات الجيشين الثالث والعاشر، المقاتلة، في منطقة بيلوستوك، وضعها مأساوي: فقد التفّ الألمان عليهما من الجناحين ومن المؤخرة. ضمن هذه الظروف، اتخذ بافلوف قراراً، صحيحاً على الأرجح، بالتراجع، لأنه كان يرى أن هنالك ممرّاً نحو مينسك لا يزال عرضه يبلغ ٥٠ أو ٦٠ كيلومتراً. لكن تنفيذ القرار كان صعباً جداً، والتوجيه التالي هو أحد الأوامر الأخيرة التي سيوقعها جنرال الجيش بافلوف في تلك الحرب التي استمرت بالنسبة له أسبوعاً ونيف فقط (كان قد بقي له في الحياة ما يزيد عن الشهر فقط):

«إلى قادة الجيوش الثالث عشر والعاشر والثالث والرابع.

اليوم ليلاً (٢٥ ـ ٢٦ حزيران)، قبل التاسعة مساء، ابدأوا التراجع وهيئوا الوحدات: الدبابات في المقدمة تتلوها الخيالة والوحدات المضادة للدبابات...

عليكم إنجاز المسير بسرعة، ليلاً ونهاراً، تحت تغطية قوات المؤخرة. التحرك على جبهة واسعة... الوثبة الأولى ٦٠ كيلومتراً وأكثر في اليوم الواحد... السماح للقوات بأن تقتات كلياً من الموارد المحلية وتستولي على ما يلزم من عربات الخيل...

قائد الجبهة الغربية	الجنرال بافلوف
عضو المجلس العسكري للجبهة الغربية	بونومارينكو
رئيس هيئة أركان الجبهة الغربية	كليموفسكي[١٣]

إن بافلوف عندما حدد الخط الأخير لعملية التراجع لم يكن يعرف بعد أنه لم يعد لدى الجيوش لا وقود ولا وسائل نقل، فكلها تم الاستيلاء عليها أو تدميرها من قبل العدو في معارك الأيام الأولى. كان التراجع العشوائي للتشكيلات العسكرية يجري في أقسى الظروف: هيمنة الطيران الألماني في الجو والمناورات الخاطفة لقوات العدو على الأرض. لم يكن يوجد أُسس للأنباء المتفائلة التي ينتظرها ستالين، وراح التطور المفجع للأحداث يتصاعد بشكل مرعب.

في الأيام التالية، عند أواخر الشهر، كان ستالين قد فهم أخيراً كل أبعاد الخطر المميت، وفي لحظة ما فقد نهائياً ضبط النفس وسقط مصعوقاً بصدمة نفسية عميقة. تدل الوثائق وشهادات الناس الذين رأوه آنذاك أن ستالين كان في فترة ٢٨ ـ ٣٠ حزيران مصعوقاً لدرجة أنه لم يبدِ ما يجب أن يبديه أي قائد جاد. كانت أزمته النفسية عميقة، لكنها لم تدم طويلاً. قبل هذه الأزمة كان الرجل يحاول اتخاذ إجراءات ما وإصدار أوامر معينة ونفخ الحيوية في هيئات القيادة العليا.

في صباح ٢٣ حزيران (يونيو)، كانت القيادة تتخذ قرارها بتشكيل مقر القيادة العليا للقوات المسلحة، وفاجأ ستالين الحضور حين اقترح إنشاء هيئة المستشارين الدائمين لدى القيادة العليا. كان مالينكوف وتيموشنكو هما اللذان يحضران القرار،

فنظر كل منهما إلى الآخر في دهشة، لكن دون اعتراض. أملى ستالين قائمة هيئة المستشارين:

«تنظيم هيئة المستشارين الدائمين للقيادة العليا من الرفاق: المارشال كوليك، والمارشال شابوشنيكوف، وميرتسكوف، وقائد القوى الجوية جيغاريوف، وفاتوتين، وقائد قوى الدفاع الجوي فورونوف، وميكويان وكاغانوفيتش، وفوزنيسينسكي وجدانوف، ومالينكوف وميخليس»(١٤).

سمّي القرار بـ «قرار الحكومة» وأرسِل في برقية إلى المناطق العسكرية والجبهات بتوقيع بوسكريبيشيف. لكن الحقيقة أن تلك الهيئة عاشت أسبوعين فقط ثم ماتت بهدوء دون أن تبدأ عملها.

ضمن أخطاء ستالين والهيئة العامة للأركان في فترة ما قبل الحرب يجب أن نذكر أيضاً عدم دراسة المسألة المتعلقة بالتشكيل المسبق لهيئة قيادية استثنائية تقود البلد في زمن الحرب عند وقوعها (ما يسمى لاحقاً: اللجنة الحكومية للدفاع) ولهيئة عليا للقيادة الاستراتيجية للقوات المسلحة (هيئة القيادة العليا). فقد تشكلت هاتان الهيئتان بعد بداية الأعمال العسكرية، أضف إلى ذلك أن الهيئة العامة للأركان قد أصيبت بضعف نتيجة تبديل قائدها ثلاث مرات قبيل الحرب. كل هذه النواقص ومثلها، انعكست على وضع الجيش فوراً.

إذاً، أسفرت المعلومات المتقطعة الواردة من أركان الجبهات ومعطيات الاستطلاع الجوي وتقارير ممثلي القيادة العليا عن وقوع ستالين في حالة من الارتباك الشديد. فقد شعر بفقدان الصواب وهو يستمع إلى أحد تقارير فاتوتين ينتقي الكلمات ببطء ليبلغه أن الجبهتين الغربية والشمالية ـ الغربية حاولتا توجيه ضربات معاكسة، لكن التغطية الجوية الضعيفة وعدم تنسيق الحركة والدعم المدفعي الرديء، لم تسمح ببلوغ النتيجة المرجوة: الجيوش تكبدت خسائر كبيرة وتتابع الانسحاب، عشوائياً على الأغلب. أصعب الأوضاع هو وضع الجيشين الثالث والعاشر، أضاف فاتوتين، فهما محاصران عملياً. أرتال الدبابات الألمانية قريبة من مينسك...

ـ ماذا تقول؟ كيف قريبة من مينسك؟ أنت تخلط بالتأكيد! من أين لك هذه المعلومات؟

ـ كلا، لست أخلط، أيها الرفيق ستالين، قال فاتوتين بصوت منخفض فيه اعتذار. ثم تابع: معطيات ممثلي الهيئة العامة الذين أرسلوا إلى الجبهة تؤكدها معطيات الاستطلاع الجوي. اليوم يمكن القول أن قوات الحزام الأول لم تتمكن من إيقاف العدو عند الحدود وتأمين الانتشار للجيوش المتقدمة من العمق. الجبهة الغربية مخترقة عملياً... وقواها الأساسية محاصرة.

خلال أيام ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ ولا سيما ٢٦ حزيران (يونيو)، كان ستالين يدرك ضمنياً أن الجيوش خسرت المعارك الحدودية،... لكن أن تمر القوات الألمانية مسافة ١٥٠ ـ ٢٠٠ كم خلال ٥ أو ٦ أيام إلى عمق الأراضي السوفييتية؟ هذا غير معقول.

ماذا يفعل بافلوف وكوليك وشابوشنيكوف؟ لماذا لا تقوم الهيئة العامة للأركان بقيادة الجيوش؟ هل هي الكارثة حقاً؟ بقي العسكريون يسمعون بصمت عبارات ستالين الغاضبة والمهينة، وحين سُمِح لهم في آخر المطاف، انصرفوا عائدين إلى الهيئة العامة للأركان.

لم يكن ستالين يعرف بعد، أن الأيام الأولى في الجبهات كانت أيام سيطرة «اللخبطة» الكلية، لا بل الفوضى أحياناً. كانت هيئات الأركان ترسل الأوامر بعد الأوامر، لكنها تتخلف عن التطور الخاطف في الموقف. هكذا كان واقع الحال ليس فقط في الجبهة الغربية، حيث تكون موقف مفجع، بل في الجبهات الأخرى. ها هو قائد الفيلق الآلي الثامن ريابيشيف يتذكر فيما بعد الأيام الأولى للحرب (من مذكرته إلى الهيئة العامة للأركان): «فقط في الساعة العاشرة من صباح ٢٢ حزيران استلمت أمر قائد الجيش السادس والعشرين بتمركز الفيلق إلى الغرب من مدينة سامبور... قمنا بمسيرة ٨٠ كيلومتراً قبل الحادية عشرة ليلاً وتمركزت قوات الفيلق في المنطقة المذكورة. في العاشرة والنصف ليلاً وصل أمر جديد: التقدم إلى ٢٥ كيلومتراً شرق مدينة لفوف قبل الثانية عشرة ظهراً يوم ٢٣. في النصف الثاني من ذلك اليوم كان الفيلق قد ضُم إلى الجيش السادس وتلقى أوامر بالاتجاه إلى منطقة يافروف... وصلنا في الحادية عشرة ليلاً، أمرنا قائد الجبهة الجنوبية الغربية بمهمة جديدة: الوصول إلى منطقة بروديه ومن صباح ٢٦ توجيه ضربة إلى العدو باتجاه بيريستشكو، في حين كان الفيلق قد قطع خلال يوم ونصف مسافة ٣٠٠ كيلومتر... تمركز الفيلق الآلي الثامن في منطقة بروديه يوم ٢٥ حزيران. بدأنا الهجوم منذ الصباح وأحرزنا نجاحاً جزئياً، لكن الفيلق لم ينجز مهمته كاملة. لم تكن لدينا محروقات. فقط الطائرات الألمانية تحلق في الجو. في الرابعة من صباح ٢٧ استلمنا أمراً جديداً: سحب الفيلق إلى احتياطي الجبهة. بدأنا الانسحاب. في السادسة وأربعين دقيقة ـ أمر جديد: توجيه ضربة إلى العدو في منطقة بروديه ـ دوبنو. لكن القوات كانت قد بدأت بالانسحاب. في العاشرة وصل إلى نقطة الفيلق عضو المجلس العسكري للجبهة القوميسار فاشوغين الذي هددني بالإعدام وطالب بتنفيذ الأوامر... فيما بعد تبين أن الهجوم الذي كانت تزمع القيام به هيئة أركان الجبهة قد أُلغي... فقط في ٢ تموز، حين كنا ننظم الدفاع بكتيبتين فقط، عرفنا أن الأمر بشن الهجوم قد أُلغي منذ زمن... خرجنا من الحصار على دفعات. بأمر من قائد الجبهة تراجعنا إلى منطقة بروسكوروف. أرسلنا بلاغاً إلى هيئة أركان الجبهة في جيتومير، لكن المدينة كانت محتلة للتو من قبل العدو...». يؤكد ريابيشيف أن نتيجة المعارك والمناورات التي لا نهاية لها كانت أنهم تمكنوا من سحب «ما لا يزيد عن ١٠٪ من الدبابات و ٢١٪ من السيارات إلى ضفة نهر الدنيبر اليسرى. فيما بعد تم حل الفيلق...»[١٥].

هذا ملخص لقصة الجنرال ريابيشيف المريرة، الذي لا يمكن إنكار شجاعته. لكن القيادة العسكرية العليا وقيادات الجبهات، خلال الأيام والأسابيع الأولى للحرب، كانت مصعوقة بالتطور المفاجىء للأحداث، وراحت بتوجيهاتها المتضاربة تزيد الفوضى في حركة الوحدات العسكرية: تنقلات لا نهاية لها وانعدام الترابط وفقدان السيطرة على

أعمال الوحدات والجهل بحقيقة الموقف، كل ذلك كان من شأنه فقط أن يعمق من تردي الوضع الصعب للجيوش. كان ثمن القضاء على القادة العسكريين في سنوات ما قبل الحرب باهظاً، ولم تكفِ الشجاعة الفائقة والصمود اللذين أبداهما الجنود السوفييت، الذين رووا بدماء سخية أراضي الوطن التي تركوها للعدو.

إن أخطاء ما قبل الحرب وسوء التدبير والخوف من الاستفزاز وضعف الجاهزية لدى العديد من القادة الجدد، كل ذلك جعل الجيش مخلخلاً ودفاعه رخواً تصعب إدارته، مما أفقد الجيش ثقته بالنفس. كانت الجرائد تكتب عن بطولات حرس الحدود ومآثر الطيارين ورجال الدبابات وعن أن الوطن ينهض لصد العدو... كل هذا صحيح. لكنه لا يمكن أن يخفي عن الشعب أن كارثة قد حصلت على الجبهة. وشعر ستالين أن البلد بأكمله ينظر نحوه هو، القائد الذي أكد مراراً (وإلى جانبه فوروشيلوف) للمواطنين السوفييت أن الجيش الأحمر قادر على قهر أي عدو. كانت الإرادة «الفولاذية» لستالين الفولاذي في تلك الأيام قد أصبحت رخوة ولا تستطيع أن تستقيم، لا بل، يخيل إليه أحياناً أن الوضع ميؤوس منه. حين عرض عليه فاتوتين الخريطة ومسار انسحاب الجيشين الثامن والحادي عشر على شكل خطين متباعدين، رأى ستالين حجم الفجوة الهائلة بين الجبهتين الغربية والشمالية ـ الغربية، التي تصل إلى ١٣٠ كيلومتراً. كانت القوى الأساسية للجبهة الغربية إما مدمرة أو محاصرة، بينما وقفت الجبهة الجنوبية ـ الغربية برباطة جأش أفضل نسبياً. كيف كان يسع ستالين أن لا يسمع نصائح الأخصائيين فيرفض فكرة أن الاتجاه الأرجح للضربة الرئيسة هو الجبهة الغربية؟ أي عمى بصيرة نزل عليه؟ لماذا لم يقنعه أحد؟ كان هتلر في كل حملاته الأوروبية يندفع نحو العواصم على أقصر المحاور، كي يجبر الخصم على الاستسلام السريع. لماذا لم يلفت العسكريون انتباهه إلى هذه الظاهرة في استراتيجيا الألمان؟ الآن لا بد من إعادة تجميع عملاقة للقوات، والوقت لا يرحم!

ستالين عصبي، يطالب، يستدعي، وأحياناً ينفرد وحيداً في القصر الريفي أو في المكتب ولا يظهر ساعات وساعات. كان تيموشنكو، وزير الدفاع، الذي أصبح رئيساً للقيادة العليا أيضاً، يشعر بحرج في هذا المنصب. فكل من حواليه يدركون أن الرئاسة الفعلية وكمال السلطة سيكونان لستالين، لكن الأخير يتصرف، على غير عادته، بشكل متقطع. ورأى الجميع ارتباكه وكآبته. وانتقلت عدوى حالته إلى الهيئة العامة للاركان، التي لم تتمكن خلال الأيام الأربعة الأولى من تقدير صحيح للموقف: فقط في ٢٥ ـ ٢٦ حزيران (يونيو) بدأ الحديث عن الدفاع وانشاء الخطوط الدفاعية وزج الاحتياطيات في المعركة. أحياناً كانت القيادة العليا ترسل إلى الجيوش توجيهات لا يمكن تقويمها إلا كحركات يائسة تنبع عن جهل بالوضع وطموح إلى احراز نجاح ولو جزئي في مكان ما. سأورد بعض وثائق القيادة العامة، وتحديداً بخصوص تدخلها في المسائل التكتيكية على الجبهات.

«إلى قائد الجبهة الغربيّة الرفيق بافلوف.

دبابات الخصم في منطقة راكوف واقفة بدون بنزين. القيادة العامة تأمر

بالحصار الفوري للدبابات وتدميرها. لأجل هذه الغاية توجيه فيلق الرماة الحادي والعشرين وكذلك وحدات من الفيلقين ٢ و ٤٤. القيام بمحاصرة وتدمير العدو فوراً. الإعداد للضربة بغارات الطيران.

٢٨/٦/١٩٤١»[١٦]

استخدام قوات ثلاثة فيالق لتنفيذ غرض تكتيكي؟ إذا أخذنا وضع الجبهة في تلك الأيام، سنرى أن هذا التوجيه، مثل كثير من الأوامر المماثلة، كان مستحيل تنفيذه. هنا وثيقة أخرى:

«إلى جيوش الجبهة الشمالية الغربية:

يأمر وزير الدفاع، وعلى مسؤوليتكم، طرد العدو من دفينسك قبل مساء هذا اليوم وتدمير الجسور وتنظيم الدفاع المتين لعدم السماح بعبور الخصم إلى الضفة الشمالية لنهر دفينا الغربية في منطقة دفينسك. لأجل تقوية الوحدات الهجومية استخدموا فوج الرماة القادم من الكتيبة ١١٢. إذا وصلت دبابات (ك. ف) استخدموا فصيلاً منها على الأقل لدعم الهجوم وقمع نقاط النار المعادية. قدموا تقريركم عن التنفيذ في التاسعة مساء من يوم ٢٨/٦»[١٧].

كما نرى، كانت القيادة العليا تحدد حتى استخدام الدبابات...

سافر ستالين ليلاً إلى القصر الريفي ودخل مكتبه هناك وتمدد على الأريكة دون أن يخلع ثيابه، لكن النوم لم يأتِه. نهض من جديد وخرج إلى الصالة ثم إلى غرفة الطعام. كان مصباح كهربائي فوق صورة لينين ينيرها، والجدران المغطاة بخشب البلوط قاتمة اللون تتناسب مع المزاج العكر لديه. بقي ستالين يتجول بين الغرف وينظر شزراً إلى أجهزة الهاتف (كان في القصر ثلاثة أجهزة هاتف «باروم» متوزعة على أماكن مختلفة). كما لو كان يخشى أنباء مريعة جديدة. فتح باب الغرفة الخاصة بمعاونه المناوب... كان الجنرال روميانتسيف جالساً، فنهض مرتبكاً من خلف الطاولة ونظر متسائلاً نحو ستالين. أحاطه «صاحب» القصر بنظرة لا ترى، ثم انصرف مغلقاً الباب خلفه.

وقف ستالين قرب الشق في ستائر النافذة متمعناً في الأشكال الليلية على مدى الحديقة، وتذكر، لسبب ما، فقرة من رسالة توخاتشيفسكي: «ستكون الحرب المقبلة حرب آليات. فتركيز جيوش المدرعات سيجعل ممكناً تكوين قبضات ضاربة يصعب جداً الصمود في وجهها...» كان رجلاً ذكياً، لكنه أزمع على القيام بانقلاب،... لو أن توخاتشيفسكي في مكان بافلوف لكان الوضع مختلفاً... لكن ما هذه الذكريات؟ طرد ستالين عن خاطره خيالات الماضي وحاول أن ينام، لكن النوم لم يكن يأتيه: الوضع القائم رهيب للغاية.

كان ستالين لا يزال فاقد السيطرة على نفسه. من الملفت للنظر ما يقوله ميكويان حول سلوك ستالين في الأيام الأخيرة من حزيران ١٩٤١. فهو يروي في مذكراته أن مولوتوف ومالينكوف وفوروشيلوف وبيريا وفوزنيسينسكي وهو،

ميكويان، قرروا أن يقترحوا على ستالين تشكيل لجنة الدفاع الحكومية التي يجب أن تتركز لديها كل السلطة في البلد وأن يترأسها ستالين: «قررنا أن نذهب إليه، فقد كان في القصر الريفي. الواقع أن مولوتوف قال لنا: ستالين الآن خائر القوى لدرجة أنه لا يهتم بشيء، فاقد المبادرة، ويعاني وضعاً سيئاً. احتد فوزنيسينسكي لهذا الكلام وقال: «سر في المقدمة يا فياتشسلاف (اسم مولوتوف ـ المترجم) ودعنا نَسِرْ خلفك». كان المقصود أنه إذا استمر ستالين على التصرف بنفس الطريقة، يجب على مولوتوف أن يقودنا وسنسير خلفه. كان لدينا ثقة بأننا قادرون على تنظيم الدفاع والقتال عن حق. لم تكن لدينا أية أمزجة انهزامية.

وصلنا إلى القصر حيث ستالين، فوجدناه في غرفة الطعام الصغرى جالساً على المقعد. نظر إلينا وسأل: «لماذا جئتم؟». كانت هيئته غريبة، الأكثر غرابة سؤاله: كان من المفروض عليه هو أن يدعونا للاجتماع.

تكلم مولوتوف باسم الجميع قائلاً أنه يجب تركيز السلطة ليصار إلى الحل السريع لكل المسائل ولكي يمكن أن ننهض البلد على قدميه بأسرع ما يمكن. على رأس هيئة من هذا النوع يجب أن يكون ستالين. نظر ستالين إلينا بدهشة ولم يعترض. بل قال: حسناً»(٢٨).

كل إنسان، بمعنى ما، يعيش في عالمين: عالم خارجي وعالم داخلي، مغلق ومليء بالألغاز. العالم الخارجي قابل للإدراك تماماً، أما العالم الداخلي، فبدرجة أقل. حين نتمكن من معرفة أشياء ما عن العالم الداخلي للإنسان، نجد صاحبه قابلاً للفهم. لم تكن الكارثة الزاحفة بالنسبة لستالين تعني نفس ما تعنيه بالنسبة لأي واحد من أبناء الوطن. فهي تعني موت الإله الأرضي الذي كان ستالين يظن أنه قد أصبحه... كان «الزعيم» يتهاوى من ارتفاع شاهق لم يرقَ إليه أحد. فالإنسان الذي آمن باستثنائيته الخاصة وببصيرته النبوية وبرسالته الاستثنائية كان يرى تحت قدميه هاوية لا قاع لها.

بعد أيام عدة من سقوط ستالين في هوة نفسية عميقة، كادت تسبب له شلل الإرادة، بدأ الرجل يعود إلى رشده. ربما فكر أنّ مجيء أعضاء المكتب السياسي إليه يعني وجود نوايا لإقالته من كل المناصب؟ أو وجود نوايا لاعتقاله؟ وكم كان ذلك مناسباً: إلقاء تبعات الفشل كلها على شخص واحد. لقد اقتنع ستالين منذ زمن أنه لا بد من «كبش فداء» في أي فشل، في أية هزيمة، ذلك لأن من الضروري أن يجد الناس مناسبة للتنفيس عن غضبهم وصب اللعنات على المذنب. لكن هيبة ستالين في أعين رفاقه كانت عالية لدرجة يستحيل معها، على ما يبدو، أن يخطر ببالهم خاطر كهذا. حتى في حالة «خوار القوى»، كما عبّر مولوتوف، كان ستالين يبدو عظيماً في أعينهم. فقط لو أنهم يقرأون بيرديايف! في تلك اللحظة كانوا سيتذكرون حتماً عباراته: «الإنسان يمكنه السقوط فقط من الأعالي، ومجرد سقوط الإنسان هو دليل عظمته»(١٩). تلك العظمة التي خلقوها لـ «الزعيم» بأيديهم، والآن يريدونه أن يبقى في نفس العلو السابق وأن يقودهم.

كانت القيادة العليا والهيئة العامة للأركان تحاولان إقامة خط دفاعي جديد على طريق الهجوم الألماني الذي هشّم الجبهة الغربية، فبدأتا بنقل الجيوش الـ ١٣ والـ ١٩ والـ ٢٠ والـ ٢١ والـ ٢٢ إلى هناك، بالإضافة إلى فلول الوحدات الخارجة من الحصار. كان ستالين، الفاقد لضبط النفس، ينتقل من حالة الشرود إلى حالة العصبية الحادة مراراً، حتى أنه مرّ على وزارة الدفاع مرتين خلال يوم ٢٩ حزيران، وراح يتهم القادة العسكريين مستخدماً عبارات لا يهتم لمدى لياقتها.

كان وجهه خامداً، رمادياً، وعيناه غائرتان، حمراوان بسبب السهر... أخيراً، أدرك «الزعيم» كل هول الخطر القاتل الذي خيم على البلد، وعليه هو أيضاً. إذا لم يتم اتخاذ خطوة ما غير عادية ولم يجرِ تعبئة كل القوى، فسوف يصل الألمان إلى موسكو بعد أسابيع. إن أولى الخطوات، التي تشهد على محاولات ستالين ضبط نفسه وضبط الموقف أيضاً، كانت عادية بالنسبة له: إقالة القادة العسكريين من مناصبهم. في ٣٠ حزيران صدر قرار اللجنة المركزية للحزب ورئاسة السوفييت الأعلى ومجلس الوزراء حول تشكيل لجنة الدفاع الحكومية برئاسة ستالين. وكانت سلطة رئيس اللجنة بلا حدود، فالخطر المميت الذي أحدق بالوطن يتطلب تركيز جهود الجميع وجهود كل فرد.

كانت خطوة ستالين الأولى في منصبه الجديد هي إقالة الجنرال بافلوف من منصب قائد الجبهة الغربية، حيث احتل مكانه وزير الدفاع تيموشنكو. في نفس النهار أصدر كوزنيتسوف، قائد الجبهة الشمالية الغربية، أوامره إلى الجيوش بالتراجع من خط نهر دفينا الغربية والتمركز في مناطق التحصينات قرب أوستروفسك وبسكوف وسيبيج. حين بلغ الأمر ستالين قرر فوراً إقالة الجنرال كوزنيتسوف من منصبه، وتلقى قائد الجبهة الجديد، الجنرال سوبينكوف أوامر ستالين: «العودة إلى الوضع السابق واحتلال الخط على طول نهر دفينا الغربية». استلمت الجيوش المتراجعة على نحو فوضوي الأوامر الجديدة ووجدت نفسها عاجزة عن التراجع وعن الهجوم أيضاً، فأحس الخصم بذلك الارتباك ووجه ضربة إلى نقطة التماس بين الجيشين الـ ٨ والـ ٢٧ واخترق الجبهة... لم تقوّ هذه الأنباء من ثقة ستالين بنفسه، وهو الذي يبحث عن توازن داخلي في روحه، وعن خط السلوك الصحيح الذي يؤدي إلى خلق الثقة بالنفس والتناسق والعقلانية في عمل الهيئات المشرفة على القيادة الاستراتيجية في تلك الأيام المأساوية.

من المعروف أن كلاوزفيتس تحدث عن الرابط بين الخطر والتجليات النفسية لدى القائد العسكري. ففي كتابه «عن الحرب» يقول المفكر الألماني هذا، إن عقل القائد العسكري يعمل في جو الخطر: «من صفات الطبيعة البشرية أن يصبح شعور الإنسان بالخطر المحدق به وبالآخرين عائقاً أمام صفاء عقله». لكن كلاوزفيتس أضاف يقول إن جو الخطر يؤدي إلى احتداد في تجلي العقل والإرادة لدى القائد العسكري الكبير: «الخطر والمسؤولية لا يزيدان لدى الإنسان العادي من حرية روحه ونشاطها، بل العكس يكبتانه. لذلك حين نجد أن تلك المعاناة تمنح للإنسان «جناحين» وتقوي قدرته على التفكير، فلا شك أننا أمام مثال على عظمة الروح»[٢٠].

اليوم، يمكننا القول إن «عظمة الروح» هذه لم تظهر لدى ستالين في أول أيام الحرب، حين كانت ضرورية جداً. فالوثائق الكثيرة الصادرة عن القيادة العليا في أواخر شهر حزيران ١٩٤١ لم تترك للتاريخ أية إجراءات جدية أو خطوات اتخذها ستالين لكي يسيطر على الوضع سيطرة حازمة. لقد جرفه تيار الأحداث المؤسية وراح مع التيار مثل الكثيرين، دون أن يستطيع العثور على نقطة الارتكاز والنهوض بكل قامته.

كانت هوة كاملة تفصل بين ستالين، الإله الأرضي المعصوم في زمن ما قبل الحرب، و «الزعيم» المرتبك، الذي أدرك الفشل الكامل لكل خططه وافتراضاته وحساباته الاستراتيجية، خلال أسبوع واحد فقط... إن تحمُّل هذا الأمر كان يزيد حتى عن طاقة شخص قوي الإرادة مثل ستالين. ربما كان يتوقع أن سخط المحيطين به والقيادة العسكرية والشعب سوف يتجه ضده، بوصفه المذنب الأساسي في الحسابات الخاطئة أثناء «اللعبة» الخاسرة مع هتلر وكذلك في إضعاف الجيش بعد قمع كوادره القيادية؟... لكن الشعب السوفييتي كان فوق تصفية الحسابات مع قادته في أيام الخطر المميت، وكانت عظيمة روح هذا الشعب لحد أنه لم ينزل إلى مستوى البحث ـ في اللحظة المأساوية ـ عن المذنبين. لقد قرر الشعب بحكمته أن يترك ذلك للتاريخ، وكما قال الفيلسوف لوسكي: «طيبة الشعب الروسي بكل شرائحه تتجلى ـ بالمناسبة ـ في أنه ليس حقوداً»[٢١].

كان أوج الصدمة النفسية لدى ستالين هو رد فعله على سقوط مدينة مينسك. فحين قرأ النشرة الصباحية لهيئة الأركان العامة، سافر إلى القصر الريفي وبقي نهاراً كاملاً لا يظهر في الكرملين. بعدئذٍ ذهب إليه مولوتوف وبيريا. لا توجد معطيات عن موضوع الحديث بين «الثالوث المقدس»، لكن الأكيد أن ستالين كان يجد صعوبة في إدراك هذا الواقع: بعد أسبوع واحد من الحرب عاصمة بيلوروسيا تحت أقدام المحتل. وهنا أريد اطلاع القارىء على واقعة لستُ واثقاً من صحتها، كما لا يمكن أن ننفي إمكانية حدوثها:

في النصف الثاني من السبعينات (١٩٧٦ أو ١٩٧٧) تم تعييني عضواً في مجموعة تفتيش عسكرية يترأسها المارشال موسكالينكو. أمضينا بضعة أيام في مدينة غوركي، وفي إحدى الأمسيات رحت أقدم للمارشال تقريراً حول مراقبة الوضع العام للتوجيه السياسي في الوحدات العسكرية التي زرناها. بعد ذلك تناولنا بالحديث عدة مرات ما كتبه المارشال في مذكراته ونظرته إلى بعض المسائل التاريخية. وسألته أثناء أحد الأحاديث عن مسألة ظلت تشغل بالي منذ زمن:

ـ لماذا لا تذكرون في كتابكم عن واقعة سبق لكم ذكرها في اجتماع حزبي قبل عشرين سنة؟ هل أنتم واثقون من تلك الواقعة؟

ـ أية واقعة هذه التي تتحدثون عنها: أجابني موسكالينكو بريبة وحذر.

واقعة اللقاء بين ستالين ومولوتوف وبيريا والسفير البلغاري إيفان سيميونوف في تموز (يوليو) ١٩٤١.

التزام موسكالينكو الصمت طويلاً وهو ينظر عبر النافذة، ثم قال:

لم يحن الوقت بعد للحديث عن أشياء كهذه... ثم من الصعب التأكد من صحتها بالكامل.

ـ وما رأيكم أنتم بصحة ما قاله بيريا؟

ـ لا يمكن لكل ما قاله أن يبرر موقفه حتى ولو جزئياً... ثم إنه كان من الصعب على بيريا، ضمن وضعه، أن يختلق أموراً ليست في صالحه كمذنب...

لكي يكون القارئ على بينة من الحديث، سأورد فقرة من إحدى الوثائق: في ٢ تموز (يوليو) ١٩٥٧ انعقد اجتماع للكوادر الحزبية في وزارة الدفاع لمناقشة رسالة اللجنة المركزية للحزب «حول الزمرة المعادية للحزب: مالينكوف وكاغانوفيتش ومولوتوف وآخرين». قدم التقرير في الاجتماع جوكوف وقُدِّمت مداخلات من جانب القادة العسكريين الكبار: كونيف ومالينوفسكي وكوزنيتسوف ونيديليي وباغراميان وفيرشينين وغوليكوف وميريتسكوف وجيلتوف وآخرون. حين جاء دور موسكالينكو في الكلام، قال ـ ضمن أشياء أخرى ـ ما يلي: «في حينه كنا أنا والقاضي العام الرفيق رودنكو ندرس قضية بيريا، فرأينا فيها اعترافات... حول أن ستالين وبيريا ومولوتوف في عام ١٩٤١ قد ناقشوا، في مكتب ستالين، مسألة استسلام الاتحاد السوفييتي أمام ألمانيا الهتلرية. كانوا يحاولون الاتفاق على ترك منطقة البلطيق ومولدافيا وجزء من أراضي الجمهوريات الأخرى لألمانيا، كما جربوا الاتصال بهتلر عبر السفير البلغاري. حتى القياصرة الروس لم يتجرأوا على أشياء من هذا القبيل! ومن الطريف أن السفير البلغاري بموقفه كان فوق مستوى هؤلاء القادة، حين أعلن لهم أن هتلر لن يستطيع قط هزيمة الروس، وبإمكان ستالين ألا يقلق لهذا الأمر»[٢٢].

... في البداية كان موسكالينكو يتمنع في حديثه الشخصي معي، لكنه انطلق فيما بعد وروى ما يذكره من اعترافات بيريا: بقي ستالين صامتاً طوال اللقاء مع السفير البلغاري وكان مولوتوف فقط يتكلم طالباً إليه الاتصال ببرلين. وتفيد اعترافات بيريا أن مولوتوف سمى اقتراحه إلى هتلر بوقف العمليات العسكرية وتقديم تنازلات كبيرة عن الأراضي (البلطيق ـ مولدافيا ـ جزء من أوكرانيا وبيلوروسيا) بأنه قد يكون «صلح بريست الثاني». لقد وجد لينين في نفسه شجاعة الذهاب إلى صلح كهذا، ونحن ننوي القيام بخطوة مماثلة الآن. رفض السفير أن يكون وسيطاً في قضية غير مشرفة كهذه وقال: «إذا تراجعتم ولو حتى الأورال، فأنتم ستنتصرون رغم ذلك، حتماً». وبالمناسبة، فإن السفير البلغاري إيفان سيميونوف ـ حسب معلوماتي ـ كان عميلاً سرياً سوفييتياً... ثم قال موسكالينكو:

ـ من الصعب أن نقول ونجزم أن الأمور جرت على هذا النحو تماماً، لكن الواضح هو أن ستالين في تلك الأيام، عند أواخر حزيران وأوائل تموز، كان في حالة يأس عميق، يتلوى، لا يعرف ماذا يجب أن يفعل. من المستبعد أن يكون بيريا قد اخترع كل هذا الأمر، سيما أن السفير البلغاري إياه قد أكد لنا الواقعة في حديث معه قبل فترة...

هناك أسرار وهناك شعوذة. وقد أوردتُ أعلاه شهادتين: شفهية ووثائقية، موجودة في الأرشيف. هل هذا أحد أسرار التاريخ أم إنها شعوذة؟ لست قادراً على الإجابة عن هذا السؤال، لكن شيئاً واحداً لا يدعو إلى الشك: لم يكن ستالين، «المسحوق» في أيام الوقائع الرهيبة خلال أول أسبوعين من الحرب، يبدي شيئاً من «عظمة الروح» التي بقي المؤرخون والكتّاب يتحدثون عنها طويلاً وبإصرار بعد النصر عام ١٩٤٥. إن القادة والزعماء والقادة العسكريين الحقيقيين يتكشفون، عادة، عن «عظمة الروح» بالذات في لحظات الخطر الشديد، في الأوضاع القصوى واللحظات التاريخية الحرجة. من الأسهل أن يكون الرجل بطلاً وعبقرياً ومعبوداً في الظروف **الاعتيادية**». يلاحظ تارليه قائلاً: «لكن القضية تكمن في أن كوتوزوف كان يحتل موقعه اللائق في **الحالات غير الاعتيادية**. ففي ليلة الهجوم على مرفأ إسماعيل وجد سوفوروف أن كوتوزوف في المكان الذي يجب أن يكون فيه. وكذلك وجده الشعب الروسي في موقعه اللائق حين نشأت حالة غير اعتيادية عام ١٨١٢»[٢٣].

كان الشعب السوفييتي ينتظر كلمة من ستالين وكان الناس يؤمنون به كما من ذي قبل ويعقدون عليه الآمال. ربما هذا هو العامل الذي ساعد ستالين على التخلص من الصدمة النفسية: قرر رئيس لجنة الدفاع الحكومية التوجه عبر الإذاعة بنداء إلى البلد فقط في ٣ تموز ١٩٤١. ولنلاحظ هنا أن في هذا اليوم بالذات سيكتب الجنرال الألماني هالدر في مذكراته ما يلي: «ليس مبالغة أن أقول أن الحملة ضد روسيا قد كسبناها خلال ١٤ يوماً». لقد استعجل السيد الألماني ـ كانت الحرب في بدايتها، وكان الكثيرون قد بدأوا يدركون أنها ستكون صعبة وطويلة... عمد ستالين إلى إعادة الصياغات في خطابه عدة مرات. كان أصعب الأشياء عليه هو إيجاد كلمات وحجج تساعده على أن يشرح للشعب ما جرى: الهزائم والاجتياح والفشل الذريع للاتفاقات السوفييتية ـ الألمانية. على هوامش المسودة ترك ستالين ملاحظات بقلم الرصاص: «لماذا؟»... «دحر العدو حتمي»... «ماذا نفعل؟». كان الأمر يبدو وكأن الشخص الأول في الدولة كان يستعد لإلقاء خطاب برنامجي. في هذا الخطاب صاغ ستالين الأحكام الأساسية لما ورد فيما بعد ضمن نص القرار الذي صدر عن اللجنة المركزية للحزب ومجلس وزراء الاتحاد السوفييتي، مؤرخاً في ٢٩ حزيران.

في خطابه أسهب ستالين وهو يشرح ـ لا بل يبرر ـ لماذا احتلت القوات الألمانية لتوانيا ولاتفيا وجزءاً من أوكرانيا وبيلوروسيا واستونيا. في آخر الحساب كان كل شيء قد حُشِر في جملة واحدة: «تكمن المسألة في أن جيوش ألمانيا كبلدٍ محارب كانت معبأة تعبئة كاملة وكانت الكتائب الـ ١٧٠ (التي زُجَّت من قبل ألمانيا ضد الاتحاد السوفييتي ودُفِعت نحو الحدود السوفييتية) في حالة التأهب القتالي الكامل وبانتظار شارة الهجوم، في حين أن الجيوش السوفييتية كانت تحتاج إلى التعبئة وإلى وقت للتقدم نحو الحدود». وراح ستالين يقول كلاماً كاذباً سلفاً حول تدمير أفضل وحدات العدو ويدجّل مفسراً السبب الأساسي للهزائم بعامل المباغتة في الهجوم الألماني... طبعاً، حين راح ستالين يتحدث عن الاتفاق السوفييتي الألماني، لم يذكر ولو بكلمة معاهدة «الصداقة» المخزية والحسابات الخاطئة القاتلة التي تم

اعتمادها من قبله هو بالدرجة الأولى. لكن صوته ازداد ثقة بالنفس حين راح يقرأ الفقرة التي تقول أن علينا «إعادة تنظيم كل عملنا على منوال حربي»، وحين سمى، لأول مرة، الحرب «حرباً وطنية»، داعياً إلى «تشكيل فصائل الأنصار» و «تنظيم النضال بلا هوادة ضد من يزرعون الفوضى والذعر وضد الفارين من الجبهة»، وحين عبر، أول مرة، علناً عن أمله في توحيد الجهود بين شعوب أوروبا قاطبة وأمريكا في النضال ضد جيوش هتلر الفاشية. وأعلن رئيس لجنة الدفاع الحكومية في نهاية خطابه: «لجنة الدفاع الحكومية بدأت عملها وتناشد كل الشعب أن يلتف حول حزب لينين ـ ستالين»(٢٤).

هكذا، أصبح ستالين يستخدم **بنفسه** عبارة «حزب لينين ـ ستالين» وكان الشعب يتقبل ذلك كأمر طبيعي تماماً. ففي ظروف الإيمان العظيم بستالين، لعب خطابه ذاك دوراً تعبوياً كبيراً، حيث قدّم أجوبة بسيطة عن الأسئلة التي كانت تشغل بال الشعب. القليلون فقط كانوا آنذاك ينظرون إلى العمق ويفهمون أن البداية المفجعة للحرب هي نتيجة السلطة الفردية لستالين، وأن التضحيات التي لا حصر لها هي ثمرة الحسابات الخاطئة لهذا «المعصوم عن الخطأ». كان المذنب الأساسي في الكارثة هو النظام الذي كان يقف على ذروته «الزعيم». إنه لتناقض عظيم: ارتكب ستالين الكثير من الأخطاء والجرائم الشنيعة، لكن النظام الذي أسسه عمل على انعكاس تلك الأخطاء والجرائم في وعي الناس على نحو خيالي وتحوّلها في نظرهم إلى خطوات رسولية يتخذها «المخلّص». رغم كل شيء، كان ستالين ما زال يجسد آمال الشعب؛ فالإيمان الأعمى بالزعيم كان مستمراً.

يبقى للأجيال القادمة فقط إبداء الدهشة حيال عظمة الروح التي أبداها الشعب السوفييتي حين وجد في نفسه من القوى ما يكفي ـ بعد كارثة الأسابيع الأولى من الحرب ـ لأن يصمد وينتصر... لكن ببذل تضحيات بلغت ملايين الأرواح. لقد كانت «عظمة» ستالين قائمة دائماً على التضحيات،... الكثيرة،... التي لا حصر لها.

زمن قاسٍ

في تموز (يوليو) وآب (أغسطس)، ركز ستالين بين يديه كامل السلطة الحكومية والحزبية والعسكرية في البلد. في ٨ آب (أغسطس) أصبح اسم القيادة العليا هو «القيادة العليا العامة» وترأسها ستالين، الذي بقي حتى نهاية الحرب في منصب القائد الأعلى العام. ابتداءً من ٣٠ حزيران (يونيو) كان ستالين قد ترأس لجنة الدفاع الحكومية، ثم أصبح وزيراً للدفاع في ١٩ تموز (يوليو). في بداية تموز راحت حالة الصدمة تفارقه بالتدريج، مع أنه، حتى قبل ذلك، كان يسلك سلوكاً لا يسمح إلا للبعض بملاحظة ارتباكه وكآبته. كانت قوة الإرادة تأتيه مع تنشط دخوله في مختلف المجالات الخاصة بحياة الدولة التي بدأت تخوض حرباً قاتلة.

أثناء السعي إلى رسم صورة ستالين، ولا سيما رسم ملامحه كقائد عسكري، سأحاول لاحقاً النظر في هذه أو تلك من أحداث الحرب الوطنية الكبرى أو مجرد ذكر تلك الحوادث. ما أريده هنا هو مجرد تنبيه القارىء إلى أنني لم أضع لنفسي هدف

الإحاطة بالحرب كلها، بجميع العمليات والمعارك. في بعض المرات لن أتقيد بالتسلسل الزمني الصارم، لأن غايتي الرئيسية هي فقط تجسيم صورة ستالين بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة.

في الفترة الأولى من الحرب، كان ستالين يعمل من ١٦ إلى ١٨ ساعة يومياً، فاصابه الوهن وأصبح أكثر قساوة وأقل تسامحاً، لا بل حاقداً في أغلب الأحيان. كان القادة يعرضون عليه يومياً عشرات الوثائق العسكرية والسياسية والإيديولوجية والاقتصادية، التي تتحول بعد توقيعه عليها إلى أوامر وتوجيهات. يجب القول إن تركيز السلطة السياسية والحكومية والعسكرية كاملاً في شخصه وحده، كان له جوانب إيجابية وأخرى سلبية. فمن جهة، كان تمركز السلطة، ضمن تلك الظروف الاستثنائية، يسمح بصب جهود الدولة كاملاً على حل المسائل الرئيسة. من جهة أخرى، كانت سلطة ستالين المطلقة تضعف الاستقلالية والمبادرة والإبداع لدى المسؤولين على كافة الأصعدة: كان يستحيل اتخاذ أي قرار كبير أو إجراء أي خطوة دون موافقة الشخص الأول.

في القيادة العليا، إلى جانب ستالين، كان يعمل فعلياً شخصان أو ثلاثة فقط. بين أعضاء المكتب السياسي كان الذين لعبوا أدواراً متميزة فعلياً في سنوات الحرب هم فوزنيسينسكي وجدانوف وخروتشوف. إن فوزنيسينسكي ـ الذي لم يتم بعد تقدير دوره في الحرب حق قدره ـ كان مشغولاً بالشؤون الاقتصادية للبلد، في حين أن عضوي المجالس العسكرية في مختلف الجبهات، جدانوف وخروتشوف، كانا منفذين نشيطين لإرادة ستالين. أما فيما يخص فوروشيلوف، فإنه ـ بعد فشل الترتيبات الدفاعية ـ فقدَ ثقة ستالين على صعيد العمل. كان كالينين يضفي الصفة الرسمية على قرارات «الزعيم» ويشارك في النشاط الدعائي. أما ميكويان وكاغانوفيتش، فيشتغلان كثيراً بشؤون المواصلات والإنتاج والتموين، دون أن يجري اجتذابهما إلى عمل المجالس العسكرية للجبهات، إذا ما استثنينا زيارة كاغانوفيتش القصيرة إلى القطاعات الجنوبية في الجبهة. كان مالينكوف، عملياً، الرجل الذي ينفذ توجيهات ستالين ضمن جهاز اللجنة المركزية. فقد سافر بضع مرات، بتوكيل من «الأعلى» (أي «القائد الأعلى»، ستالين ـ المترجم)، إلى الجبهة، وتحديداً إلى ستالينغراد، لكنه لم يترك أي بصمات نظراً لعدم إلمامه بالشؤون العسكرية. أما مولوتوف، فبقي، منذ ١٩٤١/٦/٣٠ حتى نهاية الحرب، نائباً لرئيس لجنة الدفاع الحكومية يحل المسائل الدولية بشكل أساسي... بينما ظلت صلاحيات بيريا هي «التطهير» في المؤخرة وإدارة معسكرات الأسرى الألمان والعسكريين السوفييت الذين وقعوا في الأسر أو الحصار، بالإضافة إلى إدارة الصناعة الجارية داخل السجون لدعم الجبهة. وكان بيريا قد سافر مرتين إلى جبهة شمال القفقاز بتوجيه من ستالين. أشرف أندرييف على الانتاج الزراعي وتزويد الجبهة بالأغذية. ضمن ظروف السلطة القروية المطلقة، أزاحت شخصية ستالين كل اللجنة المركزية للحزب عملياً، بينما أصبح دور الخلايا الحزبية القاعدية، في الجبهة وفي المؤخرة، كبيراً جداً. لم تجتمع اللجنة المركزية في سنوات الحرب، تقريباً، مع إنه تم استدعاء أعضائها إلى موسكو في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤١. ظلوا ينتظرون افتتاح الاجتماع يومين، لكن ستالين

ومالينكوف لم يكن لديهما وقت، فلم ينعقد الاجتماع. انعقد اجتماع واحد في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤. لم يكن ستالين يعير اهتماماً للفصل بين وظائف الهيئات القيادية العليا، الحزبية والحكومية والعسكرية، بل إن ذلك لم يكن له معنى: في كل الأحوال كان هو الذي يترأس كل تلك الهيئات. فهو أمين اللجنة المركزية ورئيس مجلس الوزراء والقائد الأعلى ورئيس لجنة الدفاع الحكومية ورئيس القيادة العامة ووزير الدفاع، وكانت تواقيعه على الوثائق تختلف: باسم اللجنة المركزية أو القيادة العامة أو لجنة الدفاع الحكومية أو وزارة الدفاع.

بالكاد يمكن التشكيك بضرورة تركيز السلطة الحكومية والسياسية والعسكرية في زمن الحرب؛ لكن يجب القول بالتأكيد أن تركيز السلطة يجب أن يقف عند حدود معينة، خصوصاً في مجال السياسة، كي لا يتحول القادة الآخرون إلى مجرد شخصيات ديكورية تومي بالموافقة على قرارات «الأعلى». لقد حصر ستالين كل دوائر السلطة بين يديه، ولذا نقول: مهما كان موقفنا منه اليوم، لا يمكن عدم الاعتراف بحجم العمل الذي أخذه على عاتقه، وهو حجم يفوق حدود الطاقة البشرية من حيث الكمية والمسؤولية. وإذا كان أعضاء المكتب السياسي قد أخذوا على عاتقهم المسائل الاقتصادية والسياسية والدبلوماسية، فإن حل المسائل العسكرية والسياسية ـ العسكرية كان من حصته هو، بوصفه القائد الأعلى، مما أدى ـ بالمناسبة ـ إلى الكثير من الحسابات الخاطئة. لحسن الحظ، كان قد برز ضمن قوام الهيئة العامة للأركان والقيادة العسكرية العليا، على وجه السرعة، كوكبة كاملة من العسكريين اللامعين. لكن لا يجوز أن لا نذكر، مرة أخرى، أن الشروخ الكبيرة في شريحة الكوادر العسكرية والتي كان سببها ستالين في عشية الحرب، بقيت ترسل أصداءها زمناً طويلاً، خصوصاً على مستوى الجيوش والفيالق والكتائب.

كان صيف عام ١٩٤١ شديد القساوة، لقد بقيت كتبنا ومناهجنا الدراسية خلال سنوات طويلة تكتب عن تلك الفترة بوصفها «فشلاً ذريعاً» لـ «الحرب الخاطفة» و «فشلا للخطة الهتلرية»، فترة «التراجع المنتظم» و «الإخفاقات المؤقتة لقواتنا»، إلخ. لكن لا يجوز «تلميع» التاريخ، الذي يتميز بخصوصية جذرية: إنه يعترف فقط بالحقيقة التي تحتلّ مكانها ـ عاجلاً أم آجلاً ـ في سجلات هذا التاريخ، مع أن الحقيقة هذه لا تجد مكانها المذكور في أحوال كثيرة. فخلال فترة طويلة كان يصعب أن تجد في المؤلفات التاريخية كلمات «هزيمة»، «كارثة»، «حصار»، «ذعر»، أثناء الحديث عن وضع قواتنا المسلحة في الحرب. لكن كل ذلك كان: الهزائم الكبرى المفجعة على عدد من الجبهات سبقت الانتصارات التي جاءت فيما بعد مجبولة بمعاناة وأماني الناس ودمائهم السخية.

حين ترأس ستالين القوات المسلحة، راح يسعى جاهداً لأن يفهم: ما الذي يجري على الجبهات؟ أين يمر خط الجبهة اليوم؟ ما الذي ينتظرنا غداً؟ أين سنتمكن من إيقاف الجيوش الألمانية؟ كيف نعوض بأسرع ما يمكن الخسائر في الأرواح والآليات؟ كان ستالين يستمع طويلاً إلى جوكوف وفاتوتين وفاسيليفسكي وغيرهم من قادة الأركان، ويقف صامتاً عند الخريطة المفروشة على الطاولة الكبيرة. إنه قائد «مكتبي»

تماماً، يصعب عليه أن ينظر إلى الخريطة ويقرأ البلاغات، ثم يتصور ويسمع ويجس النبض المحموم لجيشه الذي ينزف دماً أو هدير الطلقات والقذائف أثناء المعارك أو قعقعة جنازير الدبابات الألمانية أو ضجيج الحرائق في المدن السوفييتية أو صرخات المقاتلين قبل الموت... وراح شبح الحرب الأهلية بسيوفها وخيولها يتراجع إلى غياهب الماضي.

قبل معركة ستالينغراد، كان العديد من قرارات ستالين اندفاعياً وسطحياً ومتناقضاً لا ينم عن إلمام، مع أنه حدث به، حتى بعد تلك المعركة، أن خلق «حزورات» صعبة أمام المحيطين به وقادة أركان الجيش. ها هي وثيقة لا تحمل اسماً ولا معنى لها؛ على الأرجح، صدرت عام ١٩٤٢. يبدو أن ستالين، أثناء إصدار الأوامر والتعبير عن أفكاره بصوت مسموع، صاغ هذه الوثيقة التي يصعب فهمها حتى على الإنسان المطلع:

١ ـ الجيش ٤٠ ـ سبع كتائب رماة + فيلقان للدبابات.
٢ ـ كاتوكوف ـ في ظهر الجيش ٤٨.
٣ ـ ميشولين يبقى في مكانه.
٤ ـ موستوفنكو ـ إلى منطقة الجيش ٦١.
٥ ـ ليزيوكوف ـ إلى منطقة الغرب من يليتس.
٦ ـ المهمة الرئيسة ـ في الشمال.
٧ ـ الجيش ٤٠ أيضاً يهجم.

كتب الوثيقة الرفيق ستالين شخصياً
توقيع: الجنرال تيموشنكو [٢٥]

أحياناً، كان ستالين، بعد الاستماع إلى تقارير عن هزائم جديدة أو تراجع جديد، يملي أوامر «تأديبية» وليست قتالية، حتى عندما كان يوقعها جوكوف أو فاسيليفسكي أو شابوشنيكوف أو فاتوتين، لا يمكن للمرء أن يحدد مؤلفها. في ١٠ تموز (يوليو)، مثلاً، حين اتضح أن جيوش الجبهة الشمالية الغربية لم تصمد على التخوم المحددة، وأن بلاغات أركان الجبهة تذكر عمليات تقوم بها في المؤخرة مجموعات تخريبية، كان رد فعل ستالين كالتالي:

«القيادة العليا العامة ولجنة الدفاع الحكومية غير راضيتين على الإطلاق عن عمل القيادة وهيئة الأركان في الجبهة الشمالية الغربية. أولاً: لم تجرِ حتى الآن معاقبة الضباط الذين لم ينفذوا أوامركم، بل راحوا كالخونة يتركون مواقعهم ويتراجعون عن الخطوط الدفاعية بلا أوامر. في ظل هذا الموقف المتساهل تجاه الجبناء، لن تتمكنوا من الدفاع عن شيء.

فصائل الإبادة عندكم لا تزال دون عمل ولم تظهر ثمار نشاطها، ونتيجة لتقاعس قادة الكتائب والفيالق والجيوش ومجمل الجبهة، تضطر قواتكم إلى الإمعان في التراجع نحو الخلف. آن الأوان لإيقاف هذا الوضع المخزي... يجب على قائد الجبهة وعضو المجلس العسكري والقاضي ورئيس المكتب الثالث أن ينطلقوا فوراً إلى الوحدات ويقتصوا مباشرة من الجبناء والخونة...»[٢٦].

قبل الحرب لم يجر إعداد مكان خاص ليكون مقراً لعمل القيادة العليا، بوصفها أعلى قيادة استراتيجية للجيوش: لا في الكرملين ولا في قصري ستالين الريفيين. لم يكن هناك مقر محمي من الغارات الجوية، رغم أن تيموشنكو وجوكوف أصرا في حينها على ذلك. لذلك، كان ستالين في الأشهر الأولى للحرب يتواجد في بناية تقع على شارع كيروف إلى جانب المبنى الذي توجد فيه بعض إدارات الهيئة العامة للأركان: كانت محطة مترو «كيروفسكايا» التي فُصلت عن شبكة المواصلات، ملجأ جيداً، حيث توجد دائماً خرائط العمليات العسكرية والتطورات على الجبهة، كما في مكتب ستالين بالكرملين. في وقت لاحق، خلال شتاء ١٩٤١، تم إعداد ملجأ في القصر الريفي القريب وتجهيز محطة اتصالات تسمح بالكلام مباشرة مع الجبهات.

كان ستالين ينظر إلى خريطة العمليات التي رُسمت في هيئة الأركان العامة ويرى ثلاثة اتجاهات أساسية يمكن للخصم أن يطور فيها هجوماً سريعاً: في الشمال الغربي نحو لينينغراد، وفي الغرب نحو موسكو، وفي الجنوب الغربي نحو كييف.
ربما كانت تلك هي اللحظة التي اتخذ فيها ستالين أول قرار استراتيجي كبير في تلك الحرب، حيث اقترح تشكيل ثلاث قيادات عامة، على كل من المحاور المذكورة. وافقت الهيئة العامة للأركان، طبعاً، وتم في ١٠ تموز (يوليو) تشكيل القيادة العامة الشمالية الغربية برئاسة فوروشيلوف وعضو المجلس العسكري جدانوف، والقيادة العامة الغربية برئاسة تيموشنكو وعضو المجلس العسكري بولغانين، والقيادة العامة الجنوبية برئاسة بوديوني وعضو المجلس العسكري. قد يجوز أن القرار كان صائباً من حيث المبدأ، لكن هذه الهيئات لم تتمكن من إثبات ذاتها. وكان السبب الرئيسي، مرة أخرى، يكمن في ستالين نفسه. فهو حين شكل هيئات من هذا النوع لأجل الإدارة الاستراتيجية لم يمنحها الحقوق اللازمة والتجهيز التقني البسيط، وسرعان ما أصبحت تلك الهيئات موضوعاً لتعنيفات ستالين واتهاماته بـ«الخمول وانعدام الإرادة».

من موقع اليوم الحاضر نرى أن أحد أسباب الهزائم الكبيرة والإخفاقات المفجعة (إضافة إلى الأسباب التي ذكرناها في الفصل السابق) كان شكل بناء الجيوش. فليس سراً أن الحزام الاستراتيجي الأول كان يتكون، بشل أساسي، من تشكيلات هجومية اضطرت فوراً أن تمارس **الدفاع**. فقط في ٢٧ ـ ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٤١، بدأت الجبهات تستلم فعلياً مهمة الانتقال إلى الدفاع الاستراتيجي.

نتيجة لذلك، حصل خطأ كبير عشية الحرب في تحديد الاتجاه المقبل للضربة الأساسية لجيش فيرماخت، وسرعان ما تطلب الأمر إجراء عملية استراتيجية واسعة لإعادة تجميع التشكيلات. ويقع على ستالين الذنب الأساسي في أن قسماً بالغاً من جيوشنا كان في بداية الحرب لا يقاتل، بل **يتنقل**، مما منح العدو إمكانية ضرب التشكيلات العسكرية بالتقسيط، واضطر ستالين أن يسحب معظم التشكيلات الاحتياطية نحو المحور الغربي. هكذا، تطلب الخطأ الاستراتيجي في زمن ما قبل الحرب دفع ثمن دموي باهظ.

... كان ستالين يتمشى على مهل، جيئة وذهاباً، بمحاذاة الطاولة الكبيرة التي

ارتمت عليها خريطة العمليات: الساعة الثالثة ليلاً. وهو ينتظر قادة الهيئة العامة للأركان الذين سيقدمون له تقريراً حول الوضع الناشىء على الجبهات. لم تكن الجبهة الشمالية تقلقه، فالعمليات العسكرية هناك تنشطت فقط في أواخر حزيران (يونيو)، لكن الوضع كان أسوأ على الجبهة الشمالية الغربية: خلال ما يزيد عن أسبوعين تراجعت القوات السوفييتية هناك مسافة ٤٥٠ كم، تاركة منطقة البلطيق، دون أن تستفيد من تخوم دفاعية غربية ملائمة مثل نهر نيمان ونهر دفينا. القائد الجديد سوبينيكوف لم يجسد آمال «الزعيم»، ولم يمضِ شهر ونصف على تعيينه حتى أقاله ستالين.

كان الوضع على الجبهة الغربية يثير قلقاً خاصاً، وستالين ينعم النظر في خط الجبهة العجيب، الذي تراجع عن خط الحدود حتى ١٠ تموز (يوليو) مسافة ٤٥٠ ـ ٥٠٠ كم... كانت مرارة الإهانة والحنق الصامت تحرق حنجرة رئيس لجنة الدفاع الحكومية: الجبهة التي كانت تقاتل عليها ٤٤ كتيبة لم تتمكن حتى من إيقاف هجوم العدو... كيف خذله الجنرال بافلوف: يجب على الفور الإسراع في التحقيق وفي محاكمة قادة الجبهة الغربية. كان ستالين يفكر بالخريطة، لكنه لا يدري أن نصف تلك الكتائب في الجبهة الغربية لم يكن في حالة الجاهزية القتالية عند بدء الحرب: ١٢ كتيبة كانت قد بدأت العمل التعبوي للتو، في حين أن فيلقين كاملين كانا لا يملكان دبابات بالمرة.

حين كان ستالين عشية الحرب يولّع بحساب عدد الكتائب والوحدات العسكرية الأخرى، كان يفوته الجانب النوعي في المسألة: كمال التجهيز التقني للجيوش وتناغمها الداخلي وحسن تدريب الجنود. قبل بداية الحرب كان يطالب دوماً بتشكيل وحدات جديدة، رغم أن عددها كان قد تجاوز الـ ٢٠٠ وحالتها النوعية أسوأ بكثير من قريناتها في جيش فيرماخت.

على الخريطة كان سهمان أزرقان عريضان يلتقيان شرق مدينة مينسك في ٢٩ حزيران (يونيو)، وذلك يعني أن القوات الأساسية للجبهة الغربية قد حوصرت. واليوم تصل إلى ستالين تقارير أن القوات لا تزال تخرج من الحصار على انفراد... مع أن الجيوش الثالث والرابع والعاشر في الجبهة الغربية كانت تعتبر جيوشاً مقاتلة ومتميزة. هنا انتبه ستالين في قرارة نفسه إلى ضرورة التوقيع على الورقة التي أرسلها اليوم بيريا حول تشكيل ١٥ معسكراً خاصاً للتأكد من ولاء الجنود الخارجين من الحصار...

احتفظت ذاكرة ستالين القوية بالأرقام الواردة في التقرير الصباحي لأحد الأيام الأولى من تموز (يوليو): من بين ٤٤ كتيبة على الجبهة الغربية أبيدت تماماً ٢٤ كتيبة، بينما فقدت الـ ٢٠ كتيبة الأخرى ما بين ٣٠ و ٩٠٪ من القوى والوسائل[٢٧]. ولا يلزمنا هنا تزويق الكلام: كان ذلك هزيمة للجبهة الأساسية جرّت خلفها هزائم الجبهات الأخرى. ورأى ستالين أن تيموشنكو وجوكوف على حق حين يقترحان تكوين خط دفاعي جديد على طول نهري دنيبر ودفينا الغربي، يتكون من الجيوش الـ ١٣ والـ ١٩ والـ ٢٠ والـ ٢٢ التي كانت تدخل ضمن الجبهة الغربية. لا يجوز أن



ستالين قائد مكتبي: كان ستالين يحب فرش الخرائط العسكرية على الطاولة الكبيرة في مكتبه لمتابعة سير المعارك. ويرى من حوله كبار القادة والمسؤولين.

تنكر: في غمرة اليوميات المأساوية للحرب، بدأ ستالين يمسك بمبادىء الاستراتيجيا، لكنه لن يعترف قط أنه كان هنالك من ساعده على إدراك أسرار الاستراتيجيا وآلية اتخاذ القرار العسكري والخطط الحربية. جوكوف وشابوشنيكوف وفاسيليفسكي وأنطونوف وفاتوتين وغيرهم من كبار القادة العسكريين. لا بل سيأتي زمن يصبح فيه طبيعياً تصديق المزاعم القائلة أن ستالين قدم جديداً في العلم العسكري. مثلاً: فكرة الهجوم المدفعي، الطرق الجديدة في الحصار، طرق كسب السيطرة في الجو، الدفاع المرن المبني من عدة أحزمة، إلخ. لا بل إن ستالين ذاته سيصدق أنه صاحب عبقرية عسكرية. وسيمر وقت قصير فينسى الرجل هزيمته، هزيمة الاستراتيجيا السياسية والعسكرية في أسابيع الحرب الأولى. أما الآن، فيوميات الحرب القاسية تجري وكل شيء عالق على شعرة. واضح أن الألمان بعد احتلال مينسك يوجهون أنظارهم نحو سمولينسك وموسكو، ولا بد أن ستالين المنكب على قراءة الخريطة فكر بمرارة أن الألمان لم يضربوا الضربة الأساسية على الجبهة الجنوبية الغربية، كما كان يفترض هو. لقد توزعت هناك ٥٨ كتيبة، منها ١٦ دبابات و ٨ كتائب آلية. لكن حتى هنا، بقيت القوى الأساسية للجبهة على هامش الضربة الأساسية للجيش ولم تتمكن من صد الهجوم لأن ذلك كان مستحيلاً: لقد أسفر توزيع الوحدات، بطريقة غير موفقة، على المحور الجنوبي الغربي عن تمكن القبضة الضاربة الألمانية في الاندفاع نحو الفاصل بين مدينتي لوتسك ودوبنو. في ٣٠ حزيران (يونيو) سمحت القيادة العامة بسحب القوات من تلك الجبهة إلى خطوط التحصينات القديمة، مما يعني التراجع إلى ٣٠٠ ـ ٣٥٠ كم. كان ستالين يرى أنه حتى هذه الجبهة لم تصد الهجوم المعادي، بل أبطأته فقط. على الجبهة الجنوبية ليس الوضع أفضل بكثير.

كانت الخسائر فادحة: حوالى ٣٠ كتيبة تلاشت عملياً، وحوالى ٧٠ كتيبة فقدت أكثر من نصف تعدادها العام وحوالى ٣٥٠٠ طائرة مدمرة، إضافة إلى إتلاف ما يزيد عن نصف مستودعات المحروقات والذخائر،... وكل ذلك خلال ثلاثة أسابيع من الحرب! طبعاً، دفع الألمان ثمناً باهظاً لقاء هذا النجاح. فخلال تلك الأسابيع الثلاثة، وبفضل بطولة الجنود السوفييت والضباط والموجهين السياسيين، تم إبادة ما يقارب ١٥٠ ألفاً من جنود وضباط فيرماخت وتدمير ما يزيد عن ٩٥٠ طائرة وبضع مئات من الدبابات. لكن، كما سيتبين بعد سنوات طوال، كانت المعطيات التي تصل إلى المركز تقلل من خسائرنا وتضخم خسائر العدو. ها هو تقرير قُدم إلى ستالين بعد أسبوعين من القتال، نورده كما هو:

«الخسائر في الطائرات:

العدو ـ ١٦٦٤ طائرة على الأقل.

نحن ـ ٨٨٩ طائرة

الخسائر في الدبابات:

العدو ـ ٢٦٢٥ دبابة، نحن ـ ٩٠١ دبابة.

الخسائر البشرية: لدى العدو ـ مليون ٣١٢ ألف قتيل. عدا عن ذلك، تكبد العدو

خسائر فادحة في الأرواح خلال معارك طاحنة في مواقع مختلفة، لكن من المستحيل تقدير تلك الخسائر لأن قواتنا كانت تتراجع. من الصعب حساب عدد القتلى من مظليي العدو الذين تم انزالهم.

الأسرى: ٣٠٠٠٤ أشخاص، إضافة إلى مظليين تم أسرهم لكن لم يجرِ إحصاء عددهم.

خسائرنا: الأسرى والأشخاص مجهولو المصير، لغاية ٦/٢٩، حوالى ١٥٠٠٠ إنسان. تم تدمير ٥ غواصات لنا في بحر البلطيق وغواصة واحدة في البحر الأسود...[٢٨].

إنها معلوما مشوشة ومشوهة، يصعب الانطلاق منها لتكوين تصور واقعي عن الوضع القائم في الجبهات أو عن تناسب القوى والعدد الدقيق للطائرات والدبابات. لكن إحصائيات كهذه ليست بنت الصدفة. بل هي ثمرة لهيمنة السلطة الفردية، إذ أن الحقيقة لم تكن مطلوبة في الكثير من الأحيان. كان انهيار الإدارة على مستوى الجبهات والجيوش ومحاصرة العشرات من وحداتنا العسكرية يقترن بإصدار بلاغات لا تمت للواقع بصلة. لكن، ألم يكن ستالين يعتمد هذه البلاغات بالذات؟ لم يكن يراود «القائد» أي تفكير بأن مرؤوسيه يخدعونه، ولذا غالباً ما كانت القرارات التي تتخذها القيادة العليا في تلك الفترة منطلقة من الأماني والافتراضات وليس من الواقع الصارم.

مهما يكن من أمر، تم إضعاف الزخم الأولي لضربة النازيين، والأهم من ذلك أن القيادة العسكرية الألمانية لم تتمكن من تنفيذ الهدف الأولي الذي كان قد وضعه هتلر: تدمير القوى الأساسية للجيش الأحمر.

الجيش الأحمر يقاتل... إنه يتراجع، لكنه يقاتل. كان ستالين ينظر إلى خريطة المعارك الطاحنة ويقترب ضمنياً من فكرة أن الحرب ستكون طويلة؛ إذا صمدنا خلال الفترة القريبة، هنالك فرصة أن تجري رياح النصر بما تشتهي سفننا نحن.

أثناء الاستماع إلى أحد تقارير جوكوف حول الوضع على مختلف الجبهات، قال ستالين:

ـ كرروا المعلومات حول نسبة تجهيز الوحدات في الجبهة الغربية بالجنود والآليات.

ـ وسطياً، من ١٠ إلى ٣٠٪. قليلة هي الوحدات التي تملك نسبة ٥٠٪ من الجنود والمدافع والدبابات... قليلة ـ كرر جوكوف الكلمة مرة أخرى، وتابع ـ عملياً، هنالك وضع مماثل في الجبهة الشمالية الغربية. وضع الجبهة الجنوبية الغربية أفضل. أصعب شيء هو الخسائر الفادحة في المدافع المضادة للدبابات. لا بد من فعل شيء ما لتقوية وتدعيم الطاقات المضادة للدبابات.

بعد مناقشة الإجراءات الضرورية لتسريع انتاج المدافع المضادة للدبابات وبعد

أن اتصل ستالين مع فوزنيسينسكي بهذا الخصوص، نظر إلى جوكوف مباشرة وسأل:

ـ وما الذي يجب أن نفعله الآن فوراً لتقوية إمكانياتنا في مجابهة الدبابات؟ ألا يرى العسكريون أية وسائل أخرى سوى المدافع؟

ـ لِمَ لا، أيها الرفيق ستالين؟ يمكن إنجاز أشياء كثيرة ضد الدبابات بواسطة الطيران.

وشرح جوكوف الإمكانيات التقنية والقتالية للطيران في القتال ضد الدبابات. انتعش ستالين نوعاً ما، وأمر فوراً بإعداد توجيه باسم القيادة العليا. خرج جوكوف ليعود بعد نصف ساعة ومعه نص الوثيقة:

«إلى قادة الجبهات: الشمالية، الشمالية الغربية، الغربية، الجنوبية الغربية، الجنوبية. إلى قائد القوى الجوية في الجيش الأحمر.

على مدى العشرين يوماً الأولى من الحرب كانت قوانا الجوية مشغولة، على الأغلب، بمهاجمة آليات الألمان ودباباتهم. كانت مئات الطائرات تشتبك في معارك مع الدبابات، لكننا لم نحرز النتيجة المرجوة، نظراً لأن قتال طيراننا ضد الدبابات لم يكن منظماً على النحو المطلوب. لكن في حال التنظيم الصحيح للضربات الجوية، يمكن ليس فقط إيقاف جيوش الدبابات، بل وتدميرها أيضاً.

١ ـ يجب أن يجري التمهيد لهجوم وحدات الدبابات بهجوم الطائرات المدمِّرة ذات المدافع والطائرات الهجومية ذات المدافع لإلقاء المواد الحارقة. مثل هذه الهجمات يجب أن تجري ضمن جبهة واسعة على شكل غارات متكررة، في اتجاه عمودي بالنسبة لقوافل الدبابات.

٢ ـ بعد الطائرات المدمرة والهجومية المذكورة يبدأ هجوم القاذفات من مختلف الأصناف لإلقاء القنابل الانفجارية والحارقة. هجوم القاذفات يجب أن يجري على شكل أسراب من تسع طائرات كل منها تمارس التسديد على حدة...»[٢٩].

ما الذي كان يمكن فعله أيضاً لكسر التطور المفجع في أحداث الحرب؟ كان ستالين يفكر بذلك تفكيراً محموماً وهو يتعافى بالتدريج من هول الصدمة التي لم يشهد لها مثيلاً في السابق.

لنتذكر أن «القائد» كان قد أمر، في ٥ تموز (يوليو)، بإرسال البرقية التالية إلى الجبهات:

«إلى قادة الجبهات (باستثناء جبهة ما وراء القفقاز وجبهة الشرق الأقصى).

لقد أبدى عدد من القادة العسكريين والضباط والجنود (في سلاح الدبابات والمدفعية والطيران وغيرهم) بطولة استثنائية وشجاعة في المعارك من أجل الوطن الاشتراكي ضد جيوش الفاشية الألمانية. عجلوا في تقديم الأشخاص الذي قاموا بمآثر خاصة لتقليدهم أوسمة حكومية وأرسلوا أسماءهم فوراً إلى القيادة العليا العامة»[٣٠].

فيما بعد، نشرت الجرائد مرسوم رئاسة السوفييت الأعلى حول منح أوسمة «بطل الاتحاد السوفييتي» (لأول مرة في الحرب الوطنية) لكل من جوكوف وزدوروفتسوف وخاريتونوف أثر تدمير القاذفات المعادية بطريقة الاقتحام المباشر. بعد ذلك اتصل ستالين بقسم الدعاية في اللجنة المركزية:

ـ وسّعوا الدعاية لبطولة المواطنين السوفييت وتذكروا نداء لينين «الوطن الاشتراكي في خطر». أوحُوا للناس أنه يمكن ويجب دحر الأنذال الفاشيين... ثم وضع سماعة الهاتف دون أن ينتظر الجواب من الطرف الآخر.

نعم، لا بد من دعم الناس معنوياً، وراحت الصحافة والبلاغات تتحدث كل يوم عن أن آلاف الجنود والضباط والموجهين السياسيين يدافعون عن كل شبر مضحين بحياتهم...

إلى جانب الشؤون العسكرية، كان ستالين يشتغل كل يوم ساعات عديدة بالشؤون الاقتصادية والتنظيمية.

قبل أيام كان يدرس مع مالينكوف وجوكوف قضية تشكيل كتائب من المتطوعين بمبادرة من منظمة لينينغراد الحزبية، ولم يكن يعرف بعد أن هذه المبادرة ستتحول إلى حركة ضخمة عند أواخر السنة، حين يتم تشكيل ٦٠ كتيبة و ٢٠٠ فوج من «متطوعي الشعب» الذين لعبوا دوراً هاماً في الدفاع عن الوطن.

في ٤ تموز (يوليو) تقدم فوزنيسينسكي وميكويان بمشروع قرار من لجنة الدفاع الحكومية «حول صياغة الخطة الاقتصادية ـ الحربية لتأمين الدفاع عن البلد». وقّع ستالين المشروع دون أن يقرأه لأن القادة العسكريين كانوا جالسين في غرفة الاستقبال، وهو ينتظر من الجبهات أنباء أسوأ وأسوأ. كان فوزنيسينسكي على عجل، فقدم تقريره إلى ستالين: في ٣٠ حزيران (يونيو) أقر مجلس الوزراء الخطة الاقتصادية التعبوية التي تفترض تحويل الاقتصاد إلى نظام العمل الحربي خلال أقصر فترة ممكنة. قبل ذلك كان ستالين قد استقبل شفيرنيك، رئيس مجلس الإجلاء، الذي حدثه عن تنفيذ القرارات الصادرة عن اللجنة المركزية ومجلس الوزراء «حول إجلاء وتوزيع الملاكات والممتلكات الثمينة». كانت هذه الخطة تفترض، في المقام الأول، إجلاء المصانع القريبة من الحدود فقط ونقلها إلى شرق البلاد. لكن الهزائم العسكرية بعد أيام أملت ضرورة المراجعة الجذرية لتلك الحسابات. ما من أحد كان يدري بعد أنه خلال فترة قصيرة جداً (حتى كانون الثاني ١٩٤٢) سيتم نقل ١٥٢٣ مؤسسة صناعية وتشغيلها في الشرق، من ضمنها ١٣٦٠ مصنعاً عسكرياً. من الصعب منح هذه الواقعة ما تستحق من تقدير. فالجهود المستحيلة (الخيالية من حيث التضحيات) وحدها التي سمحت للمواطنين السوفييت بنقل دولة صناعية كاملة إلى مسافة آلاف الكيلومترات في شرق البلاد والبدء بتعويض الترسانة الصناعية المفقودة. يكفي القول إنه برغم الإجلاء الضخم (تحت قصف الطيران الألماني في أغلب الحالات)، تمكنت الصناعة العسكرية خلال ١٩٤١ من إنتاج ١٢ ألف طائرة حربية و ٦٥٠٠ دبابة وحوالى ١٦ ألف مدفع وراجمة قنابل.

تحدث ستالين إلى العسكريين على مدى ساعة ونصف، ثم عاد إلى شؤون الحزب والدولة، فأقر اقتراح مالينكوف بتعيين ممثلي اللجنة المركزية في الخلايا الحزبية لـ ١١٧٠ مصنعاً عسكرياً كبيراً. وكتب إلى مالينكوف قائلاً: «أنصح بالتفكير في تعميم هذا الاقتراح على نظام الأقسام السياسية في محطات الجرارات الآلية والسوفخوزات».

اليوم نعرف جيداً أن القرار حول نظام «الأقسام السياسية» المذكورة تم اتخاذه في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١. فقد ألقيت على عاتق محطات الجرارات الآلية والسوفخوزات مهمة ثقيلة (خصوصاً بعد خسارة الأراضي الشاسعة والأيدي العاملة)، هي مهمة تأمين الغذاء للجيش ولكل البلد.

هكذا كان يوم العمل لدى الرجل الذي أصبح يشغل كل المناصب التي قد تخطر في البال، فقد زادت الحرب من توطيد موقعه كديكتاتور مطلق السلطة.

إليكم ما رواه لي كوفاليوف، وزير المواصلات السابق، حول تلك الأيام: «أذكر أنني دعيت إلى اجتماع في الكرملين، وكنت حينها رئيس إدارة المواصلات الحربية. حضر الاجتماع مسؤولو السكك الحديدية والعسكريون وموظفو اللجنة المركزية، كما حضره كاغانوفيتش وبيريا، الذي كان يشرف على نظام المواصلات. دخل ستالين، فنهض الجميع، وبدأ كلامه دون مقدمات قائلاً: «اتخذت لجنة الدفاع الحكومية قراراً بتشكيل «لجنة المواصلات». اقترح انتخاب الرفيق ستالين رئيساً لهذه اللجنة»... هكذا قال، بنفسه. وأذكر عبارة قالها ستالين أيضاً في ذلك الاجتماع: «المواصلات هي قضية حياة أو موت، فشؤون الجبهة بيد قادة المواصلات. وتذكّروا: عدم تنفيذ التوجيهات الصادرة عن لجنة الدفاع الحكومية سيعاقب بالمثول أمام المحكمة العسكرية العليا» ـ هكذا قال بصوت منخفض ولُكْنةٍ جورجية؛ لكن شعر البدن انتصب هلعاً لما قيل... «خلال سنوات الحرب قُيّض لي عشرات، لا بل مئات المرات أن أقدم تقارير إلى «الأعلى» حول حركة القطارات نحو مختلف نقاط الجبهة. كنت أحياناً (في حالة القطارات ذات الأهمية الاستثنائية) أقدم له تقريراً كل ساعتين، بطلب منه. في إحدى المرات «ضاع» عن ذهني مسار أحد القطارات، فقلت إنه في محطة كذا، وتبين أن القطار ليس هناك، فاشتاط ستالين غيظاً: ـ إذا لم تجد القطار، أيها الجنرال، فستذهب إلى الجبهة جندياً عادياً. (بالمناسبة، لم يكن تهديد كهذا مجرد كلام. فأثناء عملي في الأرشيف اصطدمت بواقعة فعلية: جرّد ستالين الجنرال موسكفين من رتبته وأرسله إلى الجبهة جندياً[31] ـ المؤلف). رأى بوسكريبيشيف شحوب وجهي وقال: ـ حذار! ستجلب التهلكة لنفسك، فـ «الأعلى» متوتر الأعصاب للغاية...

حين كنت أذهب لتقديم تقريري إلى ستالين، كان يجلس لديه ـ عادة ـ مولوتوف وبيريا ومالينكوف، فكنت أفكر في نفسي: إنهم يعطلونه عن العمل، ليس إلا. فهم لا يطرحون أسئلة، بل يستمعون صامتين، ويسجلون أشياء ما. ستالين يصدر الأوامر ويتصل بالهاتف، ويستدعي بوسكريبيشيف ليكلفه بمختلف المهام... وهؤلاء جالسون، ينظرون إلى ستالين حيناً وإلى الشخص الداخل حيناً آخر... لقد رأيت هذه اللوحة عشرات المرات... يبدو أن ستالين كان بحاجة إلى وجودهم: ربما لأجل تنفيذ ما قد

يبرز من مهام، أو ربما لأجل التاريخ... لم يكن كاغانوفيتش يتواجد هناك عادة، وهو الذي كان يعمل يومياً ١٨ ساعة متواصلة في جو من الشتائم والصياح والتهديدات؛ فـ «كاغانوفيتش لا يرحم نفسه ولا الآخرين. لكنني لم أره جالساً عند ستالين مع أولئك الثلاثة. كان ستالين، حين يتكلم بالهاتف، يقول بضع عبارات ويرمي السماعة، فهو يتكلم باختصار ويطلب من الآخرين كذلك تقارير موجزة. كان من المستحيل أن تقول أمامه أشياء تقريبية، لأنه فوراً يقاطعك بصوت منخفض فيه الوعيد: «لست تعرف! ما الذي تفعله إذن!»».

لقد ذهبت إلى مكتب ستالين مرات ومرات، لكنه لم يحدث لي أن ذهبت إليه مطمئن البال ولا مرة واحدة. فدائماً تتوقع منه سؤالاً لا تعرف جوابه، وهو جافّ لحد مخيف. بدلاً من «السلام عليكم»، إيماءة من رأسه لا تكاد تكون ملحوظة. حين تنهي تقريرك ولا تبرز لديه أسئلة، أسرِعْ في الذهاب، أسرِعْ وتنفس الصعداء ـ هكذا كانت نصيحة بوسكريبيشيف دائماً. لقد لاحظت أن ستالين كان يكبت الجميع ويقلل من قدرهم بسلطته وبذاكرته وعقله... كان الإنسان الذي يأتي إليه يشعر بقلة أهميته الخاصة أكثر مما هي في الواقع...»».

يبدو لي أن ملاحظات كوفاليوف ممتعة وتسمح بفهم أعمق لما كان عليه ستالين من عقل وأحاسيس وإرادة. يدل تحليل الوثائق الصادرة عن مختلف الاجتماعات التي كانت تنعقد لدى ستالين أن الأشخاص الذين كانوا يتجاسرون على مناقشته، والدفاع عن موقفهم في سنوات الحرب هم قلائل جداً، فهو بالفعل كان يكبت الناس بسلطته. وأكرر هنا أن من حسن الحظ وجود قادة عسكريين موهوبين إلى جانبه في تلك السنوات، لأنهم كانوا يجيدون صياغة اقتراحاتهم وتقديمها بطريقة تجعل «الأعلى» يوافق عليها عادة ويتبناها.

كما ذكرت، كان ستالين خلال أول نصف سنة من الحرب، يقضي خلف طاولته في المكتب حوالى ١٦ ـ ١٨ ساعة يومياً. لكن الإنصاف يلزمني بالقول أن ذلك كان شأن الجميع في تلك الأيام. كانت الشؤون العسكرية تأخذ حصة الأسد من وقت «القائد»، لكن معاونه بوسكريبيشيف كان يجد «كوّه» هنا أو هناك في برنامجه ليستقبل ستالين أعضاء المكتب السياسي المشرفين على مجالات معينة من عمل الدولة، وكذلك الوزراء والمهندسين المخترعين، وحتى مدراء المعامل الكبرى. لم يتقمص ستالين دور «الأعلى» فوراً، إذ كان في كثير من الأحيان خلال الأشهر الأولى ينجرُّ لحفر الخنادق، ويقرأ بلاغات «مكتب الإعلام». مثلاً، كانت وثيقة من القيادة العليا (موجهة إلى القوى الجوية) قد بقيت في قسم الشيفرة ثماني ساعات وربع دون إرسال. حين علم ستالين بذلك، أمر فوراً بإصدار قرار بإسم وزير الدفاع ينص على معاقبة العقيد إيفانوف والملازم أول كراسنوف وطردهما من جهاز الهيئة العامة للأركان. وقّع ستالين على القرار وأضاف ملاحظة:

«إلى الرفيق فاسيليفسكي وجيفاريوف.

أرجو رئيس إدارة العمليات في الهيئة العامة، وقائد القوى الجوية تأمين النظام في عمل رجال الشيفرة.

١٩٤١/٨/٢٥
ستالين» (٣٢)

هذا، في حين كانت الجبهات تعيش أياماً عصيبة في شهر آب (أغسطس) وتحل مهام أكبر من تلك التفاصيل بما لا يقاس. إنها قوة العادة التي تكونت لدى ستالين طيلة سنوات: تدبير الشؤون وإدارة الأعمال كلها بنفسه، عوضاً عن الجميع. لكن واقع الأمور في الجبهة سرعان ما سيفرض بنفسه تعديلات على هذا النظام وهذا الأسلوب الذي يمارسه «الأعلى».

راح ستالين ينغمس في الوتيرة القاسية لزمن الحرب، بوصفه الشخصية التي توافق أو لا توافق على مقترحات الهيئة العامة للأركان. لكنه كان دائماً يسعى إلى العثور على أدوات إضافية للتأثير في الموقف. فقد رأينا كيف وقّع على توجيه باستخدام الطيران لمواجهة خطر الدبابات. وبعد ورود تقارير حول نقص في السلاح اللازم لتسليح المتطوعين، نجده يصر على إرسال توجيه خاص من القيادة العليا بهذا الخصوص:

«اشرحوا لكل القادة العسكريين والموجهين السياسيين والجنود في الوحدات المقاتلة أن فقدان السلاح على أرض المعركة هو خرق شنيع للقسَم العسكري وأن المذنبين سوف يحاكمون بموجب قوانين زمن الحرب. يجب تقوية المجموعات المتخصصة بجمع الكميات الإضافية من السلاح وتحميلها المسؤولية عن جمع كل السلاح الذي يبقى على أرض المعركة...»(٣٣).

يجب القول أيضاً إن الكثير من اقتراحات ستالين في الأشهر الأولى من الحرب كان ينبع من وحي الذكريات التي بقيت لديه من زمن الحرب الأهلية. فبعد حديث مع بوديوني في أيلول (سبتمبر) ١٩٤١، أظهر ستالين اهتماماً مفاجئاً بسلاح الخيالة. في تلك الفترة كانت الهيئة العامة للأركان تعمل على إعداد وثيقة حول دروس أول شهرين من الحرب بقصد إرسالها إلى قادة الجبهات وقادة الجيوش. حين كانت الوثيقة قد أصبحت شبه جاهزة، قرأها ستالين ووافق على المضمون الأساسي، لكنه أمر بإضافة فقرة كالتالي:

«رابعاً: إن جيشنا قد قلل نوعاً ما من أهمية سلاح الخيالة. ففي ظل الوضع الحالي على الجبهات، حين امتدت مؤخرة الجيش المعادي لعدة مئات من الكيلومترات في مناطق كلها غابات، ليس للخصم أن يأمن جانبنا من عمليات تخريب واسعة، وغارات الخيالة الحمراء على مؤخرة جيش العدو من شأنها أداء دور حاسم في تشويش إدارة وتموين الجيوش الألمانية. لو أن قوات الخيالة، التي تتسكع الآن بلا فائدة على الجبهة أو أمامها، رُميَت إلى مؤخرة العدوا كُنّا سبّبنا له وضعاً محرجاً وسهلنا أمر جيوشنا تسهيلاً بالغاً. تعتبر القيادة العامة أن غارات كهذه في مؤخرة الجيش المعادي لا تتطلب أكثر من بضع عشرات من كتائب الخيالة الخفيفة يكون تعداد كل منها ٣٠٠٠ شخص مع ذخائر خفيفة...»(٣٤).

تبدو الفكرة وكأن لها معنى، مع إنها ـ من حيث الجوهر ـ محاولة للعودة ليس فقط إلى تجربة الحرب الأهلية، بل وإلى تجربة الحرب الوطنية البعيدة ضد نابليون عام ١٨١٢: كان ستالين، الذي لا يعرف العلم العسكري إلا على مستوى الوعي العادي

والعقل السليم، يبحث عن مخرج من الوضع الحرج الذي ورّط فيه البلد بحساباته الخاطئة التي أضيف إليها غدر هتلر. في المصارعة الكلاسيكية ينشأ مثل هذا الوضع الحرج حين ينجح المصارع بوضع خصمه في «وضعية الجسر» محاولاً بطحه على الأرض نهائياً. وحين يتمكن من ذلك يمنحه الحكام النصر «الخالص». في حزيران وتموز وآب وأيلول والتشرينين (يونيو ـ نوفمبر) من عام ١٩٤١ كان ستالين (ليس هو، طبعاً، بل البلد والجيش والشعب) في «وضعية الجسر»، التي دفعه إليها هتلر، وهي وضعية غير معتادة بالنسبة لـ «القائد». كان مصير البلد عالقاً بشعرة واحدة، وكان الوضع ميؤوساً منه إلى حد جعل ستالين مستعداً لرؤية العلاج في أي دواء ممكن، فيضطر الناس إلى إعداد وثائق من هذا النوع.

تذكر ستالين الجنرال بافلوف فأخذته نوبة جديدة من الحقد: كيف أمكن لقائد الجبهة أن يفقد كل شيء خلال أسبوع فقط؟ فحين استقبله هنا في المكتب قبل أن يعينه قائداً للجبهة الغربية، كان بافلوف قد ترك انطباعاً حسناً لديه: تقرير واضح وآراء ناضجة وثقة بالنفس... صحيح أنه كان قليل التجربة وجرى تقديمه بسرعة بعد اسبانيا... كيف أفلت من بين يديه أدوات إدارة الجيوش؟ ما الذي كانت تفعله هيئة أركان بافلوف؟ ولماذا لم يسهر على الجاهزية القتالية للجيوش؟ طبعاً، ما كان يطيب لستالين أن يتذكر كيف أنه استلم، هو وتيموشنكو، برقيتين أو ثلاثاً من بافلوف يطلب فيها بإلحاح أن يسمح له بتحريك الجيوش إلى مواقعها الميدانية. كان قائد الجبهة الغربية يسعى إلى تأمين التعبئة الجزئية في جبهته ويبرهن على ضرورة دعم جيوشها بأجهزة لاسلكية ودبابات... لكن أفكار ستالين الآن تروح وتجيء حول سؤال واحد: كيف يفقد بافلوف كل شيء على هذا النحو البليد؟ وكان ستالين يرتجف غضباً لهذه الفكرة. اقترب من الطاولة وضغط الزر. ظهر بوسكريبيشيف بلا ضجة ودفتره في يده.

ـ مَن سوى بافلوف سيمثل أمام المحكمة العسكرية؟ متى المحاكمة؟ أين مشروع قرار المحكمة؟ ـ ودون أن ينتظر الجواب: ـ هلم إليّ بالرفيق أورليخ.

خرج بوسكريبيشيف، بلا ضجة أيضاً، من المكتب، وتابع ستالين تجواله بمحاذاة الطاولة. التفت ليتوقف نظره عند الصور التي على الجدار: ماركس وإنجلز ولينين. لم يقرأ ماركس كثيراً، إذ أنه ما استطاع إتمام «رأس المال»، لكنه يعرف عدداً من أعماله. أهم كتب ماركس ـ برأيه ـ هو «الصراع الطبقي في فرنسا ـ عام ١٨٤٨ حتى ١٨٥٠»، لأنه يستخدم هنا، لأول مرة، مفهوم «ديكتاتورية البروليتاريا»، وهي ـ برأي ستالين أيضاً ـ الحلقة الأساسية في علم ماركس الاجتماعي. ولم يكن تقديره لإنجلز عالياً. ففي أيام زيارته إلى الأكاديمية الشيوعية عام ١٩٣٠ ذهب حتى إلى الدعوة لانتقاد بعض الأفكار «الخاطئة» لدى رفيق ماركس، إنجلز العظيم. مع هذا، كان ستالين يعتبر أن إنجلز قد أحسن الكتابة عن التاريخ العسكري لروسيا وقدّر جيداً العبقرية العسكرية للمارشال الروسي سوفوروف (وبدرجة أقل المارشال كوتوزوف) وأعطى تقويماً حسناً لمساهمة الجيوش الروسية في تحرير أوروبا من نير نابليون ولبطولة المدافعين عن مدينة سيفاستوبول أثناء حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦)، لكن الكثير من آرائه الأخرى كان خاطئاً.

وماذا عن لينين؟... حين كان ستالين يتناول مؤلفات لينين، كان يشعر بنفسه كم هو عادي وغير متميز. لقد ساعدته «مظلة» لينين أن يصبح الزعيم الأوحد للبلد، وكل أولئك الرفاق الصغار، الذين قضى عليهم في أثناء ذلك، لم يفهموا المصدر الأساسي لقوته الذي يكمن في احتكاره لتفسير الأفكار اللينينية، سيما وأن مقدرة ستالين على هرس أعدائه بـ «يد من حديد» هي شيء تعلّمه من لينين، إلى حد كبير. إنه يتذكر الآن، ويشتم نفسه ضمنياً على لحظة الضعف التي داهمته يوم ٢٩ حزيران (يونيو): كان منزعجاً حين خرج هو ومولوتوف وفوروشيلوف وجدانوف وبيريا من مبنى وزارة الدفاع، فقال لهم بصوت منخفض:

ـ لقد أسس لينين دولتنا هذه، أما نحن فقد خر... نا فيها!

آنذاك نظر مولوتوف إليه مندهشاً، لكنه لم يقل شيئاً. ولزم الآخرون الصمت أيضاً... ما كان يجدر به أن يقول أمامهم تلك الكلمات، فهم قد يتذكرونها لاحقاً، وربما اعتبروها علامة ذعر في نفسه، لأن الكلمة التي تفلت من انسان عظيم لا تُنسى، خصوصاً في لحظات ضعفه.

قطع بوسكريبيشيف عليه تجواله بين الذكريات القريبة والبعيدة. اقترب المعاون من طاولة ستالين ووضع عليها مصنفاً غير ثخين. نظر «الأعلى» إلى الأوراق. كانت الصفحة الأولى تقول:

حُكم

باسم اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية
الهيئة العسكرية للمحكمة العليا بعضوية كل من:
ـ رئيسها، قائد الجيش، أورليخ
ـ أعضاؤها: القاضيان العسكريان أورلوف وكانديبين.

بحضور سكرتيرها، المحامي العسكري (مازور)، في جلستها المغلقة المنعقدة بمدينة موسكو... تموز (يوليو) ١٩٤١، درست قضية اتهام:

١ ـ ديمتري بافلوف، من مواليد ١٨٩٧، القائد السابق للجبهة الغربية، جنرال.

٢ ـ فلاديمير كليموفسكي، من مواليد ١٨٩٥، الرئيس السابق لهيئة أركان الجبهة الغربية، جنرال... ـ المتهمين كليهما بالجرائم الواردة في المادتين (٦٣/٦) و (٦٧) من القانون الجنائي لجمهورية بيلوروسيا.

٣ ـ أندريه غريغوريف، من مواليد ١٨٨٩، القائد السابق لإدارة الاتصالات في الجبهة الغربية، جنرال.

٤ ـ الكساندر كوروبكوف، من مواليد ١٨٩٧، القائد السابق للجيش الرابع، جنرال... ـ المتهمين كليهما بالجرائم الواردة في المادة (١٨٠/ب) من القانون الجنائي لجمهورية بيلوروسيا...».

بعد ذلك، تتحدث الوثيقة عن التحريات القضائية الأولية التي اثبتت أن «المتهمين

بافلوف وكليموفسكي شاركا في مؤامرة عسكرية معادية للسوفييت، واستخدما منصبيهما المذكورين للقيام بعمل معادٍ تجلى في نواياهما التآمرية على عدم إعداد القوات الموكلة إليهما للأعمال القتالية، وإضعاف الجاهزية التعبوية للجيوش وتخريب إدارتها، وتسليم الأسلحة للعدو دون قتال؛ فألحقا ضرراً كبيراً بالقدرة القتالية للجيش الأحمر...» ثم يستمر النص على المنوال المعتاد. لم يقرأ ستالين تلك الصفحات، بل انتقل إلى الأخيرة: «وهكذا، ثبت جرم المتهمين بافلوف وكليموفسكي بارتكاب الجرائم الواردة في... وغريغوريف وكوروبكوف بارتكاب الجرائم الوردة في... انطلاقاً مما سبق، واعتماداً على المادتين (٣١٩) و (٣٢٠) من القانون الجنائي لجمهورية بيلوروسيا، تقرر الهيئة العسكرية للمحكمة العليا الحكم على: بافلوف وكليموفسكي وغريغوريف وكوروبكوف بتجريدهم من رتبة «جنرال»، وبالعقوبة القصوى، الإعدام، مع تجريدهم من كل الممتلكات الشخصية... الحكم نهائي، ولا يخضع للطعن»[٣٥].

قرأ ستالين مشروع القرار، وقال لـ بوسكريبيشيف الواقف قرب الطاولة: ـ موافق على القرار، ولكن بلِّغ أورليخ أن يحذف هذه التوافه حول «النشاط التآمري». وبدون مماطلة: ـ الطعن غير وارد... ثم يجب إرسال أوامر إلى الجبهات بأننا سنعاقب المتخاذلين بلا رحمة.

هكذا، كل شيء يقرّر قبل المحكمة. المحكمة كانت يوم ٢٢ تموز (يوليو) لإتمام الشكليات فقط. وطلب المتهمون إرسالهم إلى الجبهة بأية صفة كانت لكي يبرهنوا بالدم إخلاصهم للوطن وللواجب العسكري، كما عبّروا عن رجاء بتصديقهم: كل ما حدث كان نتيجة الظروف غير المؤاتية، فهم لا ينكرون أنهم أذنبوا... وسيكفرون عن ذنبهم في المعارك... لكن أورليخ قال متثائباً: ـ باختصار، إذا أمكن...

في نفس الليلة تم إعدام الجنرالات الأربعة. لم يعد هؤلاء الناس يشغلون بال ستالين، وما كان بوسعه أن يدري أن الهيئة العامة للأركان، بعد تحليل حذق لأسس هذا الاتهام الموجه إلى الأربعة سيتقرر ـ بعد موته هو ـ في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ ما يلي: «إن الوثائق الموجودة، وشهادات عدد من الجنرالات الذين خدموا في الجبهة الغربية، لا تنكر وقوع عدد من الأخطاء الكبيرة أثناء إعداد المنطقة العسكرية للحرب، لكنها تنفي من الأساس الاتهامات التي وجهت إلى بافلوف وكليموفسكي وغريغوريف وكوروبكوف وغيرهم بأنهم أبدوا جبناً ولا مبالاة، أو إنهم عطلوا عمداً إدارة الجيوش، أو سلموا السلاح للعدو دون قتال»[٣٦].

كان الزمن قاسياً، والناس قساة أيضا... ستالين يعرف بافلوف جيداً، وتحدث إليه وإلى كليموفسكي وكوروبكوف قبل تعيينهم، وتركوا لديه انطباعاً حسناً. ربما كانوا فعلاً قد ارتكبوا أخطاءً ما، قبل الحرب وفي بدايتها، وهم الذين تعينوا في مناصبهم نتيجة ترفيع يتجاوز عدة درجات بسبب النقص الشديد في الكوادر، لكنهم كانوا وطنيين أشداء، تعوزهم التجربة؛ فلم يتمكنوا من التنظيم المطلوب للأعمال القتالية في لحظة حاسمة أمام عدو يفوقهم عدة وعتاداً. وهل كان أمثالهم قلة؟ لقد كان صعود قادة الجبهات: كوزنيتسوف وبافلوف وكيربونوس جامحاً في سرعته بعد عام ١٩٣٧، لكن حسهم الوطني وشجاعتهم لم يكونا مدعمين بالتجربة القتالية والحكمة

القيادية اللتين لا تأتيان إلا مع الزمن. أما ستالين، الذي أهلك شرائح كاملة من القيادة العسكرية للجيش، فقد وضع في موقف صعب أيضاً الناس الذي عيّنهم عوضاً عن ضحايا تلك المحرقة.

إن ستالين، الذي كان مذنباً أكثر من أي شخص آخر في البداية المفجعة للحرب، تكشف عن قسوة فظيعة إزاء الناس الذين كانوا ضحية لحساباته الخاطئة. لا أحد ينكر ذنبهم، لكن أخطاءهم كانت وليدة الموقف الناشىء ونتيجة تقديمهم السريع، وبالتالي نتيجة نقص الخبرة. في كتابه «مصير روسيا» كتب بيرديايف يقول: «إن قساوة الحرب وقساوة عصرنا ليست مجرد قساوة وحقد وبغضاء في نفوس الناس والقادة، مع أن هذا قد يشكل ظاهرة مرافقة. إنها قساوة المصير التاريخي، قساوة الحركة التاريخية والمحنة التاريخية. إن قساوة الإنسان الفرد مقرفة!»[٣٧]. لقد كانت الحرب شيئاً قاسياً بحد ذاتها، لكن ستالين كان يجعلها أكثر قساوة، وهذا أمر مقرف حقاً. إليكم مثالاً، واحكموا بأنفسكم:

ها هما جدانوف وجوكوف، في تقرير لهما من لينينغراد، يتحدثان عن الوضع ويوردان أمثلة على أعمال الألمان، الذين يهاجمون مواقعنا دافعين بالنساء والأطفال والشيوخ أمام قواتهم، فيضعون جيوشنا في وضع دفاعي قاتل: الأطفال والنساء يصرخون: «لا تطلقوا النار!»، «نحن منكم!»، «نحن معكم!»، فيجد الجنود والضباط السوفييت أنفسهم في حيرة: ماذا نفعل؟ ليس من الصعب أن نتصور ما الذي كان يعانيه الناس البؤساء حين يشعرون بفوهات الرشاشات الألمانية في ظهورهم، ويرون احتمال الموت في وجوههم أيضاً من فوهات رشاشات أبنائهم. كان رد الفعل من جانب ستالين فورياً وشنيع القساوة: «يقال إن الأوغاد الألمان يهاجمون لينينغراد دافعين أمامهم الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال... ويقال إن بين بلاشفة لينينغراد أناساً يرون أنه لا يجوز استخدام السلاح مع هؤلاء «المندوبين». إنني أعتبر إنه إذا كان هنالك مثل هؤلاء البلاشفة، فيجب إبادتهم في أول مقام لأنهم أخطر من الفاشيين الألمان. نصيحتي: لا تكونوا عاطفيين، بل اضربوا العدو وكل ما يعاونه، راغباً أو مكرَهاً... اضربوا الألمان بكل ما أوتيتم، واضربوا «مندوبيهم» كائنين من كانوا. احصدوا الأعداء، إن كانوا أعداء بمحض مشيئتهم أم رغماً عنها...

أمليت البرقية في الرابعة صباحاً يوم ١٩٤١/٩/٢١ من قبل الرفيق ستالين.
شابوشنيكوف»[٣٨]

نعم، الحرب قاسية بجوهرها، لكننا هنا أمام قساوة من نوع خاص: قساوة ستالين ليست فقد تجاه العدو ـ هذا يمكن فهمه ـ بل وتجاه مواطنيه. جوكوف وجدانوف يقولان له: نساء وأطفال وشيوخ. أما هو، فيقول: لا تكونوا عاطفيين... هذا ما لا يمكن فهمه ولا تفسيره، ناهيك عن تبريره... حقاً إن قساوة الإنسان الفرد لمقرفة... قساوته تجاه مواطنيه الذين يسوقهم الأوغاد أمامهم في المعركة، وتجاه الذين أوكل إليهم مناصب عالية ـ ذلك هو اعترافه الفعلي بذنوبه. لكن في مثل هذه الحالة يجب أن يكون الإنسان قاسياً تجاه نفسه أيضاً، وهذا ما لم يكن في طاقة ستالين.

حتى في ظروف ذلك الكابوس كان اقتصاص «الزعيم» من جنرالاته لا يبدو مجرد طفرة عاطفية، بل استمراراً لتعسفه في فترة الثلاثينات. ولكي يكون الإحساس بذلك كاملاً، سأورد هنا شهادتين، حيث يبدو الجنرالات الذين أعدموا في ضوء آخر تماماً. بعد الحرب كتب الجنرال فومين، الذي كان يعمل في هيئة أركان الجبهة الغربية، قائلاً: «ابتداءً من شهر آب (أغسطس) ١٩٤٠، قام بافلوف بخمس جولات عسكرية ميدانية، ونظّم مناورات عسكرية محلية على مستوى هيئة الأركان، وعلى مستوى خمسة فيالق، وعلى مستوى الجبهة؛ وكذلك مناورات عسكرية باللاسلكي على مستوى فيلقين للدبابات، وعلى مستوى كتيبتين وفيلق. كان بافلوف يتابع بدقة تحركات جيش الخصم، وذهب مراراً إلى إثارة المسألة مع وزير الدفاع مطالباً بتحريك الجيوش في الجبهة الغربية من العمق إلى الشريط الحدودي. عند بداية الحرب كانت جيوش الجبهة في طور الإجراءات التنظيمية: كانت خمسة فيالق دبابات وفيلق المظليين وثلاثة ألوية مضادة للدبابات في مجرى التكوين الذي لم يكتمل بعد، وينقصها العتاد اللازم.

كان بافلوف على علم باستعداد الألمان لهجوم مفاجيء، وطلب السماح له بشغل مناطق التحصينات على طول الحدود. وفي ٢٠ حزيران (يونيو) وردته شيفرة برقية تحمل توقيع نائب رئيس إدارة العمليات في الهيئة العامة للأركان (فاسيليفسكي) تقول إن طلبه قد رُفع إلى وزير الدفاع الذي لم يسمح بشغل مناطق التحصينات، لأن ذلك قد يستفز الألمان.

لست أرى شخصياً في تصرفات بافلوف، لا في فترة ما قبل الحرب ولا في أثناء العملية الدفاعية الصعبة، أية دلائل على الإساءة، ناهيك عن الخيانة. لقد مُنِيَتْ الجبهة الغربية بالفشل، ليس بسبب إهمال بافلوف، بل نتيجة لعدد من الأسباب أهمها التفوق العددي للخصم ومباغتته لنا بضرباته وتأخرنا في شَغْل مناطق التحصينات والتدخل غير الذكي من قبل كوليك في شؤون القتال...»(٣٩).

ها هو أيضاً بلاغ الجنرال صندالوف إلى الجنرال كوراسوف: «فيما يخص قائد الجيش الرابع، الجنرال كوروبكوف، فإن ظلماً صارخاً قد وقع في حق هذا القائد العسكري الموهوب الذي تميز في المعارك مع فنلندا، حيث كان يقاتل بشجاعة على رأس كتيبته. بعد نهاية الحرب مع فنلندا، تم تعيين الجنرال كوروبكوف قائداً لفيلق، ثم ـ قبل الحرب بأشهر ـ قائداً للجيش الرابع؛ فأثبت نفسه كقائد شجاع ونشيط. كانت نقيصته تكمن في الالتزام المطلق والتنفيذ الدقيق لأي توجيه يرد من قيادة الجبهة، بما في ذلك التوجيهات التي لا تلائم الموقف القائم.

لماذا سجن وحوكم قائد الجيش الرابع كوروبكوف بالذات، الذي منيَ جيشه ـ بالطبع ـ بخسائر فادحة، لكنه بقي جيشاً فاعلاً، ولم يفقد صلاته مع هيئة أركان الجبهة؟ لقد اقتضت التوجيهات بأن يكون ضمن **حصة** (لاحظو: «حصة»! ـ المؤلف) الجبهة الغربية في المحاكمات قائد أحد الجيوش؛ ولم يكن في متناول اليد سوى قائد الجيش الرابع. فقائدا الجيشين الثالث والعاشر في تلك الأيام كانا في مواقع غير معروفة والصلة معهما مقطوعة. هكذا تقرر مصير كوروبكوف، الذي فقدنا من خلاله

قائداً عسكرياً جيداً، أظن أنه كان سيصعد لاحقاً ليقف بين كوكبة أفضل قادة الجيش الأحمر...»[٤٠].

ليس عدد الذين كان بوسعهم أن يصعدوا (ولم يصعدوا) قليلاً. فقط سقط الكثيرون في ساحات القتال. وليسوا قلة الجنرالات الذين كانوا ينتحرون، حين تنفد إمكانيات الصمود في وجه العدو، ولا يريدون أن يقعوا في الأسر ولا أن يتعرضوا لبطش ستالين. احتفظت الأرشيفات بكثير من البلاغات حول حوادث من هذا النوع: «قائد الفيلق الآلي ١٧، الجنرال بيتروف، يبلغ تيموشنكو أن نائبه كوجوخين قد انتحر في ٢٣ حزيران (يونيو)... انتحر قائد القوى الجوية في الجبهة الغربية كوبيتس... ورئيس دائرة الدعاية في تلك الجبهة، ليستيف، في تقريره، يفسر انتحار كوبيتس كنتيجة لـ «انحطاط الهمة»، بسبب الفشل الجزئي والخسائر غير الكبيرة نسبياً في الطائرات...»[٤١]. هكذا كان يبدو أن الفشل «جزئي» والخسائر «غير كبيرة نسبياً»، أو قد يكون ليستيف لا يريد أن يُتهم أيضاً بأنه مذعور.

ثمّة جنرالات مروا بخضم تلك الأحداث المأساوية وكان مصيرهم مريراً أكثر من كل هذا. في آب (أغسطس) ١٩٤١، قدمت أجهزة الأمن تقريراً إلى ستالين يقول إن اثنين من الجنرالات قد استسلما طوعاً إلى الألمان ويعملان لصالحهم. الأول هو القائد السابق للجيش ٢٨، الجنرال كاتشالوف، والثاني قائد الجيش ١٢، الجنرال بونيديلين. كان قرار ستالين في أسفل التقرير: «حاكموهما». لم تكن كل الأوامر، خصوصاً في أيام الحرب الأولى، يتم تنفيذها (وإلا لما وصل الألمان إلى مشارف موسكو)، لكن أوامر من نوع «حاكموهما» كانت تنفذ بلا تلكؤ. في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤١ جرت محاكمة **غيابية** للجنرالين المذكورين وفقاً للمادة (٢٦٥) من القانون الجنائي لجمهورية روسيا. وحكم عليهما بالإعدام «مع مصادرة الممتلكات الشخصية والمطالبة بحرمانهما من أوسمة الاتحاد السوفييتي»[٤٢].

كان المخبرون التعساء لا يعرفون أن كاتشالوف سقط قتيلاً في ٤ آب (أغسطس) ١٩٤١ بسبب قذيفة أصابته مباشرة، فبقي أفراد عائلته وكل أقربائه ممهورين بختم «خائن الوطن» حتى عام ١٩٥٦. أما مصير بونيديلين، فقد كان أكثر مأساوية لقد جُرح الجنرال حين كان جيشه في الحصار خلال آب (أغسطس) ١٩٤١ بسبب قذيفة أصابته مباشرة، فبقي أفراد عائلته وكل أقربائه ممهورين بخاتم «خائن الوطن» حتى عام ١٩٥٦. أما مصير بونيديلين، فكان مأساوياً أكثر. لقد جرح الجنرال حين كان جيشه في الحصار خلال آب (أغسطس)، فوقع في الأسر وهو مغمى عليه. ولم تكسر شكيمته السنوات الأربع في معسكرات التعذيب الألمانية، بل تابع تنفيذ واجبه، وساند معنويات اليائسين من رفاقه الأسرى، ورفض ـ قطعاً ـ التعاون مع النازيين. بعد التحرير والعودة إلى الوطن، اعتقل الجنرال وقضى خمس سنوات في معسكر التعذيب السوفييتي، رغم أن حكم الإعدام صدر بحقه غيابياً منذ عام ١٩٤١. بعد رجاء قدمه بونيديلين إلى ستالين شخصياً، تمت محاكمته مجدداً في ٢٥ آب (أغسطس) ١٩٥٠، وحكم عليه بالإعدام مرة أخرى.

نعم، كان الزمن قاسياً وكان الناس قساة... مع بداية الحرب، ما كاد ستالين

يعود إلى ضبط نفسه، ويخرج من الصدمة النفسية التي شلته، حتى لجأ إلى وسائله المجربة في تصحيح الوضع: أعمال القمع، وتصعيد الرعب. كان الآلاف ومئات الآلاف من الناس يموتون في الجبهة، وأعداد أكثر من هذه تقع في الأسر. وكان الخارجون من الحصار والأسر يساقون إلى «معسكرات المراقبة». توجد مجموعة كاملة من تقارير بيريا حول عمل تلك المعسكرات: كان جزء من العسكريين، بعد مراقبتهم، يرسلون إلى تشكيلات عسكرية يتم تكوينها من جديد، وجزء آخر منهم يجري إعدامهم فوراً، والباقون يرسلون إلى معسكرات الاعتقال لفترات طويلة(٤٣). كان مصير هؤلاء مريراً جداً: العار والطعن في شرفهم وشرف عائلاتهم. بالطبع كان بينهم من خان الوطن متعمداً، أو تكشف عن ذلٍّ في النفس، فلم يؤدِّ واجبه العسكري، لكن الحديث ليس عن هؤلاء. لقد ربطنا قساوة ستالين، التي تبدت في بداية الحرب إزاء المواطنين السوفييت، بأسماء بافلوف وقادة أركانه فقط، لكن قلة من الناس تعرف أن ستالين، في نفس الفترة، وافق على سجن مجموعة كبيرة من القادة العسكريين، منهم:

- الجنرال ألكسييف، قائد فيلق الرماة السادس.
- الجنرال آروشانيان، قائد أركان الجيش الـ ٥٦.
- الجنرال غوبيتش، رئيس دائرة الاتصالات في الجيش الأحمر.
- الجنرال غولوشكيفيتش، نائب قائد الأركان في الجبهة الغربية.
- الجنرال إيفانوف، من احتياطي إدارة الكوادر في وزارة الدفاع.
- الجنرال كوزمين، رئيس قسم التكتيك في أكاديمية فرونزيه العسكرية.
- الجنرال ليونوفيتش، قائد أركان الجيش الـ ١٨.
- الجنرال ميليكوف، عميد إحدى الكليات في أكاديمية الهيئة العامة للأركان.
- الجنرال بوتاتورشيف، قائد كتيبة الدبابات الرابعة.
- الجنرال رومانوف، قائد أركان الجيش الـ ٢٧.
- الجنرال سيليفانوف، قائد فيلق الرماة الـ ٣٠.
- الجنرال سيماشكو، نائب قائد الأركان في جبهة لينينغراد.
- الجنرال تروبيتسكوي، رئيس إدارة البيانات العسكرية في الجيش الأحمر.
- الجنرال تسوريلنيكوف، قائد كتيبة الرماة الخامسة عشرة(٤٤).

لا تضمّ هذه القائمة أسماء كل المسجونين. ومصائر هؤلاء الناس مختلفة: بعضهم تمكن من العودة إلى الجبهة وابتلعت معسكرات الاعتقال بعضهم الآخر وقُتل البعض الثالث.

في غالب الأحوال كان ستالين يوافق ببساطة على إجراءات السجن وفي بعض الأحوال كان يصدر التوجيهات اللازمة لذلك بنفسه. مثلاً، في الخامسة والربع من صباح ١٩٤٢/٨/٢٥ أملى ستالين البرقية التالية:

«إلى فاسيليفسكي والينكوف شخصياً.

يدهشني أن يتم في جبهة ستالينغراد اختراق عميق في جبهة جيوشنا كذلك

الذي حصل العام الماضي في جبهة بريانسك، حين خرج الخصم نحو مدينة أوريول. تجدر الإشارة إلى أن قائد الأركان في جبهة بريانسك كان زاخاروف ذاته، كما كان ممثل الرفيق يريمنكو هو روخله ذاته. ألا يجب التمعن في هذا الأمر؟ إمّا أن يكون يريمنكو لا يفهم فكرة الحزام الثاني في نقاط الجبهة التي تمسك بها كتائب جديدة، وإمّا أننا أمام إرادة شريرة تنقل إلى الألمان بدقة نقاط الضعف في جبهتنا...»(٤٥).

ما كان ستالين ليتجرأ على التشكيك مباشرة بأمانة يريمينكو وزاخاروف، لكنه يشكك بوضوح في أمانة الجنرال روخله، رئيس دائرة العمليات في هيئة أركان الجبهة. فهو لا يرى المنطق في كون القادة العسكريين الألمان يبحثون عن أكثر النقاط ضعفاً في جبهتنا ويوجهون إليها ضرباتهم، بل يبحث عن السبب في «إرادة شريرة» تتجسس لصالح الألمان. بعد مثل هذه البرقية لا يبقى العاملون في «القسم الخاص» بحاجة إلى أية حجج أخرى، فـ «الأعلى» نفسه أعطى الحجج... تم إلقاء القبض فوراً على الجنرال روخله، لكن القدر كان رحيماً تجاهه، فبقي حياً في آخر المطاف. لم يتمكن ستالين قط أن يتخلى نهائياً عن «الألعاب» القاسية، لكن الجميع كانوا آنذاك يتخيلون أن قساوة العصر تبرر الإجراءات القاسية التي يتخذها «الزعيم».

مرارة الحنظل:

في بداية آب (أغسطس)، كان ستالين قد أغفى ـ كالعادة عند الصباح ـ ليأخذه نوم قلق. وما كادت الوسادة تستقر تحت رأسه، حتى غاب فوراً في عتمة عميقة ولزجة. كان ستالين ـ كما صرح بنفسه ذات مرة لـ بوسكريبيشيف ـ نادراً ما يرى أحلاماً في نومه: لم يكن ضميره يعذبه، ولم تكن أشباح رفاقه في الحزب، الذين بطش بهم، تتجول أمام بصيرته، كما لم يتناهَ إلى مسامعه ـ من الماضي ـ صوت زوجته وأقاربه الذين أعدموا. كانت طبيعته محاطة بعوازل أخلاقية تصون وعيه من الآلام الروحية والندم وتعذيب الضمير. ففي عقله ومشاعره، كانت مجمدة ومقموعة كل المراكز التي تتأثر بمعايير الأخلاق الإنسانية العامة. على كل حال لم يكن السهاد ـ إذا جاءه السهاد ـ نتيجة لعذاب الضمير إطلاقاً.

والآن، خلال ثلاث أو أربع ساعات من النوم، استيقظ ستالين بضع مرات. لا، ليس الرؤى ولا الكوابيس ولا هدير المدافع هو الذي يعيق نومه. كان الرجل يستيقظ بسبب الرائحة المريرة لنبات الحنظل، تماماً كما كان الأمر قبل سنوات بعيدة في ضواحي تساريتسين. آنذاك، سافر هو وفوروشيلوف إلى الجبهة. وفي طريق العودة توقفا لبضع دقائق عند إحدى التلال ليأكلا كسرة خبز. تمدد ستالين على العشب يومها وأغفى لبضع دقائق في غيمة من رائحة الحنظل المنتشرة في السهب الحار. في سراب القيظ، تحت السماء الحارة التي لا تخوم لها، أحس الرجل كم هو ضئيل وأجرد وتافه، بينما راح يهوي في لجة النوم وكأنه يطفو على أمواج من رائحة الحنظل... واليوم أيضاً، أحس جلياً بتلك المرارة القديمة إلى حد أنه شعر بمذاق الحنظل. لكنه طرد عنه مسألة النوم حين جالت في خاطره ذكرى التقرير الليلي الذي قدمته بالأمس الهيئة العامة للأركان: كانت مرارة الهزيمة تلاحق الجيش وقائده الأعلى على كل مدى

الجبهة العملاقة. نهض ستالين وشرب الشاي، لكنه لم يسافر إلى الكرملين، بل أمر شابوشنيكوف بالمجي إليه في الثانية عشرة ظهراً لتقديم تقرير عن الوضع في الجبهات مع الاستنتاجات والاقتراحات اللازمة. في الثانية عشرة إلا ربعاً كان رئيس الهيئة العامة للأركان في القصر الريفي، واقترب من الخريطة المنشورة على الطاولة، ثم راح ينتقي الكلمات ويقدم تقريره بصوت منخفض. «كأنه يقرأ محاضرة» ـ قال ستالين في نفسه، لكنه لم يقاطعه. كانت «المحاضرة» رهيبة تفوح بمرارة الحنظل. بدأ شابوشنيكوف بفكرة واضحة الصياغة:

ـ يمكن القول إننا خسرنا المرحلة الابتدائية من الحرب خسارة خالصة. العمليات القتالية أصبحت تدور اليوم على مشارف لينينغراد، وفي منطقة سمولينسك، وحول عقدة كييف الدفاعية. لا تزال استمرارية دفاعنا متدنية كما في السابق، ونحن مستمرون في التوزيع المنتظم للقوات على طول الجبهة، غير عارفين أين سيضرب العدو، غداً، ضربته التالية. المبادرة الاستراتيجية تبقى كاملة بين يديه، ويعمق من هذا الوضع انعدام الأحزمة الثانية، وقوات الاحتياط في عدد من مقاطع الجبهة. في الجو تهيمن الطائرات الألمانية، مع أن خسائرها فادحة أيضاً (لم يكن أحد يعرف بعد أننا، حتى ٣٠/٩/١٩٤١، سنفقد ٨١٦٦ طائرة، وهذا يعادل ٩٦,٤٪ من مجمل ما كان لدى الجيش في بداية الحرب[٤٦] ـ المؤلف). عدد الكتائب التي تمكنا من تأمين طاقمها بنسبة ٨٠٪ هو ٩٠ كتيبة من أصل ٢١٢ كتيبة تتكون منها الجيوش المقاتلة. عند مشارف لينينغراد بدأ الدفاع الذي تبديه قواتنا يصبح لدناً بالتدريج، ويبدو أن ديناميكية التقدم الألماني تتضاءل. ربما اضطررنا إلى نقل الأسطول الحربي كله إلى كونشتان، ولا بد من خسائر كبيرة.

ثم تابع رئيس الهيئة العامة للأركان:

ـ لقد سمحت لنا معركة سمولينسك بإيقاف الجيوش الألمانية على أخطر محور، وهو المحور الغربي. تفيد حساباتنا (ينظر إلى دفتره) أن ٦٠ كتيبة ألمانية يبلغ تعدادها حوالى نصف مليون تشارك في هذه المعركة. كما تعرفون أيها الرفيق ستالين، تم ضم الجيوش الـ ١٩ والـ ٢٠ والـ ٢١ والـ ٢٢ إلى الجبهة الغربية منذ بداية تموز (يوليو) بقصد تكثيفها، لكن عيوب جيوشنا ما زالت محسوسة، وغالباً ما تبني الكتائب أنظمتها الدفاعية على حزام واحد. لم تعطِ محاولاتنا شن هجوم معاكس هنا بواسطة الجيوش الـ ٢٩ والـ ٣٠ والـ ٢٤ والـ ٢٨ سوى نجاح جزئي، مما سمح للجيشين الـ ٢٠ والـ ١٦ باختراق طوق الحصار وعبور خط الجبهة. كما أن هجومنا المعاكس أحبط الضربة الألمانية.

أخيراً قاطعه ستالين:

ـ وما هو دور الجبهة الوسطى في هذه المعركة؟

ـ لدينا كل الأسس لأنْ نفترض أن ضربة التجمع الألماني ستنزاح إلى هنا. لكن ترتيب قوى الجبهة على حزام واحد يتكون من ٢٤ كتيبة غير كاملة يدعو إلى قلق كبير. لا يستبعد أن نضطر إلى تشكيل مجموعة جبهية جديدة هنا...

فهم ستالين الشيء الرئيسي: كشفت معركة سمولينسك (التي كانت موقعة «يلنيا» فيها هي الأبرز) عن القدرة الحقيقية للجيش الأحمر على إيقاف العدو، حتى هنا، على المحور الأساسي، حيث تمركزت معظم قواه. ثم راحت من جديد كلمات شابوشنيكوف تدخل إلى وعيه:

ـ... لم نتمكن من التشبث بالحدود القديمة. فلم يستطع الجيش السادس أن يصمد. من حيث الجوهر، خرج الألمان الآن نحو خط الالتفاف الخارجي على منطقة التحصينات في كييف، وشقوا الجبهة نصفين: إلى الشمال ـ الجيش الخامس المعتصم بمنطقة التحصينات في كوروستيانسك، وفي الجنوب ـ ثلاث قوى أساسية، هي الجيوش الـ ٦ والـ ١٢ والـ ٢٦. لم تسفر الضربات المعاكسة التي وجهناها إلى جناحي المجموعة التي اخترقت جبهتنا إلا عن نتائج جزئية. في هذا الصباح يجب أن نعتبر أن الجيشين الـ ٦ والـ ١٢ مفصولان.٪

لم يسمح ستالين لـ شابوشنيكوف بمزيد من الكلام:

ـ أخشى على نهر الـ دنيبر ومدينة كييف. يجب أن نفعل شيئاً ما...

ـ لقد أرسلنا إيعازات أولية لتهيئة خط دفاعي متين على الضفة الشرقية للـ دنيبر ـ قال رئيس الأركان.

ـ هل يمكننا الآن التحدث إلى قيادة الجبهة الجنوبية الغربية؟

فأجاب شابوشنيكوف:

ـ إذا لم يكن كيربونوس وخروتشوف في الوحدات العسكرية، فسنتصل بهم حالاً.

بعد دقائق كان الجهاز يدق قائلاً: «كيربونوس على الجهاز...». سأورد فقرة من المحادثة التي بقيت في الأرشيفات العسكرية:

«**ستالين** على الجهاز. مرحبا. لا يجوز، بأي حال من الأحوال، السماح بانتقال الألمان إلى الضفة اليسرى لنهر دنيبر في أية نقطة. قولوا لي، هل لديكم إمكانية لعدم السماح بوقوع مثل هذا الحدث؟ ثم إن من الجيد أن تنسقوا مع بوديوني وتولينيف خطة لإقامة خط دفاعي يمتد من خيرسون حتى كاخوفكا عبر كريفوي روغ وكريمنتشوغ، وهكذا شمالاً بمحاذاة الدنيبر، بما في ذلك منطقة كييف على ضفة الـ دنيبر اليمنى. إذا وافقتم جميعاً على إنشاء هذا الخط الدفاعي التقريبي، يجب البدء فوراً بعمل دؤوب لتنظيمه والاحتفاظ به مهما بلغ الثمن... ولو أنجزتم ذلك، لكان بوسعنا أن نستقبل عند ذلك الخط الدفاعي الوحدات المُتعِبة التي تتراجع لكي ترتاح ونستبدلها بوحدات حية القوى. لو كنت في مكانكم، لاستخدمت لهذا الغرض ليس فقط كتائب الرماة، بل وكذلك كتائب الخيالة الجديدة، على أن تترجل وتمارس دور كتائب المشاة مؤقتاً. انتهى.

كيربونوس. لقد اتخذنا كل الإجراءات الحَربية بعدم السماح للعدو أن يعبر إلى ضفة الـ دنيبر اليسرى أو أن يحتل مدينة كييف. لكن يجب تقوية جبهتنا بوحدات

إضافية. إننا، حتى الساعة، أيها الرفيق ستالين، نستلم القوى الإضافية بوتيرة بطيئة. هنالك كتائب لا تضم سوى ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ حربة. كذلك الوضع سيىء بالنسبة للعتاد. نرجو منكم تقديم المساعدة بهذا الخصوص.

توجيهكم بشأن إقامة الخط الدفاعي الجديد صحيح تماماً. سوف نشرع فوراً بمعالجة الأمر. ونرجو أن تسمحوا لنا إبلاغكم عن الأمر قبل الساعة ١٢ من تاريخ ٥ (آب ـ المؤلف)... ونحن مكلفون من قبل الرفيق بوديوني ببدء هجوم ابتداءً من صباح السادس من آب (أغسطس) في منطقة كورسون باتجاه زفينيفورودوك وأومان بهدف تقديم العون للجيشين الـ ٦ والـ ١٢، وتشكيل جبهة موحدة مع الجبهة الجنوبية... إذا كان لا اعتراض لديكم على هذا الهجوم، وإذا نجحنا فيه، فإن الخط الدفاعي قد ينزاح نحو الغرب. انتهى.

ستالين: لا اعتراض لدي، بل أُرحب كل الترحيب بشن هجوم يهدف إلى الاتحاد مع الجبهة الجنوبية وإلى فك الحصار عن الجيشين المذكورين. توجيهات بوديوني صحيحة تماماً، لكنني أطلب منكم إقامة الخط الدفاعي الذي تكلمتُ عنه؛ ففي الحرب علينا أن نحسب الحساب ليس فقط للاحتمالات الحسنة، بل وللاحتمالات الأسوأ أيضاً. هذه هي الطريقة الوحيدة كي لا يُسقط في أيدينا لاحقاً...»(٤٧).

للأسف، لم تتحقق آمال ستالين. وراحت مرارة الحنظل تلاحقه ليس فقط ليلاً، بل ونهاراً أيضاً... كانت عمليات الدفاع عن كييف تسير متعثرة، وظل الجيشان الـ ٦ والـ ١٢ يقاتلان في أوضاع معقدة حتى ٧ آب (أغسطس). وحين نفدت إمكانية الصمود، انتهى وجود الجيشين. أما المارشال بوديوني ـ الذي لم تساعده أسطورة اسمه في هذه الحرب الجديدة ـ، فتوجس من خطر الحصار المحدق في الجبهة الجنوبية وطلب إلى القيادة السماح بسحب الجيوش إلى ما وراء نهر إنغول. استشاط ستالين غضباً ومنع التراجع، آمراً باتخاذ خط دفاعي آخر(٤٨). وأصدر أمراً خاصاً تحت رقم (٦٦١) لدعم قوات الجبهة الجنوبية الغربية بـ ١٩ كتيبة رماة و ٥ كتائب خيالة. كانت تلك الكتائب حديثة العهد ولم تلتحم بعد، وغير مدربة، كما كان يعوزها السلاح. وحين زُجت في المعركة، لم تبدِ صموداً في الدفاع. ضمن ظروف البلبلة، كان يسيطر الذعر أحياناً ويبدأ الانسحاب الذاتي من المواقع.

حين كان ستالين يبلَّغ عن ترك هذا الموقع أو ذاك، هذه المدينة أو القرية، كان يحتد غضبه حيناً، ويهوي في الكآبة حيناً آخر. ورغم أن قاعدته كانت أن لا يستعجل في تقويم الأمور والناس، إلا أنه كان يفعل ذلك بعد هذا البلاغ أو ذاك. في هذه المرة، صبّ جام الغضب على قائد الجبهة الجنوبية تولينيف، الذي يعرفه ستالين منذ زمن. تقول برقية إلى بوديوني ما يلي:

«قائد الجبهة تولينيف، كما يتبين، فاشل. إنه لا يجيد الهجوم، ولا يجيد سحب الجيوش. لقد فقد جيشين بطريقة لا تليق حتى بفقدان فوج. أقترح عليكم الذهاب فوراً إلى تولينيف والاطلاع على الوضع مباشرة وتقديم تقرير فوري عن خطة الدفاع...

أعتقد أن تولينيف قد انهارت معنوياته وعاجز عن قيادة الجبهة.

ستالين

أمليت هاتفياً في الساعة الخامسة وخمسين دقيقة.

١٩٤١/٨/٧/١٢

التوقيع: شابوشنيكوف»[٤٩]

كان القائد الأعلى يرسل برقيات مرعبة، ويصدر أوامر صارمة، ويوقع على توجيهات مكتوبة في عجالة، لكن الوضع يزداد سوءاً. وفي آب (أغسطس) ـ أيلول (سبتمبر)، بلغ الوضع على المحور الجنوبي الغربي لحظته الحرجة. كان ستالين يحاول الاتصال بهذا أو ذاك أو ذينك من قادة الجيوش، لكن ليس دائماً يتمكن من ذلك. في إحدى المرات وصله بلاغ من الهيئة العامة للأركان حول تراجع ذاتي لعدد من الوحدات، فأملى فوراً «الأمر رقم (٢٧٠) للقيادة العليا العامة للجيش الأحمر في ١٦/٨/١٩٤١».

الجميع يعرفون «أمر وزير الدفاع رقم (٢٢٧) في ٢٨/٧/١٩٤٢» ذائع الصيت، لكن الأمر «رقم (٢٧٠)»، الذي كان تلويحة يأس، صدر قبل ذلك بسنة تقريباً، وهو من تأليف ستالين بالذات. فحين فقدَ آماله في تثبيت خط الجبهة والحيلولة دون تدمير قواها، لجأ القائد الأعلى إلى أسلوبه المحبب، أسلوب القمع الصارم، وذلك تحت ضغط الظروف الحرجة؛ لم تكن لديه أدوات أخرى.

قلة هم اليوم من يعرفون «الأمر رقم (٢٧٠)». ولذلك سأورده كنموذج لإبداع ستالين في كتابة الأوامر. في البداية يتحدث النص عن حالات القادة العسكريين والموجهين السياسيين والجنود الذين يبدون رباطة جأش حين تحاصَر وحداتهم ويخرجون من المأزق بشرف. هكذا، مثلاً، كان أمر الجنرال كوزنيتسوف، قائد الجيش الثالث الذي نظَم ـ بالتعاون مع ضباطه والموجهين السياسيين ـ خروج الكتيبتين ١٠٨ و ٦٤ من الحصار...

«إلى جانب ذلك، أبدى الجنرال كاتشالوف، قائد الجيش الـ ٢٨، جبناً وسلم نفسه أسيراً، بينما خرجت هيئة أركانه والوحدات من الحصار، كما أن الجنرال بونيديلين، قائد الجيش الـ ١٢، سلم نفسه أسيراً، مثلما فعل قائد الفيلق الـ ١٣، الجنرال كيريلوف. إنها وقائع مخزية. يجب إبادة الجبناء والفارين من مواقعهم.

أمــر:

١ ـ اعتبار الذين يخلعون شارات الرتبة أثناء القتال عن ثيابهم، والذين يسلمون أنفسهم أسرى، بمثابة فارين من الجيش. يتوجب إلقاء القبض على عوائلهم بوصفها عوائل أناس نقضوا اليمين وخانوا الوطن، وإعدام هؤلاء الفارين مباشرة.

٢ ـ على مَن يقع في الحصار القتال حتى آخر إمكانية، والخروج نحو قواتنا

الأساسية، وإعدام كل من يفضل الاستسلام. وحرمان عائلات الجنود الأسرى من المعاشات الحكومية والمساعدات.

٣ ـ تصعيد الشجعان بشكل أسرع.

قراءة هذا الأمر في كل الفصائل والسرايا والمجموعات»(٥٠).

إنه أمر يدل على يأس وقسوة. ومع أن ستالين أملاه باسمه كقائد، طلب ـ بعد توقيعه عليه ـ أن يوقعه أيضاً كل من مولوتوف وبوديوني وفوروشيلوف وتيموشنكو وشابوشنيكوف وجوكوف، مع أن بعضهم لم يكن موجوداً لحظتها في مقر القيادة العليا. كان الوضع مترديا إلى حد يجعل ستالين على استعداد لأية خطوة مهما كانت يائسة. وكانت أوامر من هذا النوع تنفّذ في بعض المواقع بنشاط. ففي أواخر آب (أغسطس) ١٩٤١ وصلت إلى ستالين رسالة من الكاتب فلاديمير ستافسكي، الذي قضى عشرة أيام على الجبهة في منطقة يلنيا:

«الرفيق العزيز ستالين.

إن عدداً من وحداتنا العسكرية يقاتل بهمة ويوجه ضربات قاصمة إلى الفاشيين. فبعد أن استلم قيادة الكتيبة الـ ١٩ رفيق شجاع ونشيط، هو الرائد أوتفنكو، تمكنت أفواج الكتيبة التي تقاتل على مدى ١١ كيلومتراً... أن تحطم فوج المشاة الـ ٨٨ وتصد بضع هجمات ألمانية معاكسة... إن الوحدات المقاتلة قرب «يلنيا» تتعلّم وتُراكِم الخبرة القتالية وتدرس تكتيك العدو وتضرب الألمان...

لكن هنا، في الجيش الـ ٢٤ حدث في الفترة الأخيرة عمل مبالَغ به... تفيد معطيات القيادة أن ٤٨٠ ـ ٦٠٠ إنسان قد أعدموا خلال الفترة الأخيرة بتهمة الفرار ونشر الذعر وغير ذلك، وفي الوقت ذاته تم تقديم ٨٠ شخصاً لنيل الأوسمة. في يوم أمس الأول عالج قائد الجيش، الرفيق راكوتين، ورئيس الدائرة السياسية، الرفيق أبراموف، ذلك الخطأ ووضعوا له حداً...»(٥١).

في ذيل الرسالة التي تتحدث عن إزهاق أرواح ٤٨٠ ـ ٦٠٠ شخص، ترك ستالين عبارة قصيرة: «إلى الرفيق ميخليس. التوقيع: ستالين». لم يكن يهمه عدد الضحايا المذكور، فهو بالذات من يسمح بمثل تلك التضحيات الفظيعة. نعم، إن الحرب قاسية، والوضع يدعو لليأس، لكن قرارات ستالين لا تحوي أية إشارة إلى مخاطبة عقل الناس وشرفهم ورجولتهم ومشاعرهم الوطنية وعزتهم القومية... إنه، على عادته، يؤمن فقط بالقوة والعنف. كانت إحدى أكبر المآسي في الحرب الوطنية الكبرى تقترب. في ١٩٤١/٨/٨ كان ستالين يتحدث مع كيربونوس مجدداً:

«**بلدة بروفاري**. الجنرال كيربونوس على السمع.
مدينة موسكو. ستالين على السمع.

ستالين: بلغتنا أنباء بأن جبهتكم قررت أن تسلم كييف للعدو، ببساطة، تحت ذريعة النقص في الوحدات القادرة على حماية كييف. هل هذا صحيح؟

كيربونوس. مرحبا، أيها الرفيق ستالين. الأنباء التي بلغتكم ليست صحيحة. أنا والمجلس العسكري للجبهة نتخذ كل الإجراءات لعدم تسليم كييف بأي حال من الأحوال... كل أفكارنا وطموحاتنا، أنا وأعضاء المجلس العسكري، موجهة إلى عدم ترك كييف للعدو...

ستالين: حسناً جداً. أشد على أيديكم بقوة. أتمنى لكم النجاح. انتهى»(٥٢).

كانت الجبهة الجنوبية الغربية لا تزال صامدة بكل ما أوتيت من عزيمة. وقد كُتب الكثير حول بطولات المدافعين عن كييف الذين بذلوا قصارى جهدهم. لكننا لن نستطيع أبداً أن ننقل مشاعر وأفكار المدافعين عن عاصمة أوكرانيا (التي كانت جزءاً من بطولة الأكثرية الساحقة للمواطنين السوفييت) ولدهشتهم المريرة أمام سلسلة الهزائم الطويلة التي أوصلت المعتدي إلى ضفاف الـ دنيبر. كان الشعب أيضاً يشعر برائحة الحنظل المريرة، بمرارة الهزيمة.

في ١٥ أيلول (سبتمبر) تمكنت مجموعتا الدبابات الألمانيتان، الأولى والثانية، من إغلاق طوق الحصار في منطقة لوخفيتسا، وحوصرت القوى الأساسية للجبهة الجنوبية الغربية. بقيت ضمن الطوق الجيوش الـ ٥ والـ ٢٦ والـ ٣٧ ووحدات من الجيشين الـ ٢١ والـ ٣٨. قبل أربعة أيام من انغلاق الطوق الدامي حول الجيوش المنهكة، دار الحديث الأخير بين ستالين وكيربونوس:

«**بلدة بريلوكي.** مرحبا. كيربونوس وبورميستنكو وتوبيكوف على السمع.

مدينة موسكو. مرحبا. هنا ستالين وشابوشنيكوف وتيموشنكو. اقتراحكم بسحب الجيوش إلى تخوم النهر المعلوم لديكم (نهر بسيل ـ المؤلف) يبدو لي خطيراً. إذا عدنا إلى الماضي القريب، فستتذكرون أنكم، أثناء سحب الجيوش من منطقة بيرديتشيف ونوفغورود ـ فولينسكي، كنتم تملكون تخماً أفضل، هو نهر الـ دنيبر، ورغم ذلك فقدتم جيشين خلال الانسحاب... والعدو عبَر النهر... إلى الضفة الشرقية للـ دنيبر... المخرج كالتالي:

١ ـ إعادة تجميع القوى فوراً، ولو على حساب منطقة التحصينات في كييف والجيوش الأخرى، وشن هجمات مستميتة على مجموعة العدو في كونوتوب بالتعاون مع يريمنكو...

٢ ـ التنظيم الفوري لخط دفاعي على نهر بسيل أو بمحاذاته، من خلال ترتيب مجموعة المدفعية على خط جبهي نحو الشمال والغرب وسحب ٥ ـ ٦ كتائب إلى خلف هذا الخط.

٣ ـ ... فقط بعد تنفيذ هاتين النقطتين، أي بعد تكوين قبضة ضد مجموعة العدو في «كونوتوب» وإنشاء خط دفاعي على طول نهر بسيل، يمكن البدء بإجلاء كييف...

عدم ترك كييف وعدم تفجير الجسور دون سماح من القيادة العليا. انتهى. إلى اللقاء.

كيربونوس. توجيهاتكم واضحة. انتهى. إلى اللقاء»[٥٣].

كان بوسع بطل الاتحاد السوفييتي الجنرال كيربونوس، أن يقول في تلك اللحظة «وداعاً»، فلم يبقَ من حياته سوى القليل. لن يستلم الجنرال مزيداً من توجيهات القائد الأعلى الذي لا يأخذ في الحسبان الموقف الملموس: لم يكن الحصار كاملاً بعد، وكانت توجد إمكانية للخروج من الطوق القاتل! توجه المجلس العسكري بنفس الرجاء إلي ستالين مرة أخرى (برقية رقم ١٥٧٨٨) في الخامسة من ١٧ أيلول (سبتمبر). ولم يسمح ستالين، هذه المرة أيضاً، بالإفلات من الحصار، بل وافق فقط على تراجع الجيش الـ ٣٧، الذي يقوده الجنرال فلاسوف، إلى ضفة الـ دنيبر الشرقية. وصل الوضع إلى أقصى الحرج. عند عصر ١٧ أيلول (سبتمبر)، قرر المجلس العسكري للجبهة، رغماً عن مطالب ستالين، إخراج الجيوش من الحصار، لكن الأوان كان قد فات: هيئة الأركان فقدت الصلة مع الجيوش، وراحت الوحدات، على مسؤوليتها، تقاتل للإفلات نحو الشرق على مدى عشرة أيام، لكن القليلين نجحوا في ذلك. أما القيادة العليا، جهلاً منها بالموقف، فاستمرت ترسل إلى كيربونوس برقيات تهدىء باله في ٢٢ و ٢٣ أيلول (سبتمبر):

«إلى كيربونوس. الجبهة الجنوبية الغربية.

مزيداً من الحزم والهدوء. النجاح حتمي. قوات العدو التي تواجهكم قليلة. كثفوا المدفعية على مقاطع الاختراق... كل طيراننا يعمل لمساعدتكم. قواتنا تهاجم (رومني)... أكرر: مزيداً من الحزم والهدوء والحيوية في العمل.

بلّغونا بتواتر أكبر.

شابوشنيكوف»[٥٤]

كانت الكارثة مريعة! ٤٥٢٧٢٠ إنساناً ضمن دائرة الحصار الألماني، بمن في ذلك ٦٠ ألف ضابط من مختلف الدرجات[٥٥]، وحصل العدو على كمية هائلة من الأسلحة والآليات. قُتل قائد الجبهة كيربونوس وقائد الأركان توبيكوف وعضو المجلس العسكري بورميستنكو في المعارك الأخيرة، أسوة بآلاف وآلاف المحاربين. وعلى كل حال، حتى لو أن كيربونوس خرج من طوق الحصار، لما كان ستالين غفر له تلك الكارثة التي لا يعتبر ـ طبعاً ـ أنه يمت بصلة إلى المسؤولية عنها.

في تلك الكارثة، وهي من أشنع كوارث الحرب الوطنية الكبرى، لم يكشف ستالين سوى عن عناد حديدي بدلاً من حس المناورة العملياتية وتفهم الموقف. لو كان، كقائد أعلى، يدرك ـ ولو سطحياً ـ ما الذي يجري على مشارف مينسك وفي القرم وفي ضواحي كييف وقرب سمولينسك، لربما أبدى شيئاً من الحكمة الاستراتيجية، إلى جانب عناده وتفكيره المبسط. لكن الحكمة لم تكن رفيقته في عام ١٩٤١.

إن القيادة العليا، والقائد الأعلى، مسؤولان إلى حد كبير عن مأساة الجبهة الجنوبية الغربية. طبعاً، قصرت قيادة الجبهة في تأمين الإدارة اللازمة للقوات

الضخمة الموكلة إليها، التي كانت قادرة ـ في ظل قيادة أكثر فعالية ـ أن تتجنب مثل هذه النهاية المحزنة. فغالباً ما كانت شجاعة الناس غير مدعومة بالخبرة والانتظام والدراية. إن هزيمة كييف هزت مرة أخرى ميزان الصراع المميت على الجبهة الألمانية ـ السوفييتية لصالح المعتدي. خارجياً لم يبدُ أن ستالين متأثر للخسارة، فقد اكتفى بالقول لـ شابوشنيكوف (رئيس الهيئة العامة للأركان، من جديد، بعد تموز ١٩٤١):

ـ يجب ترقيع الفجوة... وبسرعة!

ـ لقد اتخذنا الإجراءات. يبدو أننا سنتمكن من إعادة تشكيل الجيشيين الـ ٢١ والـ ٣٨. لقد أمرت بتقديم خمس كتائب رماة وثلاثة ألوية دبابات من احتياطي القيادة العليا. الآن نشكل الجبهة الجنوبية الغربية. يلزمنا قراركم حول القادة.

ـ من تقترحون أنتم؟ ـ سأله ستالين.

ـ أظن إننا، في هذا الوضع المعقد، نحتاج هناك يداً صلبة ورأساً مجرَّباً، وأظن إن تيموشنكو هو الأفضل.

ـ موافق.

ـ ويجب تعيين خروتشوف عضواً للمجلس العسكري وبوكروفسكي قائداً للأركان.

ـ ليكن كذلك...

كانت الخسائر الهائلة تتطلب التعويض السريع، وكانت الإدارة العامة لتشكيل الوحدات في وزارة الدفاع بالتعاون مع المناطق العسكرية تنجح إلى حد ما في أداء مهمة التصعيد المستمر للناس الذين يلتهمهم الإله «مولوخ» الذي تقمص هيئة الحرب. حين بقي ستالين وحيداً في مكتبه، اتصل بـ شابوشنيكوف وطلب معلومات عن الخسائر في الأرواح وإمكانيات التعويض عنها. بعد نصف ساعة، كانت الورقة على طاولة ستالين مع إضافة بخط يد شابوشنيكوف حول احتمال عدم الدقة في الأرقام، فالأحداث تتطور بسرعة فائقة...

كانت وثيقة الهيئة العامة للأركان تقول إن هنالك حالياً في الاحتياط ٣٩ فيلق رماة، يتم فيها إعداد المتطوعين الجدد، وقد تم اعتماد فترة تدريب قدرها شهر ونصف ـ شهران بالنسبة للمجندين و ٣ أشهر لإعداد صف الضباط. خلال شهر آب (أغسطس) قدمت الجبهات ٦١٣ ألف إنسان، وهناك ٣٨٠ ألف شخص سُحبوا من مختلف المؤسسات العسكرية في المؤخرة والمعاهد والمدارس العسكرية. حتى نهاية السنة يمكن لمعاهد التدريب العسكري أن تقدم حوالى ٢,٥ مليون إنسان... **وها هي** الخسائر (الخسائر «النهائية»، كما تسمى، والخسائر «الطبية»)، لكنها مخفضة بوضوح؛ وقد شعر بذلك ستالين فوراً:

ـ حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) ١٩٤١: ٦٥١٠٦٥
ـ آب (أغسطس): ٦٩٢٩٢٤

ـ أيلول (سبتمبر): ٤٩١٠٢٣[٥٦].

لكنه، ستالين، يعرف أن في معركة كييف وحدها بلغت الخسائر حوال نصف مليون إنسان... وأكثرهم سيُدرجون ضمن عداد «المفقودين» ـ كم كان عدد هؤلاء في سنوات الحرب؟

دون ارتباط مع ما يقرأ ويفكر في تلك اللحظة، كتب ستالين ملاحظات وأرسلها مع بوسكريبيشيف متضمنة الكلمات الواضحة التالية:

«إلى الرفيق شابوشنيكوف.
أرجو إعطاء معلومات مؤكدة عن خسائرنا أثناء التراجع من منطقة «ستارايا روسا».

ستالين»[٥٧]

لماذا لفت انتباهه شأن «ستارايا روسا» بالذات؟ صعب أن ندري ذلك. ربما لأن هجماتنا المعاكسة هناك لم تأتِ بالنتيجة المرجوة؟ أم ربما لأنه كان يظن ـ بعد توجيه القيادة العليا بالصمود على خطوط الدفاع الحالية وممارسة الدفاع المستميت ـ يجب إعارة الاهتمام ليس فقط للجبهات الأساسية، بل ولمواقع القتال الجزئية؟ سيستمر ستالين لاحقاً أيضاً في الاهتمام بوضع جيوش محددة وبمواقع قتالية منفردة، ربما لأنه كان من خلال تلك الجزئيات يكون لنفسه صورة شاملة عن الحرب.

لم يكن ستالين يفكر بأقاربه وأهله، لكنه الآن تذكر ابنه ياكوف على نحو لا إرادي. في أواسط آب (أغسطس) أرسل إليه جدانوف ـ وهو عضو المجلس العسكري للجبهة الشمالية الغربية ـ رسالة في ظرف خاص، مختوم بالشمع الأحمر. كانت الرسالة تتضمن منشوراً عليه صورة ياكوف وهو يتحدث إلى ضابطين ألمانيين، وتحتها النص التالي:

«وهذا ياكوف دجوغاشفيلي، الابن الأكبر لستالين، قائد بطارية المدفعية الـ ١٤ في الفوج المدفعي الـ ١٤ من كتيبة الدبابات، وقد استسلم أسيراً يوم ١٦ تموز (يوليو) في ضواحي فيتيبسك مع الآلاف من الضباط والجنود الآخرين. لقد أمر ستالين أن يعلمكم تيموشنكو وغيره من موجهيكم السياسيين بأن البلاشفة لا يسلمون أنفسهم أسرى، لكن جنود الجيش الأحمر يفرون إلى الجانب الألماني بشكل متواصل. والقوميسارات يكذبون لكي يرعبوكم من أن الألمان يسيؤون معاملة الأسرى. لكن هذا هو ابن ستالين بالذات يقدم مثالاً على دجل هذا الكلام، فقد سلّم نفسه أسيراً، لأن أية مقاومة للجيش الألماني لا جدوى فيها...»[٥٨].

كان ستالين يقلق لمصير ابنه من ناحية واحدة فقط: إثمٌ هو التفكير بهذا النحو، لكن من الأفضل لو أن ياكوف سقط قتيلاً في المعركة ـ هكذا كان يفكر الأب ـ... ماذا إذا كسروا معنوياته ولم يصمد (وهو ضعيف!) وبدأ (أي ياكوف) يتكلم. في الإذاعة ويقرأ كل المنشورات حسب ما يأمره الألمان؟ الابن «اللَّزِم» للقائد الأعلى ضد وطنه وضد أبيه! كانت تلك صورة لا يحتملها الوعي. بالأمس، حين بقي هو ومولوتوف

وحدهما، قال له الأخير إن رئيس الصليب الأحمر السويدي، الدوق برنادوت، أرسل طلباً شفهياً من خلال السفارة السويدية في موسكو: هل يخوله ستالين (أو أي مسؤول آخر) بصلاحية العمل على إطلاق سراح ابنه ياكوف من الأسر؟ فكر ستالين دقيقة أو اثنتين، ثم نظر إلى مولوتوف، وبدأ الحديث عن شأن آخر تماماً، موحياً بذلك أن الجواب لن يأتي:

ـ أجيبوا على رسالة تشرتشل بـ «لا يمكن الشك بأن المواطنين السوفييت، في حال الضرورة، سوف يدمرون فعلاً كل السفن السوفييتية في لينينغراد. لكن المسؤول عن هذه الخسارة ليست انكلترا، بل ألمانيا. لذلك أعتقد أنه سيتوجب تعويض الخسارة بعد الحرب على حساب ألمانيا»(٥٩).

دوّن مولوتوف كتابةً ما في دفتره، ولم يعد مطلقاً إلى طرح مسألة ياكوف دجوغاشفيلي بعد ذلك.

لم يكن ستالين بعد قد اكتسب المقدرة على التفكير الواسع الذي يحيط بكل جبهة القتال الألماني ـ السوفييتي، وعلى الإمساك بالترابط بين مختلف العوامل: العسكري والاقتصادي والمعنوي والسياسي والدبلوماسي. إن خضم الحرب يدفع بالصراع المسلح إلى المرتبة الأولى ويخضع له كل أنواع الصراع الأخرى. حتى اللحظة، كان تفكير ستالين الاستراتيجي والعملياتي يتكون من مقاطع منفصلة، فيبقى عاجزاً عن الإمساك بجملة الأحداث مترابطة. كان يخيل إليه أن القادة العسكريين يسيئون تنفيذ أوامره. في حياة ما قبل الحرب كان الرجل يجيد الانتظار والتقدم نحو الهدف خطوة خطوة. أما الآن، في الحرب، كان يلزمه دائماً نتيجة فورية: ستالين في وضع ضيق الوقت... إنه يتأخر ويبالغ في قوة الأوامر والتوجيهات، التي لا تنطلق من الاعتبارات الواقعية في أغلب الأحيان. إن التوجيهات والخطوات الأولى في بداية الحرب، خصوصاً أثناء معركة كييف، تدل على أن الفطنة الطبيعية وقوة الإرادة والذكاء هي صفات غير كافية لقيادة القوات المسلحة بمجملها قيادة حسنة في مثل تلك الحرب.

لقد كان الدور الرئيسي في «حك» ستالين وصقله كرجل استراتيجيا يعود إلى الهيئة العامة للأركان، لقادتها: شابوشنيكوف وجوكوف وفاسيليفسكي وفاتوتين وأنطونوف. لكن اكتساب التجربة اللازمة لقيادة التشكيلات العملياتية الكبيرة كان له ثمن باهظ هو تجارب سالت بسببها دماء غزيرة، وهو أخطاء وهفوات كبيرة.

لم يكن ستالين يبدي فهماً حذقاً للموقف القتالي، أو دراية بالنوابض الخفية للحرب وبخصوصيات التنظيم الاستراتيجي ـ العملياتي للنشاطات العسكرية، أو بالمضمون المحدد لمهام القادة وهيئات الأركان. ولذا، كان في الفترة الأولى من الحرب «يضغط» على العامل المعنوي (ويبدو أن الموقف كان يملي ذلك). فحين يقرأ هذا البلاغ أو ذاك عن هزيمة أو موقف حرج، كان ينظر إلى الحالة المعنوية والسياسية للجيوش وبعد ذلك ينظر في الموقف العملياتي. تدل تجربة الحرب إن هذين الجانبين

لا يجوز الفصل بينهما أو ترجيح أحدهما على حساب الآخر، إذا كان الهدف بلوغ القدرة القتالية الجيدة.

مثلاً، حين أصبح الوضع حول مدينة كييف حرجاً، قدم قائد أركان الجبهة توبيكوف تقريره عن الموقف دون أي تزويق: «وضع جيوش الجبهة يتردى بوتائر متسارعة... بداية الكارثة التي يمكنكم تصورها هي مسألة يومين فقط»(٦٠).

لم يكن قائد الأركان توبيكوف يحتاج إلى نبوة كي يصل إلى هذا الاستنتاج. المسألة هنا في شيء آخر: هل تم فعل كل شيء لأجل الحيلولة دون الكارثة أو ـ في أضعف الأحوال ـ التقليل من حجمها؟ لا تدل برقية توبيكوف على أن الجواب هو: نعم.

وشعر ستالين بالانكسار المأساوي في هيئة أركان الجبهة الجنوبية الغربية، لكنه أملى على الفور البرقية التالية:

«بلدة بريلوكي. إلى قائد الجبهة الجنوبية الغربية.

نسخة إلى القائد العام للمحور الجنوبي الغربي.

تحت رقم (١٥٦١٤)، أرسل الجنرال توبيكوف إلى الهيئة العامة للأركان تقريراً مذعوراً. إن الوضع، على العكس من ذلك، يتطلب الاحتفاظ ببرودة الأعصاب ورباطة الجأش لدى القادة العسكريين على مختلف الأصعدة. لا بد من اتخاذ الاجراءات، دون السقوط في حالة الذعر، لأجل التمسك بالمواقع الحالية وضبط زمام الأمور، خصوصاً على جناحي الجبهة. يجب إجبار كوزنيتسوف وبوتابوف على إيقاف الانسحاب. يجب الايحاء إلى جميع مقاتلي الجبهة بضرورة القتال الضاري دون الالتفات إلى الخلف. يجب تنفيذ توجيهات الرفيق ستالين التي بلغتكم في ١١/٩ بحذافيرها...»(٦١).

لم يكن الناس قد تعلموا بعد فن القتال، وغالباً ما يخشون تقديم التقارير إلى المركز عن حقيقة الأمر، إذا كانت مُرّة، فهم لم يعتادوا ذلك. يلفت الانتباه، مثلاً، حديث جوكوف مع قائد الجيش الـ ٢٤، الجنرال راكوتين، في ٤/٩/١٩٤١. لقد عنّف جوكوف الجنرال راكوتين على أن الدبابات التي سلّمت إلى الجيش تم زجها فوراً في المعركة دون تخطيط وبالتالي فقدانها؛ كما وعنّفه على التقارير غير الدقيقة:

«**راكوتين**. سأسافر اليوم صباحاً لدراسة هذه المسألة، فقد استلمت التقرير للتو.

جوكوف. أنت لست محققاً، بل قائد جيش. أرسل لي تقريراً كتابياً كي أقدمه للحكومة. هل احتللتم موقع شيبيلوفو أم أن هذه أيضاً مبالغات؟

راكوتين. لم نحتل شيبلوفو... سأتحرى بالأمر وأخبركم بنفسي غداً. لن أكذب.

جوكوف. أهم شيء هو أن تقطعوا دابر الكذب في هيئة أركانكم. ادرسوا الوضع جيداً، وإلا فإنكم تبدون جميعاً على صورة غير لائقة...»(٦٢).

هنا نجد أن راكوتين يخدع من قبل مرؤوسيه، وكانت مثل هذه الحالات غير

قليلة: يرد تقرير عن نجاحات لم تحصل ثم يروح يصعد إلى الأعلى... لكن خوف العقاب هو الذي كان يضطر الناس إلى الكذب. لقد تأكد راكوتين من الوضع وتلافاه، لكن الباقي من حياته كان شهراً واحداً فقط: في تشرين الأول (أكتوبر) مات الجنرال موتة بطل.

كان ستالين يبحث يائساً عن سبل لإيقاف الهجوم المعادي وإجبار الناس المحبطين معنوياً والمقهورين أن يقاتلوا. كيف يمكن مساعدتهم على اكتساب الثقة بالنفس؟ يدل تحليل الوثائق الصادرة عن القيادة العليا والأوامر التي كان يصدرها ستالين أن القائد الأعلى، أثناء معالجة هذه المهمة الاستثنائية، كان يفضل التهديد بالقصاص الصارم. ربما كان تروتسكي على حق حين قال إن الأصح في لحظات القتال الحرجة أن تضع الجنود أمام خيارين: «احتمال الموت في الأمام والموت الحتمي في الخلف». من الممكن أن ستالين اعتمد هذه الفكرة، ففي المساء أعد بنفسه توجيهات إلى جميع الجبهات حول النضال ضد المذعورين. هنا فقرة منها:

«تبين تجربة الصراع مع الفاشية الألمانية أن هنالك في كتائب الرماة بجيوشنا العديد من العناصر المذعورة، لا بل المعادية بشكل سافر، وهي تلجأ، عند أول ضغط شديد من قبل العدو، إلى إلقاء السلاح وتصرخ «لقد حوصرنا»، وتجر خلفها باقي المقاتلين. ونتيجة لأعمال تلك العناصر، تركن الكتائب إلى الفرار تاركة عتادها، ثم يبدأ الناس بالخروج من الغابات فُرادى. مثل هذه الظاهرات موجودة في كل جبهة... والمصيبة أن القادة والقوميسارات الأشداء هم قلة في جيوشنا...

١ ـ تكوين وحدة للردع في كل كتيبة رماة، على أن يزيد قوامها عن فصيل من المقاتلين المضمونين.

٢ ـ اعتبار المهمة الأساسية لوحدة الردع مساعدة قيادة الكتيبة على فرض نظام صارم فيها، وقطع دابر الفرار من قبل الجنود الذين يأخذهم الهلع، وعدم التواني عن استخدام السلاح معهم...

٣ ـ الانتهاء من تشكيل وحدات الردع في مهلة أقصاها خمسة أيام اعتباراً من تاريخ استلام هذا الأمر.

ستالين

أمليت شخصياً من قبل الرفيق ستالين. التوقيع: شابوشنيكوف

الساعة الحادية عشرة وخمسين دقيقة»(٦٣)

وحدات الردع وفصائل العقاب وخطر الإعدام في أية لحظة ـ ربما كانت الخطوات اضطرارية. لكنها أصبحت اضطرارية، بالدرجة الأولى، نتيجة الأخطا التي ارتكبها ستالين بنفسه: «القادة والقوميسارات الأشداء هم قلة...» أيضاً بـ «فضل» القائد «الأعلى».

ها هي برقية أخرى أرسلها ستالين بقصد التأثير على معنويات الجيوش:

«إلى قائد الجيش الـ ٥١ الرفيق كوزنيتسوف.

إلى قائد الأسطول الحربي في البحر الأسود الرفيق أوكتيابرسكي.

نسخة إلى وزير الأسطول الحربي الرفيق كوزنيتسوف.

انقلوا إلى المقاتلين والضباط المدافعين عن مدينة أوديسا رجاء القيادة العليا بالصمود لمدة ست ـ سبع أيام، سيصلكم خلالها الدعم من قبل قوات الطيران والوحدات القتالية.

أكدوا لنا استلام البرقية.

١٩٤١/٩/١٥

ستالين»(٦٤)

غالباً ما برقيات كهذه تسفر عن نتائج تعبوية حقاً. لكن، في هذه الحالة، وبغض النظر عن بسالة المدافعين عن أوديسا، اضطرت القيادة إلى سحب الجيوش المدافعة عن المدينة إلى شبه جزيرة القرم، حيث كان الوضع حرجاً أيضاً.

وبقي ستالين يبحث عن سبل دعم المعنويات لدى الجيوش. في أواسط أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ قدم شابوشنيكوف تقريراً إلى القائد الأعلى يؤكد فيه: لو أن جميع الكتائب تقاتل كما تقاتل الوحدات الجيدة، لأمكن إيقاف العدو منذ زمن. صمت ستالين ثم أمر الهيئة العامة للأركان والإدارة العامة للتوجيه السياسي بالتفكير في مكافأة الوحدات الجيدة لتشكيل حوافز معنوية تحفز السلوك الشجاع في المعركة. وبعد فترة صدر الأمر رقم (٣٠٨) (في ١٩٤١/٩/١٨) باسم وزير الدفاع، معلناً نشوء قوى «الحرس السوفييتي». يقول نص الأمر:

«في العديد من معارك الدفاع عن وطننا الاشتراكي ضد الجحافل الهتلرية لألمانيا الفاشية، أبدت الكتائب ١٠٠ و ١٢٧ و ١٥٣ و ١٦١ آيات الشجاعة والبسالة والانضباط والانتظام. إن الكتائب المذكورة، ضمن ظروف صراع صعبة، راحت تلحق بجيوش ألمانيا الفاشية هزائم متكررة وتجبرها على الفرار وتزرع الرعب في نفوسها.

على مآثرها القتالية، وعلى انتظامها وانضباطها وسلوكها المثالي، تكافأ الكتائب المذكورة بتسميتها كتائب الحرس السوفييتي. زيادة الرواتب لكل ضباط كتائب الحرس مرة ونصف، وزيادة رواتب مقاتليها مرتين، ابتداءً من أيلول (سبتمبر) من هذا العام...»(٦٥).

في الأشهر الأولى من الحرب لم تكن الأمور على ما يرام في المؤخرة أيضاً، خصوصاً في الشريط المحاذي للجبهة. بقيت في سكرتاريا كالينين، رئيس السوفييت الأعلى، رسالة من المواطنة لوغوفا، التي أرسلت نسخاً منها إلى عدة عناوين. تقول لوغوفا في رسالتها:

«سأحاول أن أصف بإيجاز حالة المؤخرة في المنطقة التي أسكنها، منطقة ميلوتوبول ـ بيرديانسك ـ أوسيبينكو: آلاف المجندين حديثاً من مختلف المناطق، المحتلة أو القريبة من الجبهة، يتنقلون من مكان إلى مكان، غير عارفين ما هي غايتهم، ولا يشعرون بأي نظام. معظمهم بلا لباس عسكري و ٢٠٪ منهم حفاة، بلا سلاح. الانضباط سيء... البعض من المجندين يتوجه إلى الناس لنقل أخبار سيئة: «لا يوجد

لدينا سلاح ولا لباس عسكري والتكنيك الألماني لا يقهر. وزعوا الحبوب، لأنها ستذهب هدراً، وزعوا المواشي أيضاً بينكم...». الناس شديدة القلق. المسؤولون يسافرون، وزوجاتهم يهربن أيضاً، وهن لم يكن يعملن أصلاً. إنهم يتركوننا للموت: الراغبون في الزعامة كانوا كثيرين، والآن ما من أحد يرغب في حمايتنا.. جرائدنا لا تضيء النواقص وتسكت عنها، وهذا يخلق عدم الثقة...»(٦٦).

تشير هذه المرأة العادية إلى كبد الحقيقة: لقد انعكست البداية المفجعة للحرب على الوضع المعنوي بالدرجة الأولى. كان لا بد من انتصارات ونجاحات عسكرية من شأنها أن تعيد الشجاعة إلى نفوس الذين فقدوها.

كانت مرارة الحنظل تلاحق ستالين بلا انقطاع عبر هزائم الأشهر الأولى من الحرب. في الوقت نفسه بقي الرجل يحاول انتزاع المبادرة الاستراتيجية من يد المعتدي الذي راح ـ بتناسق منطقي ـ يركز جهوده على هذه النقطة أو تلك ويحرز النجاح تلو الآخر. فقرر القائد «الأعلى»، رغبةً منه في كسر مسار الأحداث الذي يؤاتي، أن يلجأ أيضاً إلى مثل هذا الأسلوب، لكن ـ للأسف ـ لم تكن الجيوش جاهزة لذلك. في أواسط أيلول (سبتمبر)، مثلاً، قرر ستالين فك الحصار عن مدينة لينينغراد التي يوليها أهمية خاصة، وذهب في خطوة غير عادية، حين عين المارشال كوليك قائداً لجيش كبير هو الجيش الـ ٥٤ المكون من ٨ كتائب. قد تكون تلك هي الحالة الوحيدة في تاريخنا حين يوكّل إلى مارشال قيادة جيش وحيد. كان ستالين يعلق شديد الأمل على نجاح العملية. لكن الضربات في اتجاه «مغا» من منطقة فولخوف ولينينغراد لم تأتِ بالنتيجة المرجوة، إذ إن القوات لم تتقدم إلا قليلاً. مع ذلك انتعش ستالين. وها هو يشارك في الحديث الذي دار بين شابوشنيكوف وكوليك هاتفياً، حيث أعطى شابوشنيكوف توجيهات عملياتية لقائد الجيش. في حديثه مع كوليك، قرر ستالين أن يعِدَه بـ «علاوة»:

«**ستالين:** نحن مسرورون لوجود نجاحات لديكم. ضعوا في الاعتبار: إذا ضربتم غداً باتجاه «مغا» كما يجب، بحيث تتمكنوا من اختراق الدفاع المعادي أو الالتفاف عليه، فسوف نمنحكم كتيبتين جديدتين وربما فيلق دبابات جديد. لكن إذا أجّلتم هجوم الغد، فلكم مني كلمتي القطعية: لن تروا الكتيبتين ولا الفيلق.

كوليك: سنسعى لتنفيذ توجيهاتكم والحصول بالتأكيد على ما وعدتم به...(٦٧).

في ٢٠ أيلول (سبتمبر) يدعو ستالين المارشال كوليك إلى الهاتف من جديد، فهو يفقد الأمل في إمكانية المارشال على إحراز نجاح جدي:

«**ستالين.** لقد تأخرتم كثيراً. يجب التعويض عن الزمن الضائع. في الحالة المعاكسة، إذا أمعنتم في التأخر، سيتمكن الألمان من تحويل كل قرية إلى قلعة. ولن يقيّض لكم قط الاتحاد مع حماة لينينغراد.

كوليك: لقد عدتُ من المعركة للتوّ. استمرت المعركة الضارية لاحتلال سينيافينو وفورونوفو يوماً كاملاً. حاول العدو مراراً أن ينتقل إلى الهجوم المعاكس رغم نيراننا القاتلة، لكنه لم ينجح.

ستالين: إننا نمنحكم الكتيبتين الجديدتين والفيلق ليس لأجل احتلال «مغا»، بل لتصعيد النجاح بعد احتلال محطة «مغا». القوة الأولية كافية تماماً لاحتلال «مغا» مرتين وليس مرة واحدة.

كوليك: أُحيطكم علماً أن احتلال «مغا» بواسطة القوى الموجودة، دون استخدام الوحدات الجديدة، غير ممكن...»[٦٨].

قطع ستالين الحديث وراح يفكر من جديد: لماذا قلّدته العام الماضي النجمة الذهبية (وسام بطل الاتحاد السوفييتي)، ورتبة المارشال؟ كلما أوكلت إليه مهمة تكون النتيجة هي الفشل والهزيمة... لكن ستالين سيعود مرة أخرى إلى استخدام كوليك، حين يرسله إلى بؤرة الوضع المفجع في شبه جزيرة القرم، حين كان يستحيل تقديم أية مساعدة هناك، وهذا ما سنعود إليه فيما بعد.

إن أحداث صيف ١٩٤١، والبرقيات والتوجيهات التي كانت تصدر عن ستالين في تلك الفترة، كل ذلك يؤكد الاستنتاج الذي عبّر عنه جوكوف لاحقاً: في بداية الحرب لم يكن ستالين قائداً عسكرياً. وكان القائد الأعلى يحاول التعويض عن نقص المعارف العسكرية وقلة التجربة في قيادة معارك من هذا المستوى بالضغط الفظ والتهديدات وأعمال القمع والنداءات الدعائية. فالتفكير العملياتي وخصوصاً الاستراتيجي لديه لم يكن، في الفترة الأولى للحرب، قد خرج عن إطار الاعتبارات التي يقدمها العقل السليم والتجربة العملية المكتسبة في مجرى الحرب الأهلية السابقة. مع ذلك، يجب القول أن ستالين كان تلميذاً صبوراً،... وكانت الحرب معلّمة رهيبة!

كوارث وآمال:

خلال عام ١٩٤١ وأوائل عام ١٩٤٢ وقعت كوارث عديدة على الجبهة الألمانية ـ السوفييتية. لا أظن أن هنالك دولة أخرى تستطيع تحمل ضربات مماثلة: حصار القوى الأساسية للجبهة الغربية في ضواحي مينسك، ثم حصار الجيوش الجنوبية الغربية قبالة كييف؛ كما حصلت كارثة مرعبة قرب فيازما، حيث سقط في الأسر ما يزيد عن نصف مليون جندي... وكانت تنتظر جيشنا كوارث جديدة في القرم وحول لينينغراد. كارثة القرم حصلت، بينما تم تفادي كارثة لينينغراد بتضحيات لا يتصورها العقل وصمود يفوق الطاقة البشرية... هذا إذا لم نعتبر مقتل مئات الآلاف من سكان لينينغراد كارثة بحد ذاته...

بعد نجاحه الكبير في أوكرانيا، صدّق هتلر أن بمقدوره متابعة العمليات الهجومية على عدة محاور استراتيجية. في أواخر أيلول قدّم شابوشنيكوف تقريراً إلى ستالين: شبه جزيرة القرم في خطر. لقد دخلت طلائع القوات الألمانية إلى منطقة الحاجز التركي. بعد تشاور، تقرر إرسال توجيهين من القيادة العليا، كان ستالين يلح على الأول وشابوشنيكوف يصر على الثاني. يذكر ستالين أنه قال للجنرال كوزنيتسوف في شهر آب (أغسطس)، حين عيّنه قائداً للجيش الـ ٥١ في كتاب خاص: «يجب الاحتفاظ بشبه جزيرة القرم حتى آخر جندي...». والآن يتم إرسال التوجيهين،

حيث يرى ستالين في سلاح الطيران دواء لكل داء (هكذا بقي رأيه طوال فترة الحرب)، وتنص أوامره على التالي:

«إلى قائد الجبهة الجنوبية.
إلى عضو المجلس العسكري للقوى الجوية في الجيش الأحمر، الرفيق ستيبانوف.

إلى قائد الجيش الـ ٥١.
هاجم العدو بثلاث كتائب مشاة تحصيناتنا في منطقة عنق بيريكوب، وخرج نحو الحاجز التركي. القائد الأعلى يأمركم: على التشكيل الجوي الخامس الاحتياطي، بكل قواه، أن يدمر خلال يوم ١٩٤١/٩/٢٦ القوى الألمانية التي تهاجم بيريكوب.
١٩٤١/٩/٢٦
شابوشنيكوف ـ بتوكيل من القيادة العليا»[٦٩]

كان ستالين يأمل، ساذجاً، في إيقاف الاختراق الألماني بواسطة سلاح الطيران... أما التوجيه الثاني، فكان ينص على إجلاء الجيوش من أوديسا وشبه جزيرة القرم وإخضاع الوحدات التي تشكل حامية أوديسا لقيادة الجيش الـ ٥١. وقّع ستالين على الوثيقتين وسأل شابوشنيكوف:

ـ ما هو عدد الناس الذين سيدافعون عن القرم؟ وما هي فرصنا للاحتفاظ به؟

ـ بعد انتقال الوحدات من أوديسا إلى هناك، يزداد عدد حماة القرم حتى مئة ألف، بحوزتهم مئة دبابة وأكثر من ألف مدفع وخمسين طائرة. مثل هذه القوة يمكنها الاحتفاظ بشبه الجزيرة.

لكن ستالين لم يكن يعرف أن قيادة الجيش الـ ٥١، خوفاً من خطر إنزال بحري ألماني، سوف تجزىء قواها لتوزعها على كل أراضي القرم، وانها لن تحسن تدعيم المنطقة الأكثر خطراً. سنكرر مرة أخرى: لم يكن الناس قد تعلموا القتال بعد. هكذا، أُنيطت مهمة الدفاع عن عنق بيريكوب بثلاث كتائب رماة، وهي أصلاً غير كاملة. بعد عشرة أيام من المعارك الدامية دخل الألمان إلى شبه جزيرة القرم، وراحت قوات الجيش الساحلي تتراجع، مقاتلة، نحو سيفاستوبول. أما الجيش الـ ٥١، الذي كان ستالين قد سلم قيادته الآن إلى باتوف (بدلاً من كوزنيتسوف)، فتراجع إلى شبه جزيرة كيرتش.

في نهاية تشرين الأول (اكتوبر)، أوكلت القيادة العليا إلى قائد قوات القرم، الأميرال ليفتشنكو، قيادة كل القوات البرية. وها هو تقريره في برقية إلى ستالين في ١٩٤١/١١/٦: الوضع في القرم صعب للغاية، خصوصاً في شبه جزيرة كيرتش. وتقول البرقية: «لقد نفدت الاحتياطيات. لا توجد بنادق ورشاشات. الفصائل الإضافية جاءت بدون سلاح، والكتائب التي انسحبت على محور كيرتش لم يكن تعداد كل منها يتجاوز ٢٠٠ ـ ٣٥٠ شخصاً. نظراً لقلة العدد، تم دمج الكتائب الـ ٢٧١ والـ ٢٧٦ والـ ١٥٦ في كتيبة رماة واحدة رقم (١٥٦)». ويطلب ليفتشنكو إمّا «التقوية الفورية

لمحور كيرتش بكتيبتين إضافيتين، أو اتخاذ قرار بإجلاء القوات عن كيرتش»[٧٠].

ستالين يستمع إلى تقرير الهيئة العامة للأركان حول تراجع الجيش الـ ٥١ ويطالب غاضباً:

ـ لماذا يتقهقرون؟ فالألمان هناك لا يملكون حتى الدبابات! القوى متعادلة تقريباً! أعطوا أوامر إلى ليفتشنكو أن يذهب إلى هناك بنفسه ويضع حداً للتراجع. نعم، بلغوهم: أوقفوا التراجع!

وصل ليفتشنكو من سيفاستوبول إلى كيرتش يوم ٩ تشرين الثاني (نوفمبر). ولم يتحسن الوضع. طلب ستالين الاتصال هاتفياً بالمارشال كوليك (الذي كان قد أقيل من قيادة الجيش الـ ٥٤). تحدث ستالين إلى كوليك عابساً، بلا ترحاب وبلا سلام، ودون مقدمات. كانت أوامر «الأعلى» إلى المارشال كوليك مقتضبة:

ـ سافروا فوراً إلى كيرتش. ساعدوا ليفتشنكو في معالجة الوضع. يجب الحفاظ على كيرتش وإلا فسيحتل الألمان شبه جزيرة تامان أيضاً. هل فهمتم؟

ـ جاهز للتنفيذ. سأنطلق حالاً.

حين وصل كوليك في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) إلى كيرتش، وجد هناك جيشاً مفككاً إلى ابعد الحدود، تقاتل فصائله في مواضع ثانوية متفرقة، دون خطة واضحة أو قيادة مدروسة. بدأت تظهر في المدينة بوادر الهلع والفوضى والذهول. حاول كوليك فرض النظام بحدوده الدنيا على العمليات الدفاعية، لكنه لم يفلح في ذلك. كانت كل أوامره ـ «تخندقوا! ولا خطوة إلى الوراء!» ـ تذهب هباء. معدودة هي الفصائل التي صمدت حتى النهاية. كان بوسعه نقل فوجين من تامان إلى كيرتش، لكن ذلك لا ينقذ الموقف برأيه. لذلك أصدر أوامره إلى الفوجين بعدم التوجه إلى كيرتش، بل توطيد الدفاع عن شواطىء تامان. بعد حين، سيصبح هذا التصرف تهمة شنيعة ستوجه إلى كوليك، الذي ما زال في رتبة «مارشال الاتحاد السوفييتي».

في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر)، قبل يوم واحد من الكارثة، استلم كوليك أمراً إضافياً من ستالين نقله إليه شابوشنيكوف: «عدم تسليم كيرتش». تحدث كوليك هاتفياً مع الجنرال فيتشني في الهيئة العامة للأركان، معبراً عن الوضع وعن نواياه، هكذا: «وضع الجيش الـ ٥١ صعب جداً. فقط كتيبة الرماة الـ ١٠٦ يمكن اعتبارها جاهزة قتالياً بنسبة ٤٠٪، أما باقي الكتائب فلا يوجد ضمن كل منها ما يزيد عن ٣٠٠ حربة... المعارك الآن تدور في الضاحية الجنوبية للمدينة، وقد اخترق العدو منطقة ميتريدات. اليوم أمرت القوات بالصمود نهاراً آخر، وبإجلاء المدفعية قبل الظلام، وفي ليلة ١٦ منه، سحب الوحدات الباقية... لقد درست الوضع ميدانياً، وقررت، بالانسجام مع أوامر الرفيق ستالين قبل مجيئي إلى الجيش الـ ٥١، **عدم السماح للعدو بالعبور نحو شمال القفقاز** (التشديد للمؤلف)....».

لنتوقف قليلاً. حين استدعي كوليك إلى المحاسبة في موسكو بعد الكارثة، كرر

كلامه حول إيعاز ستالين «عدم السماح للعدو بالعبور نحو شمال القفقاز»، فاستدعى ذلك هديراً غاضباً من قبل «الأعلى»:

ـ عدم السماح... بواسطة التشبث بـ «كيرتش، وليس بتسليمها...» ـ ثم سالت شتائم سوقية تماماً.

لكن، لنقرأ بقية كلام كوليك: «... لقد قمت بتسليح اللواء الـ ١٢ على حساب السلاح المنزوع من المدارس العسكرية في كراسنودار ومن الوحدات الاحتياطية ودفعته نحو قرن شبه جزيرة تامان، وهو الآن يعد الترتيبات الدفاعية على السفح الغربي للقرن المذكور. كما أن فوجين من كتيبة الرماة الـ ٣٠٢ يدافعان عن جنوب القرن ذاته...».

سيتم بعد حين تقويم هذه الإجراءات بأنها إجرامية، ولن يغفر ستالين لـ كوليك تسليم مدينة كيرتش، فقد كان رأيه هو أن المارشال كوليك لم يستخدم كل الإمكانيات الموجودة للحفاظ على المدينة.

لنعد مرة أخرى إلى تقرير كوليك: الآن هنالك مرسى واحد قرب مصنع فويكوف يمكن استخدامه لتحميل المدافع، أما في مرسى «أنيكالي»، فيمكن فقط تحميل البشر. هذا هو باختصار الموقف ووضع الجيش. مسألة أخيرة: نقوم الآن بتصيد الفارين من الجيش الـ ٥١ في أنابا ونوفورروسيسك وكريمسك وكراسنودار. تعدادهم يصل الآلاف...»[٧١].

طبعاً، من الصعب التفكير بالنجاح، إذا كان طاقم الكتيبة «لا يزيد عن ٣٠٠ حربة»، وتعداد الفارين «يصل الآلاف». لم تحتفظ الارشيفات بآثار للسماح الرسمي من قبل القيادة العليا بترك كيرتش. كانت موسكو تدرك طبعاً أن الإجلاء المنظم ـ في مثل هذه الظروف ـ هو الفرصة الأخيرة المتبقية، وكان تسليم كيرتش نهاية منطقية لسوء إدارة القتال في شبه جزيرة القرم. لقد أساءت قيادة الجيش الـ ٥١ استخدام تجربة الدفاع البطولية عن سيفاستوبول، وبعد تسليم كيرتش تدهور وضع سيفاستوبول أكثر.

بلغ ستالين درجة الحنق الأعمى وهو يستمع إلى تقرير الهيئة العامة للأركان عن كارثة القرم. وجعل من كوليك ـ هذه المرة ـ كبش فداء، فبعد كيرتش راح نجمه ينطفيء. لقد حوكم كوليك في ١٦ شباط (فبراير) ١٩٤٢، وفي آذار (مارس) تم تخفيض رتبته إلى جنرال، وبقي حوالى نصف سنة يقود جيش الحرس رقم (٤)، ثم أصبح نائباً لرئيس الإدارة العامة لتشكيل وتنظيم الوحدات العسكرية في وزارة الدفاع. ومع ذلك لم يغفر له ستالين هزائم الجبهة.

إن ستالين هو الذي رفع كوليك عالياً في الهرم العسكري، مع أن الرجل ـ على ما يبدو ـ لم يكن متميزاً جداً من حيث العقل أو الدراية القيادية. ثم منحه ستالين فرصة بعد تخفيض رتبته. لكن في نهاية الحرب، حين استلم بولغانين من مسؤول كوليك، الجنرال سموروديتوف، وعضو المجلس العسكري كوليسنيكوف حول «عدم

النزاهة الأخلاقية والفوضى وانعدام الحماس والاهتمام بالعمل» لدى كوليك، صدرت أوامر جديدة من ستالين بمعاقبته. لقد أثبطت الخدمة العسكرية (الأصح ـ ستالين) همة كوليك نهائياً حين تم تعيينه نائباً لقائد منطقة حوض الفولغا (الجنرال غوردوف، الذي كان أيضاً من المغضوب عليهم لدى ستالين). طبعاً ما كان للجنرالين اللذين أصابهما الغبن إلا أن يتبادلا كلاماً فيه شكوى، فبلغ الأمر ستالين الذي أمر بإحالتهما إلى التقاعد. في ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ تم إدانة الجنرالين وسجنهما. ثم أعدم كلاهما. في عام ١٩٥٧ أعيد إليهما الاعتبار، وأعيدت إليهما الرتب العسكرية.

هذا هو المصير الحزين لمارشال آخر من مارشالات ستالين. يبدو أن كوليك لم يكن قائداً عسكرياً بارز المواهب، لكن مسؤوليته عن الفشل في معركة كيرتش ليست واضحة، برأيي، ولا حاسمة. لقد وصل الرجل إلى كيرتش قبل خمسة أيام من النهاية المفجعة، ولم تكن مواهبه على السوية التي تسمح له في فترة قصيرة كهذه أن يفعل المستحيل. أما ستالين، فاعتبر تصرفات المارشال خروجاً عن أوامره. علماً أن المارشال سوكولوفسكي بعد الحرب عاد إلى تحليل حوادث كيرتش (تشرين الثاني ١٩٤١) في جو هادىء، وكتب في خلاصة قدمها إلى الهيئة العامة للأركان: «تدل دراسة الوثائق الموجودة أن المارشال كوليك، الذي وصل إلى كيرتش في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) لمساعدة القوات المقاتلة هناك في شبه جزيرة كيرتش، كان عاجزاً (في ظل انعدام القوى والوسائل اللازمة لذلك) أن يغير مجرى العمليات العسكرية لصالحنا. ويؤكد هذا الاستنتاج الأميرال ليفتشنكو والجنرال باتوف اللذان شاركا في تلك الأحداث»[٧٢].

لم يكن «الأعلى» يريد التسليم بخسارة كيرتش، فوافق على اقتراح الهيئة العامة للأركان لدعم عملية الدفاع عن سيفاستوبول من خلال عملية جسورة تقضي بإنزال بحري في القرم، يمكنه أن يصبح بداية لتحرير شبه الجزيرة. وخلال أقل من شهر بعد تسليم كيرتش، أقرت القيادة العليا خطة عملية الإنزال.

تلك كانت أضخم عملية إنزال بحري في الحرب الوطنية الكبرى. كان ستالين، لسبب ما، واثقاً من نجاحها. ربما أنه عوّل على العامل النفسي: هل يخطر ببال الجنرالات الألمان أن القوات السوفييتية يمكنها أن تظهر في شبه جزيرة كيرتش من جديد في ظرف شهر؟ أما قواتنا التي منيت بهزيمة ساحقة، فستعقد العزم على الإثبات هنا بالذات، فوق الأراضي الحجرية الشهيرة، أنها لم تفقد إرادة القتال والانتصار. وراح ستالين يشرف على إعداد العملية التي جرت تحت غطاء من السرية الشديدة.

لم تكن عملية الإنزال في كيرتش معركة ضخمة فحسب، بل وفشلاً ضخماً أيضاً، في آخر المطاف. بين ٢٦ و ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١، قامت سفن الأسطول الحربي في البحر الأسود وأسطول بحر آزوف بإنزال ما يقارب ٤٠ ألف إنسان و ٤٣ دبابة و ٤٣٤ مدفع وراجمة، والكثير غير ذلك من الآليات والأسلحة في شمال وشرق شبه الجزيرة، حول مدينة فيودوسيا. كانت قوة الضربة الأولى تثير

الإعجاب. تمكنت قوى الجيش الـ ٥١ (بعد ترميمه) والـ ٤٤ والـ ٤٧ من تكوين «جبهة القرم» والتقدم غرباً إلى ما يزيد عن مئة كيلومتر وتحرير كيرتش وفيودوسيا. وكان يخيل للناظر أن محاولة إضافية تكفي لبلوغ سيفاستوبول. لكن المجلس العسكري لجبهة القرم، في سعيه إلى تجميع القوى من أجل تصعيد الهجوم، لم يولِ الاهتمام الكافي لترتيبات الدفاع، التي بقيت غير عميقة وغير مستقرة. كان تنظيم أعمال الاستطلاع والدفاع المضاد للطيران والتمويه وتوزيع الاحتياطات تنظيماً غير موفق. ولذا، سرعان ما حلت ساعة الحساب: في ١٩٤٢/٥/٨، قام التشكيل الألماني هناك (وهو أضعف عدداً وطاقة من المجموعة السوفييتية بمرتين!) بتوجيه ضربة على طول خليج فيودوسيا. وتمخضت الفوضى والإهمال عن مأساة كبيرة. أرسل ستالين الفوميسار ميخليس إلى القرم بصفة ممثل القيادة العليا، فما برح ميخليس يرسل إلى «الأعلى» برقيات وشاية بحق قائد الجبهة كوزلوف. لكن رد فعل ستالين على ذلك كان غير اعتيادي هذه المرة: فهو يفهم أن تغيير قائد الجبهة في اللحظة الحرجة لم يعد وارداً، فما كان منه إلا أن راح يعنّف ميخليس:

«إنك تتخذ موقفاً غريباً هو موقف المراقب الجانبي، غير المسؤول عن قضية جبهة القرم. إنه موقف مريح جداً، لكنه عفن. أنت في جبهة القرم لست مراقباً جانبياً، بل ممثل مسؤول أمام القيادة العليا عن نجاحات وهزائم الجبهة... أنت تطلب منا تغيير كوزلوف بشخص ما على شاكلة غريندنبورغ، لكنك لا يمكنك أن لا تعرف أننا لا نملك أناساً من هذه الشاكلة في الاحتياطات. شؤونكم في القرم بسيطة وبوسعكم أنتم التفاهم حولها...».

ستالين محق حين يقول إنه لا يوجد أمثال غريندنبورغ في الاحتياطات، وهو غير محق حين يؤكد أن الامور في القرم «بسيطة». لو كان ستالين محباً للانتقاد الذاتي، لكان فكر في تلك اللحظة كم يعوزه الآن في الجبهات رجال مثل توخاتشيفسكي ولوخير ويغوروف وياكير وديبنكو وكورك وكاشيرين وأوبوريفيتش وآلكسنيس... لكنه بطبعه عاجز عن أن يلقي على نفسه نظرة جانبية منتقدة. دائماً كان «الأعلى» يفترض أن جذر الهزائم والكوارث يكمن في سوء تنفيذ الأركان وضعف العمل التنظيمي للقادة العسكريين وفي عجز الموجهين السياسيين عن تعبئة الناس معنوياً. ضمن قائمة النواقص والأخطاء والهفوات التي كان ستالين يجيد ويحب قراءتها لم تكن ذنوبه الخاصة واردة حتى نظرياً. لكن ذنوبه كانت كبيرة جداً... فالعديد من القادة الذين يلومهم كان تنقصهم، بكل بساطة، التجربة والتأهيل العسكري.

حدث عدة مرات أن يرسل ستالين إلى قيادة جبهة القرم توجيهات يطالب فيها بالتشبث عند خط «الحاجز التركي» وتنظيم دفاع مستميت والذهاب شخصياً إلى الخط الأمامي وتنشيط استخدام المدفعية... لكن قيادة الجبهة، بصراحة القول، فقدت ضبط النفس، وحين أحس «الأعلى» باقتراب المصيبة، أملى في منتصف ليلة الحادي عشر من أيار (مايو)، وعلى نَفَس متواصل، برقية ذات أسلوب يميزه دائماً:

«إلى المارشال بوديوني.
نسخة إلى المجلس العسكري لجبهة القرم ـ ميخليس.

نظر لأن المجلس العسكري لجبهة القرم، بمن فيه ميخليس وكولوف، قد غاب عن رشده، وحتى الآن لا يستطيع الاتصال بالجيوش، رغم أن هيئات أركان الجيوش لا تبعد عن «الحاجز التركي» سوى ٢٠ ـ ٢٥ كم، ونظراً لأن كوزلوف وميخليس ـ رغم أمر من القيادة العليا ـ لا يتجرآن على الذهاب إلى «الحاجز التركي» وتنظيم الدفاع هناك، تأمر القيادة العليا المارشال بوديوني بالسفر فوراً إلى منطقة أركان الجبهة (مدينة كيرتش) وفرض النظام في المجلس العسكري للجبهة وإجبار ميخليس وكوزلوف على إنهاء أعمالهما في المؤخرة وتركها للمسؤولين عن مؤخرة الجيش وإجبارهما على السفر إلى منطقة «الحاجز التركي» واستقبال القوات التي تنسحب وعتادها وتنظيم أمورها وترتيب دفاع وطيد على خط «الحاجز التركي» يتم تقسيمه إلى مقاطع يستلم قيادتها ضباط ذوو مسؤولية.

المهمة الأساسية هي عدم تمرير العدو نحو الشرق من الخط المذكور، اعتماداً على كل الوسائل الدفاعية والوحدات وجهود الطيران والأسطول البحري.

القيادة العليا العامة

ستالين فاسيليفسكي

١١/٥/١٩٤٢»[٧٣]

البرقية تشغل نصف صفحة ولا تتضمن سوى اقتراحين، أما الباقي فتقويمات وعبارات سخط ونصائح وخطط ومهام، كلها في خليط واحد. لكن للأسف، هنالك مواقف تعجز فيها التعاويذ، حتى لو صدرت عن أقوى أقوياء هذا العالم. قبل خمسة أيام من الخروج المرير، طلب ستالين/ فاسيليفسكي مرة أخرى إرسال أمر باسمه إلى قيادة جبهة القرم:

«إلى قائد جبهة القرم الجنرال كوزلوف.

١٥/٥/١٩٤٢. الساعة الواحدة وعشر دقائق.

القيادة العليا تأمر بما يلي:

١ ـ عدم تسليم كيرتش، بل تنظيم الدفاع فيها على طريقة سيفاستوبول.

٢ ـ توجيه مجموعة من الضباط الشجعان (ومعهم أجهزة لاسلكية) إلى الوحدات المقاتلة في الغرب، وتكليفهم بمهمة استلام الوحدات المذكورة وتنظيم قوة ضاربة لأجل القضاء على قوى الخصم التي اقتربت من كيرتش وترميم الترتيبات الدفاعية وفق أحد الأشرطة المحيطة بـ كرتش. إذا تطلب الوضع وجودكم، فيجب عليكم الذهاب شخصياً.

٣ ـ أنتم من يقود الجبهة وليس ميخليس. واجب ميخليس هو مساعدتكم في ذلك. إذا كان لا يساعد، يجب إبلاغنا...»[٧٤].

كان ستالين، وهو يرسل هذا الكلام، يدرك أن مدينة كيرتش تلفظ آخر أنفاسها للمرة الثانية خلال نصف سنة. فقد أبلغ أن القوى الأساسية (التي بلغ تعدادها في القرم عند بداية أيار ٢٧٠ ألفاً) سوف يتم إجلاؤها. حين وقعت الكارثة، هدأت الانفجارات والهدير في المدينة، وراح ستالين يطالب بمعطيات دقيقة حول الخسائر. جاءه البيان بعد أسبوع ونصف (١) ليشهد خلال ١٢ يوماً من الهجوم الألماني، فقدت جبهة القرم، التي كانت تملك تفوقاً كبيراً في القوى، ١٧٦٥٦٦ جندياً ٣٤٧ دبابة و ٣٤٧٦ مدفع وراجمة و ٤٠٠ طائرة. تلك كانت هزيمة أخرى، مفجعة من حيث الأبعاد، تلحق بالجيش الأحمر. ستالين يقرأ البيان ولا يكاد يكظم غيظه:

ـ أوباش! كيف أفشلوا عملية ناجحة!

لقد أرسل ميخليس إلى هناك خصيصاً، لكن يبدو أنه كان يعيق العمل بدل تسهيله. وكوزلوف فقدَ ضبط النفس. بوديوني كان رديئاً في قيادة العملية... فاستدعى فاسيليفسكي هاتفياً، وطلب إليه أن يعد فوراً توجيه القيادة العليا إلى المجالس العسكرية للجبهات وقيادات الجيوش لتعميم الدروس المريرة لهزيمة القرم. في ٤ حزيران (يونيو)، جاء فاسيليفسكي إليه لتقديم تقرير ووضع على الطاولة نص التوجيه، فشرع ستالين في القراءة:

«حين بدأ هجوم الخصم، كان في تصرف جبهة القرم ١٦ كتيبة رماة و ٣ ألوية رماة وكتيبة خيالة و ٤ ألوية دبابات و ٩ أفواج مدفعية، مقابل ٧ كتائب مشاة وكتيبة دبابات ولواءين لدى الخصم... مع ذلك منيت قواتنا على جبهة القرم بهزيمة، وأثر معارك غير موفقة اضطرت أن تنسحب إلى ما وراء خليج كيرتش...» بعد ذلك تتلو الاستنتاجات حول الأخطاء العملياتية والتكتيكية وحول أسباب الهزيمة: سوء توزيع الدفاع على أحزمة، والاستخدام الرديء للاحتياطات، الإدارة الروتينية للجيوش، سوء التفاعل بينها... «لم تتمكن قيادة الجبهة نحو خط «الحاجز التركي»، حيث إن الأمر لم يصل إلى قائد الجيش. في الأيام الحرجة للعملية، راحت قيادة جبهة القرم والرفيق ميخليس، بدلاً من التخاطب المباشر مع قادة الجيوش، تقضي الوقت في اجتماعات طويلة لا فائدة فيها. لقد خرق كوزلوف وميخليس توجيه القيادة العليا ولم يعملا على تنفيذه وعلى سحب الجيوش في الوقت المناسب إلى ما وراء «الحاجز التركي». إن التأخر في سحب الجيوش لمدة يومين كان قاتلاً بالنسبة لمصير العملية برمّتها...»». بعد ذلك كان يجري تعداد المهام المطروحة أمام المجالس العسكرية للجبهات بهدف استخلاص الدروس من الهزيمة.

ـ وهذا كل شيء؟ سأل ستالين فاسيليفسكي بصرامة.

ـ نعم، أيها الرفيق ستالين.

ـ اكتبوا!... كل هؤلاء الناس يجب تقديمهم إلى المحكمة العسكرية. لكن، لا. هذا شيء يمكن أن نجد الوقت المناسب له... اكتبوا.

١ ـ إقالة القوميسار ميخليس من منصب نائب وزير الدفاع ورئيس الإدارة السياسية العامة في الجيش الأحمر وتخفيض رتبته.

٢ ـ إقالة الجنرال كوزلوف من منصب قائد الجبهة وتخفيض رتبته وإرساله، كتجربة، إلى عمل آخر أقل تعقيداً.

٣ ـ إقالة القوميسار شامانين من منصب عضو المجلس العسكري للجبهة وتخفيض رتبته وإرساله، كتجربة، إلى عمل آخر أقل تعقيداً.

٤ ـ إقالة الجنرال فيتشني من منصب قائد أركان الجبهة ووضعه تحت تصرف رئيس الهيئة العامة للأركان بقصد تعيينه في عمل أقل مسؤولية.

٥ ـ إقالة الجنرال تشيرنياك من منصب قائد الجيش وتخفيض رتبته إلى عقيد وإرساله، كتجربة، إلى عمل آخر أقل تعقيداً.

٦ ـ إقالة الجنرال كولغانوف من منصب قائد الجيش وتخفيض رتبته إلى عقيد وإرساله، كتجربة، إلى عمل آخر أقل تعقيداً.

٧ ـ إقالة جنرال القوى الجوية نيكولاينكو من منصب قائد طيران الجبهة وتخفيض رتبته إلى عقيد وإرساله، كتجربة، إلى عمل آخر أقل تعقيداً...[٧٥].

نظر ستالين إلى فاسيليفسكي وسأله: ـ ألم ننسَ أحداً؟ عقاب الآخرين يبقى على عاتق القائد العام للمحور العسكري. هاتوا، دعوني أوقّع...

الآن، كل هذه الأمور أصبحت في الماضي البعيد... بعد فترة أسبوع أو أسبوعين تلقّى ستالين ضربة قاصمة جديدة، حين وقعت هزيمة خاركوف. كانت الخسائر هنا مريعة أكثر: ٢٣٠ ألف قتيل وجريح، ٧٧٥ دبابة، أكثر من ٥٠٠٠ مدفع وراجمة... بعد كوارث عام ١٩٤١، كانت تلكما أروع هزيمتين على الإطلاق. وكتاب «خاتمة الحرب» من تأليف فيريشاغين ليس سوى انعكاس باهت لأبعاد تلك الكوارث.

في صيف ١٩٤٢، نشأ موقف جعل «الأعلى» يضطر ـ بعد مشاورات مع مولوتوف وبيريا حول نوايا اليابان ـ أن يسحب قوات ضخمة من الشرق الأقصى. فبعد أن أكد له مولوتوف أن «اليابان قد تورطت في جنوب شرق آسيا» اتصل ستالين بـ فاسيليفسكي (الذي ترأس الهيئة العامة للأركان في حزيران ١٩٤٢):

ـ اسحبوا ١٠ ـ ٢٠ كتيبة من الشرق الأقصى. بداية التحرك الخفيّ قبل ١١ تموز (يوليو). أبلغوني غداً.

ـ حسناً، أيها الرفيق ستالين.

في نفس اليوم (لا بل الليلة) كان فاسيليفسكي على الهاتف يقرأ لستالين نص توجيه إلى قائد جبهة الشرق الأقصى: «أرسلوا من ضمن قوات جبهتكم إلى احتياطي القيادة العليا وحدات الرماة التالية:...»[٧٦]. ثم يرد تعداد ١١ كتيبة.

ـ موافق. أرسلوا التوجيه ـ قال ستالين.

كان الإله «مولوخ» يطالب بضحايا جديدة، وستالين يقدمها له نتيجة أخطائه وجهله بالقيادة العسكرية. كما شارك في تقديم الضحايا قادة عسكريون كثيرون من خلال أخطائهم، ولعب دوراً في المسالة التشابك المأساوي لعوامل عديدة. لكن لأجل

الإنصاف يجب القول إن عدد الضحايا كان يتوقف أيضاً على كون الألمان في بداية الحرب يجيدون القتال أفضل منّا.

كان «الأعلى» مع نهاية ١٩٤١ قد اكتسب نوعاً من الثقة بالنفس، وبدأ يفكر بجعل العام الجديد، ١٩٤٢، عام تحطيم الجيوش الألمانية. لكن صدمة عنيفة جديدة هزته من جديد حين وقعت هزيمتا خاركوف والقرم. ما كان ستالين ليدري ان تلكما ليستا آخر الكوارث المقبلة عليه، لكنه لم يرغب أن يعترف ـ ولو لنفسه ـ إن الفن القيادي لدى العدو كان أعلى. فغالباً ما كانت التوجيهات السطحية التي تصدر عن القيادة العليا (متأخرة في أحوال كثيرة!) خالية من الحذق، لا بل بديهية وتنقصها حكمة الفن الحربي. لنعد إلى موقعة خاركوف مرة أخرى.

في آذار ١٩٤٢، دعا ستالين إلى اجتماع لمناقشة الاقتراحات المقدمة من قيادة المحور الجنوبي الغربي. يصعب القول إنْ كان اجتماعاً للقيادة العليا أم اجتماع لجنة الدفاع الحكومية، فالحضور هم: ستالين وفوروشيلوف وتيموشنكو وشابوشنيكوف وجوكوف وفاسيليفسكي. كانت قيادة المحور العسكري المذكور، وعلى رأسها تيموشنكو، تقترح القيام بعملية هجوم واسعة في الجنوب، باشتراك ثلاث جبهات، لأجل التقدم نحو خط: نيكولايف ـ تشركاسي ـ كييف ـ غومل. اعترض شابوشنيكوف على الاقتراح:

ـ لا توجد لدينا احتياطات استراتيجية كبيرة. من الأفضل أن نكتفي بالدفاع النشيط على طول الجبهة، مع إيلاء الانتباه إلى المحور المركزي.

ـ وهل يجوز أن نبقى في حالة الدفاع مكتوفي الأيدي بانتظار أن يبادر الألمان إلى توجيه ضربتهم...؟ ـ قال ستالين.

اقترح جوكوف توجيه ضربة على الجبهة الغربية والاكتفاء بالدفاع النشيط على الجبهات الأخرى، في حين أصر تيموشنكو على القيام بالهجوم الجنوبي. وسانده فوروشيلوف. عبّر فاسيليفسكي عن موقف الهيئة العامة للأركان معترضاً، فاختلفت الآراء. بقي الجميع ينتظرون ما سيقوله ستالين. قبل ذلك كان القائد الأعلى يكتفي في الاجتماعات المماثلة بمباركة أو رفض الاقتراحات المطروحة، أما الآن، فكان عليه اتخاذ قرار مسؤول ومستقل. كان عليه ممارسة خيار... وكان الخيار استراتيجياً.

لقد كان ستالين من أنصار «الوسط» على الدوام. ففي أيام ثورة أكتوبر، حين دار صرع حول صلح بريست ونضال ضد المعارضة في الحزب، كان يسعى لاتخاذ الموقف الذي يسمح بالانضمام إلى الطرف الأقوى بأسرع وأهون ما يمكن وأقل الخسائر. توجد في أرشيف راديك، مثلاً، وثيقة طريفة جداً: «حول التيار الوسط في حزبنا»، حيث يصنّف ستالين بوصفه أحد أنصار ذلك التيار، بينما يصنّف التيار ذاته على أنه «البؤس الفكري لرجل السياسة»[٧٧]. بقي ستالين أميناً لمبداه المنهجي، وها هو يقترح حلاً هجيناً: السماح لقوات المحور الجنوبي الغربي بشن عملية هجومية جزئية لتدمير مجموعة العدو في خاركوف والتقدم اللاحق نحو الدونباس. لا أحد يعترض الآن. وعلى العموم، كان الاعتراض في مقر القيادة العليا أمراً نادراً.



أثناء الحرب: ستالين محاطاً بالمارشال فوروشيلوف عن يساره ومولوتوف وزير الخارجية عن يمينه.



ستالين وإلى يساره المارشال فوروشيلوف وكبار ضباط الطيران.

كان افتراض ستالين هو أن ضربتين متلاقيتين من منطقة جنوب فولتشانسك ومن رأس جسر بارفنكي يمكنهما دفع العدو إلى مأزق مسدود. لكنه لم يكن يدري إن القيادة الألمانية كانت تعد لهجوم على قواتنا في بارفنكي. إذن، وافقت القيادة العليا على شن هجوم ينطلق من «كيس عمليات» هو رأس جسر الجبهة الجنوبية الغربية في بارفنكي، وهذه خطوة تنطوي على مغامرة كبيرة. ليست الحرب مجرد خطوات تنطوي على مخاطرة، بل وخطر مميت على الدوام.

بدأ الهجوم نحو خاركوف في ١٢ أيار (مايو)، وكانت البداية ناجحة. تقدمت قواتنا خلال أول ثلاثة أيام ٥٠ كيلومتراً إلى العمق. لكن جاءت مفاجأة صاعقة للجميع ضربة الجيوش الهتلرية من الجنوب إلى جناح مجموعتنا المهاجمة، وتلا ذلك عدد من القرارات المتناقضة. في ١٨ أيار توجه تيموشنكو ـ وفق بعض المصادر التي لم نجد توثيقاً لها ـ بطلب إلى ستالين لإيقاف الهجوم نحو خاركوف. كان جواب «الأعلى» هو الرفض:

ـ سنعطيكم من احتياطي القيادة كتيبتَيْ رماة ولواءَي دبابات. يجب أن تصمد الجبهة الجنوبية، فالألمان ستنقطع أنفاسهم قريباً.

كرس خروتشوف فقرة كاملة من تقريره أمام المؤتمر العشرين للحزب لحوادث معركة خاركوف، حيث كان خروتشوف يومها في المجلس العسكري للجبهة الجنوبية الغربية. وهو يقول إنه اتصل آنذاك من الجبهة بستالين، لكن «الأعلى» الذي كان «على بعد بضع خطوات من الهاتف» لم يأخذ السماعة، بل أبلغه من خلال مالينكوف أن عليه (أي خروتشوف) أن يتحدث مع مالينكوف. بعد أن نقل خروتشوف ـ على حد روايته ـ من خلال مالينكوف طلب الجبهة بإيقاف الهجوم، قال ستالين: «يجب أن تبقى الأشياء كما هي». لقد أعلن خروتشوف، بكلام آخر، أن ستالين بالذات هو المذنب في وقوع كارثة خاركوف، بينما يعتمد جوكوف نظرة مغايرة، إذ يعتبر أن المسؤولية عن الهزيمة تقع على عاتق القادة في المجلسين العسكريين للجبهة الجنوبية والجبهة الجنوبية الغربية. ففي مذكراته يقول جوكوف إن الهيئة العامة للأركان أحست بالخطر قبل قادة الجبهتين، وفي ١٨ أيار (مايو) اقترحت الهيئة العامة للأركان من جديد «أن تتوقف عمليتنا الهجومية على مشارف خاركوف... وفي مساء ١٨ أيار (مايو)، جرى حديث بهذا الشأن مع عضو المجلس العسكري هناك خروتشوف الذي عبّر عن آراء مطابقة لآراء قيادة الجبهة الجنوبية الغربية: الخطر من جهة مجموعة الاختراق المعادية مبالَغ به ولا توجد أسس لإيقاف الهجوم. انطلاقاً من تقارير المجلس العسكري للجبهة الجنوبية الغربية، رفض «الأعلى» اقتراح الهيئة العامة للأركان. والاجتهادات الموجودة حول ورود إشارات قلقة من الجبهتين الجنوبية والجنوبية الغربية إلى القيادة العليا ليست مطابقة للواقع، وأنا أشهد على ذلك لأنني حضرتُ شخصياً محادثات «الأعلى كلها»[٧٨].

أظن أن المارشال جوكوف، في هذه الحالة، أقرب إلى الحقيقة. إن ما أورده خروتشوف من ذكريات شخصية هو ـ على الأرجح ـ رد فعل متأخر على فشله

الخاص، مع أن الجميع كانوا يرون أن الكارثة مقبلة. لقد أكد المارشال جوكوف أكثر من مرة أن قرار «الأعلى» كان يستند إلى تقارير تيموشنكو وخروتشوف. إذا كان ذلك مجرد نسيان من قبل خروتشوف، فهذا شيء، وإذا كان محاولة لإيجاد مبرر تاريخي لنفسه بعد مر الزمن، فهذا موضوع آخر تماماً. أما فيما يخص ستالين فإنه لم يستطع أن يقدر التحليل الرصين، الذي قدمته الهيئة العامة للأركان، حق قدره.

راح جيش الدبابات الذي يقوده كلايست يصعّد زخم ضربته ويوسع الشرخ الذي أحدثه في الجبهة. ورأى ستالين، منبهتاً، أن القوات السوفييتية يمكنها خلال يوم أو يومين أن تقع في «مصيدة» بارفينكي. أخيراً صدرت عنه الأوامر بالانتقال إلى الدفاع المستميت على «رأس جسر» بارفينكي. لكن الأوان كان قد فات. وقع الجيشان الـ ٦ والـ ٥٧ في الحصار وتم تدميرهما تقريباً. تلك كانت كارثة أخرى من أفظع كوارث الحرب الوطنية الكبرى.

هل أدرك ستالين سبب الهزائم؟ هل تفهّم أخطاءه الخاصة؟ من الصعب الحكم على ذلك. لكن، لا شك في أمر واحد: كان «الأعلى» ومعه كل القيادة العليا يستخلصون، بالتدريج، الدروس من التجارب الدامية للحرب. المؤرخون العسكريون على حق حين يكتبون - من ذروة الزمن الراهن - إن أسباب الفشل في هجوم خاركوف جلية: عدم تشكيل الاحتياطات اللازمة لأجل التغطية المضمونة على جناحي مجموعة الهجوم، وعدم تأمين الغلبة العددية على محور الضربة الأساسية، وعدم الذهاب إلى عملية أو عمليتين ذات طابع جانبي لإنامة اليقظة لدى العدو (وهذا ما سمح للقيادة الهتلرية بممارسة المناورة بقواها دونما وَجَل)، وأخيراً - عدم الاستفادة من طيران جبهة بريانسك والجبهة الجنوبية لدعم الهجوم وضرب المجموعات المعادية الأكثر خطراً. يضاف إلى ذلك أن كلايست، بضربته المعاكسة، كان مباغتاً، مما يدل على ضعف الاستطلاع لدى قواتنا، كما أن الإدارة تعطلت مرة أخرى بسبب السوء في مستوى نظام الاتصالات. كل هذا واضح لنا الآن، هنا، في سكينة مكاتبنا، حين نقرأ وثائق القيادة العليا. أما في تلك الأيام، في داخل «فرّامة اللحم» الدامية، كانت الأمور أكثر تعقيداً وصعوبة وتشوشاً. لكن في لحظات وظروف من هذا النوع بالذات تتجلى العظمة الحقيقية والموهبة الحقيقية للقائد العسكري. بغض النظر عن كل هذا، استمر الشعب السوفييتي، والجندي السوفييتي البسيط، يقاتل وهو لا يدري أن التضحيات الخيالية التي قدمها على مشارف مينسك وكييف وخاركوف وفي القرم وغيره، هي - إلى حد كبير جداً - نتيجة عدم الكفاءة لدى القائد الأعلى للجيش وعدم جاهزية الكثيرين من القادة العسكريين الذين «أنضِجوا» بسرعة ليحلوا محل الذين أبادهم «الزعيم» قبيل الحرب. إن تلك الضريبة الدموية التي قُدمت إلى سلطان النزعة القيصرية في سنوات ما قبل الحرب ارتد صداها عبر التضحيات الهائلة أيام الحرب، خصوصاً في سنتي ١٩٤١ و ١٩٤٢.

بعد أن ذاق ستالين مرارة الهزائم الكاسحة في القرم وخاركوف، اتخذ قراراً بتنشيط حركة الأنصار في مؤخرة الألمان، فوقّع في آخر أيار (مايو) ١٩٤٢ قرار لجنة الدفاع الحكومية رقم (١٨٣٧) حول حركة الأنصار. يقول القرار: «بهدف

التوصل إلى توحيد قيادة حركة الأنصار في مؤخرة العدو، ولأجل التصعيد اللاحق لهذه الحركة»، تشكيل «هيئة الأركان المركزية لحركة الأنصار «لدى القيادة العليا». وراحت تتكون هيئات أركان لحركة الأنصار في الجبهات: الجنوبية الغربية، وبريانسك، والغربية وكالينين ولينينغراد وكاريليا. كانت المهام المطروحة أمام حركة الأنصار هامة على الصعيد العسكري ـ السياسي. تكونت هيئة الأركان المركزية من: بونومارنكو (اللجنة المركزية للحزب)، سيرغينكو (المخابرات)، كورنييف (الاستخبارات العسكرية)، وغيرهم[٧٩]. كانت تلك خطوة صائبة من خطوات ستالين، ربما كان يجب اتخاذها حتى قبل ذلك.

من الطبيعي أن ستالين كان يفكر بأسباب الهزائم، وهذا ما ساعده لاحقاً على أن يتعلم الكثير. أما آنذاك، فلم يَكَدْ الوضع يستقر على الجبهة الجنوبية الغربية حتى أرسل كتاباً خاصاً إلى مجلسها العسكري.

في الساعة الثانية من ليلة ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٢، بعد أن أتم فاسيليفسكي تقريره إلى ستالين وهمَّ بالانصراف، قال له «الأعلى»:

ـ انتظروا. أريد العودة إلى فشلنا في خاركوف. اليوم سألت هيئة أركان الجبهة الجنوبية الغربية عما إذا تم إيقاف العدو قرب كوبيانسك وعن سير العمل لإقامة خط دفاعي على طول نهر أوسكول، لم يتمكنوا أن يقولوا لي شيئاً مفهوماً. متى سيتعلم الناس عندنا أن يقاتلوا؟ أما كان يفترَض بهزيمة خاركوف أن تعلِّم هيئة الأركان هناك دروساً ما؟ متى سيبدأون بالتنفيذ الجيد لتوجيهات القيادة العليا؟ يجب أن نذكّرهم بذلك. ليعاقبوا من يستأهل العقاب، وأنا أود توجيه كتاب شخصي إلى قيادة الجبهة. ما هو رأيكم؟

ـ أظن أن ذلك سيكون مفيداً ـ قال فاسيليفسكي.

وحفظت لنا الأرشيفات الوثيقة التالية:

«إلى المجلس العسكري للجبهة الجنوبية الغربية.

نحن هنا، في موسكو، أعضاء لجنة الدفاع (طريف أن ستالين لم يستشر أحداً من أعضاء اللجنة واتخذ القرار وحده ـ المؤلف) وأناس من الهيئة العامة للأركان، قررنا إقالة الرفيق باغماريان من منصب قائد أركان الجبهة الجنوبية الغربية. الرفيق باغماريان لا يرضي القيادة العليا، ليس فقط كقائد أركان يتوجب عليه توطيد الصلة مع قيادات الجيوش، بل وكمجرد مصدر للمعلومات ملزم بأن يبلّغ القيادة العليا بصدق وإخلاص حول الوضع على الجبهة. زد على ذلك أن الرفيق باغماريان لم يكشف عن مقدرة على استخلاص الدروس من الكارثة التي وقعت على الجبهة الجنوبية الغربية، وهو ـ بسبب خفة عقله ـ لم يخسر عملية خاركوف حين كانت نصف ناجحة وحسب، بل وأبدى مهارة في مَنح العدو ١٨ ـ ٢٠ كتيبة،...».

توقف ستالين وصمت قليلاً، ثم نظر إلى فاسيليفسكي. وراح مرة أخرى يذرع أرض غرفة المكتب، وسأل رئيس الهيئة العامة للأركان:

ـ في عام ١٩١٤ كان هنالك جنرال في الجيش الروسي خسر معركة إلى جانب سمسنوف، كنيته ألمانية... نسيت... ـ فأجابه فاسيليفسكي، الذي كان حديث العهد في منصبه ولم يتعود بعد على تعرجات تفكير «القائد»:

ـ رينكامبف.

ـ آه، طبعاً... تابعوا الكتابة:

«إن هذه الكارثة تعادل في نتائجها القاتلة كارثة رينكامبف وسمسونوف في بروسيا الشرقية. وبعد كل ما حصل، كان بوسع الرفيق باغماريان ـ لو شاء ـ أن يستخلص العبر ويتعلم شيئاً ما. لكن هذا، للأسف، غير واضح للعيان. الآن، كما قبل الكارثة، لا تزال صلة أركان الجبهة بالجيوش غير مرضية والمعلومات غير سليمة...

نرسل إليكم، مؤقتاً، نائب رئيس الهيئة العامة للأركان، الرفيق بودين، بمثابة قائد لأركان الجبهة، وهو يعرف جبهتكم جيداً ويمكن أن يسدي خدمة حسنة. ويبقى الرفيق باغماريان قائداً لأركان الجيش الـ ٢٨. إذا تمكن الرفيق باغماريان، على نحو حسن، من قيادة أركان الجيش، فسوف أطرح لاحقاً مسألة منحه إمكانية الصعود من جديد.

مفهوم أن القضية هنا لا تنحصر في الرفيق باغماريان وحده. فالحديث يجري أيضاً عن أخطاء جميع أعضاء المجلس العسكري، وقبل كل شيء الرفيق تيموشنكو والرفيق خروتشوف. لو أننا أعلنّا عن تلك الكارثة بكامل حجمها ـ مع خسارة ١٨ ـ ٢٠ كتيبة ـ كما حصلت في جبهتكم ولا تزال تتفاعل، فإنني أخشى أن الناس كانوا سيعاملونكم معاملة قاسية...

أتمنى لكم النجاح.

١٩٤٢/٦/٢٦، الثانية صباحاً

ستالين»[٨٠]

صرف ستالين فاسيليفسكي وارتد إلى الخلف في مقعده ثم راح يفكر. بدأت السنة مبشرة بالخير، حيث كان الهجوم المعاكس في ضواحي موسكو (من ١٩٤١/١٢/٥ إلى ١٩٤٢/١/٧) أول العمليات العسكرية الكبرى التي تجري بالتعاون بين ثلاث جبهات. كان البلد يهلّل فرحاً: لقد تمكنّا من رد العدو على أعقابه بعيداً عن أسوار العاصمة إلى مسافة ١٠٠ ـ ٢٥٠ كيلو متراً نحو الغرب. وخُيّل للجميع أن لحظة الانعطاف قد أزفت. ثم كان الإنزال البحري الناجح في شبه جزيرة القرم، والهجوم الناجح قرب تيخفين ومحاصرة التجمع الألماني قرب دميانسك. أما بعد ذلك... لو أن ستالين قرأ عن يوليوس غاي سويتونيوس، لكان تذكر كلماته: «ما من نصر يمكن أن يعود... بمردود أكبر مما تذهب به هزيمة واحدة...». كان عدد الهزائم كثيراً، وثمة هزائم وشيكة الحدوث.

هزت تلك الهزائم ستالين، لكن وقْعها عنده كان أقل حدة من الخطر الذي أحاق

بالعاصمة في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤١. آنذاك كان القائد الأعلى لا يزال عاجزاً عن التحرر من انعدام الثقة في داخله وكانت تعذبه الهواجس المقلقة. وحين جلبوا له تسجيلاً إذاعياً لخطاب هتلر في ٢/١٠/١٩٤١، خطرت بباله ـ ربما ـ فكرة: إذا لم نصمد الآن، فتلك هي النهاية، نهاية ستالين ذاته بالدرجة الأولى. كان يخيّل لـ «الأعلى» دائماً أنه إذا وقعت هزيمة كبيرة واحدة، لن يكتفي الناس بمجرد الإعراض عنه، بل سيحيطون به ويقضون عليه... أما خطاب هتلر إلى جنوده، فكان يقول: «أخيراً تكونت المقدمات اللازمة للضربة العظيمة الأخيرة، التي يجب أن تسفر عن إبادة العدو قبل حلول الشتاء...».

يتذكر ستالين الآن أنه في تلك الأيام ظل عدة ليالٍ على التوالي لا يفارق مكتبه وينام فترات نوم قلق مرتمياً داخل غرفة الاستراحة لمدة ساعتين أو ثلاث، وفي باقي الأوقات يعمل بشكل محموم، بالاشتراك مع أعضاء المكتب السياسي وجنرالات الهيئة العامة للأركان، على حل المسائل وإصدار الأوامر واستدعاء الأشخاص المعنيين، إلخ. إنه يتذكر إصدار توجيه (يبدو في نظره ذكياً) حول الانتقال ـ على طول خط الجبهة ـ إلى الدفاع المستميت والتخندق في الأرض وحفر خنادق كاملة على عدة خطوط مع معابر تصل بينها، وإقامة حواجز من الأسلاك الشائكة والحواجز المضادة للدبابات(٨١). الآن يستدعي ذلك ابتسامة لديه، لكنه في حينها كان قد تحول إلى «المموّن» الرئيسي للجيش، فيوزع كل دبابة تقريباً، وكل مدفع أو سيارة تصل إلى موسكو، حتى إنه في ١ تشرين الأول (أكتوبر) أشرف على توزيع الأسلاك الشائكة وغيرها من المستلزمات الهندسية للدفاع(٨٢).

رغم الجهود البطولية للجبهة الغربية والاحتياطي وجبهتي بريانسك وكالينين، التقت مجموعات الدبابات الألمانية الثالثة والرابعة قرب فيازما في أواسط تشرين الأول (أكتوبر)، فوقعت الجيوش الـ ١٩ والـ ٢٠ والـ ٢٤ والـ ٣٢ في طوق الحصار. أي قدر مشؤوم هذا الذي كان عالقاً فوق الجيوش السوفييتية في عام ١٩٤١ والنصف الأول من عام ١٩٤٢؟ مرة ومرتين وأكثر، كانت تشكيلات الدبابات والآليات الألمانية تنجح في اصطيادها بـ «طوق» أو «كماشة»... كل الحصار، مثل اللعنة، يلاحق وحدات الجيش الأحمر. وكان الخوف من الحصار يخلق مقدمات الذعر والهلع والانحطاط السريع لمعنويات الجنود. في ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٤١، تحت علامة «فائق الأهمية»، أرسل ستالين إلى الجبهات والجيوش والكتائب برقية ورد فيها:

«تبين تجربة الصراع مع الفاشية الألمانية أن هنالك في كتائب الرماة بجيوشنا العديد من العناصر المذعورة، لا بل المعادية بشكل سافر... لو أن الضباط والقوميسارات كانوا على قدّ المقام، لما تمكنت العناصر المذعورة والمعادية من إحراز الغلبة في الكتائب»(٨٣).

كان ستالين يخشى أن يشل الخوف من الحصار إرادة الجيوش في منطقة فيازما، لكن الناس كانوا يقاتلون بضراوة غير عادية. مع ذلك لم يكن يكفي الصمود، للأسف، فما كان من ستالين إلا أن أصدر أمرا: على جميع الوحدات المحاصرَة أن

تخرج بمعارك نحو خط الدفاع قرب موجايسك. نجحت بعض الوحدات في ذلك، لكن الخسائر كانت فادحة، حيث شمل الحصار ٥٠٠ ألف إنسان. إن نكران الذات الذي أبداه الجنود السوفييت المحاصرون قرب فيازما أعاق عن الحركة ما يقارب ٣٠ كتيبة معادية لأكثر من أسبوع. في تلك الأثناء كان يتم تدعيم خط موجايسك على وجه السرعة، فستالين يذكر جيداً: حين قيل له إن القوات الألمانية التي خرجت نحو أوستاشكوف وتولا وناروفومينسك تُشكِّل تهديداً مباشراً لمدينة موسكو، أملى على الفور، دون استشارة هيئة الأركان العامة، أمراً مقتضباً:

«على كافة بطاريات المدفعية المضادة للطيران في قوى الدفاع الجوي الموسكوفية، المنتشرة في غرب وجنوب غرب وجنوب موسكو أن تكون جاهزة ـ عدا عن مهمتها الأساسية في صد الطيران المعادي ـ لصد وإتلاف وحدات الدبابات والجنود الألمان أثناء محاولة اختراق الجبهة»(٨٤).

خيّم الخطر الحقيقي على موسكو، وأعلنت لجنة الدفاع الحكومية حالة الحصار في موسكو يوم ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر). كان التشرينان (أكتوبر ـ نوفمبر) في عام ١٩٤١ شهرين صعبين جداً على ستالين كما على كل الشعب. فقد راح العدو يوجه الضربات الموجعة واحدة تلو الأخرى ولا يترك متسعاً للعودة إلى الرشد أو الاستراحة أو الالتفات. كان ستالين في وضع الملاكم المحصور في الزاوية والذي يكاد لا يقف على رجليه تحت وابل من ضربات خصمه الموفّق. لكن الذي أنقذه ليس يد المعجزة، بل الشعب الذي وجد في نفسه قوة للصمود رغم كل صعوبة الموقف الذي حُشر فيه. هنا بالذات يكمن سر النصر الذي أُحرز على الألمان في ضواحي موسكو.

يتذكر ستالين أيضاً أن في تلك الأيام التشرينية بالذات كان الوضع في ضواحي لينينغراد صعباً إلى أقصى حد. لقد أبدى أهل لينينغراد صموداً هائلاً وعظمة روح فعلية. في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ألقى هتلر خطاباً يفسر فيه لماذا يراوح الجيش الألماني مكانه قرب لينينغراد، فقال بصفاقة: «طوّلنا بالهجوم على لينينغراد، بالضبط، تلك المدة التي تلزم لمحاصرة المدينة، والآن نحن في وضعية الدفاع، بينما العدو مضطر لإبداء محاولات بالإفلات، لكنه سيموت جوعاً. لو أن هنالك خطر يهدد بفك الحصار لأمرتُ باحتلال المدينة عن طريق الاقتحام، لكن الحصار متين وستسقط لينينغراد في أيدينا، هي وسكانها»(٨٥).

لم يكن ستالين واثقاً من إمكانية الحفاظ على لينينغراد، فأوكل إلى فاسيليفسكي إرسال برقية (يوم ٢٣/١٠/١٩٤١) إلى لينيغراد كان «الأعلى» قد كتبها بخط يده:

«إلى فيديونينسكي وجدانوف وكوزنيتسوف.

نظراً لنشاطاتكم البطيئة يمكن التوصل إلى الاستنتاج بأنكم لم تدركوا بعد عمق الوضع الحرج الذي تعيشه قوات جبهة لينينغراد. إذا لم تتمكنوا خلال الأيام القليلة القادمة من اختراق الجبهة والاتحاد من جديد مع الجيش الـ ٥٤ الذي يربطكم بعمق البلد، فسوق تقع كل وحداتكم في الأسر. إن إحياء هذا الرابط ضروري ليس فقط من

آجل فتح ممر أمام قوات جبهة لينينغراد للتراجع نحو الشرق، بل ومن أجل تفادي الأسر، إذا برزت ضرورة تضطرنا لتسليم لينينغراد، ضعوا في اعتباركم أن موسكو في وضع حرج وليست قادرة على مساندتكم بقوات جديدة. إما أن تخترقوا الجبهة خلال يومين أو ثلاثة وتمنحوا جيوشكم إمكانية الانسحاب نحو الشرق في حالة العجز عن الاحتفاظ بلينينغراد، وإما أن تقعوا في الأسر.

إننا نطالبكم بأعمال حاسمة سريعة. جمّعوا ثماني أو عشر كتائب واخترقوا الطوق نحو الشرق. هذا ضروري في حال الاحتفاظ بلينينغراد وكذلك في حال تسليمها. الجيش بالنسبة لنا أهم. نطالبكم بأعمال حاسمة.

الثالثة و ٣٥ دقيقة. ١٠/٢٣

ستالين»

كان ستالين يضع في حسابه إمكانية احتلال الخصم لمدينة لينينغراد. هذا واضح من برقيته السابقة. ومن أوامره حول الاستعداد لتدمير الأسطول الحربي السوفييتي في بحر البلطيق. تشهد الأرشيفات على أن فاسيليفسكي، بعد ساعة واحدة فقط، كان يتحدث بالهاتف مع قائد الجيش الـ ٥٤ الجنرال خوزين (الذي عُيّن بعد أربعة أيام قائداً لجبهة لينينغراد):

«الجواب عن أسئلتكم هو توجيهات الرفيق ستالين: على الجيش الـ ٥٤ أن يبذل كل الجهود لمساعدة القوات في جبهة لينينغراد على اختراق الحصار نحو الشرق... أرجو أن تأخذوا بالحسبان أن الحديث في هذه الحالة يدور ليس حول انقاذ لينينغراد بقدر ما يدور حول انقاذ الجيوش وإخراجها من الحصار»[٨٦].

نشأ وضع حرج على مشارف موسكو أيضاً. استلمت مجموعة الجيوش الألمانية «سنتر» توجيهاً من هتلر:

«على مجموعة الدبابات الرابعة والجيش الرابع، دون تباطؤ، تسديد ضربة نحو موسكو بهدف تدمير قوى العدو قبالة موسكو واحتلال المناطق المحيطة بالمدينة ومحاصرتها بإحكام. يجب، لهذا الغرض، أن يخرج جيش الدبابات الثاني إلى منطقة جنوب شرق موسكو، بحيث يتسنى له ـ تحت التغطية من جبهة الشرق ـ الإحاطة بموسكو من الجنوب الشرقي ثم من الشرق».

في تشرين الأول (أكتوبر) تمكنت الجيوش الألمانية من التقدم في بعض المواقع إلى مسافة ٢٠٠ ـ ٢٥٠ كيلو متراً. في ١٧ و ١٨ من الشهر، صباحاً، جمع ستالين في مكتبه أعضاء لجنة الدفاع الحكومية والمكتب السياسي والقادة العسكريين: مولوتوف وميكويان ومالينكوف وبيريا وفوزنيسينسكي وشيرباكوف وكاغانوفيتش وفاسيليفسكي وأرتيميف.

ألقي ستالين التحية وطلب من الجميع الجلوس، ثم بدأ فوراً بإصدار الأوامر: البدء حالاً بإجلاء الشخصيات الاجتماعية والحكومية؛ زرع الألغام في المؤسسات الصناعية الكبرى وإعدادها للتفجير. وتم اتخاذ قرار ـ وفق الخطة التعبوية المقرة

سلفاً ـ بإجلاء الحكومة إلى مدينة كويبيشيف وإجلاء الهيئة العامة للأركان إلى مدينة أرزاماس. صمت ستالين ثم أضاف أنه رغم كل شيء يأمل في سير الأمور على نحو أفضل: قريباً جداً يبدأ وصول الكتائب من سيبيريا والشرق الأقصى، فقد تحركت القطارات التي تحملها(٨٧).

«لن نسلّم موسكو!»، «لا مكان للتراجع!» ـ ذلك كان الشعار الوطني لكل إنسان سوفييتي، وبعد أمد قليل، عند أواسط تشرين الأول (أكتوبر)، خيّم التصميم الهادئ على شوارع موسكو: كانت العاصمة مستعدة للقتال حتى النهاية.

تمركزت بضع بطاريات من المدافع المضادة للطيران حول القصر الريفي لستالين في كونتسوفو. في إحدى المرات وصل ستالين عند الصباح إلى القصر، وما كاد يخرج من السيارة حتى أصبح شاهداً لغارة جوية على موسكو. وكان أوضح استعراض لوضع العاصمة تلك الأيام ما رآه ستالين من الانفجارات المكتومة بقذائف المدفعية المضادة للطائرات ومن أشعة المصابيح الكاشفة وهدير الطائرات الألمانية في سماء موسكو. تسمّر ستالين عند السيارة: هل كل بوسعه قبل أربعة أشهر أن يتخيّل كيف ستصبح قوافل الدبابات الألمانية على بعد قفزة لا تستغرق منها سوى يوم واحد؟ سقط شيء ما بالقرب منه على قارعة الطريق، فانحنى رئيس الحرس فلاسيك: كانت تلك شظية من قذيفة مدفعية. حاول فلاسيك إقناع ستالين بالدخول إلى القصر (لم يكن الملجأ موجوداً هناك بعد)، لكن القائد الأعلى أحس لأول مرة بلهاث الحرب المميت، على هذا النحو المباشر، فبقي بضع دقائق يبتلع الهواء البارد في ذلك الصباح التشريني. في تلك اللحظة بالذات برزت لدى ستالين رغبة الذهاب إلى الجبهة. في نهاية الشهر، ليلاً، خرج رتل من بضع سيارات إلى خارج حدود موسكو على طريق فولوكالافسك، ثم سلك طريقاً فرعياً. كان ستالين يريد رؤية البطاريات الصاروخية في لحظة إطلاق النار، لكن مرافقيه وحراسه لم يسمحوا له بالاقتراب أكثر. استمروا واقفين برهة، واستمع ستالين إلى أحد القادة العسكريين، ثم راح ينظر طويلاً إلى وهيج القنابل القاني يومض خلف خط الأفق على الجبهة الغربية، واندار إلى الخلف عائداً. في طريق العودة تورطت سيارته الثقيلة المدرعة في الوحل، وكان سائقه كريفتشنكو كمن أسقط في يده. لكن الموكب لم يتأخر: أصر بيريا على انتقال ستالين إلى سيارة أخرى، وانتهت هذه «الرحلة إلى الجبهة» عند الصباح.

ذات مرة، في أواسط تشرين، اعتزم ستالين السفر إلى القصر الريفي، لكن بيريا قال متردداً: «لا يمكن، أيها الرفيق ستالين». وحين نظر إليه «الزعيم» نظرة دهشة حانقة، أوضح بيريا باللغة الجورجية: «القصر الريفي مزروع بالألغام استعداداً للتفجير». غضب ستالين لما يسمع، لكنه هدأ بسرعة. وأبلغه بيريا أيضاً أن قطاراً خاصاً بـ «الأعلى» قد تم إعداده في محطة بضواحي موسكو، كما أعدت أربع طائرات للقيادة العليا، من ضمنها طائرة «دوغلاس» خاصة به، بستالين. لم ينطق ستالين بشيء، كان متردداً. لكنه في نقطة ما من أعماق نفسه كان يدرك: طالما أن الجيش والشعب يعرفان أن ستالين في موسكو، من شأن ذلك أن يمنحهما المزيد من الثقة بالنفس، فقرر بعد تفكير طويل أن يبقى في موسكو حتى النهاية. كان يعرف إن إجلاء

العاصمة قائم على قدم وساق: المصانع الدفاعية تُزرع بالألغام، وبيريا يقترح، في حالة الانسحاب، حتى تفجير شبكة المترو... يجب التحدث مع شيرباكوف... أغمض ستالين عينيه وجلس في المقعد: صورة بيريا تموج وتذهب بعيداً عن بصيرته، ثم يغيب الصوت أيضاً. وأقبلت رائحة الحنظل تعبق مرارة وتختلط برؤى الوهيج القاني يومض خلف خط الأفق،... ثم يحس بملمس الشظية التي ناوله إياها فلاسيك.

لكنهم صمدوا مع ذلك! وفشل الهجوم العام الثاني الذي شنه الألمان على موسكو. بعد فترة أقر ستالين اقتراحاً من قائد الجبهة الغربية جوكوف بشن الهجوم المعاكس. كانت فكرة اقتراح جوكوف تتلخص فيما يلي: الجبهة الغربية تسدد ضربات عنيفة بالتفاعل مع قوات الجناح الأيسر لجبهة كالينين وقوات الجبهة الجنوبية الغربية لتدمير مجموعات العدو الأساسية «المتدلية» فوق موسكو من الشمال ومن الجنوب، ثم محاصرة قوات العدو المناهضة لجبهتنا الغربية من أجل إبادتها(٨٨). في المحصلة النهائية كانت قوات الاحتياطي صاحبة القول الحاسم في الموقف. كان قائد مجموعة «سنتر» الألمانية فون بوك يتنبأ: «سيتقرر مصير المعركة على يد آخر فصيل من الجيشين». لكن القيادة العسكرية السوفييتية عرفت هذه المرة كيف تتصرف بالاحتياطيات على نحو محسوب جيداً: حين همدت هجمات جيش فيرماخت عند مشارف موسكو بالضبط، وراح الهتلريون يتساقطون على الأرض تعباً وإعياء، صدرت الأوامر للقوات السوفييتية ببدء الهجوم المعاكس. ونجح الهجوم هذه المرة حيث تكبد الهتلريون أول هزيمة كبرى في الحرب العالمية الثانية. كان ذلك شأناً فائق الأهمية، لأن القيادة الألمانية كانت قد أعدت طقوساً كاملة لـ «أسر» العاصمة السوفييتية، تتلخص فحواها في استسلام الروس الذي أصبح وشيكاً. إن أكثر ما يدهش في هذه الحالة هو أن القوات السوفييتية تمكنت من إحراز النجاح ضمن ظروف كانت غلبة العدو فيها على صعيد الدبابات والمدفعية واضحة تماماً.

بعد طرد المحتلين نحو الغرب، تهيأ أن الانعطاف قد حصل. إن أهم ما أحرز بهذا الانتصار كان استعادة الناس للثقة بإمكانية دحر العدو وكذلك انفراج أجواء النحس المخيم على النفوس وتحطيم الأسطورة حول «جيش ألمانيا الذي لا يُقهر». من الصعب، لا بل المستحيل أن نبالغ ـ مهما قلنا ـ في تقدير الأهمية المعنوية والسياسية للانتصار في أول هجوم استراتيجي كبير قرب موسكو. فمنذ كانون الأول (ديسمبر) بالذات، بدأت تعود إلى ستالين ثقته الداخلية بأن خاتمة الحرب ستكون إيجابية، وهو الذي كان دائماً يكبت شكوكه ويطردها إلى أعماق نفسه. الآن تلاشت تلك الشكوك. حتى في لحظات الهزائم المريرة التي أقبلت لاحقاً (خاركوف، القرم، فيازما) لم يعد ستالين يشك في النجاح النهائي. وما كانت آماله بلا أساس.

لم تكن معركة موسكو ذات أهمية استراتيجية كبيرة وحسب (إذ تم تدمير ثلاثين كتيبة معادية وتحرير آلاف النقاط الآهلة بالسكان)، بل وأصبحت، بالنسبة للشعب السوفييتي وجيشه وقيادته، أول نجاح كبير في الحرب ترك صداه الكبير على الصعيد الدولي. يتذكر ستالين أنه حين خرج الألمان نحو قناة «فولغا ـ موسكو» وعبروا نهر «نارا» واقتربوا من كاشيرا جنوباً، ارتج في داخله شيء ما: كانت القيادة

العليا تعد لهجوم معاكس، لكن ستالين اقترح من جديد تبديلات في طاقم قادة الجبهات. فقبل ذلك، في تشرين الأول (أكتوبر) اقترح استبدال قائد الجبهة الغربية، الجنرال كونيف، بالجنرال جوكوف، وقائد جبهة بريانسك، الجنرال يريمنكو، بالجنرال زاخاروف (ثم استبداله بالجنرال تشرفيتشنكو). ثم أرسل إلى الجبهة الجنوبية الغربية (التي شاركت في معركة موسكو بمثابة جناح أيمن) الجنرال كوستنكو بدلاً من المارشال تيموشنكو. وحده المارشال بوديوني بقي يقود، كالسابق، جبهة الاحتياطي. كان يخيل إليه أن هذه التبديلات ساعدت في معركة موسكو على التوصل إلى تناسق موفق في تشكيلة قادة الجبهات، لكنني أعتقد أن خطوات «الأعلى» هذه لم تسفر عن أية نتيجة سوى الدهشة لقائد مجموعة «سنتر» الألمانية (فون بوك)، الذي ما كان ليستوعب مضمون البلاغات الاستخبارية حول التبديلات التي يتعرض لها الجنرالات السوفييت، ولا يرى سوى النزق لدى هؤلاء الجنرالات الذين يضطرون كل مرة إلى الدخول مباشرة في صورة وضع جديد على جبهة جديدة.

إن العقل المحنك والصفيق الذي كان يملكه ستالين أدرك حقيقة جديدة: الآمال المعقودة على النجاح النهائي لا تستند على أول انتصار كبير قرب موسكو وحسب، بل وعلى مقدرة الشعب السوفييتي أن يتعافى بعد الكوارث التي ما كان بوسع شعب آخر أن يصمد في وجهها. إن الكوارث التي كانت تحصل للجبهات أو الجيوش أو الفيالق أو الكتائب لم تتحول إلى مأساة قومية لا رجعة فيها، بالدرجة الأولى، لأن هتلر لم يتمكن من قهر روح الشعب. وطالما إن هذه الروح حية، طالما لم تسقط إرادة الصمود والصراع، لا تعني الخسائر المادية والبشرية، مهما عظم شأنها، نهاية الصراع بشكل لا رجعة فيه. أما حين كانت الكوارث قد أصبحت في خبر كان، فإنها راحت تمنح ستالين المزيد من التفاؤل. هذا تناقض جلي مع المنطق، لكن هذا الأمر واقع فعلاً. ما من شعب آخر سوى شعبنا كان بمقدوره أن يغفر لستالين أخطاءه عشية الحرب وجهله بقيادة الصراع المسلح في مرحلته الأولى، مما أسفر عن خسائر في العتاد والأرواح والأراضي، لا يتخيلها عقل. لكن الشعب السوفييتي غفر له، لأن النظام البلشفي كان قد ترسخ منذ زمن، ومكانة الشعب في ذلك النظام كانت مكانة المنفذ لمشيئة «القائد» وليست مكانة المبدع لتاريخه. النتيجة هي ما كان يهم ستالين على الدوام، وليس ثمن النتيجة تلك! لقد شاء التاريخ أن يوجّد على رأس بلد عملاق مثل بلدنا «قائد عسكري» يستطيع أن يسمح لنفسه بخسارة مئة ومئتين وثلاثمائة وأربعمائة ألف إنسان في الجبهات دون فقدان الأمل بالانتصار النهائي.

يثير الانتباه رد فعل ستالين على الأنباء التي كانت ترده حول مأساة أهل لينينغراد حيث يموت مئات الناس جوعاً في المدينة المحاصرة. روى لي الجنرال فيديونينسكي، ذات مرة، حديثاً دار بين ستالين ومجموعة من قادة مدينة لينينغراد بعد فك الحصار عنها: قيل لستالين إن المدينة في شتاء ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ تحولت إلى مدينة أشباح، يسقط فيها الناس ولا ينهضون،... حيث لا أحد يستطيع التفرغ لجمع الجثث من الشوارع، وعلى طول جدران البيوت تتحرك ظلال بشر، وأشنع ما في الأمر أن الإنسان الذي يموت جوعاً يبقى حتى آخر لحظة محتفظاً بصفاء وعيه. حتى الخوف يتلاشى عنده، فالإنسان يرى اقتراب الموت منه. هكذا أصبحت المدينة الجامدة شاهداً

على واحدة من أبشع المآسي في تاريخ البشرية. أجاب ستالين بعد سماع هذه الرواية قائلاً: «لم يكن الموت يحصد أهل لينينغراد وحدهم. كان الناس يموتون على الجبهات وفي المناطق المحتلة. نعم، الموت مريع في ظروف الهلاك المحتم، والجوع هلاك محتم. آنذاك ما كان بوسعنا أن نقدم إلى لينينغراد أي شيء آخر. موسكو بالذات كانت عالقة على شعرة. الموت والحرب مفهومان لا ينفصمان. هذا الوغد «أبو الغُرّة» جلب المصيبة ليس فقط على لينينغراد...».

عندما كانت تصل إلى ستالين التقارير حول الخسائر في هذه الهزيمة أو تلك، ما كان «الأعلى» يفسح في المجال أمام مشاعره. كان بوسعه أن يقول عبارة غضب أو أخرى بحق القادة العسكريين، لكنه لم يتحدث قط عن مرارة الخسائر التي لا تعوَّض، خسائر أرواح الآلاف من أبناء الوطن الشهداء. إما ان مشاعره كانت قد تجمدت نهائياً قبل الحرب بزمن طويل، وإما أنه كان يجيد إخفاءها عميقاً جداً، أو ربما إنها لم توجد لديه قط.

في بعض الأحوال كان ستالين يبدو بمثابة نفساني جيد: فهو يفهم أنه لا يجدر به مغادرة موسكو، ويفهم أن بيانات «وكالة الإعلام» («إنفورم بورو» الشهيرة) لا يجب أن تتضمن أية نبرات هلعة، ويطالب الجرائد أن تكثر من الكتابة عن المآثر وعن الرجال الشجعان والتصرفات الشجاعة للمقاتلين السوفييت. في عشية أعياد الثورة، قبل أيام من ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١، قال ستالين لـ مولوتوف وبيريا:

ـ كيف سنقيم العرض العسكري؟ ربما يجدر الإبكار بموعده ساعة أو ساعتين؟

خُيّل لجليسَيه أن السمع يخدعهما: أي عرض عسكري في هذا الموقف؟ الألمان في ضواحي موسكو! قبضة الألمان الضاربة تضم ٥١ كتيبة وتكاد تطوّق المدينة! أما ستالين، فتظاهر أنه لا يلاحظ دهشة جليسَيه وأضاف:

ـ يجب تقوية وحدات الدفاع الجوي عن موسكو تقوية إضافية. القادة العسكريون الأساسيون في الجبهات، ولذا سيستقبل العرض العسكري بوديوني وسيقوده الجنرال أرتيميف. إذا حصلت غارة المانية أثناء العرض واخترقت الطائرات أجواء المدينة، يجب جمع القتلى والجرحى بسرعة، ولكن يجب متابعة العرض العسكري. دعوا السينمائيين يصورون العرض من أجل نسخه بسرعة على أشرطة وتوزيعه مباشرة على كل البلد... على الجرائد إضاءة العرض العسكري بأوسع ما يمكن. أنا سأقدم تقريراً في الاجتماع الاحتفالي وسألقي كلمة أثناء العرض... ما قولكما؟ ـ وأفاق مولوتوف من دهشته:

ـ لكن المخاطرة... المخاطرة! الصدى السياسي عندنا وفي البلدان الأخرى سيكون كبيراً بالطبع...

ـ إذن، قررنا الأمر. أصدروا الإيعازات اللازمة. ـ ثم اندار ستالين نحو بيريا: ـ لكن يُمنع قطعاً أن يعلم أحد بالأمر حتى آخر لحظة، باستثناء ارتيميف وبوديوني وعدد آخر من الموثوقين.

من موقع اليوم علينا أن نقول: كان القرار بإقامة العرض العسكري قراراً شجاعاً وبعيد النظر، ويشهد على تزايد ثقة ستالين بمقدرته على التأثير في الرأي العام للبلد وإدارة الحالة النفسية للناس، سيما وإن الحرب قد زرعت شكوكاً في نفوس الكثيرين وظهر في المناطق المحتلة الكثير من عملاء الالمان. ستالين يفهم إن الهزائم تضعف الإيمان الذي لا بد من تقويته بكل السبل.

كان ستالين ينظر إلى وقائع الاستسلام الجماعي للأسر بوصفها أعمال خيانة وخطوات معادية، بلا استثناء. ولم يعترف قط أمام الملأ بحقيقة ساطعة هي إن عدد الجنود السوفييت الذين وقعوا في أسر الألمان كبير جداً. في كلمته أمام الاجتماع الاحتفالي لعيد الثورة يوم ١٩٤١/١١/٦ (الذي جرى في محطة مترو «ماياكوفسكايا»)، أعلن ستالين: «خلال أربعة أشهر من الحرب خسرنا ٣٥٠ ألف قتيل و ٣٧٨ ألفاً من المفقودين...»[٨٩]. لكنه كان يعرف أن عدد المفقودين يساوي أضعاف ذلك، وهو ينظر إلى البلاغات حول الخسائر والأرقام المقتضبة الكبيرة في خانة «المفقودين» (لم يكن هنالك خانة «الاسرى»!) ما كان يرى فيها نتيجة للكارثة في بداية الحرب، بل عيوباً في الإعداد السياسي للناس وفي عمل الأجهزة القمعية أو تأثير العدو ونفايات الصراع الطبقي السابق. لم يكن ستالين في هذه الشؤون لا النفساني الحذق ولا السياسي صاحب العقل البارد ولا «الأب الحكيم للأمة»، بل ستالين الذي تجلى بكل قامته في سنوات ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣ و ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩. فطبيعة الإنسان ومحور نفسه لا يتغيران بسرعة، واحتفظ ستالين طول حياته بشعارات مثل: «مؤامرات العدو» و «المحيط المعادي»... وإلا لما كان ستالين الذي كان.

الأسْر وظاهرة فلاسوف:

لقد جلب الزحف النازي جملة من المصائب، منها مصيبة الأسْر. فحين يوضع الإنسان في الحرب أمام الخيار بين الحياة والموت، غالباً ما نجده يختار الحياة، مع إنها تقترن بانعدام الحرية وانتقاص الكثير من القيم ومن الصفة الاجتماعية التي تليق بالإنسان. في تلك الحرب كان سيّاناً أن يموت المرء أو يقع أسيراً، لأن أكثرية الأسرى أبيدت في معسكرات التعذيب الألمانية.

في أيار (مايو) ١٩١٨ أعلنت الحكومة السوفييتية، في نداء إلى لجنة الصليب الاحمر الدولية وحكومات العالم، أن المعاهدة حول ضحايا الحرب، مثلها مثل «سائر المعاهدات والاتفاقات الدولية الأخرى، المتعلقة بالصليب الاحمر، والتي اعترفت بها روسيا قبل أكتوبر ١٩١٧، سيجري الاعتراف والالتزام بها من قبل حكومة روسيا السوفييتية»، لكن اتفاقية جنيف لعام ١٩٢٩ حول مسألة الأسرى لم يتم اقرارها في الاتحاد السوفييتي[٩٠]. كان الناس والبلاد على عهد ستالين تختلف بشدة، مقارنة مع عام ١٩١٨. اما بالنسبة لهتلر، فكان القانون الدولي، هو الآخر، ليس سوى «أضغاث وهم».

خلال أول سنة ونصف من الحرب، وقع في أسر الألمان ملايين من المقاتلين

السوفييت. وحتى يومنا هذا لم تُنشر المعطيات الدقيقة حول الخسائر والأسرى في تلك الحرب. يبقى لنا أن نأمل بحدوث ذلك الآن، حين تم رفع غطاء السرية عن الأرشيفات. في فصل لاحق سأعرض نتائج حساباتي لخسائر الاتحاد السوفييتي في الحرب الوطنية العظمى. ليست تلك مسألة «تناسب القوى» فقط، بل هي ـ بالنسبة لشعبنا ـ مسألة سياسية وأخلاقية أيضاً، وهي لا تزال تنتظر الحل. فإلى جانب الخونة كان هنالك كثير ممن وقع في الأسر نتيجة عوامل مأساوية. تلك هي **ضحايا** الحرب بكل روعها. وبالمناسبة، فإن عظمة ستالين (التي بقيت شامخة حتى بعدما حصل من إدانة لعبادة فرده) لها علاقة بكون شعبنا ومجتمعنا يجهل حتى الآن الثمن **الدقيق** للنصر في الحرب، وهو ثمن باهظ إلى درجة خيالية.

إن مصير الناس الذي وقعوا في الأسر النازي كان مريراً لا مثيل له، ومرارته مضاعفة: أولاً، لأن الأسر، ضمن معاييرنا الرسمية، كان عاراً. وثانياً: لأنه كاد يكون رديفاً للخيانة. فمع أن الأنظمة الداخلية للجيش السوفييتي لم تنص على التقويم السياسي والأخلاقي للأسر، كان يعتبر أنه ليس مجرد عار، بل وخيانة في واقع الأمر. المعادلة تقول إن الموت أفضل من الأسر، لكن حيثيات الحرب كانت تجري باتجاه أن الكثيرين فضلوا الحياة على الموت، آملين أن يتمكنوا من الانعتاق والعودة إلى الوطن.

منذ الأشهر الأولى للحرب كان ستالين يستفهم عن حجم الخسائر، والهيئة العامة للأركان، بالإضافة إلى الإدارة العامة للكوادر، تقدمان له التقارير عنها. لكن الظاهر أن ما من أحد آنذاك كان يعرف الأمور بدقة. ها هي عدة بلاغات رسمية عن الخسائر أمامي الآن، وفيها خانات مختلفة: عدد القتلى ـ عدد الجرحى ـ عدد المرضى ـ عدد المفقودين ـ... عدد الخيول التي لم تعد صالحة للقتال ـ عدد المدافع ومدافع الهاون التالفة ـ عدد الدبابات... ـ الطائرات... لكن لا توجد خانة لتقييد عدد الأسرى. يقول أحد البلاغات أن عدد المفقودين على جميع جبهات القتال ما بين حزيران (يونيو) ـ تموز (يوليو) ١٩٤١ هو ٧٢٧٧٦ انسان...[٩١] وإذا أضفنا العدد الخاص بشهري آب (اغسطس) وأيلول (سبتمبر) فسوف تتضاعف الكمية، لكننا نعرف تماماً أن عدد المحاصَرين في منطقة كييف وحدها كان ٤٥٢٧٢٠ إنساناً، أكثرهم بقي في الأسر. في التقارير الجزئية كان عدد المفقودين يبدو أكثر دقة. مثلاً: القاضي العام للجيش الأحمر نوسوف يقول في تقرير قدمه يوم ١٩٤١/٩/٢٤ إلى نائب وزير الدفاع ميخليس ما يلي:

«خلال ثمانية أيام من المعارك في منطقة محطة جوكوفكا على طريق بريانسك ـ روسلافل، تكبدت كتيبة الرماة الـ ٢٩٩ (الجيش الـ ٥٠، جبهة بريانسك) خسائر فادحة. في ١٢ أيلول (سبتمبر) كان تعداد الكتيبة يقل عن ٥٠٠ حربة، علماً أنه من أصل ٧٠٠٠ إنسان في قوامها قُتل حوالى ٥٠٠ وجرح ١٥٠٠، بينما بلغ عدد المفقودين ٤٠٠٠ إنسان...»[٩٢].

ستالين أيضاً يعترف، بشكل غير مباشر، إن هنالك عدداً كبيراً من المفقودين، فها هو يسأل في برقية إلى تيموشنكو وخروتشوف وبودين:

«تعتبر القيادة العليا أمراً لا يحتمل وغير جائز أن المجلس العسكري للجبهة، منذ أيام عديدة، لا يقدم معطيات عن مصير الجيوش الـ ٢٨ والـ ٣٨ والـ ٥٧ وفيلق الدبابات الـ ٢٢. القيادة العليا تعرف من مصادر أخرى أن قيادات أركان الجيوش المذكورة عبرت نهر الدون، لكن لا تلك القيادات ولا المجلس العسكري للجبهة أبلغ القيادة العليا أين ذهبت وحدات تلك الجيوش وما مصيرها. هل هي تتابع القتال، أم تم أسرها؟ في هذه الجيوش كان يوجد، حسب ظني، ١٤ كتيبة، والقيادة العليا تريد أن تعرف: أين ذهبت هذه الكتائب؟

ستالين»[٩٣]

لقد تمكن القادة العسكريون الألمان في بداية الحرب ـ كما نذكر ـ من القيام بمناورات كثيرة أسفرت عن حصار أو شبه حصار وحدات وتشكيلات من الجيش الأحمر. كانت الاختراقات السريعة التي تمارسها «رؤوس مثلثات» من الدبابات الألمانية تشق جبهاتنا وجيوشنا وفيالقنا، فتصبح الوحدات فريسة العزلة أو الانقطاع أو تُترك لمصير مجهول، حين ينهار شعور التعاضد والتلاحم الذي يشكل أهم قوة معنوية في أي تجمع عسكري. ورغم الشجاعة التي أبداها العديد من المقاتلين والضباط والموجهين السياسيين، لم تكن نادرة حالات انتشار الهلع والخوف. ليس قليلاً عدد الضباط الذين كانوا يطلقون الرصاص على أنفسهم لئلا يقعوا في الأسر، وغالباً ما كان ذلك يحدث فقط بعد استنفاد كل إمكانيات المقاومة. أحياناً كان الدافع إلى خطوة كهذه هو الخوف من عار الأسر، أو من العقاب على عدم تنفيذ الأوامر بدقة. لنتذكر انتحار الجنرال كوبيتس. ثم إن الجنرال بيرزين، الذي كان محاصراً في منطقة «اومان»، انتحر حين لم يعد يرى مجالاً للمقاومة، لكن النشرات الرسمية أدرجته لفترة طويلة في عداد «المفقودين»، مع ما يترتب عن ذلك من عواقب بالنسبة لأهله وذويه: التشكيك والالتباس.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١، قال هتلر: «إذا شئتُ أن أرسم بالخطوط العامة نجاح هذه الحرب، يكفيني أن أسمّي عدد الأسرى الذي بلغ خلال أقل من نصف سنة ٣,٦ مليون إنسان. وإنني أمنع على البلهاء الإنكليز أن يقولوا إن هذا الرقم غير مؤكد: حين تقوم المؤسسة العسكرية الألمانية بإحصاء شيء ما، حساباتها تكون صحيحة دائماً»[٩٤]. إن هتلر، الذي يغصّ حلقه هنا من النشوة، قد أعلن فعلياً أن النصر مرمي عند قدميه، ولم يبقَ عليه سوى أن يرفعه عن الأرض. لم يكن يحس بعد أن شبح الهزيمة التي لحقت بنابليون يوماً ما واقف خلف ظهره منذ أول لحظة في الحرب.

تدور اليوم في الأدبيات العلمية الغربية معطيات مختلفة حول الأسرى السوفييت في تلك الحرب. بعض المؤلّفات يورد معطيات القيادات في جيش فيرماخت قائلاً: في الفترة ما بين حزيران (يونيو) ١٩٤١ ونيسان (ابريل) ١٩٤٥، أسر الألمان ٥١٦٠٠٠٠ إنسان[٩٥]. حساباتي الأولية تفيد أن هذا العدد مبالَغ فيه بما يقارب مليوناً كاملاً. فمعرفتنا بعدد الوحدات والقطعات العسكرية التي حوصرت، وبخسائر العمليات القتالية في الفترة الأولى من الحرب، وكذلك بنتائج الإحصائيات الأجنبية، تسمح لنا

بتقدير أولي لعدد المقاتلين السوفييت الذين وقعوا في الأسر الألماني: حوالى ثلاثة ملايين خلال أول نصف سنة من الحرب، وهذا يعادل ٧٥٪ من إجمالي عدد الأسرى السوفييت خلال مجمل سنوات الحرب.

ماذا كان موقف ستالين من عمليات الأسر؟ كيف كانت ردود فعله على وقائع محاصرة وأسر الجماهير الغفيرة من المقاتلين على يد الألمان؟ إلى جانب الموقف الرسمي المعلن، الذي يمنع الأسر بوصفه عملاً غير جائز بالنسبة للمقاتل السوفييتي، كان ستالين يضمر شكوكاً بالخيانة (والعمالة للعدو) لدى من يقع في الأسر. فعنده لا يستحق الثقة أي إنسان كان في الأسر. وعدا عن «وحدات الردع» آنفة الذكر، صادق «القائد» على تأسيس معسكرات خاصة تحت إشراف المخابرات بقصد «التأكد» من وفاء الجنود الخارجين من الحصار، وكانت تلك المعسكرات في سنوات الحرب الأولى كثيرة. توجد في الأرشيفات وثائق عديدة من نوع القرار التالي:

«إلى الرفيق بيريا،

لا اعتراض لدي على تنظيم ثلاثة معسكرات من قبل وزارة الشؤون الداخلية لأجل التأكد من جنود الوحدات الخارجة من الحصار.

ستالين

أمليت من قبل الرفيق ستالين هاتفياً في ١٩٤٢/٨/٢٤، الساعة الثالثة و ٣٥ دقيقة. بوكوف»[٩٦].

كان «الأعلى» يتابع بانتباه مصير «المفقودين» من كبار القادة العسكريين. فقد صدرت عنه أوامر خاصة باستيضاح ما حدث لقادة الجيوش. كاتشالوف وبونيديلين وفلاسوف ويفريموف وبوتابوف وراكوتين وساموخين ولوكين. سبق أن تحدثنا عن أول اثنين منهما. بعد اختفاء فلاسوف ويفريموف أصدر ستالين إيعازاً إلى بيريا بتحديد مصيرهما ومكان وجودهما، وها هي برقية من أرشيف جدانوف كانت قد أرسلت إلى الجنرال سازونوف:

«بتكليف من مقر القيادة العليا العامة، أجيبوا حالاً ما الذي تعرفونه عن فلاسوف. هل هو حي؟ هل رأيتموه، وما هي الاجراءات المتخذة للعثور عليه؟ بانتظار الجواب الفوري.

جدانوف»[٩٧]

لم يعثروا على فلاسوف، لكن الرجل سرعان ما أعلن عن نفسه بنفسه، وهذا ما سنتحدث عنه بعد حين. أما الجنرال يفريموف، فوردت أخباره بالصدفة: روت إحدى النساء من قرية سلوبودكا، ناحية تيمكين، منطقة سمولينسك، في أواخر نيسان (ابريل) ١٩٤٣، إنها رأت جنوداً خلف سياج القرية «يدفنون جنرالاً». ارتفعت التقارير إلى فوق، حيث كانت توجد شكوك بأن الجنرال قد وقع في الأسر. بعد التأكد من الأمر طارت برقية إلى ستالين هي بمثابة إعادة الاعتبار للجنرال يفريموف بعد موته:

«إلى الرفيق ستالين.

لقد نظم الجنرال يفريموف مجموعة من الجنود والضباط بقصد الخروج من الحصار. وفي إحدى المعارك مع العدو قرب قرية «مالويه أوستيه» أصيب الجنرال يفريموف بجراح بالغة في خصره، ففقد القدرة على التنقل بنفسه، ثم انتحر وجرى دفنه في قرية سلوبودكا... بيّنت عملية نبش القبر والتعرف على الجثة... أن جراح يفريموف كانت بالغة في منطقة عظم الورك، ونظراً لفقدان الثقة بالنجاة من الأسر (هكذا في النص! ـ المؤلف) أطلق النار على نفسه.

١٩٤٣/٤/٣٠

سوكولوفسكي، بولغانين»

هكذا، أصبح موت الجنرال السوفييتي الذي أبدى شجاعة حتى آخر لحظات حياته، ثمناً لدرء الاتهام عنه وعدم اعتباره من «المفقودين»، وهو أمر ينطوي على التباس سياسي.

في تقرير إلى ستالين، كانت الإدارة العامة للكوادر تقول إن عدداً غير قليل من الجنرالات بقي في عداد «المفقودين»، حيث ترد قائمة بأسماء ما يزيد عن خمسة وأربعين منهم[٩٨]. ويبدو إن أغلبهم قد قُتل أثناء محاولات الخروج من الحصار، أما من بقي على قيد الحياة، فقد أفني في معسكرات التعذيب الألمانية (كما كان حال بونيديلين ولوكين وكاربيشيف)، لكن أحداً منهم لم يهن نفسه بالتعاون مع النازيين. مع ذلك كانوا يبدون لستالين وكأنهم خونة تقريباً.

أثنا العمل على هذا الكتاب قُيِّض لي استبانة المصير اللاحق للكثير من الجنرالات الذين فُقدوا، وهذا موضوع لبحث خاص. سأذكر هنا بعض المعلومات فقط:

ـ الجنرال بوكين قُتل على يد جندي ألماني في ١٩٤٢/٥/٢٦ حين كان يقف فوق جثة ابنه القتيل...

ـ ما يقارب عشرين جنرالاً من القائمة المذكورة لم «يُفقدوا»، بل قُتلوا في ساحة المعركة.

ـ حوالى عشرة جنرالات من نفس القائمة أُبيدوا في المعسكرات الألمانية تحت التعذيب.

أما الآخرون، فمصائرهم تختلف: الجنرال سيسويف وقع في الأسر في تموز (يوليو) ١٩٤١ ونجح في الهروب من معسكر التعذيب عام ١٩٤٣، ثم بقي ثلاث سنوات «قيد التأكيد» في المعسكر السوفييتي. البعض الآخر حكم عليه بالإعدام بتهمة عدم تنفيذ الأوامر أو خيانة الوطن. أما الذين ذهبوا ليخدموا هتلر، فكانوا قلة قليلة: ريختر وماليشكين وجيلنكوف، فالعملاء من الجنرالات يُعدّون على الأصابع.

في الفترة اللاحقة من الحرب كان عدد الأسرى قليلاً، بما في ذلك عدد الجنرالات الذين يقعون في الأسر نتيجة لخطأ تكتيكي أو لقلة الحذر. وفي كل حالة

من الحالات، كان «الأعلى» يصدر أوامر مرعبة، كما في الحالة التالية:

«إلى قادة الجبهات والجيوش.

في ٦ تشرين الأول (أكتوبر)، أثناء سفرهما إلى مواقع الفيالق، فقد الجنرال خومنكو، قائد الجيش الرابع، والجنرال بوبكوف، قائد مدفعية الجيش المذكور، القدرة على تحديد الاتجاهات وتاها إلى منطقة تمركز العدو. أثناء الصدام مع العدو انطفأت السيارة التي كان خومنكو يقودها شخصياً، ووقع الجنرالان، مع كل الأوراق التي يحملانها، في الأسر.

١ ـ يُمنع سفر قادة الجيوش والفيالق دون استطلاع أولي حراسة.

٢ ـ أثناء السفر إلى الوحدات من درجة فيلق وما دون، يُمنع اصطحاب أي وثائق عملياتية باستثناء خريطة المنطقة التي يتم السفر إليها...

٣ ـ يُمنع على القادة العسكريين الكبار قيادة السيارات شخصياً.

١٩٤٣/١١/٧

ستالين»(٩٩)

كما قلنا، اصبحت حوادث الأسر بعد عام ١٩٤٢ نادرة، فقد جاء دورنا نحن في أسر الجنرالات النازيين وحلفائهم. ولا يجب أن ننسى: كل الجيوش الألمانية التي بقيت سليمة حتى نهاية الحرب، تم أسرها من قبل قواتنا.

إن ستالين الذي نظّم في أعوام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ عملية «تطهير» شاملة في المجتمع، كان يأمل أن ما من أحد سيذهب إلى حد التعاون مع المحتلين. حتى بعد عقود من السنوات، كان مولوتوف يقول إن ستالين «أباد الطابور الخامس» في البلد، عشية الحرب، ويزعم أنه لولا ذلك كان سيصعب علينا الصمود في تلك الحرب. لكن مولوتوف ومعه ستالين أيضاً بعيدان عن الحقيقة، لأن هذا الأخير، في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ كان «يحصد» أناساً ليسوا بأعداء. مع أن العملاء والخونة (أمثال كيسلينغ ولافال) كانوا موجودين ليس في الغرب وحده: في المناطق المحتلة من الاتحاد السوفييتي أيضاً ظهر عدد كبير من العملاء والخونة. وأسباب هذه الظاهرة متعددة الأوجه. كان قد مضى على ثورة أكتوبر عقدان ونيف من السنوات، فقط. كان ما زال على قيد الحياة أناس لحقهم الأذى على يد السلطة السوفييتية. والبعض كان يدرك مبدئياً بشاعة النظام الستاليني. لكن ما أجبر الكثيرين على الذهاب إلى التعاون مع المحتلين هو الخوف والرغبة في التأقلم والنجاة. في عام ١٩٤١، خصوصاً، كان عدد كبير من السكان يظن إن الهتلريين قد جاؤوا ليبقوا زمناً طويلاً، إن لم يكن إلى الأبد. وأخيراً: دائماً كان ودائماً سيكون هنالك أناس ضعفاء النفس وضعفاء الإرادة، لا بل وأنذال قادرون على ممارسة الحقارة والخيانة. في أواخر عام ١٩٤١ أرسل بيريا إلى مالينكوف يقول، مثلاً، إن الجندي الذي يحمل في الوثائق اسم أوليانوف، والذي وقع في الأسر الألماني، تم إنزاله جواً من قبل الهتلريين خلف خط الجبهة بوصفه «بطل الاتحاد السوفييتي مرتين»، لكن سرعان ما كُشفَ أمره(١٠٠).

نعم، كان هنالك أُناس لم يكن مفهوم الوطن لديهم شيئاً مقدساً، ولكن كانت توجد أكثرية ساحقة من الناس الذين لم يكن شعور الشرف والكبرياء والوطنية يسمح لهم، بأي حال من الأحوال، أن يذهبوا إلى حد خدمة المعتدي.

في تلك الحرب، اصطدم ستالين ليس فقط بحوادث متفرقة في مجال عمالة البعض للألمان، بل وبظاهرة الانتقال المنظم لجماعات من مواطنينا إلى التعاون مع النازيين. أبرز تجليات تلك الظاهرة كان خيانة الجنرال فلاسوف، قائد الجيش الضارب رقم (٢) في جبهة فولخوف، وهو جنرال بقي يحظى حتى آخر اللحظات بتقدير عالٍ من ستالين.

حين بُلِّغ ستالين، في أواخر أيار (مايو) ١٩٤٢، أن الجيش الثاني قد حوصر في منطقة «ميسنوي بور»، تقبل «الأعلى» هذا النبأ بهدوء: كم سبق أن حوصرت جيوشنا! كان نبأ كهذا يقلقه جداً في عام ١٩٤١. أما الآن، بعد معركة موسكو الناجحة، كان ستالين واثقاً أن هذه الخيبة أو تلك لا يمكن أن تغير واقع الأمور، وإن التحالف المعادي لهتلر سوف ينتصر. ستالين يعرف أن قائد الجيش الثاني هو نائب قائد الجبهة في فولخوف، الجنرال فلاسوف المجرَّب. قبل ثلاثة أشهر فقط وافق «الأعلى» على منحه رتبة جديدة بوصفه واحداً من القادة العسكريين الأشداء ومرشحاً ليصبح قائد جبهة.

بعد بضعة أيام تساءل ستالين: أية وحدات من الجيش الثاني اخترقت الحصار، وكيف حصل كل هذا الأمر؟ قال له فاسيليفسكي مذكراً: في التوجيه رقم (١٣١) بتاريخ ٢١/٥/١٩٤٢، وضع القائد الأعلى أمام قوات جبهة فولخوف مهمة «تدمير العدو في منطقة بريوتين وسباسكايا بوليست» بتوجيه ضربة من قبل القوى الأساسية للجيش الثاني من ناحية الغرب، بالتزامن مع ضربة يوجهها الجيش الـ ٥٩ من ناحية الشرق... وبعدئذ، تأمين الحماية المتينة لرأس الجسر المتكون على الضفة الغربية لنهر فولخوف، بواسطة هجوم مشترك من قبل الجيشين الثاني والـ ٥٩ والجناح الأيمن للجيش الـ ٥٢ في منطقة «سباسكايا بوليست» و «ميسنوي بور» وزيمتيتسي، من أجل التغطية على سكة حديد لينينغراد والطريق العام، ثم عدم السماح بتلاقي قوات العدو في نوفغورود وتشودوفسكويه، وأخيراً ترميم سكة حديد نوفغورود ـ لينينغراد»[١٢١].

ـ لكن كيف سمحتم بمحاصرة الجيش؟ ـ سأل ستالين، فأجابه فاسيليفسكي:

ـ حين التفّت مجموعة ألمانية كبيرة على الجيش الثاني من جهة الشمال، طالبتُ الجنرال خوزين مراراً بسحب وحدات هذا الجيش إلى خط نهر فولخوف.

ـ وماذا فعل خوزين؟ ـ سأل ستالين وهو ينظر إلى فاسيليفسكي بصرامة.

ـ فقط في ٢٥ أيار (مايو) أصدرت قيادة الجبهة الأوامر اللازمة، لكن الوقت كان قد تأخر. بعد ثلاثة أو أربعة أيام تم قطع خطوط تموين الجيش الثاني، الذي أصبح معزولاً. بعد ذلك وجهتُ إلى جبهة لينينغراد، في ٣ حزيران (يونيو)، البرقية التالية، التي وقّعناها أنا وبوبكوف:

«إن أعمالكم الموجهة إلى إبادة العدو في منطقة «سباسكايا بوليست» وبيروتين تجري ببطء شديد. فأنتم لم تدمروا القوات المعادية، بل على العكس، كشف العدو مناورتكم الرامية إلى إخراج الجيش الثاني، فانتقل إلى أعمال نشيطة وقطع الطريق على تراجع الجيش المذكور. إن محاولات جيوش الجبهة إحداث شرخ في الترتيبات القتالية للعدو لا تتكلل بنجاحات ملحوظة، والسبب الأساسي لذلك ليس فقط تباطؤكم في إجراء العمليات، بل وسحب القوات على دفعات بدلاً من توجيه ضربة شديدة بكل قوى الجيش الثاني. إن التباطؤ والتردد في هذه المسألة بالغة الخطورة، فهي تمنح العدو إمكانية توطيد مواقعه، يوماً بعد يوم، على طرق انسحاب الجيش الثاني»(١٠٢). يبدو إن قيادة الجبهة وقيادة الجيش الثاني لا تنفذان الأوامر حالياً.

ـ هل توجد صلة ما مع فلاسوف؟

ـ كلا. البلاغات الأخيرة التي وصلت منه تعود إلى أوائل حزيران (يونيو) ـ أجاب فاسيليفسكي.

ـ هل من الأفضل فرز مجموعة فولخوف ضمن جبهة مستقلة؟

ـ اعتبر ذلك خطوة صحيحة: المجموعة تضم ستة جيوش. لا بد من فك الحصار عن الجيش الثاني.

ـ يجب إقالة خوزين وتعيين غوفوروف قائداً لجبهة لينينغراد، وكذلك تعيين الجنرال ميريتسكوف قائداً لجبهة فولخوف الجديدة. إذا كان لا يوجد اعتراض هيئوا الأوامر اللازمة.

بعد حين وقعت أحداث أخرى أزاحت موضوع الجنرال فلاسوف من ذهن «الأعلى»، لكن حين راحت الإذاعة الألمانية تطبل كثيراً حول محاصرة «أكبر جيش سوفييتي»، أوعز ستالين بإصدار بلاغ عن «وكالة الإعلام»، وسرعان ما جُلب النص إليه:

«في ٢٨ حزيران (يونيو) أذاعت وكالة الإعلام الألمانية نبأ صادراً عن قيادة هتلر العليا حول إبادة الجيش الثاني والـ ٥٢ في جبهة فولخوف، اللذين يُزعم أن القوات النازية قد حاصرتهما على الضفة الغربية لنهر فولخوف. لكن الأحداث في ذلك الموقع سارت بحيث ان ضربات الجيش الـ ٥٩ والـ ٥٢ من الشرق والجيش الثاني من الغرب أسفرت عن تدمير قوات العدو التي اخترقت خطوط الاتصال، في حين فلول تلك القوات رُدّت على أعقابها إلى مواقعها الأولية... بالتالي لا يمكن الحديث عن أي تحطيم للجيش الضارب الثاني».

نظر ستالين إلى النص، ثم صمت قليلاً وأعاده إلى بوسكريبيشيف قائلاً: «لا داعي لإذاعة شيء». لقد غيّر «الزعيم» رأيه. مع ذلك، عاد ستالين بعد ساعات ليوعز بإذاعة بلاغ عن الجيش الثاني، فراحت وكالة الإعلام تقول: «إن الكَتَبة الهتلريين يوردون أرقاماً خيالية حول ٣٠ ألف أسير وحول عدد من القتلى يفوق هذا العدد أضعافاً عدة. لا شك أن هذا التضليل الهتلري لا يمتّ إلى الواقع بصلة... فوحدات

الجيش الثاني انسحبت إلى مواقع مهيأة سلفاً. خسائرنا هي حوالى عشرة آلاف شخص في عداد المفقودين...». من الصعب أن يصدق المرء الأرقام التي يوردها الألمان والطرف السوفييتي، لأنها دائماً أرقام «كاملة»! إننا نتوصل بالتدريج، حتى يومنا هذا، إلى حقيقة مفادها أن عملية أوائل الربيع التي كانت غير معَدّة بالشكل الكافي من قبل جبهة فولخوف أسفرت عن ابتلاع المستنقعات في تلك المنطقة لآلاف وآلاف من المقاتلين السوفييت الذين ما زالوا حتى اليوم مقيّدين في خانة «المفقودين» مريرة الذكر.

بعد بضعة أسابيع، في وقت متأخر من الليل، كان مولوتوف وبيريا جالسين لدى ستالين في المكتب. لمعت نظارة بيريا وهو يهمّ بإخراج رزمة أوراق من المصنف الجلدي ليضعها أمام ستالين:

ـ ما هذا؟

ـ انظروا. «المفقود» أعلن عن نفسه، أقصد قائد الجيش الثاني، ـ أجاب بيريا.

قرّب ستالين الأوراق إليه ومرّ عليها بعينيه:

«نداء اللجنة الروسية إلى مقاتلي وضباط الجيش الأحمر، إلى الشعب الروسي وشعوب الاتحاد السوفييتي الأخرى.

اللجنة الروسية تضع نصب عينيها الأهداف التالية: الإطاحة بستالين وطغمته؛ ثم عقد سلام مشرّف مع ألمانيا وإقامة روسيا الجديدة... ندعو الجميع للانتقال إلى جانب «جيش التحرير الروسي» الذي يعمل بالتحالف مع ألمانيا...

رئيس اللجنة الروسية الجنرال **فلاسوف**.

سكرتير اللجنة الروسية الجنرال **ماليشكين**»(١٠٣)

بعد ذلك كانت هناك أوراق بمثابة بطاقات مخصصة لعبور خط الجبهة، وكذلك: «رسالة مفتوحة من فلاسوف: لماذا سرتُ على طريق النضال ضد البلشفية؟» وما شابه من «منتوجات» إعلامية.

أزاح ستالين الأوراق بقرف وسأل بيريا:

ـ ألا يكون هذا مجرد تلفيق؟ ما هي المعلومات عن فلاسوف؟ هل هناك تأكيدات؟

ـ نعم تأكيدات. فلاسوف يعمل بنشاط لصالح الألمان. ـ هنا تدخل مولوتوف في الحديث:

ـ كيف لم نكتشف أمره قبل الحرب؟

بدلاً من الجواب، أخرج بيريا مصنفاً فيه ملف الجنرال فلاسوف. قلّب ستالين الأوراق، واستوقفته صورة رجل بنظارة، عريض الفكّين، أذناه ناتئتان، وعيناه تنظران بانتباه: فلاسوف، من مواليد منطقة غوركي، والداه من الفلاحين متوسطي الحال. لا

أقارب باستثناء أبيه العجوز وزوجته. ها هو خط أحمر ـ بقلم بيريا على الأرجح ـ يشير إلى عبارة: أنهى المدرسة الكنسية ودرس في معهد ديني سنتين قبل عام ١٩١٧. وفكّر ستالين: لولا الثورة، لكان هذا الرجل أصبح قسّاً وليس جنرالاً أحمر. شارك في الحرب الأهلية، ثم خدم في الجيش. خدمته كانت جيدة دائماً: كتيبة الرماة الـ ٩٩، التي قادها فلاسوف، كانت من أفضل الكتائب في الجيش الأحمر، وحين أصبح قائداً لفيلق الآليات الرابع، دافع عن بيريمشل ولفوف بشكل جيد، ثم تم تقديمه (ستالين يعرف ذلك، فهو الذي وقّع على قرار التعيين) لقيادة الجيش الـ ٣٧ الذي دافع عن كييف، وأبلى في ذلك بلاء حسناً. بعد ذلك: قائد الجيش الـ ٢٠، وأخيراً قائد الجيش الثاني... يذكر ستالين كيف أوعز إلى شابوشنيكوف في ١٩٤٢/٤/٢٠ تحويل فلاسوف بـ «الجمع» بين منصب قائد الجيش الثاني ومنصب نائب قائد الجبهة في فولخوف[١٠٤]. كل التقويمات الموجودة تصف فلاسوف على نحو إيجابي ساطع. ها هو تقويمه في الحزب عام ١٩٣٨: «يعمل كثيراً في مجال القضاء على المخربين في وحدته العسكرية»، وقد وقّع على الوثيقة جنرالات مشهورون مثل كيربونوس، موزيتشنكو، باروسينوف، وغوليكوف. الملاحظة الوحيدة في تقويم الحزب له (١٩٤٠/١٠/١٩) تتلخص في أمنية أن يولي الجنرال فلاسوف «الاهتمام لمسألة التوفير ورعاية طاقم الخيول» في وحدته العسكرية. وفي كل وثيقة: «ملخص لقضية حزب لينين ـ ستالين وللوطن الاشتراكي». في ٢٤ كانون الثاني (يناير) قدّم الجنرال جوكوف تقويمه العسكري للجنرال فلاسوف: «لقد قاد عمليات الجيش العشرين... شخصياً، الجنرال فلاسوف مؤهل بشكل جيد من الناحية العملياتية ويملك مؤهلات تنظيمية، ويجيد إدارة وحدات الجيش بشكل كامل».

لم يكن سهلاً، في ذلك الزمن الصعب، الحصول على تقدير كهذا من الجنرال جوكوف. لكن كيف لم يتمكن كل هؤلاء (كيربونوس وجوكوف وغوليكوف وغيرهم) من كشف حقيقة الرجل؟ دعونا ننعم النظر في المسألة: قبل الحرب لا توجد أية شبهات حول فلاسوف، وهو يقاتل أفضل من كثيرين، وحاز على وسام لينين ووسام الراية الحمراء... إن مخابىء الوعي البشري تتضمن ما لا يخضع للمراقبة الخارجية. يبدو أن الشيوعية لم تكن في جدول القيم لدى فلاسوف أول شيء بين معتقداته. كان الرجل يجيد التظاهر بالوطنية وبشعور الواجب. وكان موظفاً نجيباً. حاول البعض من رجال المخابرات التحرش بموضوع دراسته الدينية، لكنهم اضطروا للعدول عن ذلك: ألم يكن «الزعيم» ستالين بالذات طالباً في المعهد الديني؟...

اليوم هنالك من يحاول إعادة الاعتبار إلى الجنرال فلاسوف. لا أجد أسساً لطموح كهذا: كان الرجل يقاتل من أجل الشعب (قبل الأسر) وليس من أجل ستالين، وعليه فإن خيانته هي خيانة الواجب العسكري.

لم يكن ستالين يصدق إن فلاسوف يمكنه أن ينجح في القيام بشيء جدي لدى الألمان: بعد الإعلان عن «جيش التحرير الروسي» يجب انتظار تشكيلات أخرى على أسس قومية. ولم يخطىء حدس ستالين.

بدأت برلين تشعر أنها حين راهنت على حرب خاطفة، أخطأت تقدير الجبروت

الاقتصادي والعسكري والمعنوي والسياسي الذي يتميز به الاتحاد السوفييتي. كان هتلر يأمل أن الاتحاد السوفييتي، بعد ضربات عام ١٩٤١، سوف يتفتت إلى شظايا قومية، لكن ذلك لم يحصل: لم تهتز الوحدة الاممية، بل على العكس من ذلك، أصبحت واحداً من أسس حيوية الدولة السوفييتية... رغم إن ستالين ارتكب أخطاء في مجال السياسة القومية ليس قبل الحرب، بل وأثناءها أيضاً.

إذن، منذ عام ١٩٤٢، بدأت القيادة الهتلرية تبحث في معسكرات الأسرى عن أناس يبدون الاستعداد ليس فقط لخدمة «جيش التحرير الروسي» بقيادة فلاسوف، بل ولخدمة مماثلة في الوحدات «القومية»: الجورجية والأرمنية والتركستانية والقفقازية والبلطيقية وغيرها. بُذلت جهود كثيرة، لكن الثمار كانت قليلة: كان أعضاء تلك الوحدات غير مضمونين، فهم يلبسون البزة العسكرية الألمانية ويحاولون ـ كلما سنحت الفرصة ـ عبور خط الجبهة نحو ذويهم! هذا، وهم على يقين من العقاب الذي ينتظرهم هناك. في ١٩٤٢/١٠/٣، مثلاً، وبعد محاولات دامت أربعة أيام للعثور على مواقع لقوات الأنصار، وجد الأسرى بيرغينوف وحسنوف وطلبايف من الوحدة التركستانية أنفسهم في مواقع الجيش السوفييتي، فبلّغوا القيادة العسكرية هناك أن الجزء الأكبر من لوائهم متعطش للانتقال أيضاً إلى الجانب السوفييتي. في ٨ من الشهر ذاته جاء، بنفس الطريقة، إثنان من الأسرى الجورجيين تسولايا وكاباكيدزيه يحملان طلباً مماثلاً من زملائهم: مساعدة إحدى قطعات الوحدة الجورجية على اجتياز خط الجبهة[١٠٥].

كان الألمان يعلقون آمالاً خاصة على الوحدات التي شكلوها في منطقة بحر البلطيق. فقبل الحرب، عاش سكان جمهوريات البلطيق الثلاث سنة واحدة فقط ضمن الاتحاد السوفييتي، ومع ذلك لم تتمكن القيادة العسكرية الألمانية من استخدام الوحدات المعنية إلا كتشكيلات ثانوية، تقوم بحراسة المنشآت والطرق أو بالمناوبة وأحياناً بعمليات تأديبية. بعد الحرب تم إدانة ونفي كل الأشخاص الذين خدموا في الوحدات البلطيقية، مع أن قادة لاتفيا السوفييتية، مثلاً، (لاتسيس، كالنبيرزين) طالبوا في عام ١٩٤٦ بالعفو عنهم[١٠٦]. كان ستالين في الأحوال العادية يحيل طلبات كهذه إلى مولوتوف وبيريا، ولكن موقفه من أي حديث حول الناس الذين ذهبوا مع الألمان (أو إلى الألمان) كان ثابتاً لا يتغير.

ها هو تقرير رفعه بيريا إلى ستالين بعد تحرير القفقاز:

«تعتبر وزارة الشؤون الداخلية أن من المفيد أن يُجلى عن ستافروبول وكيسلوفودسك وبياتاغورسك و«مينيرالني فودي» ويسنتوكي... أهالي وعوائل المجرمين، الذين كانوا عملاء نشيطين للألمان وخونة للوطن وكل الذين ذهبوا طوعاً إلى الألمان، على أن يتم إسكان تلك العوائل بشكل دائم في جمهورية طاجيكستان بمثابة «مهاجرين خصوصيين». العدد العام هو ٧٣٥ عائلة، أي ٢٢٣٨ إنساناً. أرجو منكم الإيعاز.

بيريا»[١٠٧]

وكما في كل مرة: ستالين موافق! من المشكوك فيه ان «الزعيم» لم يكن يفهم أن الامهات والأخوات والأطفال لا يمكنهم أن يكونوا مسؤولين عن جرائم الأبناء والأخوة والآباء. لكن ستالين هو ستالين دائماً.

كانت التقارير حول نشاط «الوحدات» تصل إلى ستالين عبر قنوات المخابرات، وهو يرى أنها لا تشكل قوة فعلية، لكن قد يكون لها صدى سياسي. يوجد بين وثائق بيريا وستالين عدد من البلاغات حول الأعمال الخيانية لمجموعات من المرتدين الذين أصبحوا عملاء للهتلريين. ها هو، مثلاً، تقرير من كوبولوف إلى بيريا:

«حول سير النضال ضد المجرمين المرتدين في مناطق شمال القفقاز.

خلال الأسبوع الفائت (٢٧/٤ ـ ٣/٥) وقعت ست هجمات من قبل المجرمين. ثم قتل ٨ مجرمين، بمن فيهم مظليان المانيان، وإلقاء القبض على ٤٦ مجرماً وانتزاع ٣٧ قطعة سلاح. خسائرنا ٨ أشخاص. ثم قتل زعيم عصابة كاياكينت، المدعو نجم الدين إلياسوف وإبادة عصابة تميركانوف»[١٠٨]. وها هو تقرير آخر، نجد في زاويته العليا: «التقرير مرسل إلى الرفاق ستالين ومولوتوف وأنطونوف ـ ٢٠/٧/١٩٤٤. بيريا...

في ١٢ تموز (يوليو)، نتيجة لتمشيط الغابات في منطقة قرية كازبورون بجمهورية كاباردينيا، ألقي القبض على المظلي الألماني فدزايف (سابقاً عضو الكومسومول، أوسيتي القومية، عمل كرجل بوليس في قرية أوروخ، والتحق بالجيش الألماني عام ١٩٤٣ وله رتبة عسكرية المانية). ألقي القبض على عدد من المظليين، ونحن الآن نتابع البحث عن اثنين من أصل ثمانية مظليين. الباقون سُحبوا أو قتلوا.

كوبولوف»[١٠٩]

كانت ترد تقارير مماثلة من القرم ومناطق اخرى. وبدلاً من متابعة النضال ضد المجرمين وعملاء المحتلين، راح ستالين وبيريا يتخذان قرارات إجرامية حول إجلاء شعوب كاملة من الاقليات القومية في شمال القفقاز وكالميكيا والقرم، باتجاه الشرق، وذلك على أساس الخطط التي كان يعدها متمرسون بارعون في أعمال القمع مثل سيروف وكوبولوف وموملوف وتسانافا وغيرهم. تؤكد الوثائق، حقاً، أنه كان يوجد بين تلك الشعوب عدد غير قليل من الخونة، لكن كم كان هنالك أبطال ومقاتلون من أبناء تلك الشعوب وأبناء وطننا؟ لو شئنا تبيان أبعاد البطولة لاضطررنا إلى تعداد قائمة طويلة من الأسماء المجيدة.

إذن، على مدى عام ١٩٤٤، حين كانت الحرب تقترب من نهايتها، أسفرت قرارات ستالين عن نفي مئات الآلاف من الشيشان والأنفوش والبلقار والقرتشاي وتتر القرم والكمليك وأتراك ميسخيتيا، وقد درس هذه المسألة دراسة جيّدة موثقة دكتور التاريخ خ. ابراهيم ـ بيه ـ لي[١١٠].

ها هو تقرير مرسل إلى ستالين يقول، مثلاً:

«لجنة الدفاع الحكومية.

استناداً إلى مرسوم السوفييت الأعلى وقرار مجلس الوزراء في ١٩٤٣/١١/٢٨، نفذت وزارة الشؤون الداخلية عملية إجلاء الأشخاص ذوي القومية الكلميكية إلى المناطق الشرقية... إجمالي عدد الناس الذين تم تحميلهم في القطارات هو ٢٦٣٥٩ عائلة، أي ٩٣١٣٩ شخصاً، أرسلوا إلى مناطق الإسكان في إقليم ألطاي وإقليم كراسنويارسك ومنطقة أومسك ومنطقة نوفوسيبيرسك.

بيريا»[١١١]

كان ستالين يتابع سير تلك «العمليات» بانتباه خاص، كما لو أنها عمليات على الجبهة. لكن لم يكن هنالك أعداء على هذه «الجبهة»، فمن يبقى من العوائل أيام الحرب سوى الشيوخ والنساء والأطفال؟... حتى تقارير بيريا تشير: «لم تقع أية اصطدامات أثناء إجراء العملية...». لم يكن «اب الشعوب» يحس بمشاعر الناس: كآبة ماساوية وصدمة نفسية مخيفة لدى مئات الآلاف من الناس...، لا بل نجده يبدي سخاءً خاصاً في مثل تلك الحالات:

ـ ارفعوا أسماء الأشخاص الذين نفذوا أوامر الإجلاء تنفيذاً جيداً لنيل الأوسمة. وكانت مشيئة تتحقق بسرعة:

«لجنة الدفاع الحكومية.

إلى الرفيق ستالين:

وفقاً لإيعازكم، أقدم هنا مشروعاً مرسوماً باسم السوفييت الأعلى حول منح الأوسمة والميداليات للأشخاص الذين تميزوا خصوصاً (بماذا تميّزوا؟ ـ المؤلف) أثناء المشاركة في عملية إجلاء الشيشان والأنغوش... عدد المشاركين هو ١٩ ألف من العاملين في المخابرات... و ١٠٠ ألف من الضباط والجنود في قوات وزارة الشؤون الداخلية، معظمهم شاركوا في اجلاء القرتشاي والكلميك، كما سيشاركون قريباً في عملية إجلاء البلقار. نتيجة لثلاث عمليات، تم إجلاء ٦٥٠ ألفاً... إلى المناطق الشرقية»[١١٢].

يا لها من صفحات مريعة،... تعكس فردية السلطان حين ينقلب ظلماً ضد الشعوب. تخيلوا فقط ما تعنيه تلك العمليات: ستالين يصل إلى حد إطلاق التهمة بـ «الخيانة العظمى» على شعوب كاملة. وتخيّلوا: ١٠٠ ألف عسكري يشرفون على إجلاء الشيوخ والنساء والأطفال، في حين يصعب أحياناً، على الجبهات، العثور ولو على فوج واحد أو لواء «زيادة». لقد فقد الحاكم ـ الفرد كل الكوابح الاخلاقية منذ زمن، وهو ـ ستالين الذي أعلن نفسه وريثاً وحامياً ومفسّراً لِلينين ـ لا يريد أن يتذكر قول هذا الأخير: ما من شيء يعيق التضامن الاممي مثلما يعيقه «الظلم القومي»، ولا توجد حساسية لدى القوميين «المغبونين» أقوى من حساسيتهم إزاء شعور المساواة القومية وإزاء خرق تلك المساواة»[١١٣]. لقد أسهبتُ في هذا الاستطراد لكي أبين أن العقوبات التي نزلت بشعوب كاملة لم تمتّ بصلة إلى حوادث خيانة الوطن والواجب العسكري من قبل أفراد مختلفي القومية. لو أن ستالين كان دائماً يتمسك بمنطقه

الاجرامي، لتوجب عليه، بعد ظهور «جيش التحرير الروسي» أن ينفي الشعب الروسي أيضاً والشعب الأوكراني... وباقي الشعوب.

إن ظاهرة فلاسوف، بجانبها السياسي، جاءت نتيجة لعوامل عدة: الهزائم الكبيرة على الجبهات؛ بقايا النزعة القومية والسخط الاجتماعي لدى ممثلي وورثة الطبقات الميسورة؛ خوف العقاب عند البعض ممن وقع في الأسر دون إرادة منه. فمع تزايد الصمود في وجه المحتلين راح عدد الذين يستسلمون للأسر طوعياً يتناقص باستمرار، لكي يتلاشى تقريباً في نهاية ١٩٤٢ وأوائل ١٩٤٣. ففي حديث له أمام اجتماع للموجهين السياسيين الذين يعملون مع الجنود من القوميات غير الروسية، قال رئيس الإدارة السياسية للجيش الأحمر شيرباكوف إن عدد حوادث الفرار إلى الجانب الألماني في جبهة لينينغراد كان ٢٢ حادثاً في آب (أغسطس) ١٩٤٢، وحادثين فقط في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣. ثم اختفت تلك الحوادث المخزية بشكل نهائي[١٢٤].

هنالك الكثير من الكتب حول فلاسوف في الغرب. يواكيم هوفمان، مثلاً، في كتابه «تاريخ جيش فلاسوف» يؤكد (زاعماً أنه يستند إلى أرشيف فلاسوف) أن عدد المقاتلين من الأسرى الروس الذين كانوا تحت تصرف الألمان قد بلغ في أيار (مايو) ١٩٤٣ تسعين فصيلاً ومثلهم عدد المقاتلين من القوميات الأخرى[١٢٥]. هذه الأرقام تنطوي على مبالغة، وليس مقنعاً تصوير تلك الحركة بمثابة «بديل للبلشفية». إن وحدات فلاسوف الألمانية كانت تضم أناساً ليسوا «مناضلين من أجل الأفكار» بقدر ما هم متعصبون قومياً وضعفاء ومعدومو الإرادة، تسيطر عليهم فكرة بسيطة: النجاة! إن محاولة فلاسوف للاعتماد على المهاجرين الروس من بقايا «الحرس الأبيض» (مثل الآتمان كراسنوف والجنرال شكورو والجنرال «سطان ـ غيريه ـ كيليش» وغيرهم) تشهد على انسداد الأفق أمام حركته، فقد كان هؤلاء عاجزين عن تقديم أي عون له.

لعبت النجاحات العسكرية لجيوشنا دوراً كبيراً في قطع دابر التطور اللاحق لظاهرة فلاسوف. فقد أزالت النجاحات كل عوامل الخمود والهلع والكآبة التي كانت تشكل التربة المغذية للخيانة. لكن ستالين كان يرى أسباب ظاهرة فلاسوف في أنه لم يكتمل الكشف عن كل «أعداء الشعب» قبل الحرب. هنالك العديد من وثائق ستالين وتوجيهاته الشفهية (المدونة من قبل مرؤوسيه) التي تدل على تشديد الرقابة على الناس الفارين من الأسر وتشديد أعمال القمع ضد كل من يسمح لنفسه أن يبدي شكوكاً حول صحة ما تتخذه القيادات العسكرية من إجراءات. كان بيريا، بانتظام، يقدم التقارير إلى ستالين حول تلك الأعمال التي كانت تجري بشكل واسع. هنا وثيقة يعرض فيها بيريا على القائد الأعلى واقع الأمور في هذا المجال:

«خلال عام ١٩٤٣، قامت قوات وزارة الشؤون الداخلية المتخصصة في حماية مؤخرة الجيش الاحمر بالقاء القبض على ٩٣١٥٤٩ شخصاً والتأكد منهم، أثناء عمليات تطهير المناطق التي يجري تحريرها من العدو أو أثناء أعمال الرقابة العادية. ينقسم العدد المذكور إلى ٥٨٢٥١٥ عسكرياً و ٣٤٩٠٣٤ مدنياً.

تم سجن ٨٠٢٩٦ شخصاً من أصل العدد العام وهو: عملاء وخونة ومشاركون في أعمال تأديبية بإشراف الألمان وكذلك فارّون من الجيش ولصوص حرب وغير ذلك من العناصر الإجرامية»(١١٦).

في شباط (فبراير) ١٩٤٣ جرى عدد من المحاكمات الغيابية التي تهدف إلى قطع دابر الخيانة وإدانتها. هكذا صدرت أحكام غيابية على فلاسوف وماليشكن وغيرهما من الضباط الذين نشطوا في التعاون مع الألمان. لكن حتى هنا لم تمضِ الأمور دون مغالطات: لقد تم حشر جنرالات مثل كاتشالوف وبونيديلين، اللذين سبق الحديث عنهما، في سلة واحدة مع خونة الوطن أمثال فلاسوف وماليشكين.

نشط بيريا وجهازه ليس فقط في مراقبة العناصر المشكوك بها في الجانب السوفييتي من الجبهة، بل وفي محاولات دراسة الوضع في التشكيلات التي يكونها الألمان من الأسرى السوفييت. ذات مرة عرض بيريا على القائد الأعلى محضر التحقيق مع الجنرال بوديخو الذي هرب نحو مواقع الأنصار بعد أن أفلت من الأسر في معسكر أورانبورغ، الخاص بالضباط الأسرى. ويعطي بوديخو وصفاً مفصلاً للكثيرين من الضباط وعرض قصة زيارة الجنرال جيلنكوف، ممثل فلاسوف، إلى المعسكر. بالمناسبة، كان جيلنكوف، قبل الحرب، سكرتيراً للجنة الحزب في أحد أحياء موسكو وصعد إلى فوق بسرعة نتيجة موجة القمع التي حصدت المسؤولين الحزبيين. وقع جيلنكوف في الحصار وهو عضو في المجلس العسكري للجيش الـ ٣٢ في الجبهة الغربية، ثم سلّم نفسه للأسر. إن لا مبدأية هذا الشخص وانتهازيته أسفرتا عن صعوده الحزبي بالصدفة ثم دفعتا به إلى صفوف العملاء بسرعة. كذلك كان الأمر مع ماليشكين وهو أيضاً من الأشخاص المقربين إلى فلاسوف. كان ماليشكين قد سُجن عام ١٩٣٨ وأطلق سراحه في بداية الحرب، ثم ساقه القدر أخيراً إلى صفوف فلاسوف. يصعب القول، هل كان الشعور بالغبن هو الذي دفع هذا الشخص إلى خيانته، أم إنها كانت امتداداً لمعتقداته؟ على أية حال سأل ستالين بيريا أثناء أحد تقارير هذا الأخير:

- من الذي طلب العفو عن ماليشكين يومها؟ استوضحوا الأمر.

لم يتابع ستالين قراءة استجواب الجنرال بوديخو: إنه يأسف للوقت الذي يضيعه على معرفة ما يقوم به من أفعال الناس الذين - كما يظن - كان يجب كشفهم وإبادتهم في سنوات ١٩٣٧ - ١٩٣٩.

ويفكر ستالين في نفسه: مهما يكن الأمر لن يستطيع كل هؤلاء الـ «فلاسوفات» أن يغيروا شيئاً. لقد صمد البلد في أصعب، شهور ١٩٤١. من الصعب أن نجد في التاريخ مثالاً على بداية أكثر فجائعية من بداية الحرب الوطنية العظمى. كان جميع أصحاب الرأي والكلمة من سياسيين وعسكريين أجانب يعتقدون أن روسيا قد تصمد حداً أقصاه ثلاثة أشهر، لكن الشعب السوفييتي قلب تلك التكهنات. هذا، علماً أن

ستالين سوف يعزو، لاحقاً، سبب الصمود الخيالي فقط إلى «القيادة الحكيمة» الستالينية، رغم أن ستالين هو المذنب أكثر من أي شخص آخر في بداية الحرب المفجعة، التي دفعت كثيرين إلى السير على طريق فلاسوف، فقط لأنهم ـ قبل كل شيء ـ كانوا يأملون بالبقاء على قيد الحياة.

المراجع

الفصل الأول ـ بداية مفجعة.

(١) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٥٥٤. د ٩٠. ل ٢٥٧ ـ ٢٥٩.
(٢) المصدر السابق. ف ٣٥. أوب ٧٢٥٥٨٨. د ٣٦. ل ٢٩٧.
(٣) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٩. د ١٠١. ل ٢٣، ٣٥، ٣٧.
(٤) المصدر السابق. ف ١٦. أوب ٢٩٥١. د ٢٣٩.
(٥) المصدر السابق. د ٢٤٣. ل ١٢٣ ـ ١٣٠.
(٦) ف. غالدر. يوميات عسكرية. موسكو، ١٩٧١. المجلد ٣. ص ٢٧.
(٧) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٧٢٥٥٨٨. اوب ٣٦. د ١٩١٣٠. ل ١٩٧.
(٨) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٤١. ل ١ ـ ٢.
(٩) المصدر السابق. ف ١٥. أوب ٨٨١٤٧٤. د ١٢. ل ٢٤٦ ـ ٢٥٣.
(١٠) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٥٥٤. د ٩٠. ل ٢٦٠ ـ ٢٦٢.
(١١) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١٠٧١. د ١. ل ٦ ـ ٨.
(١٢) المصدر السابق. ف ٢٠٨. أوب ٢٥١٣. د ٧١. ل ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(١٣) المصدر السابق. ف ١٥. أوب ٧٢٥٥٨٨. د ٣٦. ل ٢٣٩.
(١٤) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٢٨. ل ١.
(١٥) المصدر السابق. ف ١٥. أوب ٨٨١٤٧٤. د ١٢. ل ١٧٥ ـ ١٩٠.
(١٦) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٥٥٤. د ٩، ل ٤٧.
(١٧) المصدر السابق. ل ٢٥.
(١٨) التربية السياسية. ١٩٨٨. العدد ٩. ص ٧٥.
(١٩) ن. بيردياييف. هدف الإنسان. باريس: «ملاحظات معاصرة»، ١٩٣١. ص ١٥.
(٢٠) كلاوزفيتس. حول الحرب. الطبعة ٥. موسكو، ١٩٤١. المجلد ١. ص ٢٩.
(٢١) ن. لوسكي. طبيعة الشعب الروسي. فرانكفورت، ١٩٥٧. ص ٧٠.
(٢٢) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣٢. أوب ٧٠١٣٢٣. د ٣٨. ل ٥٣.
(٢٣) ي. تارليه. غزو نابليون لروسيا. ١٨١٢. موسكو، ١٩٣٨. ص ١١٧.
(٢٤) برافدا. ١٩٤١/٧/٣.
(٢٥) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٧ ل. ٢٩٠.
(٢٦) المصدر السابق. د ١. ل ١٧٤٤.
(٢٧) المصدر السابق. ٣٥. أوب ٢٠٠٨٠٢. د ٣٢ ل ٢٢ ـ ٢٣.
(٢٨) المصدر السابق. ف ٨. أوب ١١٦٢٧. د ٩٥٤. ل ٦٥.
(٢٩) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٥٥٤. د ٩. ل. ل ٢٢٤ ـ ٢٢٥.
(٣٠) المصدر السابق. د ٩١. ل ١١.
(٣١) المصدر السابق. ف ٣٣. أوب ١١٤٥٤. د ١٧٩. ل ١.
(٣٢) المصدر السابق. ف ٨. أوب ١٨٥٥. د ٧. ل ٢٧.
(٣٣) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٥٥٤. د ٩١. ل ٣٦.
(٣٤) المصدر السابق. ل ٤٠ ـ ٤٢.
(٣٥) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٩. د ٧٠. ل ٦٥ ـ ٧١.

(٣٦) المصدر السابق. ف ٣٣. أوب ٧٢٥٥٨٨. د ٣٦. ل ١٠.
(٣٧) ن. أ. بيردياييف. مصير روسيا. موسكو. ١٩١٨. ص ١٨٧.
(٣٨) الأرشيف الركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب. ١١٥٥٦. د ٢. ل ٢٥.٢.
(٣٩) المصدر السابق. ف ٣٣. أوب ٧٢٥٥٨٨. د ٣٦. ل ٢٩٥ ـ ٢٩٨.
(٤٠) المصدر السابق. ل ٣٠٨ ـ ٣١٠.
(٤١) المصدر السابق. ف ٢٠٨. أوب ٢٥١٣. د ٧١. ل ١٣١ ـ ٢٢١.
(٤٢) المصدر السابق. ف ٣٣. أوب ١١٤٥٤. د ١٧٩. ل ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٤٣) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٦٨. المجلد ٥. ل ٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٤٤) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣٣. أوب ١١٤٥٤. د ١٧٩. ل. ٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٤٥) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٩. ل ٣٢٤.
(٤٦) المصدر السابق. ف ٣٥. أوب ١١٢٨٥. د ٢٠٥. ل ١ ـ ٧٨.
(٤٧) المصدر السابق. ف ٩٦ ـ أ. أوب ٢٠١١. د ٥. ل ٢١ ـ ٢٤.
(٤٨) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٣٠. ل ١٢ ـ ١٣.
(٤٩) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١. ل ٣١٥.
(٥٠) المصدر السابق. ف ٢٠٨. أوب ٢٥٢٦. د ٥ أ. ل ٤٤٣ ـ ٤٤٨.
(٥١) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٦. د ٣٦. ل ٨٢ ـ ٨٤.
(٥٢) المصدر السابق. ف ٩٦ ـ أ. أوب ٢٠١١. د ٥. ل ٢٨ ـ ٣٠.
(٥٣) المصدر السابق. ل ٩٦ ـ ٩٩.
(٥٤) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٥٥٤. د ٩. ل ٤٧٠.
(٥٥) المصدر السابق. ف ٢٢٩. أوب ١٦١. د ١٠٣. ل ٩٣.
(٥٦) المصدر السابق. ف ١٣. أوب ٣٠٢٨. د ٤. ل ١ ـ ٢٧.
(٥٧) المصدر السابق. ف ٨. أوب ١١٦٢٧. د ٩٥٤. ل ٦١.
(٥٨) المصدر السابق. ف ٧. أوب ١١٢٥٠. د ٢٩. ل ٣٧ ـ ٣٨.
(٥٩) انظر: مراسلات رئيس مجلس الوزراء للاتحاد السوفييتي مع رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ورؤساء وزارة بريطانيا. (١٩٤١ ـ ١٩٤٥). الطبعة ٢. موسكو ١٩٧٦. المجلد ١. ص ٣٣.
(٦٠) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١١٣٣. د ٧. ل ١٣٩ ـ ١٤٠.
(٦١) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٥٥٤. د ٩. ل ٤٣١.
(٦٢) المصدر السابق. ف ٢١٩. أوب ٦٧٩. د ٣. ل ١٧ ـ ٢١.
(٦٣) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٢. ل ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٦٤) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٣٠. ل ٣٧.
(٦٥) المصدر السابق. ف ٦٧. أوب ١٢٠١٨. د ١٠٠. ل ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(٦٦) المصدر السابق. ل ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٦٧) المصدر السابق. ف ٩٦ ـ أ. أوب ٢٠١١. د ٥. ل ١٠٤ ـ ١٠٧.
(٦٨) المصدر السابق. ل ١٢٠ ـ ١٢٣.
(٦٩) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٥٥٤. د ٩١. ل ٢٢٦.
(٧٠) المصدر السابق. ف ٨. أوب ٧٢٥٥٨. د ٣٥. ل ٨.
(٧١) المصدر السابق. ل ٣٣.
(٧٢) المصدر السابق. ف ١٥. أوب ٧٢٥٥٨. د ٣٥. ل ١٦.
(٧٣) المصدر السابق.
(٧٤) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٧. ل ٣٦٢.
(٧٥) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٨. ل ١٢١ ـ ١٢٩.
(٧٦) المصدر السابق. ل ٣٣٢.
(٧٧) الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٣٢٦. أوب ١. د ١١٣. ل ٦٣ ـ ٧٥.
(٧٨) غ. ك. جوكوف. ذكريات وخواطر. الطبعة ٥. موسكو. ١٩٨٣. المجلد ٢. ص ٢٥٧.
(٧٩) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٨. ل ٨٠ ـ ٨٢.

(٨٠) المصدر السابق، ل ٢١٢ ـ ٢١٤.
(٨١) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٣٠. ل ٤٧، ٤٩.
(٨٢) المصدر السابق. ف ٦٩. أوب ١٤٠٦٥. د ٦. ل ١١٧.
(٨٣) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٢. ل ١٧٥.
(٨٤) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٤٥. ل ٢٦.
(٨٥) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٦. د ٢٤. ل ٧.
(٨٦) المصدر السابق. ف ٩٦ ـ أ. أوب ٢٠١١. د ٥. ل ١٤١ ـ ١٤٣.
(٨٧) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٩١٠. د ١١. ل ١٦ ـ ١٩.
(٨٨) المصدر السابق. ف ٢٠٨. أوب ١٠١٦٣. د ٢٧. ل ٨.
(٨٩) ي. ف. ستالين. حول الحرب الوطنية العظمى. موسكو. ١٩٥٠. ص ٣٥.
(٩٠) Encyclopaedia Britannica, L., 1973, vol. 18, p. 563.
(٩١) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٨. أوب ١١٦٢٧. د ٩٥٤. ل ٦٢.
(٩٢) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٩. د ٧٠. ل ١٥٥.
(٩٣) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٩. ل ١٦.
(٩٤) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٦. د ٢٤. ل ٨.
(٩٥) Ditte Gerns. Hitlers Wermacht in der Sowjetunion. Frankfurt am Main, 1985, S. 41.
(٩٦) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٩. ل ٣١٧.
(٩٧) الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٧٧. أوب ٣. د ١٣٥. ل ١ ـ ٢.
(٩٨) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣٣. أوب ١١٤٥٤. د ١٧٩. ل ١ ـ ٢.
(٩٩) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٤٥٤. د ١٧٩. ل ١ ـ ٢.
(١٠٠) المصدر السابق. ف ٣٨. أوب ١١٣٨٩. د ٢. ل ١٦٤ ـ ١٦٦.
(١٠١) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٤٢. ل ١٨ ـ ٢٢.
(١٠٢) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ١٦٤٠. د ٢٦. ل ٢٩٦.
(١٠٣) المصدر السابق. ف ٣٢ ـ أ. أوب ١١٣٠٩. د ١٦٣. ل ١٥ ـ ٤٥.
(١٠٤) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٧. ل ٢٠١.
(١٠٥) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٦. د ١٩٥. ل ٢٤٩ ـ ٢٥٣.
(١٠٦) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ١٤٢. المجلد ٣. ل ١٠٢ ـ ١٠٣.
(١٠٧) المصدر السابق. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٦٨. المجلد ٥. ل ١٠٢.
(١٠٨) المصدر السابق. ف ٩٤٠١. أوب ١. د ٢٠١٠. ل ١ ـ ٣.
(١٠٩) المصدر السابق. ل ٦٧ ـ ٦٩.
(١١٠) انظر: التعبئة السياسية. ١٩٨٩. العدد ٤. ص ٥٨ ـ ٦٣.
(١١١) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٦٤. المجلد ١. ل ١.
(١١٢) المصدر السابق. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٦٤. المجلد ١. ل ١٥٨.
(١١٣) ف. إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص ٣٦٠.
(١١٤) الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٥٨. أوب ٢. د ٩٦٦. ل ٥.
(١١٥) إ. غورمان. تاريخ جيش فلاسوف. رومباخ. ١٩٨٦. ص ٣.
(١١٦) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٦٤. المجلد ١. ل ٩ ـ ١٢.

الفصل الثاني

القائد الأعلى

لم يسبق لي قط أن بجّلتُ القوة،
لكن القوة التي أبداها الجيش الأحمر
في دفاعه عن روسيا
اعتبرها ضرباً من العناية الإلهية.
ن. بيرديايف

الزمن وحده هو القادر على تقديم إجابات على كل الأسئلة. قبل سنوات قليلة كان ما نعرفه عن ستالين يسيراً جداً. كانت صورته تشابه تمثالاً مرمرياً تضيئه الشمس؛ فيخيل للمرء أن الجانب الذي تدفئه الشمس وتداعبه بأشعتها يشكل جوهر الظاهرة. أما الجانب الآخر، الذ يقع في الظل القاتم، فكان يبدو وكأنه غير موجود بالمرة. لكننا اليوم، حين نفتح المزيد من صفحات التاريخ، نزداد قناعة بأن «الجانب المشمس» أيضاً ليس سوى وهم. فستالين الحقيقي، ستالين الفعلي، ستالين المجرم كان دائماً يتخفى في الظل خلف تمثاله المعروض أمام الشعب لأجل الفرجة العامة.

أعرف أن مثل هذا القول يستدعي، حتى في يومنا هذا، سخطاً، لا بل غضباً لدى البعض. قبل أربعين سنة كان رد الفعل لدي من شأنه أن يكون مماثلاً. لكن، بقدر ما كنت أتعرف على الوثائق والمواد والشهادات الحقيقية، كنت أقترب من القناعة بأن عبقرية «الزعيم» كانت وهماً، حتى في ذلك المجال الذي بقي حتى فترة قريبة يبدو ميداناً لعظمته، ولكنها في الواقع سرابية. يمكن الرد على كلامي فوراً بشواهد من كلام ذوي الهيبة، كالقادة العسكريين السوفييت المحترمين الذين كتبوا مذكراتهم عن الحرب. في أدب المذكرات عموماً كان ستالين يصوَّر من الجانب الإيجابي، مع أن القارىء النبيه سيجد هناك الكثير من زلّات اللسان والإيماءات والشهادات غير المباشرة التي تشير إلى انعدام العبقرية العسكرية لدى «القائد الأعلى» للجيش الأحمر. سنعود إلى هذه المسائل، لكنني أود هنا إبداء ملاحظتين:

إن مؤلفي المذكرات الحربية، الذين أمضوا على جبهات القتال ١٤١٨ يوماً طويلاً، ما كان بوسعهم إلا أن يجهلوا الكثير من الأشياء حول ستالين. ففي نظام العلاقات الذي كان قائماً أيام ستالين (ثم جرى ترميمه في أواخر الستينات)، كانت الحقيقة دائماً أبّهة كمالية يتم إعطاؤها على جرعات ويتم بترها وتشويه شكلها.

لكن الأمر المهم هو أن ورثة ستالين، حتى الذين ما كانوا يعتبرون أنفسهم ورثة له، ظلوا يفكرون ويتصرفون على الطريقة الستالينية. لقد كانوا يراقبون **الذكريات**. وثمة هنالك أشياء كثيرة كان يستحيل ظهورها، فكل كتاب يمر عبر مَطْهرة طويلة: لا تجوز الكتابة عن أعمال القمع في سنوات ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩؛ لا يجوز التشكيك بـ «العبقرية العسكرية» لستالين؛ لا يجوز عدم الإشارة إلى «مساهمة خاصة» في قضية النصر من قبل خروتشوف تارة وبريجنيف تارة أخرى، لا بل ورفاقهم... وأية حقيقة لا تدخل في هذا القالب كانت تقصقص على قياس «سرير بروكروست»، ثم تشوه إلى حد لا تعود تشبه ذاتها. هنالك شهادات فعلية. حتى المارشال جوكوف أُجبر على اختصار مخطوطة مذكراته بسبب «مصادرات» قامت بها الرقابة «فوق». رَوَتْ نوفيكوفا، أرملة مارشال القوى الجوية نوفيكوف، إن جوكوف، قبل وفاته بقليل، وكان في مصح أرخانغلسكويه، حدثها عن امتعاضه العميق من هذه المسألة. للأسف الشديد، كان العديد من القادة العسكريين الأماجد، حين يكتبون مذكراتهم التي تتمتع بأهمية فائقة، مضطرين أحياناً ـ ليس بإرادة منهم ـ أن يتحدثوا بـ «نصف صوت» أو يصمتوا عن أشياء كثيرة. ساعة الحقيقة لم تكن قد حلت بعد.

لم يكن ستالين «قائداً عسكرياً عبقرياً»، كما صوَّرتْه للعالم مئات المجلدات والأفلام وقصائد الشعر والدراسات والتصريحات. لا أقصد من هذا أن أقول إنه كان بلا موهبة، وسأحاول ـ مستنداً إلى الوثائق والشهادات ـ البرهان على أنه كان قائداً عسكرياً **مكتبياً**؛ لا ينقصه العقل العملي والإرادة. تعلّم أسرار الفن العسكري عبر تجارب دموية أجراها على الجبهة. إننا، أثناء تقويم ستالين، غالباً ما نسقط من الاعتبار واحداً من أهم معايير البراعة العسكرية، ألا وهو **النصر**. من الواضح تماماً ـ وهذا ما حاولت تبيانه في الكتاب ـ أن الوضع الذي نشأ في البلد وفي الجيش في حزيران (يونيو) ١٩٤١، كانت نتيجة مباشرة لأخطاء ستالين وغروره وقصر نظره؛ نتيجة العواقب الناجمة عن الإرهاب الدموي الذي مارسه ذلك الرجل، الذي أصبح لاحقاً القائد الأعلى للجيش. عادة، يأتي اعتراض فوري على هذا الكلام: «لماذا تلقي كل التبعات على إنسان واحد، فقد كان هنالك حزب ولجنة مركزية ومكتب سياسي، كان هنالك محيط القائد؟». نعم، كل ذلك كان. لكن في ظل **الديكتاتور، في ظل القيصرية**، تفقد جميع المؤسسات الحكومية والاجتماعية أهميتها إلى حد كبير. الحاكم ـ الفرد يحدد كل شيء بإرادته، وكأنه يراكم في نفسه كل شرور النظام.

فقط بلدنا، وفقط شعبنا كان بوسعه أن يتكبد تلك التضحيات العظيمة دون أن يفقد إرادة الصمود والانتصار. لا يجب علينا قط أن ننسى الهزائم الساحقة في بداية الحرب على الجبهة الغربية والجبهة الجنوبية الغربية وفي كارثتي خاركوف والقرم، وغير ذلك من الصفحات المريرة في تاريخ الحرب. وإذا كانت عبارات من نوع: «نظراً لإجراءات غير موفقة من قبل القوات السوفييتية، اضطرت جيوشنا إلى ترك مدينة كييف» تُستعمل لأجل التعبير عن الكوارث الساحقة، فإنه من المستحيل إخفاء الحقيقة الفعلية. مئات الآلاف من أبناء الوطن بذلوا أرواحهم ـ إلى حد كبير ـ بسبب الأخطاء التي ارتكبتها القيادة السياسية والعسكرية؛ وكان يجري السكوت على تلك الحقيقة إرضاء لفرد واحد. بلى، غالباً ما تكون الحقيقة مريرة المذاق! لكن لا يوجد لدى شعبنا

ما يجعله يخشى الحقيقة المرّة، طالما أنه استطاع ـ ضمن ظروف قاهرة إلى أقصى الحدود، ورطه فيها «الزعيم» ونظامه، وهتلر ـ أن يصمد وينتصر.

سأتوقف في هذا الفصل عند المقدرات القيادية ـ العسكرية لدى ستالين. فصورة هذا الرجل، الذي شغل في سنوات الحرب كل المناصب العليا في الدولة، تبقى ناقصة إذا لم نحاول الإجابة عن سؤال: هل كانت توجد مواهب قيادية عسكرية لدى «الجنراليسيموس» المقبل؟ هل كان ستالين يبدو، خلال مختلف مراحل الحرب، بمثابة قائد عسكري؟ ما هو دور المحيطين به في النشاط القيادي العسكري الذي مارسه ستالين؟ لماذا كانت خسائرنا تفوق خسائر الخصم مرتين أو ثلاثاً، رغم «عبقرية» القائد الأعلى؟

كان نابليون، الذي ما زال يعتبر واحداً من عظماء عباقرة الحرب عبر التاريخ، يؤكد: على القائد العسكري «أن يملك من قوة الشكيمة بقدر ما يملك من العقل». لكنه يضيف: من الضروري أن يتوفر هذان الجانبان في القائد العسكري، ليس عبر حضور مجرد، بل ضمن تناسب متوازن. أفكار نابليون مثيرة للفضول. إنه يشبه موهبة القائد العسكري بالمربع، حيث قاعدة هذا المربع هي الإرادة، وارتفاع المربع هو العقل. يقول نابليون إن القائد العسكري الحقيقي هو ذلك الذي لا تتخلف الإرادة عنده عن العقل. إذا كانت الغلبة للإرادة، نجد القائد العسكري يتصرف بحزم وشجاعة، لكن ليس دائماً بحكمة. وعلى العكس من ذلك، حين يكون العقل أقوى يمكن أن توجد لدى القائد خطط ونوايا جيدة، ولكن تحقيقها يتعثر بسبب نقص الشجاعة. إذا لم يكن التناسب المثالي بين العقل والإرادة موجوداً، فما هو الأفضل؟ أي صنف من القادة العسكريين أفضل: صنف راجحي العقل أم صنف أقوياء الإرادة؟

أنا أدرك طبعاً إن تصورات نابليون هذه، التي تبدو صحيحة من حيث المبدأ، لا تغطي كل التنوع في السمات الضرورية للقائد العسكري. لكن، لا شك في أن العقل والإرادة هما أهم تلك السمات. ولنقل بكلام أكثر دقة: العقل المرن، الحاد، الكبير، والإرادة الصلبة. وقد سبق أن كررت مراراً: لم يكن لدى ستالين نقص في الإرادة، وكان يعرف ذلك بنفسه. وقد وفرتُ للقارىء إمكانية أن يرى بنفسه كيف اهتزت إرادة ستالين في أول أسبوعين من الحرب. أما عقل ستالين، فكان قوياً، لكنه دوغمائياً، وكأنه ذو بعد واحد، يبالغ في قوة التوجيه والأمر والإيعاز.

لم يتميز ستالين قط بمواهب التنبؤ، فهذا غير وارد بالنسبة للعقل الدوغمائي. لكن الأهم من كل شيء هو أن ستالين، بإرادته القوية وعقله غير المرن، لم يكن قادراً أن يرتكز على المعارف العسكرية كمحترف. لم يكن الرجل يعرف العلوم العسكرية ونظرية الفن الحربي، فراح يغوص إلى أعماق المعارف الاستراتيجية والفن التكتيكي عبر تجارب دموية وجملة من محاولات على مبدأ «خطأ أو صواب». إن تجربة الحرب الأهلية (التي شارك فيها ستالين بصفات مختلفة) لم تكن كافية إطلاقاً لرجل يشغل منصب القائد الأعلى. لقد كان العقل الجماعي في الهيئة العامة للأركان هو الذي يدعم سمعة ستالين كقائد عسكري (مع إننا قلما نجد من يتحدث عن ذلك) معتمداً على

المقدرات اللامعة لدى قادة عسكريين كبار يحيطون به: شابوشنيكوف، جوكوف، فاسيليفسكي، أنطونوف. لم يتواجد ستالين، عملياً، في الوحدات العسكرية أو هيئات الأركان أو نقاط القيادة الميدانية. وهو، بالتالي، لم يكن يتصور واقعياً آلية عمل المنظومة العسكرية. وغالباً ما كان ينقصه ـ خصوصاً في أول سنة ونصف من الحرب ـ الإحساس الفعلي بسير الزمن القتالي وبواقع الإحداثيات المكانية لمسرح القتال، وبإمكانيات الوحدات العسكرية المختلفة. من هنا بالذات كانت تنبع إيعازاته التي يستحيل تنفيذها سلفاً، وخطواته المتسرعة الخالية من التروي.

في ١٩٤١/٨/١٦، وقّع ستالين على برقية موجهة إلى قائدي جبهة الاحتياطي والجبهة الغربية حول الإعداد لمعركة «يلنيا»... وقّع البرقية ليلاً ليقول فيها: اليوم ليلاً عليكم إعادة تجميع القوى وتقديم بعض الوحدات إلى مواقع أمامية. تنتهي البرقية بعبارة «أكدوا لنا استلام البرقية، وقدموا لنا حالاً خطة الهجوم في منطقة يلنيا»[١]. من الواضح إن الإحساس بالواقع غائب هنا.

وأيضاً، في ١٩٤١/٨/٢٨، يصدر ستالين أمراً (بصفته وزير الدفاع، وليس القائد الأعلى ـ غير مفهوم لماذا!) إلى قوات الطيران في جبهتين بشن غارات على مجموعات الدبابات المعادية وتدميرها، ويحدد مشاركة ما لا يقل عن ٤٥٠ طائرة، والعملية يجب أن تبدأ في فجر اليوم التالي...[٢]. لكن ماذا بشأن الاستطلاع؟ وماذا بشأن توزيع الأهداف على وحدات معينة؟ وماذا عن التسلسل في تنفيذ الغارات؟... إلخ. وأوامر القائد الأعلى المماثلة كثيرة جداً. يبدو أن ستالين كان يظن أنه بمجرد توقيعه على توجيه أو أمر أو إيعاز كان «يشغّل» آلة «النظام»، ولا يتصور الزمن اللازم لوصول الوثيقة إلى من يعنيه الأمر (عبر هرم التسلسل) ولإصدار التعليمات الأولية هناك، ولإجراء الأعمال التقنية اللازمة، والكثير غيره. كان ستالين ببساطة لا يفهم كل التعقيد القائم فعلياً في العملية. وراح هذا الهاوي في مجال الفن العسكري يتعلّم، ضمنياً، حتى أصبح ـ عند حدوث معركة ستالينغراد، كما يشهد بذلك جوكوف ـ يبدي «دراية جيدة في مسائل الاستراتيجية الكبيرة...»[٣]. يبدي «دراية»، هنا يعني أنه كان يفهم ويتلمس ويستطيع التقدير، ولكن لا يعني أنه أصبح رجل استراتيجية. كان دور رجل الاستراتيجية يمارَس جماعياً من قبل الهيئة العامة للأركان التي لا نبالغ في تقديرها مهما قلنا. يقول شابوشنيكوف عن تلك الهيئة: «كان الطابع الفعلي للحرب يوسع بالتدريج دائرة نشاطها. ونحن نجد ـ حين ننظر إلى الحرب العالمية الثانية ـ كيف يطمح «دماغ الجيش» أن يخرج من جمجمة الجيش ليدخل إلى رأس كل الجسد المتمثل بالدولة»[٤]. لا أعرف كيف كانت الأمور مع «رأس جسد الدولة»، لكن هذه الحقيقة لا جدال حولها بالنسبة إلى رأس القيادة العليا العامة التي يترأسها ستالين. كان عمل القيادة العليا ممكناً بفضل العمل المضني الذي تمارسه الهيئة العامة للأركان، وهي المقصودة بـ «دماغ الجيش».

ستالين والقيادة العليا

ذات مرة، في زمن الحرب الأهلية، حين كان ستالين قد عاد إلى موسكو بزيارة قصيرة، قام سكليانسكي، نائب تروتسكي في المجلس العسكري الثوري، بإهداء كتاب إلى «القائد الأعلى» المقبل. الكتاب من تأليف ليمكه وعنوانه «٢٥٠ يوماً في مقر القيادة العليا القيصرية: ٢٥/٩/١٩١٥ ـ ٢/٧/١٩١٦». تصفح ستالين الكتاب دون اهتمام زائد في القطار، أثناء عودته إلى الجبهة الجنوبية. فالكتاب يتحدث ـ بلهجة الفضح ـ عن المعسكر، أصحاب «الرؤوس الفارغة» والأشرطة البيضاء على الكتف الذين يبتكرون الخطط الغبية جالسين في مكاتبهم السرية الهادئة. وحين جاء تيموشنكو ومولوتوف في صباح ٢٣/٦/١٩٤٣ إلى ستالين باقتراح حول تشكيل هيئة عسكرية عليا لقيادة القوات المسلحة، تذكر «الزعيم» كتاب ليمكه المنسي، الذي كان يصف مقر القيادة العليا لجيش روسيا القديمة في بارانوفيتشي ومن ثم موغيليوف. لقد أصبح كل من ترأس القيادة العليا (بمن فيهم كرينسكي) في ذمة الماضي: الأمير نيكولاي، والقيصر نيكولاي الثاني، والجنرال ألكسييف، والجنرال بروسيلوف، والجنرال كورنيلوف، والجنرال دوخونين... وتذكر ستالين كيف أن كريلينكو احتل عش الثورة المضادة هذا، بتوجيه من لينين، وكيف أصبح كريلينكو نفسه قائداً أعلى لجيش الجمهورية السوفييتية. نعم، لقد سبق أن كان في الزمن السوفييتي قائداً أعلى للجيش، والآن يأتيه تيموشنكو ومولوتوف ليقترحا عليه هذا المنصب. كلا. ليكن تيموشنكو القائد الأعلى...

في عشية الحرب كان تيموشنكو وجوكوف قد اقترحا على ستالين تأسيس موقع أو موقعين مجهزين خصيصاً لإدارة القوات المسلحة للبلد، فأعرض الزعيم عن هذا الاقتراح. في أيار (مايو) ١٩٤٣ تكرر الاقتراح للمرة الثانية أو الثالثة مع إضافة مشروع بإجراء تدريبات خاصة لنقل البلد تحت إشراف «القيادة العليا» إلى حالة الحرب. وافق ستالين من حيث المبدأ: في حالة الحرب لا بد من وجود هيئة كهذه للقيادة العسكرية، لكنه لم يتخذ قراراً معيناً. ولم يذهب أحد إليه بمثل هذا الاقتراح بعد ذلك، سيما وأن الجميع يعرفون أن ستالين يسكن في أحد مكانين: الكرملين والقصر الريفي الأدنى، فهو نادراً ما كان يذهب إلى القصر الريفي البعيد في سيميونوفسكويه، وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٤١ أمر باستخدام هذا القصر كمستشفى للجرحى. لذلك كانت القيادة العليا تتمركز إما في مكتبه بالكرملين أو في القصر الريفي الأدنى أو في البناية التي على شارع كيروف أو في مبنى الهيئة العامة للأركان ـ تلك كانت النقاط التي يمارس فيها ستالين قيادة العمليات العسكرية.

إن أفضل ما كتب عن عمل القيادة العليا ـ برأيي ـ هو مذكرات جوكوف، وهناك أشياء ممتعة في كتاب فاسيليفسكي «قضية حياتي»، كما تستحق الاهتمام بعض الشهادات في مذكرات تيموشنكو. لست أنوي وصف عمل القيادة العليا، بل ملامسة بعض الجوانب التي تميز بها نشاط القائد العام. ترأس ستالين لجنة الدفاع الحكومية والقيادة العليا، فتركزت بين يديه سلطة لا حدود لها، إذ كان أيضاً أمين عام اللجنة

المركزية كليّ الجبروت ورئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع... كل المناصب العليا في الحزب والدولة بيد شخص واحد. سبق أن تحدثنا عن الجانب الاضطراري السبرّر في تركيز السلطة على هذا النحو. لكن الأمر كانت له جوانبه السلبية أيضاً: ما من قرار يصدر لا عن اللجنة المركزية ولا عن مجلس الوزراء ولا عن رئاسة السوفييت الأعلى، دون الموافقة الشخصية لستالين. ولنكرر هنا مرة أخرى: ليس أياً كان من الأشخاص المشاركين في الاجتماعات التي تجري لدى ستالين (بضع مرات يومياً) يعرف الجواب الدقيق على سؤال: أية هيئة تجتمع الآن...؟ فقد يجتمع المكتب السياسي بمشاركة من العسكريين، أو لجنة الدفاع الحكومية بمشاركة من أشخاص من خارجها، أو القيادة العليا بحضور أعضاء المكتب السياسي. الوحيد الذي كان يعرف الجواب دائماً هو ستالين، حين يرمي في مجرى الحديث عبارة:

ـ صيغوا قراراً باسم لجنة الدفاع الحكومية...

ـ أعدوا توجيهاً باسم القيادة العليا...

وأحياناً ما تكون نتائج الاجتماع بمثابة قرار من المكتب السياسي. كل كلمة من ستالين كانت قراراً نهائياً، بغض النظر عن الهيئة التي سيصدر باسمها. يبدو أن ستالين ذاته لم يكن يعير بالاً للصفة الرسمية التي يحملها هذا الشخص أو ذاك، لكن الأمر كان متعباً بالنسبة للقائمين على التنفيذ، الملزمين «على الماشي» بتحديد المؤسسة التي يجب أن يُرسل من خلالها قرار «الأعلى».

لم يكن يجري تدوين محاضر للاجتماعات إلا نادراً، وتتضمن أرشيفات القيادة العليا آلافاً من مختلف الوثائق، لكن ما من شيء يدل على سير نقاشات في القيادة العليا حول أية مسائل استراتيجية. فقد كان ستالين يستدعي شخصاً أو اثنين من أعضاء القيادة العليا لمناقشة الشؤون العملياتية. ومنذ البداية اعتاد قادة الهيئة العامة للأركان أن يذهبوا إليه وهم يحملون اقتراحات واستنتاجات وتقويمات جاهزة. كان هذا الأسلوب يسهّل على «الأعلى» دور القاضي والحكم والكاهن.

في لجنة الدفاع الحكومية كان كل شخص مسؤولاً عن مجال معين: الذخيرة، التموين، الطائرات، المواصلات، الشؤون الخارجية، إلخ. أما في القيادة العليا، فلم يكن هنالك تقسيم عمل. فهي تشرف على قيادة الجبهات بواسطة الهيئة العامة للأركان وهيئة أركان الأسطول الحربي وإدارات وزارة الدفاع. وظهرت، عوضاً عن مستشاري القيادة العليا، مؤسسة «ممثلي القيادة العليا لدى الجيوش». يجب القول هنا إنه بقدر ما كان ستالين يكره أن يسافر من موسكو (باستثناء رحلات الاستجمام إلى الجنوب قبل الحرب)، بقدر ما كان يغيظه أن يتواجد «ممثلو القيادة العليا» في موسكو. لذلك نجد أن هؤلاء (جوكوف، تيموشنكو، فوروشيلوف، فاسيليفسكي، فورونوف، ميخليس...) غالباً ما كانوا يتواجدون على الجبهات، رغم المناصب المفتاحية التي يشغلونها في المركز. كان «الأعلى» يطالبهم بتقارير يومية، كتابياً أو هاتفياً، وحين يتأخر أحد ممثلي القيادة العامة في تقديم تقريره اليومي، كان يتوجب عليه انتظار تعنيف شديد من ستالين، الذي كان يفعل ذلك بطريقة فظة وغير محتشمة. هذا ما حصل ذات مرة لـ مالينكوف، الذي كان ستالين يرسله إلى جبهة ستالينغراد. وهذا

مثال على رد فعل «الأعلى» تجاه فاسيليفسكي الذي يحظى بمعزّة لدى ستالين (إذا كان يمكن لكلمة «معزة» أن تتطبق عليه). حين يعرض فاسيليفسكي هذه البرقية في مذكراته، يختصر منها كثيراً، ولذا نورد هنا نصها الكامل:

«إلى المارشال فاسيليفسكي.

الساعة الآن هي الثالثة وثلاثون دقيقة من يوم السابع عشر من آب (اغسطس)، لكنكم لم تتكرموا بإرسال تقرير إلى القيادة العليا حول نتائج المعركة خلال ١٦ آب (أغسطس) حول تقديركم للموقف.

لقد ألزمتُكم منذ زمن، بوصفكم ممثل القيادة العليا، أن ترسلوا تقريراً خاصاً في نهاية كل يوم من العملية، وكنتم تنسون يومياً واجبكم هذا ولا ترسلون تقارير.

١٦ آب هو اليوم الأول من عملية هامة على الجبهة الجنوبية الغربية التي تمثلون لديها القيادة العليا، وها أنتم تتفضلون من جديد بنسيان واجبكم أمام القيادة العليا ولا ترسلون تقريراً.

لا يمكنكم التذرع بأن الوقت ضيق، لأن المارشال جوكوف يعمل في الجبهة ليس بأقل منكم، ومع ذلك يرسل يومياً تقريراً إلى القيادة العليا. الفرق بينكم وبين جوكوف هو انه انضباطي لا ينقصه شعور الواجب تجاه القيادة العليا.

أُحذركم لآخر مرة: في حال إذا سمحتم لنفسكم ولو مرة أن تنسوا واجبكم أمام القيادة العليا، فسوف تجري إقالتكم من منصب رئيس الهيئة العامة للأركان وسيتم استدعاؤكم من الجبهة.

١٩٤٣/٨/١٧
٣ و ٣٠ دقيقة
ستالين»[٥]

هذا هو الأسلوب الاعتيادي لـ «الأعلى». ما من مارشال أو قائد عسكري كبير كُلف بالذهاب إلى جبهة ما، إلا وعاش دقائق مُرّة بعد تعنيفات ستالين، التي غالباً ما تكون غير مبرَّرة. في حالة فاسيليفسكي هذه، تأخر أحد الموظفين في نقل تقريره إلى ستالين.

حين لم يكن وجود «ممثل القيادة العليا» يسفر عن تبدل الأمور في الجبهة نحو الأحسن، كانت العواقب تتلو مباشرة. في شباط (فبراير) ١٩٤٢، مثلاً، أرسل ستالين المارشال فوروشيلوف إلى جبهة فولخوف، ويومها ثبتت سمعة القائد العسكري الفاشل على المارشال، الذي كان محبوب ستالين يوماً ما. لم يتمكن فوروشيلوف من صنع شيء جوهري هذه المرة. وحين اقترح عليه «الزعيم» هاتفياً أن يصبح قائداً للجبهة، ارتبك فوروشيلوف ورفض. طفح كيل الغضب لدى ستالين، ولم يمضِ أكثر من شهر على عودة المارشال من الجبهة حتى كان ستالين قد أملى قراراً، قُيِّد على اسم المكتب السياسي، ومن المفيد إيراد فقرات منه على الأقل:

«إلى أعضاء اللجنة المركزية للحزب وأعضاء لجنة المراقبة الحزبية.

أولاً: كشفت الحرب مع فنلندا (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠) عن تعثُّر وتخلُّف في قيادة وزارة الدفاع... كل هذا انعكس من خلال إطالة أمد الحرب والتضحيات الزائدة... الرفيق فوروشيلوف... اضطر للاعتراف... بفشل قيادته:... تم آنذاك إعفاء الرفيق فوروشيلوف من منصب وزير الدفاع.

ثانياً: في بداية الحرب مع ألمانيا... لم ينجح الرفيق فوروشيلوف... في تنظيم الدفاع عن لينينغراد.

... نظراً لكل ذلك، استدعت لجنة الدفاع الحكومية الرفيق فوروشيلوف من لينينغراد...

ثالثاً: ... لكن الرفيق فوروشيلوف في جبهة فولخوف لم تسفر عن النتائج المرجوة... وتذرع بأن جبهة فولخوف جبهة صعبة وهو لا يريد أن يفشل في هذا العمل.

نظراً لكل ما عُرض أعلاه، تقرِّر اللجنة المركزية:

أولاً: الاعتراف بأن الرفيق فوروشيلوف لم يؤكد استحقاقه للعمل الموكل إليه في الجبهة.

ثانياً: إرسال الرفيق فوروشيلوف إلى عمل عسكري في المؤخرة بدلاً من الجبهة.

أمين عام اللجنة المركزية
ستالين»(٦)

مع هذا، كان فوروشيلوف حسن الحظ. فهو لم يعاقَب مثل المارشال كوليك، وسوف يعود للصعود بعد موت ستالين وسيترأس الدولة السوفييتية عام ١٩٥٣.

عموماً، كان ستالين يتميز تحديداً بهذا الأسلوب العنيف، القمعي، الصارم، في كل عمله. على أية حال، ربما كان القرار بحق فوروشيلوف عادلاً. وكان الآخرون ينالون عقوبات جدية. فبعد الفشل في الجبهة، أو بعد تقرير غير موفق، كان يمكن أن يتعرض الشخص المعني ليس فقط للإقالة من منصبه، بل وربما للسجن مع كل عواقبه المحزنة. هنا مثالان على ذلك.

في ٤٣/٢/٢٢، وبأمر من القيادة العليا، بدأ الجيش الـ ١٦ في الجبهة الغربية هجوماً من منطقة سوخينيتشي باتجاه بريانسك. كان دفاع الخصم متيناً، فارتدت الهجمة. أدرك ستالين، من تقرير الهيئة العامة للأركان في ٢٧ شباط (فبراير)، أن الجيش المذكور يراوح في مكانه عملياً، ودون أن يستشير أحداً، أو أن يدقق في الأمر، أصدر القرار رقم (٤٥) باسم القيادة العليا:

«إعفاء الجنرال كونيف من منصب قائد قوات الجبهة الغربية، كونه فشل في

مهمة قيادة الجبهة. يوضع الجنرال كونيف تحت تصرف القيادة العليا»[٧]. كانت تحدث أمور أسوأ. لقد حالف كونيف الحظ وتمكن من إبراز مقدرته على أحسن وجه فيما بعد. كثيرون هم الذين لم يحظوا بفرصة من هذا النوع:

«إلى قائد جبهة القفقاز، الرفيق كوزلوف.

... إلقاء القبض فوراً على قائد الجيش الـ ٤٤، الجنرال داشيتشيف، وإرساله إلى موسكو، واتخاذ الإجراءات الفورية لترتيب أوضاع الوحدات في الجيش الـ ٤٤، وإيقاف هجوم العدو، والاحتفاظ بمدينة فيودوسيا...»[٨].

كان ستالين، لسبب غير مفهوم، يعتبر أن التبديل المتواتر للقادة العسكريين يقوي العملية القيادية في الجيش. وما كان أحد يعترض عليه. ها هو، مثلاً، يعيّن كونيف من جديد ويعود ليقيله مرة أخرى:

«إعفاء الجنرال كونيف من منصب قائد الجبهة الشمالية الغربية نظراً لتعيينه في عمل آخر...

٢٣/٦/١٩٤٣ ستالين»[٩]

هكذا، قُيّض للجنرال كونيف، طيلة فترة الحرب، أن يقود ست جبهات! أحياناً يخيّل للمرء أن مسرح العمليات القتالية كان لا يختلف لدى ستالين عن رقعة شطرنج، يعجبه أن يبدل عليها مواقع القطع المختلفة. كان ستالين في فترة ما يدلل الجنرال يريمنكو (مع أنه يعنّفه أحياناً) وقد أوكل إليه خلال فترة الحرب قيادة الجبهات التالية: الغربية، بريانسك، البلطيق الأولى، البلطيق الثانية، أوكرانيا الرابعة، كالينين، ستالينغراد (أول تشكيل)، الجنوبية الغربية، ستالينغراد (التشكيل الثاني)، الجنوبية (التشكيل الثاني)... هكذا تنقل المارشال المقبل بين عشر جبهات دون أن يبقى لفترة طويلة في أي منها. فثقة يريمنكو بنفسه تعجب ستالين. ها هو حديث بينهما في آب (أغسطس) ١٩٤١:

«ستالين. ستالين على الجهاز. مرحبا. ألا يجدر بنا إعادة تكوين الجبهة الوسطى: دمج الجيش الثالث مع الجيش الواحد والعشرين ووضعه تحت تصرفكم بعد ذلك؟ أسألكم عن الأمر لأن موسكو غير راضية عن عمل يفريموف... إذا وعدتم بتدمير النذل غودريان (جنرال الماني ـ المترجم) فيمكننا أن نرسل لكم بضعة أفواج طيران وبضع بطاريات (ر. ص). جوابكم؟

يريمنكو. مرحبا. جوابي. رأيي حول إعادة تكوين الجبهة هو التالي: نظراً لأنني أريد تدمير غودريان، وسوف أدمره حتماً، فإن المحور الجنوبي ينبغي أن يوطّد كما يجب... لذلك أرجو إخضاع الجيش الواحد والعشرين بعد دمجه مع الجيش الثالث لي فقط... أما فيما يخص هذا النذل غودريان، فلا شك أننا سنحاول تدميره...»[١٠].

يريمنكو لم يذكر، طبعاً، قوات الجنرال غودريان، لكن ثقته بالنفس كانت تعجب ستالين.

فرض ستالين، وهو الذي اعتاد على العمل ليلاً، نظاماً ليلياً في عمل القيادة العليا. فهو يبدأ العمل حوالى الثانية عشرة نهاراً ويبقى يدرس مختلف المسائل (مع انقطاع للراحة، حيث كان ينام في النهار لفترة قصيرة) حتى الصباح. هكذا اضطرت الهيئة العامة للأركان ومجلس الوزراء واللجنة المركزية وكل الهيئات الحكومية والعسكرية أن تتأقلم مع نظام عمل «الأعلى».

كان ستالين، في الأحوال العادية، يتلقى تقريرين حول الوضع على جبهات القتال: رئيس الهيئة العامة للأركان (أو أحد نوابه) يقف عند الخريطة المبسوطة على الطاولة (ستالين لا يحب، لسبب ما، حين يقترحون تعليقها على الجدار). الخريطة تبين الوضع وتشير إلى حركة الموقف خلال الساعات الماضية، وتعرض واقع الأمور على كل جبهة. أما ستالين، فيذرع أرض المكتب جيئة وذهاباً، ويطرح من وقت إلى آخر أسئلة مختلفة جداً:

ـ أين تثبّت الهيئة العامة للأركان ظهور كتائب المانية جديدة؟

ـ هل أعطيتم «دوغلاسات» إضافية للجنرال خوزين من أجل نقل التموين، كما أمرتُ المرة الماضية؟

ـ لقد أعطيتُ توجيهات بكسر الجليد في زافيدوفو بنار المدفعية. هل تأكدتم من الأمر أم لا؟

ـ لقد أمرتُ كونيف توجيه ضربة في جبهته يوم أمس بهدف جرّ القوات الألمانية عن الجبهات الأخرى. كيف تمّ التنفيذ؟ هل تعرفون؟

صاحب التقرير في وضع حرج. مهمته هي تقديم صورة عن الموقف الاستراتيجي والتكتيكي في الجبهات. وهو، لحسن حظه، يعرف أين يتم تثبيت المعلومات عن قدوم الكتائب الألمانية الجديدة، وإن ١٨ «دوغلاس» فقط قد أرسلت، أما... مسألة زافيدوفو (مسألة تكتيكية صغيرة)، فهو لم يسمع بها أصلاً. حول الأوامر للجنرال كونيف ـ نعم، صدر أمر كهذا في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) من ستالين إلى كونيف شخصياً: توجيه ضربة إلى القوات الألمانية بعد سقوط مدينة روغاتشيوف. لكن كيف يمكن تنفيذ ذلك بعد ساعات معدودة، دون إعداد جيد؟ صاحب التقرير يعرف ان الضربة لم توجّه بعد، فهي في مرحلة التحضير، لكن مضطر أن يقول:

ـ هل تسمحون لي أن أتأكد من الأمر؟

ـ لا تعرف، إذن... ماذا تعرف؟

في حالات كهذه كان ستالين يتغير فوراً في العينين ويشحب لونه. يتذكر جوكوف: «كانت نظرته تصبح ثقيلة وقاسية. الشجعان الذين كانوا يستطيعون الصمود أمام غضب ستالين وردّ الجواب عليه ليسوا كثيرين بين الناس الذي عرفتُهم»[١١]. كان ستالين يعتبر أمراً عادياً أن لا يكون على علم بهذه المسألة أو تلك، لكنه لا يرى ذلك ممكناً حين يخص الأمر مرؤوسيه.

سرعان ما رأى العاملون في الهيئة العامة للأركان بأعينهم غياب المعارف العسكرية لدى ستالين، فراحوا يحاولون ـ بتعليمات إضافية يصدرونها ـ «امتصاص» المفعول الذي يحدثه الكثير من الأوامر الأمّية التي تصدر عن «الأعلى». كان القادة العسكريون المحيطون به يعتبرون أمراً طبيعياً جهل القائد السياسي في الشؤون العسكرية، لكنهم لا يستطيعون الحديث عن ذلك بصوت مسموع. يؤكد المؤرخ العسكري بافلينكو، الذي التقى مع المارشال جوكوف مراراً بعد إبعاده عن العمل العسكري النشيط، أن المارشال الشهير قال عن ستالين ذات مرة: «لقد بقي «مدنيّاً» كما كان قبل الحرب».

وافق ستالين على نظام تخطيط العمليات الاستراتيجية الذي اقترحه شابوشنيكوف وجوكوف وفاسيليفسكي. في البداية لم يكن الأمر يتعدى أن ينظر «الأعلى» في اقتراحات الهيئة العامة للأركان ويعبر عن رأيه بها. لكن فيما بعد، وباقتراح من شابوشنيكوف، أُقر النظام التالي: بعد تقرير الهيئة العامة للأركان حول مغزى هذه العملية أو تلك، تجري دراسة شاملة للمقترحات مع قائد المؤخرة ومع قائد صنوف الأسلحة ورؤساء الإدارات العامة لوزارة الدفاع والإدارة السياسية للجيش والإدارة السياسية للأسطول الحربي. بعد تلقّي كل الحسابات المتعلقة بضمانات سير العملية، يجب الاستماع إلى رأي قادة الجبهات التي ستشارك فيها (شفهياً أو كتابياً، حسب الموقف)، وبعد ذلك فقط البدء بالصياغة النهائية للعملية وتحديد السبل الممكنة لتنفيذها. في البداية ثبطت همة «الأعلى» أمام هذا «العمل الطويل الروتيني» الذي يتطلب جهداً كبيراً. لكن شابوشنيكوف (الذي سيأتي يوم لتقديم خدماته بمثابة معلّم جوكوف وفاسيليفسكي وأنطونوف وستالين نفسه) راح يشرح له بصبر أن ذلك هو الحد الأدنى الضروري في عمل من هذا النوع: بعض العمليات قد تتطلب أياماً معدودة لتحضيرها، بينما قد يستغرق إعداد عمليات أخرى بضعة أشهر.

ستالين، بعقله العملي، يدرك أن شابوشنيكوف على حق، لكنه يرى في الوقت نفسه عدم جاهزيته هو، إن لم نقل عجزه عن القيام بعمل كهذا. لكن «الأعلى» سرعان ما ابتكر خط سلوك مناسباً له خلال تخطيط العمليات الاستراتيجية، وهو الخط الذي سمح بخلق سمعته العالية كقائد عسكري واستبعد احتمال الإضرار بهيبته. كان ستالين يعرض أفكاره، عادة، بأحد شكلين، أولهما الحديث **بشكل عام**. في اجتماع القيادة العليا في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢، مثلاً، يقول «الأعلى»: «يجب عدم السماح للعدو بالتقاط أنفاسه وطرده غرباً»[١٢]. فالفكرة تعبر عن أمنية عامة ينعكس فيها مزاج الجماهير الشعبية، لكنها لا تحوي معنى استراتيجيا محدداً، ولا تأخذ في الحسبان ما هي إمكانياتنا لـ «طرده غرباً» ولا إمكانيات العدو على مقاومة هذه النية ولا تقدم أشكالاً وسبلاً لتنفيذها. إنها نية تصدر عن رجل سياسية، عن رجل دولة، لكن ليس عن قائد عسكري. الشكل الثاني الذي كان «الأعلى» يعرض به أفكاره هو **تصحيح وتدقيق** خطة محددة، أو مغزاها، أو مواعيدها. لكن، بما أن ملاحظات ستالين كانت تأتي في الخاتمة، **بمثابة تلخيص** وتحصيل حاصل، كان الانطباع التي تتركه متميزاً. هذا، رغم أن كل الخطة، بمضمونها وتسلسل تنفيذها وضمان سيرها من الناحية المادية ـ التقنية وبعمق المهام والخ، تكون قد أُعدّت في الهيئة العامة

للأركان، كان ستالين يضع «اللمسات الأخيرة» على اللوحة، فيبدو بعد ذلك وكأنه صاحب الفكرة بمجملها.

فيما يخص إيعاز ستالين حول طرد العدو غرباً، دون السماح له بالتقاط أنفاسه (كانون الثاني ١٩٤٢)، كانت نتيجته «رسالة توجيهية من القيادة العامة»، تلك الوثيقة التي لم تكن مدروسة كما يجب، لا من الناحية العسكرية ولا من الناحية الاقتصادية أو التقنية. تعرض الوثيقة عدداً من أفكار حول ضرورة أعمال تقوم بها المجموعات **الضاربة** (وهو ما اعتمد عليه الألمان منذ بداية الحرب!) وحول هجوم **مدفعي**. تشرح الوثيقة للمجالس العسكرية أنه يجب الانتقال من أسلوب «ما يسمى بالتمهيد المدفعي» إلى أسلوب «الهجوم المدفعي»... على المدفعية أن تهاجم جنباً إلى جنب مع سلاح المشاة. هنا استبق الأمور لأقول إن الإيعاز بالهجوم المدفعي أسفر عن اجتهادات مختلفة وتشوّش لدى الجيوش. كان بعض الضباط مرتبكين أمام عبارة «ما يسمى بالتمهيد المدفعي» ـ هل يعني بها التخلي عن التمهيد المدفعي؟ لكن كيف يمكن لسلاح المدفعية أن يهاجم دون تمهيد؟ ماذا يعني «الهجوم المدفعي»؟... وتدفق سيل الأسئلة من الجبهات، لكن ما من أحد كان يجرؤ على طرحها أمام ستالين، بل راح القادة العسكريون في المركز يشرحون الأمر، ثم انعكست الفكرة في «النظام الداخلي القتالي لسلاح المشاة» (نهاية عام ١٩٤٢: التمهيد المدفعي يبقى لازماً، الدعم المدفعي للهجمات يبقى، وكذلك ضمان المدفعية لقتال المشاة والدبابات في العمق. بكلام آخر، تبقى قائمة كل الأطوار الثلاثة لنشاط سلاح المدفعية، كما هي معروفة من زمن ما قبل الحرب. لكن ستالين اكتشف هذه الأطوار فقط في أوائل ١٩٤٢ فسماها «الهجوم المدفعي» وأربك الناس).

حين كان نص الرسالة التوجيهية جاهزاً، نوقش بحضور فاسيليفسكي ومولوتوف ومالينكوف وأشخاص آخرين. أخذ ستالين نص الوثيقة بين يديه وصرخ فجأة:

ـ لكن الشيء الرئيسي غير موجود في الرسالة.

التفت الجميع إلى بعضهم بعضاً، يتوقعون اكتشافاً خطيراً. وجاءهم الاكتشاف:

ـ اقترح تضمين الرسالة فكرة أخرى هي الفكرة الرئيسية...

استعد الناس حوله لتدوين ما سيقال. صمت ستالين طويلاً، لتشديد الفضول تجاه اكتشافه، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً في محاولة لتجميع الأفكار، ولفظ من ثم العبارة التي دخلت في نص الرسالة دون أي تعديل:

«تتلخص مهمتنا في أن لا نسمح للألمان بالتقاط أنفاسهم ونطردهم غرباً بلا توقف ونجبرهم على إنفاق احتياطياتهم قبل الربيع، حين تكون قد ظهرت لدينا احتياطيات جديدة كبيرة، والألمان قد نفدت احتياطياتهم. بهذا الشكل نضمن التدمير التام للقوات الهتلرية في عام ١٩٤٢»(١٣).

طبعاً، تركت مداخلة ستالين انطباعاً كبيراً لدى الحضور، وأحس أعضاء لجنة الدفاع الحكومية والقيادة العليا أن ستالين يرى ما لا يراه الآخرون... وراح الجميع

يباركون الفكرة متضامنين، موافقين على مغزاها من القلب، دون التفكير: كم هي فكرة يستحيل تنفيذها! إن ستالين هنا، كما قبل ذلك وبعده، بيّن ضعف المقدرات التنبؤية لديه: كان تقدير ستالين والمهمة التي صاغها غير واقعيين على الاطلاق. وسرعان ما اتضح ذلك، حين انطفأ هجوم جيوشنا الشتوي في نيسان (ابريل) ١٩٤٢. أما بعد الهجوم الصيفي للجيوش الألمانية الذي بلغ نهر الفولغا، فكانت تلك الفترة تبدو خيالية. مع ذلك لم يعد أحد يتذكر خطأ «الأعلى» ذاك. إنه عُرْف تكوّن قبل الحرب: اسم ستالين يمكن أن يرتبط فقط بالنجاحات والانجازات، أما الفشل والهزائم والأخطاء، فهي نتيجة لعدم تنفيذ إرادة «الزعيم». نعم، عدم تنفيذ إرادته ـ هذا أحد قوالب التفكير الذي سيطر على وعي الناس في ذلك الزمان.

كان البعض من التدقيقات والتصحيحات التي يدخلها ستالين على خطط القيادة العامة لا يتمتع بدور جوهري، أما بعضها الآخر فيسفر عن عواقب مأساوية في مجرى العمليات الحربية. أكثر ما كان يحبه ستالين هو تغيير مواعيد العمليات، ساعياً إلى اختصار المهلة اللازمة لإعداد العملية (أو المناورة أو تجميع القوى): أحياناً يصر على تغيير التوقيت ولو ليوم واحد.

٤/٩/١٩٤١. جوكوف يقدم تقريراً إلى ستالين حول إعداد ضربة يوم ٨ أيلول (سبتمبر) من أجل مساندة الجبهة التي يقودها يريمنكو (الفكرة من اقتراح ستالين). لكن ستالين ـ على عوائده:

ـ يوم السابع من أيلول (سبتمبر) أفضل من الثامن... انتهى(١٤).

كان الرجل ملحاحاً إلى حد العناد. والناس لا يحاجّونه عادة، فهم يخشون. حتى جوكوف، الذي يجيد الدفاع عن آرائه، غالباً ما كان يضطر أن يوافق ستالين دون أن يشاطره النوايا. خلال الحديث ذاته (٤/٩) قال «الأعلى» لـ جوكوف:

«ستالين: أظن إن العملية التي تفكرون بشنّها في منطقة سمولينسك يجب اجراؤها فقط بعد إزالة روسلافل. لا، بل الأفضل أن تنتظروا في موضوع سمولينسك وتعملوا مع يريمنكو على إزالة روسلافل، ثم تدعسوا على ذيل غودريان... المهم تدمير غودريان. سمولينسك لن تفلت منّا بعيداً. انتهى.

جوكوف... إذا أمرتم بالضرب على محور روسلافل، يمكنني تنظيم هذه القضية. لكن الفائدة ستكون أكبر إذا تمكنتُ في البداية من القضاء على مواقع العدو في «يلنيا»...»(١٥).

كانت القيادة العليا على اتصال مباشر ليس فقط مع كل جبهة، بل ومع كل جيش (وذلك بناءً على رغبة ستالين). كان «الأعلى» يدعو إلى مكالمات مباشرة كل القادة العسكريين. والقيمة العملياتية لتوجيهات ستالين أثناء تلك المباحثات تدعو للشك بمداها. ربما إنه في الطور الثاني والثالث من الحرب كان قد أصبح قادراً على تقديم تصورات قيّمة من الناحية العملياتية. وغالباً ما كان يستدعي أحداً من قادة الهيئة العامة للأركان ليكون إلى جانبه أثناء المحادثات، فيترك له الشؤون العملياتية

ويكتفي هو بإسداء «التوجيهات العمومية» والنقد والتعنيف و ـ أحياناً ـ الدعم المعنوي. في الوقت ذاته كان «الأعلى» يحب أن يبهر الناس بمعرفة الموقف، لا بل يُصدر إيعازات ذات طابع عملياتي من تلقاء ذاته، يتم تثبيتها لاحقاً في وثائق خاصة. واضح تماماً أن نصائح وتوجيهات جوكوف وفاسيليفسكي كانت أكثر تخصصاً وفائدة. في ١٩٤٢/٦/١٣، مثلاً، كان تيموشنكو يقدم تقريراً إلى ستالين حول الموقف على الجبهتين الجنوبية والجنوبية الغربية، فأشار إلى غياب الطائرات القاذفة التي لا بد منها أثناء الهجمات النهارية، مما يعيق التفكيك الفعّال لحواجز العدو. ستالين كان يعرف الوضع من خلال المعلومات الموجودة في الهيئة العامة للأركان، ومع ذلك أعترض: «مقاتلاتنا من طراز «إيل ـ ٢» هي أفضل قاذفات نهارية في المعارك قصيرة المدى. فهي قادرة على إحداث أثر أكبر بالمقارنة مع طائرات «يونكرز» على صعيد مقاومة الدبابات وإعاقة القوى البشرية للخصم، خصوصاً أثناء عمليات العبور. مقاتلاتنا تحمل ٤٠٠ كغ من القنابل. المعطيات التي عندي تفيد إن لديكم طائرات مقاتلة. ربما كنتم لا تجيدون استخدامها؟» لم يتجرأ تيموشنكو على الاعتراض، طالما أن ستالين يعرف أفضل منه عن وجود مقاتلات لدى جيشه. كل المسألة تنحصر في أن ستالين كان مطلعاً على وثيقة حول القوى المتوفرة لدى الجبهتين الجنوبية الغربية والجنوبية، لكن لم ينتبه إلى تاريخها: ١ حزيران (يونيو)!! خلال أسبوعين من المعارك تغيرت أشياء كثيرة، لكن تيموشنكو لا يستطيع الاستمرار في اعتراضه: «كل شيء مفهوم. سنبدأ بدراسة المسألة ومعالجتها على أساس توجيهاتكم، ونبلغكم بالأمر». تيموشنكو لم ينسَ مصير المارشال كوليك الذي اجتهد في تفسير أوامر ستالين، وسرعان ما تحول إلى مجرد جنرال وحُرم من لقب بطل الاتحاد السوفييتي.

في أواخر أيار (مايو) ١٩٤٢، كان ستالين قد ضاق ذرعاً بطلبات تيموشنكو حول تقوية الجبهة التي يقودها، فأملى البرقية التالة:

«إلى تيموشنكو وخروتشوف وباغراميان.

تستلم القيادة العليا خلال الأيام الأربعة الأخيرة منكم المزيد من الطلبات لتقديم السلاح والكتائب الجديدة وتشكيلات الدبابات من احتياطي القيادة العليا.

ضعوا في اعتباركم: لا توجد لدى القيادة العليا كتائب جديدة جاهزة للقتال، فكتائبنا الاحتياطية ما زالت غير ناضجة وينقصها التدريب، ولذا فإن دفعها إلى الجبهة الآن يعني إهداء العدو نصراً سهلاً.

ضعوا في اعتباركم: مواردنا في مجال التسليح محدودة، ولا تنسوا إن هنالك جبهات أخرى غير جبهتكم.

أما آن الأوان أن تتعلموا القتال بأقل الخسائر الممكنة كما يفعل الألمان؟ يجب أن نقاتل بالدراية وليس بالعدد... خذوا كل هذا في الحسبان إذا كنتم تريدون أن تتعلموا يوماً ما كيف تنتصرون على العدو دون أن تهدوا إليه انتصارات سهلة، وإلا فإن

الأسلحة التي تستلمونها من القيادة العليا ستنتقل إلى أيدي العدو كما هو الوضع حالياً.

التاسعة وخمسون دقيقة مساء. ٢٧/ ٥/ ١٩٤٢
ستالين»(١٦)

«ضعوا في اعتباركم!» ـ تلك هي اللازمة التي تتكرر في توجيهات ستالين الذي يجب أن يعلم الجميع دائماً. أما أقواله حول تعلم القتال بأقل الخسائر، فليست سوى تجديد، لأن الكثير من برقياته كانت تتضمن تعبيراً مناقضاً شديد الدلالة «دون النظر إلى التضحيات».

لكي يتصور القارىء طيف وطابع العمل والهموم لدى القيادة العليا والقائد الأعلى، سأورد هنا بعض التوجيهات الصادرة عن القيادة العليا في عام ١٩٤٢، حسب أرقامها وتواريخها ومواضيعها:

ـ ١٧٠١٣٦، ٨/٣، حول تعيين الجنرال فلاسوف نائباً لقائد جبهة فولخوف، والجنرال فوروبيوف نائباً لقائد الجيش الـ ٥٢ ـ أ.

ـ ١٧٠٢٢٨، ٩/ ٤، حول نظام سحب الوحدات إلى الاستراحة في الجبهتين الغربية والجنوبية الغربية.

ـ ١٧٠٣٠٠، ٢٢/ ٤، حول تعيين ونقل قيادات الجيوش الـ ٤ والـ ٥٤ والـ ٨، جبهة لينينغراد.

ـ ١٧٠٣٦٦، ٨/ ٥، حول بناء خط الدفاع على طول الجبهة الجنوبية.

ـ ١٧٠٥٤٢، ٣١/ ٧، حول تشكيل وحدات الردع في جبهة ستالينغراد.

ـ ١٧٠٥٦٢، ٩/ ٨، حول إخضاع جبهة ستالينغراد إلى قائد الجبهة الجنوبية الشرقية والدفاع عن مدينة ستالينغراد... إلخ.

أظن أنني قد أرهقت القارىء. لكن من الصعوبة بمكان أن نتصور نشاط ستالين دون أن نعرف: كان «الأعلى» يبقى في مكتبه ١٤ ـ ١٦ ساعة يومياً وينظر في جملة من مختلف المسائل العملياتية والإدارية والتقنية والتجسسية والاقتصادية والدبلوماسية والسياسية. كانت آلاف الوثائق التي تحمل توقيع ستالين تحرك جماعات بشرية هائلة. لقد تعود الرجل أن يتحكم بمصائر الناس، دون تفكير ـ أحياناً ـ بعواقب قراراته. وحين يتخذ قراراته بعد تفكير، نجدها تزيد التأكيد على أنه بلا قلب. كان ستالين يرى أناساً أحياءً فقط من حوله، ويأخذ تصوراته حول جماهير الجنود المتراجعة والناس الذين يُقتلون وحول بكاء النساء والأطفال على رماد القرى وحول الجثث غير المدفونة وحول الجنون في عيون الأمهات تبكي الأبناء، فقط من الأفلام السينمائية التي تصوّر في الجبهات... كان ستالين فاقد الإحساس تجاه مآسي الحرب التي لا حصر لها. وفي طموحه إلى توجيه أكبر الخسائر للعدو، لم يكن «الأعلى» يعنى كثيراً بالثمن الذي سيدفعه الناس السوفييت لقاء ذلك. لقد أصبحت آلاف وملايين الأرواح لديه ـ منذ زمن ـ مجرد إحصائيات جافة رسمية... اقرأوا معي

اثنين من الأوامر المريعة التي أصدرتها القيادة العليا بمبادرة وإملاء من ستالين.

الأمر رقم (٤٢٨)، تاريخ ١٧/١١/١٩٤١ يقول:

«القيادة العليا تأمر بما يلي:

١ ـ تدمير وحرق كل النقاط الآهلة بالسكان في مؤخرة الجيوش الألمانية على مسافة ٤٠ ـ ٦٠ كم إلى يمين ويسار الطرق. لأجل تدمير النقاط الآهلة ضمن الدوائر المذكورة يجب زج الطيران فوراً والاستخدام الواسع للمدفعية وراجمات القنابل ولفرق جنود الاستطلاع ولمجموعات الأنصار التخريبية، المزودة بالقنابل الحارقة...

٢ ـ تشكيل فرق من الصيادين (٢٠ ـ ٣٠ شخصاً) في كل فوج من أجل تفجير وحرق النقاط الآهلة بالسكان. تقديم أبرز الشجعان في ممارسة عمليات التدمير لنيل الأوسمة الحكومية...»[١٧].

وراح حملة المشاعل يقومون بعملهم، وراح وهيج الحرائق يعمّق لون السواد المخيم على السماء الشتوية. كانت تحترق أكواخ الفلاحين الخشبية والأمهات يلملمن في رعب أطفالهن الذين يبكون: العويل يخيم فوق قرى الوطن المعذب. الألمان ما انفكّوا يحرقون القرى لمعاقبة الأنصار وقواتنا تحرق أيضاً... قوائم لنيل الأوسمة... من قبل «فرق الصيادين»... لكن القرى والبيوت تحترق في المناطق التي لم يصلها الألمان... فليس سهلاً أن تمارَس العملية في المناطق المحتلة. يا لها من مأساة مضاءة بوهيج المشاعل.

نعم. الحرب بلا شفقة. ربما كان بوسع إجراءات من هذا النوع أن تسبب صعوبات للمحتلين. لكن كم من المواطنين كانوا يجدون تحت سقوف بيوتهم آخر ملاذ في تلك الحرب، فيفقدون مع احتراقها الأمل باجتياز المحنة وانتظار عودة الجيوش السوفييتية وإنقاذ أطفالهم؟ من الذي يمكنه الجزم: ما الذي كان ينطوي عليه هذا الأمر أكثر ـ الفائدة العسكرية أم القساوة المجنونة؟ إنه قرار بروحية ستالين المعتادة، التي لم ترحم الناس قط. أبداً. لقد أصبح موت المئات والآلاف والملايين من أبناء بلده أمراً عادياً لديه منذ زمن. لا فائدة ترجى الآن من النقاش المتأخر حول صحة قرار ستالين بحرق النقاط الآهلة بالسكان، لكنه عمل مريع.

روى لي الجنرالي لياشنكو مشهداً من مشاهد تنفيذ ذلك القرار: «في أواخر عام ١٩٤١ كنت قائد فوج وكنّا في مواقع دفاعية وأمامنا تبدو قريتان، أذكرهما حتى الآن: بانوفسكويه وبريشيب. وجاء أمر من قيادة الكتيبة: حرق القرى ضمن حدود المنال! حين رحتُ إلى الخندق أدقق التفاصيل مع الجنود حول كيفية التنفيذ، تدخل جندي من قوات الاتصال متقدم في السن، بشكل خارج عن كل أصول النظام العسكري:

ـ أيها الرفيق الرائد، إنها قريتي... هناك زوجتي وأولادي، وأختي وأولادها... كيف أحرقهم؟ سيموتون جميعاً!

ـ لماذا تتدخل في ما ليس شأنك؟ سننظر الأمر.

رحنا أنا وقائد الفصيل نفكر بما يمكن فعله. أذكر أنني سميت القرار «غبياً»، وفيما بعد كدتُ أدفع ثمن تلك الكلمة! إنه قرار ستالين! يومها أنقذني من بين يدي رجال الأمن الجنرال مالينوفسكي: قائد الجيش، ولارين، عضو مجلسه العسكري. أما القريتان، فقد قمنا باحتلالهما صباح اليوم التالي، بعد أن سمح لنا بذلك قائد الكتيبة زامورتسيف... وتفادينا الحرائق».

وهنا وثيقة ثانية من إملاء ستالين:

«إلى قائد جبهة كالينين.

١٩٤٢/١/١١ الواحدة وخمسون دقيقة رقم (١٧٠٠٠٧).

... خلال يوم ١١، وفي موعد لا يتجاوز يوم ١٢ كانون الثاني (يناير)، احتلال مدينة رجيف... تنصحكم القيادة العليا بأن تستخدموا لهذه الغاية كل قوى المدفعية وراجمات القنابل والطيران المتوفرة في تلك المنطقة من أجل قصف مدينة رجيف بكل عنف، دون التوقف أمام التدمير الجدي للمدينة. أكدوا لنا استلام الأمر. بلغونا عن التنفيذ.

ستالين»(١٨)

من المؤسف جداً أن ستالين لم يبدِ مثل هذا الحزم حين كانت أجهزة المخابرات والعسكريون وأصدقاء البلد يبلغونه: الآلة الهتلرية تتحفز للقفزة الرهيبة. أما الآن، فهو حازم، «قصف مدينة رجيف بكل عنف»... حين نقرأ الوثائق الكثيرة للقيادة العليا (التي تجمع على فكرة واحدة: إيقاف وتدمير العدو وطرده من الوطن!) نحس بشعور حاد، حين ندرك أنه كان يمكن تفادي المصائب بتلك الأبعاد الهائلة التي عرفتها الحرب. ربما كانت الضرورة الصارمة في الحرب تجبر فعلاً على تدمير الجسور والسكك الحديدية والمصانع أثناء الانسحاب، لكن من المشكوك به أن «عزْبة» الفلاح في قرية روسية كان بوسعها أن تشكل ملجأ أميناً للمحتل الألماني.

أظن إنه يجب نشر وثائق القيادة العليا ولجنة الدفاع الحكومية. فهذه الوثائق تعكس بطولة الناس السوفييت التي كانت منقطعة النظير، كما تعكس مرارة الكوارث والآمال التي لم تمت، وكذلك المآسي الحياتية لآلاف وملايين البشر، والإيمان الراسخ بالنصر. حتى بعد أن تراجعت جيوشنا إلى نهر الفولغا، حين كانت برلين ما زالت بعيدة المنال، كان بسطاء الناس يرسلون إلى ستالين رسائل الدعم والمساندة معبرين عن رغبتهم الوطنية: تقديم كل ما يمكن للجبهة، وتضرعات الفتيان: أرسلونا إلى الجبهة!...

ليست تواقيع ستالين على آلاف الوثائق دليلاً على دور رسولي قام به. الشعب كان هو الرسول. أما جرة القلم الأزرق، فكانت لا تعني سوى إن صاحب قلم الرصاص هذا يجب عليه طوال فترة الحرب أن يكرس إرادته وعقله للصراع الفظيع ضد قوى الشر التي اخطأ حين حاول أن يقيم معها علاقات «صداقة» عشية الحرب. هيهات أن يكون عقله وإرادته يلبيان شروط «المربع» الذي رسمه نابليون؛ فقد تعود ستالين على

إظهار الإرادة: إرادته القاسية الشريرة بلا رحمة. العقل الدوغمائي الجامد كثير العيوب، وغالباً ما كانت عصا القيادة التي يمسكها ستالين ـ خصوصاً في الطور الأول من الحرب ـ تشير إلى قرارات ليست هي الأفضل. ويمكن القول بثقة: ليس ستالين، بل العسكريون الذين كانوا حوله هم الذين جعلوا من القيادة العليا هيئة جماعية تمارس القيادة الاستراتيجية.

فصول الحرب:

كانت رحى الحرب تهرس مصائر البشر، وتطالب بمزيد من الضحايا على مر سنوات أربع. وصعد ستالين ليشغل كل المواقع القيادية العليا، لكن ذلك لم يجعل رؤيته أبعد وأعمق. كانت ساحة الحرب تبدو له في البداية وكأن جيشين التقيا على مبدأ: «حارتنا ضد حارتكم» ضمن مجال بري هائل الأبعاد، من بحر بارنتس إلى البحر الأسود. لم يكن يجيد فرز الحلقات الرئيسية في الموقف، ولا أن يفهم لماذا انهارت الجبهة الغربية تحت قيادة بافلوف بتلك السرعة. فقط بعد الحرب، بلغه مضمون بعض الوثائق الألمانية التي تم الاستيلاء عليها، حيث أدرك «الزعيم» كم كانت كبيرة كثافة الجيوش الألمانية على محور الضربة الرئيسية، وفي الوقت ذاته ـ كم كان «ممطوطاً» ترتيب الجيوش السوفييتية على طول الجبهة.

كانت البصيرة الاستراتيجية تأتي ستالين بالتدريج. أول درس تلقنه ستالين في الحرب كان في شهر تموز (يوليو) ١٩٤٢، حين احتل الألمان مدينة مينسك واندفعوا نحو سمولينسك وموسكو. شعر ستالين في لحظة ما أن القيادة العليا لا تملك ما يكفي من الاحتياطيات الاستراتيجية. نشأت خلف شريط الجبهة فجوات تتطلب جرّ قوات من عمق البلد لسد الثقوب في «غربال» الجبهة التي تتلوى. هكذا، حصل العدو على إمكانية ضرب تلك القوات بالتقسيط. عندئذ استخلص ستالين الدرس: لا بد من وجود احتياطيات دائمة (ومن ثم: قوات ضاربة مستعدة للهجوم المعاكس) إذا كنّا نريد تأمين دفاع متين ومستقر. احتياطيات... احتياطيات... احتياطيات... لا يستطيع بدونها ترتيب الجبهة «على حزامين» أن يتمتع بالمرونة والاستغلاق.

خلال فترة طويلة، دامت عامي ١٩٤١ و١٩٤٢، ظل ستالين يسعى فقط إلى الرد على التحديات والأخطار والضربات التي تصدر عن الخصم. فقط بعد معركتي موسكو وستالينغراد بدأت تأتيه الثقة بإمكانية املاء المشيئة الخاصة على العدو وفرض شروط القتال عليه. عند نهاية ١٩٤١، بدأ القائد الأعلى يدرك، كما أن الكتاب ـ أي كتاب ـ يتألف من فصول تربط بينها حبكة واحدة، كذلك الحرب تضم جملة من العمليات المستقلة والمترابطة.

بعد الحرب تذكر معاونه بوسكريبيشيف أن ستالين كان ذات مرة ـ قبل النصر بقليل ـ يدرس المسائل المتعلقة بعمليتي براغ وبرلين الختاميتين، مع رئيس الهيئة العامة للأركان أنطونوف. فجأة، توجه «الأعلى» إلى الجنرال أنطونوف بسؤال:

ـ يبدو أن تلك ستكون هجماتنا الأخيرة في الغرب... وها أنا أفكر الآن: كم كان عدد كل العمليات التي مرت علينا طيلة الحرب؟

ـ تصعب الإجابة فوراً ـ قال أنطونوف ـ لكنني أظن أننا أجرينا ما يزيد عن أربعين عملية استراتيجية كبيرة، بما في ذلك العمليات الدفاعية...

أنطونوف قريب من الحقيقة: قامت القوات المسلحة، خلال الفترة ١٩٤١ ـ ١٩٤٥، تحت إشراف القيادة العليا، بحوالى خمسين عملية بين دفاعية وهجومية. وإذا كانت أول عشرة أو خمسة عشر «فصلاً» تجري «كتابتها» من قبل «الأعلى» وهيئات الأركان والجيوش المقاتلة، تحت «إملاء» العدو، فإن الاربعين أو الخمسة وثلاثين «فصلاً» الأخيرة، كان يجري إبداعها متى وأين يجب من وجهة نظر «المؤلفين» المذكورين.

«الأبطال» الأساسيون في كتاب الحرب كانوا الناس السوفييت: الجنود والضباط والموجهون السياسيون... لكن سجل الحرب في هذا «الكتاب» العملاق كانت تدونه أركان الجبهات وأركان الجيوش والهيئة العامة للأركان والقيادة العليا. في بداية الحرب كان عدد الجبهات خمساً. لكن الموقف المأساوي لاحقاً فرض على القيادة العليا تجزئة الجيش وتوزيعه، ليصبح عدد الجبهات في تموز (يوليو) ١٩٤٢، مثلاً، ١٢ جبهة. بعد معركة ستالينغراد، لم يكن ستالين يخفي ثقته بكونه أدرك خفايا الاستراتيجية وأسرار فن التكتيك والعمليات. وإذا كان ذلك صحيحاً إلى حد كبير فيما يخص الاستراتيجية، فإن «الأعلى» بقي على مستوى «الهاوي» في مجال التكتيك حتى نهاية الحرب. في إحدى برقياته إلى ألكساندروف وفيودوروف، يلوم ستالين قيادة جبهة فورونيج على عدم التمكن من فن القتال:

«اعتبر عاراً على قيادة الجبهة أن تسمح، من خلال إهمالها وتباطؤها، بمحاصرة أربعة أفواج رماة من قبل قوات العدو. لقد آن الأوان، في ثالث سنة من الحرب، أن نتعلم قيادة القوات بشكل صحيح»(١٩).

هذا كلام يقوله فقط من تعلم بنفسه لا شك. لكن ستالين هنا يعيّر قائدين عسكريين محددين، لكنهما يختفيان خلف إسمين وهميين: ألكساندروف هو (ابتداءً من ١٥/٥/١٩٤٣) ألكساندر فاسيليفسكي، وفيودوروف هو تولبوخين. لقد ساهم ستالين مساهمة ملحوظة في فن «التمويه الاستراتيجي»، حين اقترح ـ نظراً لولعه بالأسرار ـ منح أسماء مستعارة للقادة العسكريين (ومن ضمنهم ستالين نفسه، حيث منح نفسه اسم فاسيليف ـ إيفانوف)، استمر استخدامها لفترات متفق عليها ضمن أجواء سرية للغاية.

حين يقرأ المرء هذه الأسماء في الوثائق لا يجد ما يبرر وجودها، لكن ستالين كان مصراً على هذا «التمويه»، مع أن مضمون أية وثيقة يوشي بمرسلها. ها هو مثال:

«إلى الرفيق قسطنطينوف.

اقترح عليكم تصورات الرفيق ميخايلوف. أرسلوا لنا رأيكم. برقية ميخايلوف لا

توضح دور الجيش الـ ٥٧ في الهجوم العام الرامي إلى تحطيم العدو المحاصر. بعد الحديث مع ميخايلوف اتضح أن الجيش الـ ٥٧ سوف يقاتل في منطقة راكيتينو وكرافتسوف وتسيبينكو على الاتجاه نحو سوفخوز «غوريانا بوليانا» و «بالكابيتشنايا»...

فاسيليف»[٢٠]

هبْ أنّ العدو التقط هذه البرقية وفكّ شيفرتها، فما الذي يضلله في هذه الكنيات الروسية؟...

لقد حصل أن ربطت القيادة العليا إليها ليس فقط تحديد المهام العامة والجزئية أمام هذه الجبهة أو تلك، بل وكذلك تخطيط العمليات. كانت القيادة نفسها قد شكلت قيادات عامة لثلاثة محاور: الشمالي الغربي، الغربي، الجنوبي الغربي، لكن تلك الهيئات وجدت نفسها فوراً معدومة الحقوق والصلاحيات. فحتى بعد تشكيلها، تابعت القيادة العليا إدارة شؤون الجبهات متجاوزة قيادات المحاور. غالباً ما كان ينشأ انطباع بأن ستالين يحتاج وجود تلك الهيئات ليس لتسهيل قيادة الجبهات، بل لإيجاد «كبوش الفداء» وقت الحاجة. لم تكن القيادات العامة للمحاور قادرة على التصرف بالاحتياطيات الموجودة في منطقة عملها وبالتشكيلات الجوية أو على اتخاذ قرار، ولو جزئي، دون العودة إلى القيادة العليا. أثناء مباحثاته مع قادة الجبهات لم يكن يتجاهل خطط وتوجيهات قادة المحاور فحسب، بل ويلغيها أيضاً. فها هو يتحدث إلى قائد جبهة القرم كوزلوف، ويصدر إيعازات:

«يجب البدء فوراً بسحب الجيش الـ ٤٧ إلى ما وراء «الحاجز التركي» بعد ترتيب المؤخرة وتأمين التغطية الجوية. كل أوامر قائد المحور التي تتناقض مع التوجيهات التي استلمتموها للتوّ يمكن اعتبارها لاغية...»[٢١].

بقي ستالين يرى في قيادات المحاور (من حيث كونها حلقة عملياتية في قيادة الجبهات) مجرد حلقة انتقالية. وفي ظل المركزية الشديدة التي كان يفرضها دائماً، ما كان بوسع تلك الهيئات الإقليمية أن تبرز مقدراتها في مجال القيادت الاستراتيجية.

كما قلنا، كان ما يزيد عن ربع العمليات الاستراتيجية عبارة عن عمليات دفاعية. كيف كان ستالين والقيادة العليا يعملان على إعدادها؟ لم يكن هنالك تحضير مسبق لمعظم العمليات الدفاعية الاستراتيجية خلال عام ١٩٤١ (في منطقة البلطيق خلال حزيران (يونيو) وتموز (يوليو)، في روسيا البيضاء خلال نفس الفترة، في أوكرانيا الغربية خلال الصيف، في منطقة الدائرة القطبية وكاريليا خلال الخريف، في منطقة كييف خلال تموز وآب، في منطقة سمولينسك خلال تموز وآب (اغسطس) وأيلول (سبتمبر)، إلخ).

في سنوات ما قبل الحرب كانت مسائل تنظيم وخوض الدفاع الاستراتيجي على مستوى البلد لا تلقى الدراسة والمعالجة المطلوبة، لا من خلال التدريبات العسكرية والدروس الميدانية، ولا في النظرية. وفي الحقيقة، إن الشخص الذي كان قد يسمح

لنفسه قبل الحرب أن يقترح تجريب الدفاع على خط نهر الدنيبر أو في ضواحي موسكو أو قرب لينينغراد، سيحصل مباشرة على تهمة بالخيانة و «المزاج الانهزامي». إن ستالين، بسياسته تلك، وبأخطائه، ساهم إلى حد كبير في «تأمين» عنصر المباغتة الذي استخدمه العدو.

حين كانت القيادة العليا وقيادات الجبهات تصدر التوجيهات والأوامر بشأن خوض الدفاع الاستراتيجي، كانت ترمي إلى هدف رئيسي: إيقاف وإنهاك العدو وخلق ظروف مؤاتية للهجوم المعاكس. في وقت لاحق، راح الدعاة السياسيون وبعض المؤرخين ـ انطلاقاً من فتاوى ستالين ذاته ـ يصورون التراجع المفجع لجيوشنا كنتيجة لخطة مضمرة تهدف بالأصل إلى «إنهاك العدو» بعمليات الدفاع النشيط. لقد لجأت الجيوش السوفييتية إلى تنظيم الدفاع وفق خطة معدّة سلفاً في معركة واحدة فقط جرت عام ١٩٤٣ صيفاً. لم يكن ستالين يحب الدفاع، وكان «ينرفز» ولا يكشف عن فهم عميق لجوهر العمليات الدفاعية، ساعياً إلى حل المهام الدفاعية ليس فقط بأدوات عملياتية ـ عسكرية، بل وكذلك بأدوات إدارية على شاكلة الأمر (٢٧٠) يوم ١٦/٨/١٩٤١، والأمر رقم (٢٢٧) يوم ٢٨/٧/١٩٤٢، اللذين سبق الحديث عنهما، أو على مستوى «وحدات الردع» وقوات وزارة الداخلية (الأمن).

ليس «الأعلى» وحده الذي لم يكن يجيد تنظيم الدفاع الاستراتيجي، فكذلك كان شأن القسم الأكبر من القادة العسكريين. لقد قُتل معظم ضباط الجيش الأحمر أو أسروا أو جُرحوا في عام ١٩٤١، ومع أن حملة صيف وخريف ١٩٤٢ كان يمكنها أن تجري بنجاح أكبر مما كان في الواقع، بقي القائد الأعلى غير قادر على الفهم العميق لطابع المعارك الدفاعية وخصوصياتها. ستالين يرى الآن أن اتساع العمليات الدفاعية في صيف ١٩٤٢ لن يكون بفخامة عام ١٩٤١، حين بلغ عمق التراجع، الذي أُجبرت عليه جيوشنا، يتراوح بين ٨٥٠ و ١٢٠٠ كم.

كان ستالين يفترض أن احتمال التراجع الجدي أصبح قليلاً. وها هو في أمر أصدره كوزير للدفاع بمناسبة يوم الجيش ٢٣/٢/١٩٤٢ يؤكد:

«لقد أزلنا عدم التكافؤ الذي نشأ في الفرص الحربية بسبب المباغتة التي انطوى عليها هجوم الفاشيين الألمان. وفور ما انتهى الاحتياطي الذي وفّره للألمان عنصر المباغتة، وجد جيش ألمانيا الفاشية نفسه أمام كارثة»[٢٢]. لكن ستالين في تلك اللحظة لم يأخذ بالحسبان أن تركيز قوى العدو على مقاطع ضيقة من خط الجبهة (في الأماكن التي لم يكن القائد الأعلى يتوقعها) سيعود ليضع الجيش الأحمر في موقع حرج، لكنه أقل خطورة مما في السابق.

تمكن العدو من اختراق الجبهة في عدة أماكن ليتقدم إلى مسافة ٥٠٠ ـ ٦٥٠ كم (وهذا أقل بمرتين من تقدمه في عام ١٩٤١). وفي السنة التالية، ١٩٤٣، لم تبلغ النجاحات الجغرافية للألمان أكثر من ٢٠ ـ ٣٠ كم، مع أن قواتنا لم تتمكن من الاخماد المسبق لزخم الهجوم الألماني في صيف ١٩٤٢، نظراً لأن ستالين بالغ في تقدير الإمكانيات وبقي طول الوقت يصر على أن تجري، على التوازي مع الدفاع، عمليات

هجومية، ولو كانت جزئية. المناورات الاستراتيجية الكبيرة لتحريك جيوشنا هي وحدها التي سمحت بإيقاف الألمان عند ضفاف الفولغا. في النصف الثاني من عام ١٩٤٢، اضطرت القيادة العليا إلى توجيه ١٠٠ تشكيل من وحدات الرماة والدبابات و ١٥ فيلق دبابات نحو الجبهة الجنوبية الغربية. تلك هي، مرة أخرى، نتائج التأخر في تحديد الاتجاهات الممكنة لجهود العدو.

أخطأ ستالين الحساب عام ١٩٤١، حين قرر إن الجيش الألماني سيسدد ضربته الرئيسية في الجنوب الغربي. بعدئذ تطلب الأمر تجميعاً واسعاً للقوى أسفر عن وجود نصف العدد الإجمالي للكتائب السوفييتية على المحور الغربي إبّان الهجوم السوفييتي في الشتاء. لقد كان ستالين (ومعه القيادة العليا كلها) يعتبر أن المحور الغربي سيبقى رئيساً حتى في عام ١٩٤٢، رغم إقراره باحتمال ضربة قوية على المحور الجنوبي الغربي. لكن الخصم في حملته صيف ١٩٤٢ سدد الضربة الرئيسة في الجنوب الغربي. في كلتا الحالتين، كان ستالين هو الذي «يساعد» القيادة العليا على الخطأ في تحديد اتجاه الضربة الأساسية.

أثناء مناقشة خطط القيادة العليا لعام ١٩٤٢، ألح ستالين على إقرار توجيه، سبق الحديث عنه، يحفز الوحدات العسكرية على الاستعداد لأعمال هجومية:

«لقد انتقل العدو إلى الدفاع، وهو يبني خطوط تحصين دفاعية بهدف الحيلولة دون تقدم الجيش الأحمر»[٢٣]. ومن جديد، أضطر الجيش الأحمر إلى خوض معارك دفاعية لم يستعد لها مسبقاً.

مما يلفت النظر في أحاديث ستالين مع القادة العسكريين على الجبهات أنه حين كان الأمر يخص العمليات الدفاعية نجد «الأعلى» أقل ثقة بنفسه مما هو عندما يدور الحديث عن الهجوم. كان يوكل مهمة الحديث عن الدفاع ـ في حالات كثيرة ـ إلى شابوشنيكوف أو فاسيليفسكي أو أنطونوف لاحقاً، في حين يكتفي بالتدخل بالنقاط «الثابتة» بالنسبة له: هل ستعطي القيادة العليا كتائب من الاحتياطي، أم لن تعطي؟ على المدافعين أن يستخدموا سلاح الطيران بشكل أفضل؛ الإشارة إلى هذا القائد العسكري أو ذاك ممن «يفسدون الطبخة». كذلك كان ستالين يحب دوماً أن يذكّر بضرورة اليقظة. الطبع غلاّب، وهو يكشف نفسه. ها هي فقرات أخرى من إيعازاته إلى الوحدات المدافعة عن مواقعها. في توجيه إلى تيموشنكو في ١٩٤٢/٦/٢٢ يقول:

«إن إجلاء الناس عن الشريط المحاذي للجبهة ضروري أيضاً من أجل أن لا يبقى هناك ولا عميل واحد، ولا شخص مشتبه في أمره، بحيث تكون مؤخرة الجيوش نقية مئة بالمئة...»[٢٤].

في ٢٢ تموز (يوليو) من نفس العام، كان ستالين يتحدث إلى مالينوفسكي، قائد الجبهة الجنوبية، ويبدي عدم رضاه عن معطيات التجسس والاستطلاع: «معطياتكم التجسسية ليست دقيقة كما يجب. يوجد لدينا التقاط لبلاغات العقيد أنطونيسكو، ونحن لا نعير أهمية كبيرة لبرقياته. معطيات استطلاعكم الجوي لا تتمتع

هي الأخرى بقيمة كبيرة. طيارونا لا يعرفون الترتيبات القتالية للجيوش البرية، وكل شاحنة تبدو لهم دبابة، وهم عاجزون حتى عن تحديد هوية القوات التي تتحرك في هذا الاتجاه أو ذاك. طيارو الاستطلاع قدموا، أكثر من مرة، معلومات خاطئة ضللتنا. التجسس المضمون الوحيد هو تجسس الوحدات الميداني، لكن هذا التجسس غير موجود لديكم أو إنه ضعيف...»[٢٥].

ذات مرة، رفع جوكوف تقريراً إلى «الأعلى» يقول فيه إن جندياً ألمانياً انتقل إلى جانبنا وأبلغ أن كتيبة المشاة الألمانية رقم (٢٣) تم استبدالها بكتيبة المشاة رقم (٢٦٧) وإنه رأى وحدات «إس. إس»، فراح ستالين يحذره: «لا تصدقوا الأسرى كثيراً...»[٢٦]. إنه يحبذ أن لا يصدق أحداً: لا الأسرى ولا تقارير الاستطلاع ولا التجسس اللاسلكي ولا تقديرات القادة الميدانيين.

أحياناً كانت تسيطر على ستالين فكرة مهووسة إلى حد ما، مشكوك في صحتها غالباً، لكنه يصر على تنفيذها. سبق أن ذكرنا إيمانه بإمكانية كتائب الخيالة الخفيفة، التي أكد بوديوني أن بوسعها شل العدو من الخلف، رغم أن شابوشنيكوف وفاسيليفسكي عبرا عن تحفظ في هذا الصدد: لا بد من تغطية جوية لنشاطها، وهي ضخمة الحجم... لكن الاعتراض كان ضعيفاً. في ١/١/١٩٤٢ كان عدد الكتائب المذكورة ٩٤ كتيبة، وجرت محاولة لتنظيم حملات لها في مؤخرة الجيوش النازية؛ نجح البعض منها نسبياً. لكن سرعان ما فطنت القيادة العسكرية الألمانية إلى استخدام الطائرات ضد الخيالة، فتكبدت كتائبنا خسائر فادحة. في أواخر العام بدأ تقليص كتائب الخيالة، ومع ذلك، كان عددها في نهاية الحرب هو ٢٦ تشكيلاً. كفّ ستالين عن إصراره على استخدام سلاح الخيالة موكلاً شأنها إلى «الفارس الأحمر» ذي التفكير الشائخ سيميون بوديوني. هكذا صدر «أمر القيادة العليا رقم (٥٧)، تاريخ ٢٥/١/١٩٤٣»، حول تعيين المارشال بوديوني قائداً لسلاح الخيالة في الجيش الأحمر، وتعيين الجنرال غورودوفيكوف نائباً له. مع ذلك، تذكر ستالين الخيالة مرة أخرى في عام ١٩٤٤:

«إلى قادة الوحدات في الجبهات.
نسخة إلى الرفيق ألكساندروف (فاسيليفسكي).
نسخة إلى الرفيق بوديوني.

تبين تجربة العمليات الهجومية للجيش الأحمر خلال عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ أن تشكيلات الخيالة تحدث أثراً جيداً في كل الحالات التي يتم فيها استخدامها بشكل مكثف وبدعم من تشكيلات الدبابات وبتغطية من قبل سلاح الجو، في مناطق الأجنحة المكشوفة لتشكيلات العدو من أجل ضربه في المؤخرة أو ملاحقته...

بناءً عليه، نأمر بما يلي: سحب فيالق الخيالة من تحت إمرة قادة الجيوش وإخضاعها لقيادات الجبهات واستخدامها من الآن فصاعداً لتصعيد النجاحات وضرب مؤخرات الخصم...

١١/٥/١٩٤٤. الساعة ٢٤ تماماً
ستالين، أنطونوف»[٢٧]

لم يكن ستالين يريد أن يفهم كم هو ضئيل دور سلاح الخيالة في الحرب المعاصرة وكم أكل الدهر وشرب على «أيام زمان» التي ولدت فيها الأساطير عن الخيالة الحمراء. ولم يتمكن سلاح الخيالة في هذه الحرب أن يمارس سوى أدوار ثانوية مساعدة.

إذن، كان ستالين يبدي ثقة أكبر بالنفس في العمليات الهجومية. وكان دائماً نافد الصبر.

رغم تحذيرات شابوشنيكوف والقادة العسكريين الآخرين، ظهر ستالين أثناء تخطيط الأعمال القتالية لصيف ١٩٤٢ ميالاً إلى خوض أعمال هجومية على كل المحاور، رغم غياب الإمكانيات اللازمة. قد يبدو لأول وهلة أن معركة موسكو كان يجب أن تقنع «الأعلى» بمدى الأهمية التي يتمتع بها تركيز الجهود على محور معين. لكن ما إنْ حصل أوّل نجاح استراتيجي، حتى اعتبر ستالين ان الجيش الأحمر قد أصبح قادراً على خوض أعمال قتالية منْ هذا النوع في كل الاتجاهات. يتذكر جوكوف أن ستالين كرر أكثر من مرة، بعد معركة موسكو، أن «الألمان لن يتحملوا ضربات الجيش الأحمر، من هنا ظهرت لديه فكرة البدء، على وجه السرعة القصوى، بهجوم شامل على كل الجبهات، من بحيرة لادوغا حتى البحر الأسود». ويصور جوكوف تفكير ستالين هكذا:

ـ الألمان في حالة ارتباك بعد هزيمتهم قرب موسكو، واستعدادهم للشتاء سيّىء. الآن هو اللحظة المثلى لأن ننتقل إلى هجوم شامل...

يقول المارشال إن ما من أحد بين الحضور اعترض على هذا الكلام، وراح ستالين يعرض فكرته متابعاً:

ـ مهمتنا تنحصر في عدم منح الألمان هذه الفرصة لالتقاط أنفاسهم وطردهم غرباً بلا توقف وإجبارهم على إنفاق احتياطياتهم قبل الربيع... وركز على كلمتي «قبل الربيع»، وتوقف قليلاً ثم تابع:

ـ عندئذ، ستكون لدينا احتياطيات جديدة والألمان لا احتياطيات لديهم...(٢٨).

وافق أعضاء المكتب السياسي والقيادة العليا على اقتراح ستالين، مع أن جوكوف وشابوشنيكوف وفاسيليفسكي عبّروا، أثناء النقاش الحذر عن شكوكهم بواقعية هذه الفكرة. لكن ستالين رمى بضع عبارات حادة فألزمهم بالموافقة على وجهة نظره. حين يكون ستالين واثقاً في مسألة ما، من الصعب تغيير رأيه، فحتى حجج العقل الراجح لم تكن تنفع لديه في حالات من هذا النوع. اليوم نعرف أن العمليات الهجومية للجيوش السوفييتية في حملة صيف وخريف ١٩٤٢ لم يحالفها الحظ. وقد أُحبطت القيادة العليا حين فشلت الجبهة الشمالية الغربية في تدمير مجموعة دميانسك المعادية: ما يزيد عن ٢٠ كتيبة سوفييتية، في ظروف غلبة عددية لصالحها، وعلى مدى شهر أيار (مايو)، ظلت تحاول كسر المقاومة الألمانية، لكن بلا نتيجة. الأرشيفات حفظت لنا بضع برقيات ملؤها الوعيد، كان ستالين قد أرسلها إلى

قيادة الجبهة. لكنها لم تكن تجدي نفعاً. كل ما في الأمر أن الألمان كانوا آنذاك يقاتلون أفضل منّا: عجز الجيشان الحادي عشر والأول عن قطع معبر ضيق صغير عُرف باسم «ممرّ راموش» رغم ضرباتهما المتلاقية من الجانبين. في الوقت ذاته كان الجيش الثاني، الذي يقوده الجنرال فلاسوف، ينزف وهو في حالة شبه حصار. وما كان من ستالين إلا أن اتهم خوزين، قائد جبهة لينينغراد، بـ «انعدام المبادرة وانعدام روح المسؤولية»، وعواقب كلام كهذا معروفة. ففي اللحظة المناسبة، خبّره جدانوف عن شكاوى نائبَي خوزين، زابوروجيتس وميلنيكوف، حول «سلوك خوزين غير اللائق». ورمى ستالين في سماعة الهاتف:

ـ عالجوا الموضوع وقدموا لنا...

طلب جدانوف توضيحات من خوزين حول التهمة المذكورة من قبل العاملين الحزبيين المذكورين. في ١٩٤٢/٥/٣، كتب خوزين رسالة موجهة إلى جدانوف: «زابوروجيتس يتهمني بالانحلال الخلقي. بلى، لقد تواجدت لدي عاملات من التلغراف مرتين أو ثلاثاً، حيث شاهدنا فيلماً سينمائياً... يتهمونني بإنفاق كميات كبيرة من الفودكا. أنا لست أقول أنني لا أشرب: قبل الغداء وقبل العشاء أتناول أحيانا كأساً، اثنين، أو ثلاثة... بعد هذه الوشايات لن أستطيع العمل مع زابوروجيتس»(٢٩). بعد يومين اتصل جدانوف هاتفياً وقدم تقريره المعتاد. في نهاية الحديث قال لستالين:

ـ الأفضل إقالة خوزين... حاله لا يمشي...

في ٩ حزيران (يونيو) صدر أمر من القيادة العليا بإعفاء خوزين من قيادة جبهة لينينغراد. بعد حين عاد ستالين ليعيّنه قائداً لأحد الجيوش، لا بل وتم ترفيعه في الرتبة، وأوكلت إليه قيادة «المجموعة الخاصة» ثم قيادة الجيش الـ ٣٣، والجيش الـ ٢٠، وبعد ذلك أصبح نائباً لقائد الجبهة الغربية. في ١٩٤٣/١٢/٨ ظهر اسم خوزين من جديد في أمر القيادة العليا: «نظراً لتلكؤه وموقفه غير الجدي من العمل يقال الجنرال خوزين من منصبه كنائب لقائد الجبهة الغربية، ويوضع تحت تصرف الإدارة العامة للكوادر في وزارة الدفاع.

ستالين، جوكوف»(٣٠)

ذات مرة، بعد معركة ستالينغراد، حين راحت رياح النصر تجري بما تشتهيه سفن المجد الستاليني، حدث لـ «الأعلى» أن «يصارح» أنطونوف، الذي عُيّن للتو رئيساً لإدارة العمليات في الهيئة العامة للأركان ونائباً لرئيس الهيئة. ربما كانت تلك «الصراحة» بنْت الدهشة الفعلية، وربما كان يريد جس النبض لدى الرئيس الجديد لغرفة العمليات: حين طلب أنطونوف السماح له بالانصراف بعد التقرير، استوقفه ستالين:

ـ الرفيق أنطونوف! ألم تفكر قبلاً لماذا كانت عملياتنا الهجومية في عام ١٩٤١ لا تكتمل؟ انظروا: عملية رجيف وفيازما شاركت فيها جبهتان، وعملية فك الحصار عن لينينغراد وعملية الهجوم الشتوي لجيوش الجبهة الجنوبية والجبهة الجنوبية الغربية... بالمناسبة، لقد كنتم قائداً للأركان لدى مالينوفسكي، أليس كذلك؟

ـ نعم، أيها الرفيق ستالين...

ـ في القرم كان لدينا جيشان واصبنا بهزيمة،... ثم هزيمة خاركوف... كيف لكم أن تفسروا هذه الهزائم؟ لكن لا تقولوا لي: تناسب القوى، بعثرة الوحدات، الاستخدام السيّىء للطيران والدبابات، إلخ...

قبل الحرب كان الجنرال أنطونوف يدرّس للضباط مادة «التكتيك العام»... فلم يرتبك، بل عرض بتؤدة رؤيته لأسباب الهزائم:

ـ في العام الماضي كنا، ولا زلنا حتى الآن أحياناً، نقاتل بطريقة ممجوجة، خالية من الفطنة. لم نتعلم اختراق دفاع العدو في عدة نقاط، وكنّا نسيء استخدام تشكيلات الدبابات أثناء تصعيد الهجوم...

ـ لقد بدأتم بداية صحيحة ثم دخلتم في التفاصيل... الشيء الرئيسي هو أننا، بعد أن تعلمنا الدفاع، بقينا (ولا زلنا نسبياً) لا نجيد الهجوم. باختصار لا زلنا نقاتل بطريقة غير متقنة...

نظر ستالين إلى أنطونوف، ثم ابتسم فجأة ـ وهذا شيء كان نادر الحدوث ـ وقال له:

ـ يمكنكم الذهاب...

بعد معركة ستالينغراد كانت ثقة ستالين تزداد لأن تحطيم الجيوش النازية لم يعد في المنأى البعيد. وفي أواخر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٢، بعد استماعه إلى تقرير شيرباكوف (رئيس الإدارة السياسية العامة) حول العمل السياسي في الجيش، قال ستالين: «يجب حض المقاتلين على انجاز مهمة ملموسة: عام ١٩٤٣ يجب أن يصبح نهاية الأنذال الفاشيين! أصدروا إيعازاتكم إلى الأقسام السياسية حول تقوية العمل على دعم معنويات الجنود. سوف نوسع الهجوم! نعم، الهجوم بالذات! دون الهجوم، بالدفاع وحده، لن ندمر الفاشيين»(٣١).

صدرت توجيهات شيرباكوف إلى الإدارات السياسية في الجبهات والجيوش والفيالق والكتائب للقيام بنشاطات خاصة تشمل الموجهين السياسيين والنشطاء الحزبيين وتتعلق بأشكال وأساليب العمل على تذكية الحماس الهجومي. وحفظ لنا الأرشيف الحزبي تقرير ميخليس في ١٩٤٣/١/٩ أمام النشطاء الحزبيين في الجيشين الثاني والثامن بجبهة فولخوف «حول التوجيه السياسي أثناء عمليات الهجوم».

كل فقرة في تقرير ميخليس (رغم أنه عوقب بعد كارثة القرم، كما نذكر) تبدأ بتمجيد «الأعلى»:

«بتوجيه من الرفيق ستالين يجب أن يصبح عام ١٩٤٣ (نفس الكلام كان يقال قبل سنة ـ المؤلف) عام التدمير النهائي للمحتلين الألمان. لا يمكننا أن نكسب الحرب بطريقة الدفاع». ثم يحاول ميخليس أن يحشر «النظرية» في أساس الدعاية السياسية

الرامية إلى دعم المعنويات: «في الحرب، يجد الجسد تعبيراً عن نفسه في غريزة حيوانية هي غريزة البقاء، في الخوف من الموت. أما الروح، فتعبر عن نفسها في الإحساس الوطني لدى المُدافع عن الوطن. بين الروح والجسد يجري صراع لا واعٍ أحياناً. حين تكون الغلبة للجسد، نجد أمامنا إنساناً جباناً، وعلى العكس». ثم يتلو التمجيد بالقيادة الحكيمة لستالين: «على رأس البلد والجيش يقف القائد العسكري العظيم الرفيق ستالين، الذي لا مثيل له بين معاصرينا من البشر، بعبقريته وإرادة النصر عنده وصلابته»(٣٢).

ميخليس لا يذكر، طبعاً، «أسلوبه» هو في تهيئة «الحماس الهجومي» في القرم ربيع ١٩٤٢، حين منع حفر الخنادق العميقة وأعلن للضباط الذين جربوا الاعتراض على موقفه:

ـ الخنادق هي نفسية المدافعين. عما قريب سنبدأ الهجوم. الرفيق ستالين يضع أمامنا مهمة تحرير القرم في أقرب فترة ممكنة...

لست أنوي دراسة «فصول» محددة من الحرب لتناول دور القائد الأعلى فيها (سوف أتوقف مفصلاً فقط عند معركة ستالينغراد). أود الإشارة إلى أن البراعة التكتيكية، بعد معركة ستالينغراد، ازدادت ليس فقط لدى الضباط وهيئات الأركان بل ازدادت أيضاً لدى القيادة العليا، من خلال فعالية عملها، إذ استطاع ستالين أن يمنح دينامية أكبر للنشاط الاستراتيجي لدى القيادة، فأصبحت قراراتها هادفة ومدروسة أكثر من ذي قبل.

الحرب معلّم قاسٍ. ملايين الضحايا... الهزائم والكوارث، من جهة، وشجاعة المواطنين السوفييت التي لا نظير لها، من جهة أخرى، كل هذا ما كان بوسعه إلاّ أن يتمخض عن إمساك القادة العسكريين بناصية فن القتال. لكن دروس الحرب دامية ولم تمضِ بلا أثر حتى لدى ستالين، حيث أصبح أكثر تروّياً في خطواته التي بدت الآن مدروسة وهادفة. بقي أسلوبه، طبعاً، نفس أسلوب العنف والقساوة والقمع، خصوصاً تجاه من يفشل. كان شيء ما يتغير في ستالين مع مر السنوات، لكن جوهره الديكتاتوري القيصري كان يتوطد أكثر وينصقل أكثر. لكن رؤية ذلك الجوهر كانت صعبة آنذاك، لأنه كان يبدو في أعين الجميع بمثابة رسول ومنقذ سيحمل النصر. للحكم على طابع سلوكه أثناء العمليات الهجومية سنستعين بفقرات من توجيهاته وإيعازاته وأوامره خلال الطورين الثاني والثالث (الأخير) من الحرب:

«الجبهة الجنوبية.

إلى الرفيقين يريمنكو وخروتشوف.

نسخة إلى الرفيق مالينوفسكي.

احتلال باتايسك من قبل جيوشنا يتمتع بأهمية تاريخية كبيرة. مع احتلال باتايسك أغلقنا سدادة القارورة على جيوش الخصم في شمال القفقاز ولن نمنح أي مخرج نحو روستوف وتاغانروغ والدونباس لـ ٢٤ كتيبة المانية ورومانية. يجب

محاصرة العدو في شمال القفقاز وإبادته كما تجري الآن في ستالينغراد محاصرته وإبادته....

١٩٤٣/١/٢٣ السادسة وثلاثون دقيقة

ستالين

تم تأكيد البرقية هاتفياً. التوقيع: بوكوف»[٣٣].

للأسف، كان تكرار ستالينغردا صعباً. لم تكن رغبة ستالين مدعومة لا ببراعة الجيوش السوفييتية ولا بما يكفي من الإمكانيات: عبَر جزء من جيش فيرماخت الأول إلى الدونباس عن طريق روستوف، بينما تراجع الجزء الباقي إلى شبه جزيرة تامان والحوض الأسفل لنهر كوبان...

«الجبهة الجنوبية الغربية.
إلى الرفيق فيودوروف (فاتوتين).

بدلاً من الخطة التي تقترحونها للعملية، يفضل اعتماد خطة أخرى ذات مهام محدودة، لكنها أكثر قابلية للتنفيذ في اللحظة الراهنة. المهمة العامة للجبهة في الفترة القريبة هي عدم السماح بتراجع الخصم نحو دنيبر وبيتروفسك وزابوروجيه وبذل كل جهود الجبهة لدفع مجموعة الخصم من دونيتسك إلى القرم ثم إغلاق المعابر في بيريكوب وسيفاش وعزل تلك المجموعة عن باقي جيوش العدو في أوكرانيا. بدء العملية بأسرع ما يمكن. إرسال قراركم حول الموضوع إلى الهيئة العامة للأركان لأخْذ العلم.

١٩٤٣/٢/١١ الرابعة وخمس دقائق.
أمليت هاتفياً من قبل الرفيق ستالين.

فاسيليف (ستالين)
التوقيع: بوكوف»[٣٤]

نص البرقية يجعلنا نتحسس ثقة ستالين الكاملة بما يفعله. فهو ينحّي بسهولة خطة فاتوتين ويفرض خطته الخاصة، دون دراسة تمهيدية مع الهيئة العامة للأركان. سابقاً لم يكن ستالين يتخذ خطوات كهذه فردياً، بل يعتمد على الهيئة العامة للأركان. أما الآن فهو قادر على اتخاذ قرارات كبيرة ومسؤولة بشكل مستقل، مع أن حكمة تلك القرارات قد تخضع للنقاش: هنالك آراء مختلفة حول تقويم فكرة «دفع مجموعة الخصم» إلى القرم و «إغلاق» المعابر...

كان ستالين يتعلم قيادة الأعمال الهجومية ويريد من الجميع أن يتعلموا أيضاً بمبادرة منه: أُرسلت إلى الجيوش أكثر من رسالة توجيهية تقضي بأن يتم اكتساب حثيث لتجربة القتال الهجومي. هنا أحدى تلك الوثائق، وهي موجهة إلى قادة الجيوش في أيار (مايو) ١٩٤٤:

«في كل الجبهات، تنظيم دراسة للعمليات والمعارك الأكثر نموذجية بين تلك التي جرت! إجراء الدراسة يتم على مستوى قادة الجيوش وقادة الأركان فيها، إضافة

إلى قادة الفيالق وقادة صنوف الأسلحة في كل جبهة وجيش، تحت إشراف قادة الجبهات، وعلى مستوى قادة الكتائب والأفواج وقادة صنوف الأسلحة فيها، تحت إشراف قادة الجيوش. إلى جانب تحليل النواحي الإيجابية للعمليات القتالية أثناء هذه الدراسة، كذلك يجب الكشف عن النواقص التي ظهرت في تنظيم وسير العمليات والمعارك، بما في ذلك العيوب في استخدام صنوف الأسلحة، إضافة إلى تقديم توجيهات بشأن السبل الكفيلة بتفادي تلك النواقص والعيوب»(٣٥). من يدري، فلربما إن تلك الدراسة، إلى جانب التجارب الدامية، قد ساعدت الجيوش السوفييتية على الاجتياز الظافر لآخر سنة من سنوات الحرب.

... ستالين في طريقة إلى القصر الريفي عند الصباح. عيناه شبه مغمضتين وهو يقلّب في الذاكرة العمليات العسكرية التي «جرت» عبر دماغه وأعصابه وإرادته. الزمن يمضي خفيف الخطى، لكن كل عملية، تقريباً، ارتبطت لديه بذكريات ما أو بقلق أصبح الآن في ذمة الماضي أو بشعور دافيء تجاه النجاح. وبالفعل: كم من العمليات العسكرية مرّ عبر وعيه في عام ١٩٤٣، وخصوصاً في عام ١٩٤٤، وعام النصر في ١٩٤٥! لا، حتى في الذهن يعجز ستالين عن تذكرها جميعاً. كانت فكرة تثقب وعيه: تلك العمليات، دفاعية كانت أم هجومية، هي إطار ولوحة الحرب الشاسعة بكل معاركها وقتالها وهزائمها وانتصاراتها،... وكل هذا مرّ عبر العقل والقلب، فشيّب «الأعلى» الذي لم يعد شاباً بالأصل. إنه يفكر الآن بنفسه، بمكانه، وليس بالشعب وبملايين مواطنيه الذين أيضاً «مرّوا» بهذه الحرب ليس فقط عبر العقل والقلب، بل وكذلك عبر نهر من دمائهم، فدفعوا ثمن النصر ملايين الأرواح. لقد تعوّد منذ زمن على التحكم بحياة ملايين من الناس: هم جمهور وهو زعيم. إنه مقتنع: هكذا حال الأمور على مرّ التاريخ، وهكذا سيكون.

لقد اطّلعتُ على مئات ومئات من الوثائق العملياتية التي أملاها أو وقّعها ستالين خلال سنوات الحرب الأربع، ولم أجد ولا وثيقة تنص على توجيه بصَوْن أرواح البشر أو بعدم زجهم في هجمات غير مهيأة أو بالسهر على حفظ أرواح المواطنين... لا، لستُ دقيقاً في كلامي، إذ توجد وثيقة من هذا القبيل لا تشبه الأسلوب المميز لستالين:

«إلى قائد الجبهة الغربية، الرفيق جوكوف.
إلى عضو المجلس العسكري للجبهة الغربية، الرفيق بولغانين.
إلى نائب قائد الجبهة، الرفيق رومانتكو.
إلى قائد الجيش الـ ٦١، الرفيق بيلوف.
إلى قائد الجيش الـ ١٦، الرفيق باغراميان.
١٧/٨/١٩٤٢. الساعة ٢٢٠ تماماً.

تفيد بلاغات أركان الجبهة الغربية أن كتائب الرماة الـ ٣٨٧ والـ ٣٥٠ والـ ٣٤٦ من قوام الجيش الـ ٦١ تتابع القتال في ظروف الحصار، ورغم الإيعازات المتكررة من القيادة العليا، لم يجرِ تقديم المساعدة لها حتى الآن. الألمان لا يتركون قطّ وحداتهم

التي يحاصرها الجيش السوفييتي، بل يحاولون، بكل الإمكانيات والسبل، ومهما بلغ الثمن، أن يذهبوا إليها في حصارها وينقذوها. أما القيادات العسكرية السوفييتية، فيجب أن يكون لديها من الشعور الرفاقي تجاه وحداتها المحاصَرة ما هو أكبر بكثير مما لدى القيادات الألمانية الفاشية. لكن الواقع يبين أن القيادات العسكرية السوفييتية تبدي تجاه وحداتها المحاصرة حرصاً أقل مما يبديه الألمان. هذا يترك لطخة عار على القيادة العسكرية السوفييتية...»(٣٦).

لكن حتى هنا، يدعو ستالين إلى الحرص على الوحدات المحاصرة، قبل كل شيء، لأن الألمان يفعلون ذلك. إنه دافع لا يبدو غريباً فحسب، بل ومهيناً أيضاً: احرصوا على مواطنيكم المقاتلين لأن العدو يحرص على مقاتليه... إن الشعور الرفاقي كان قوياً لدى الكثيرين من قادة الجبهات والجيوش والعاملين السياسيين...، كما كان قوياً الألم لفقدان رفاقهم في السلاح والمرارة التي تركتها الخسائر غير المبررة...، لكن ليس دائماً تسنح الفرص لإبداء تلك المشاعر.

غالباً ما يرى الناس في أعمال ستالين نتيجتها النهائية فقط، والنتيجة كانت هي النصر. هذا الأمر منح بعض المؤلفين الأجانب ذوي النوايا الحسنة أساساً لتقويم الفن القيادي العسكري لدى ستالين بدرجات رفيعة. في كتابه الممتع «روسيا لي» يقول بيتر أوستينوف: «ربما ما من شخص آخر سوى ستالين كان بوسعه أن يفعل نفس ما فعله في الحرب، بذلك القدر من القساوة والمرونة والطموح الهادف، الذي كان يتطلبه التدبير الناجح للحرب التي اتخذت مقاييس لا إنسانية»(٣٧). من الصعب الموافقة على فكرة «ما من إنسان آخر»، إلا إذا كان المقصود هو «ذلك القدر من القساوة». عندئذ، نعم، ربما. أما فيما يخص «المرونة والطموح الهادف»، فإن روسيا ما كانت أبداً فقيرة بالمواهب، التي بقيت تولد وهم يبيدونها.

... حين كانس ستالين يقلّب في ذاكرته العمليات العسكرية، يتوقف لدى اثنتين منها. عمليتان قريبتان من قلبه: عملية ستالينغراد وعملية برلين. فبعد الأولى، أحس ليس فقط بأنه زعيم من جديد، بل وبأنه قائد عسكري. والثانية كانت تتويجا لمعركة مريعة من حيث توترها، وحماوتها، ودامت أربع سنوات. كان ذلك ظفراً محا على الفور ـ كما خُيّل لستالين ـ كل الأخطاء والهفوات وبرّر التضحيات التي لا حصر لها.

كانت الانتصارات كثيرة بعد الهزائم الكثيرة. لكن ستالينغراد، المدينة التي تحمل اسمه، أصبحت نقطة الانعطاف ليس فقط في الحرب الوطنية العظمى، بل في الحرب العالمية الثانية ككل.

لمعة ستالينغراد:

هناك عشرات الكتب حول معركة ستالينغراد، وأنا لا أنوي هنا أن أرسم من جديد لوحة هذه العملية الشهيرة في الحرب العالمية الثانية، فهي معروفة جيداً. مهمتي متواضعة أكثر: تبيان دور القائد الأعلى في هذه المعركة الانعطافية.

بقي ستالين طوال الوقت يحتفظ بالقوى الأساسية في وسط الجبهة السوفييتية ـ الألمانية، كما سبق الحديث (المحور الغربي). لكن، حين قام الخصم، في النصف الثاني من حزيران (يونيو) ١٩٤٢، بتجميع قوات ضخمة وبدأ الهجوم على المحورين الجنوبي الغربي والجنوبي، تبين أن الاحتياطيات ضرورية هنا حصراً. في بداية تموز (يوليو) تم اختراق ترتيباتنا الدفاعية عند ملتقى جبهة بريانسك والجبهة الجنوبية الغربية إلى عمق بالغ. كانت نتيجة الضربة القوية ومناورات الجيوش الألمانية المهاجمة هي محاصرة الجيشين السوفييتيين الـ ٢١ والـ ٤٠.

أرسل ستالين فاسيليفسكي إلى الجنوب على وجه السرعة، لكن تقاريره لم تكن تدعو إلى تعزية النفس. خلال الأسبوع التالي، وسّعت القوات الألمانية الخرق ليصبح ٣٠٠ كم، وتقدمت مجموعاتها الضاربة مسافة ١٥٠ ـ ١٧٠ كم، لتحيط من الشمال بكل القوى الأساسية لجبهتنا الجنوبية الغربية. ثم تلت ضربة أخرى للألمان في منطقة كانتيميروفكا. حين نظر ستالين إلى خريطة الموقف، بعد تقرير قُدّم إليه، رأى بكل وضوح شبح حصار كارثي جديد للجبهة الجنوبية الغربية، كما في عام ١٩٤١. لكنه الآن قد تعلم نوعاً ما، ولم يعترض، بعد التمحيص، على سحب الجيوش الـ ٢٨ والـ ٣٨ والـ ٩ في الجبهة الجنوبية الغربية والجيش الـ ٣٧ في الجبهة الجنوبية. وأصدرت القيادة العليا إيعازاً بالإعداد الفوري لخط دفاع ستالينغراد.

كانت لدى ستالين فرصة للانتباه إلى نقص حذره. ففي أيار (مايو)، بعد كارثة خاركوف، اقرح فاسيليفسكي تقوية الاحتياطي الاستراتيجي على المحورين الجنوبي والجنوبي الغربي، لكن «الأعلى» لم يوافق: كان خائفاً على موسكو. الآن يضطر إلى نقل أعداد هائلة من الوحدات على وجه السرعة وفي ظروف أزمة استراتيجية حادة، يزيد من حدتها أن تراجع العديد من التشكيلات كان يجري عشوائياً. كان الكثير من الوحدات مقطوع الصلة مع أركانه أياماً عدة، والجنود يثيرون أعمدة من الغبار في مسيرهم، فراحت طائرات «يونكرز» و «ميئسرشميت» تهيمن على السماء فوقهم، حتى إن انطباعاً بدأ يتكون وكأن أسوأ أحوال عام ١٩٤١ قد تتكرر. توجد في الأرشيفات سلة كاملة من برقيات ستالين المليئة بالوعيد والموجهة إلى قادة الجبهات: رتبوا شؤون الوحدات المنسحبة، عليكم الصمود حتى الموت! لا تراجع دون أوامر... وهنا بعض المقتطفات:

«ستالينغراد.

إلى فاسيليفسكي ويريمنكو ومالينكوف.

لقد اخترق الخصم جبهتكم بقوى قليلة، ولديكم ما يكفي من الإمكانيات لتدمير القوى التي قامت بالاختراق. اجمعوا سلاح الطيران في الجبهتين، وأنيخوا على الخصم في منطقة الاختراق بطائراتكم. عبئوا قطارات مدرعة وأرسلوها عبر الخط الحديدي الدائري لمدينة ستالينغراد. استخدموا الدخان لتخويف العدو. قاتلوه في منطقة الاختراق ليس فقط نهاراً، بل وليلاً أيضاً. استخدموا قوات المدفعية وقوات (ربس) بأوسع ما يمكن.

لوباتين يحبط جبهة ستالينغراد للمرة الثانية بسبب عدم درايته وتباطؤه. خذوه تحت رقابة أمينة ونظموا حزاماً ثانياً وراء جيشه.

الشيء الرئيسي هو عدم الوقوع في الهلع وعدم الخوف من وقاحة العدو والاحتفاظ بثقتكم بالنصر.

أمليت من قبل الرفيق ستالين هاتفياً ستالين

٢٣/٨/١٩٤٢. الساعة ١٦ و ٣٥ دقيقة

التوقيع: بوكوف»(٣٨)

أحس ستالين من جديد وكأنه في تساريتسين. يومها أيضاً علّق آماله على القطارات المدرّعة، واقترح «الإناخة» والقتال ليل نهار واستخدام المدفعية بأوسع ما يمكن. الموقف يخرج من يد «الأعلى».

بعد الحرب كان ستالين يتذكر أحياناً: آب (أغسطس) ١٩٤١ وآب ١٩٤٢ كانا بالنسبة له مريعين وصعبين جداً. لكن، كم كان قبلاً يحب هذا الشهر! شهر آب في سوتشي أو ليفاديا أو موخالاتكا... أزهار المغنولية والزيزان،... الهمس اللطيف للبحر وسحر الليالي الجنوبية... كم كل ذلك بعيد عنه الآن، حيث تراجعت تلك الأشياء إلى غيهب الماضي البعيد بلا رجعة... من يدري ما الذي كان يفكر به الديكتاتور؟ كل ديكتاتور يعاني من الوحدة في باطن روحه، مهما كثر عدد الناس المحيطين به، فهو يخشى دائماً أن يفتح ولو قليلاً نوافذ روحه. عندئذ سيرى الناس فوراً موضع الضعف الأخلاقي المطلق خلف النوافذ: ثقل السلطة يسحق كل ما هو إنساني في نفس الحاكم ـ الفرد.

في أيام تموز (يوليو) وآب (أغسطس) ١٩٤٢، التي نحن بصددها، كان رئيس الهيئة العامة للأركان فاسيليفسكي يذهب إلى ستالين كل مرة كمن يذهب إلى الذبح. فقد كان «الأعلى» لا يخفي النزق الذي بداخله، وغالباً ما يتخذ قرارات فيها اندفاع ويرسل أكثر من برقية بنفس المضمون حول نفس الموضوع. مرة أخرى بدأت رقصة التبديل العشوائي في تنقيل القادة العسكريين. أوامره تصدر على منوال واحد: الصمود حتى الموت! ستالين غير قادر، أثناء النقاش، على إسداء نصيحة معقولة أو اتخاذ قرار. والجيوش في تراجع مستمر... ذات مرة، بعد أن انتهى فاسيليفسكي من تقديم تقريره، راح ستالين يذرع أرض المكتب بعصبية، يروح ويجيء بمحاذاة الطاولة التي فُرشت عليها الخريطة. ثم تحدث فجأة عن الشؤون الميدانية:

ـ لقد نسي الناس في الجيوش الأمر رقم (٢٧٠). نسوا! خصوصاً في هيئات الأركان! هيئوا أمراً جديداً إلى الجيوش بفكرة أساسية: «التراجع دون أوامر من فوق ـ جريمة سوف تعاقب بكل صرامةِ زمن الحرب...».

ـ متى أُقدم لكم النصّ؟

ـ اليوم! حالما يصبح جاهزاً، تعالوا إلي.

في مساء ٢٨/٧/١٩٤٢، كان ستالين قد نقّح جذرياً النصر المقترح وأملى بعد

التوقيع «أمر وزير الدفاع رقم (٢٢٧)»، الذي بقي مخبأ لفترة طويلة بعد الحرب في الأرشيفات العسكرية، لكنه الآن معروف وتم نشره على نطاق واسع. لن أورد هنا نصه الكامل، بل سأتوقف فقط عند فقراته التي تعكس لمسات ستالين وصياغته واختياره الشخصي للكلام.

«العدو يرمي إلى الجبهة المزيد والمزيد من القوى غير آبه بخسائره الكبيرة، يداهم ويندفع إلى عمق الاتحاد السوفييتي ويحتل مناطق جديدة وينهب مدننا وقرانا مدمراً إياها ويغتصب أعراضنا ويقتل المواطنين. وقد سار جزء من القوات الجنوبية خلف المذعورين الجبناء فترك روستوف ونوفوتشيركاسك دون مقاومة جدية ودون أوامر من موسكو، فجلبت العار على راياتها القتالية...

بعض الناس من الأغبياء في الجبهة يعزّون أنفسهم بأحاديث حول أن بوسعنا أن نتراجع أكثر نحو الشرق، فأراضينا واسعة وسكاننا كثيرون وسيكون لدينا فائض من القمح دائماً. بذلك يريد هؤلاء تبرير سلوكهم المخزي على الجبهة. لكن هذه الأحاديث مزيفة من أصلها وكاذبة وهي لمصلحة أعدائنا وحدهم.

بعد خسارة بروسيا البيضاء وأوكرانيا والبلطيق ومناطق أخرى، أصبحت أراضينا أقل. وبالتالي أصبح السكان أقل. والقمح والمعادن والمصانع والمعامل أقل أيضاً. لقد فقدنا حوالي سبعين مليوناً من السكان وأكثر من ٨٠٠ مليون بود (وحدة وزنية قدرهة ١٦,٣٨ كغ ـ المترجم) سنوياً، وأكثر من عشرة ملايين طن من المعادن سنوياً. الآن لم يعد لدينا غلبة مقابل الألمان لا في السكان ولا في احتياطي القمح. إن المزيد من التراجع يعني الهلاك لنا والهلاك لوطننا.

ولا خطوة إلى الوراء! هذا ما يجب أن يكون شعارنا الرئيسي بعد الآن...».

وشدد ستالين على هذه الكلمات ببضعة خطوط.

«لا يمكن بعد اليوم تحمُّل وجود الضباط والقوميسارات والموجهين السياسيين الذين تلجأ وحداتهم إلى ترك مواقعها طوعاً. لا يمكن بعد اليوم تحمُّل هؤلاء الذين يسمحون لحفنة من المذعورين أن تحدد وضع الأمور في ساحة القتال وأن تجرّ بقية المقاتلين خلفها للتراجع وكشف الجبهة أمام العدو. يجب إبادة المذعورين والجبناء في المكان مباشرة».

ثم يتلو مقطع اهتم به ستالين على نحو خاص:

أ ـ يتوجب القضاء ـ بلا قيد أو شرط ـ على الأمزجة الانهزامية.

ب ـ يتوجب ـ بلا قيد أو شرط ـ إقالة قادة الجيوش الذين يسمحون بالتراجع التلقائي للقوات من مواقعها وإرسالهم إلى القيادة العليا كي يتم تقديمهم إلى محاكم عسكرية...

جـ ـ تكوين فصائل للمعاقبة في كل جبهة (من فصيل إلى ثلاثة، حسب الموقف، وكل فصيل يضم ٨٠٠ شخص) لكي يُرسل إليها الضباط والموجهون السياسيون المعنيون...».

ثم يعود ستالين إلى فكرة عرضها، لأول مرة، في برقية إلى الجبهات بتاريخ ١٢/٩/١٩٤١، حول «وحدات الردع»[٣٩]. والآن يعرض ستالين تلك الفكرة كما يلي:

«يجب أن تتشكل في كل جيش من ثلاث إلى خمس وحدات ردع، مسلّحة جيداً، تضم كل منها حتى ٢٠٠ شخص، وأن توضع تلك الوحدات في المؤخرة خلف الكتائب غير الصامدة ويتم إلزامها بأن تطلق النار على المذعورين والجبناء في حال انتشار الهلع والتراجع العشوائي... تشكيل فصائل للمعاقبة... الدفع بها إلى الأماكن الصعبة من قتال الجيش، لإعطاء المعاقَبين إمكانية التكفير عن جريمتهم أمام الوطن بالدم...

يجب قراءة هذا الأمر في كل السرايا والفصائل والبطاريات والأسراب والقيادات وهيئات الأركان.

وزير الدفاع
ستالين»

بعد يومين تركت وحدات الكتيبة الـ١٩٢ والكتيبة الـ ١٨٤، وهما حديثتا التكوين، مواقعها في منطقة مايوروفسكي، دون أوامر، وتراجعت إلى فيرخني ـ غولوبايا، فاعتبر ستالين أن الأمر رقم (٢٢٧) لم يصل إلى جيوش الجبهة، فطيّر برقية متوعدة إلى قائد الجبهة غوردوف وعضو المجلس العسكري خروتشوف:

١ ـ بلّغوا القيادة العليا فوراً ما هي الإجراءات المتخذة من قبل المجلس العسكري بموجب أمر وزير الدفاع رقم (٢٢٧) بحق المذنبين في التراجع والمذعورين والجبناء...

٢ ـ شكلوا خلال مدة أقصاها يومان... وحدات ردع (من ٢٠٠ شخص كل وحدة)... إخضاعها للمجالس العسكرية في الجيوش من خلال «الأقسام الخاصة». على رأس وحدات الردع يجب تعيين رجال الأمن الأكثر تجربة من الناحية القتالية.

الابلاغ عن كيفية التنفيذ في موعد أقصاه صباح ٣/٨/١٩٤٢.

ستالين، فاسيليفسكي

عُرضت على الرفيق ستالين وأكدها هاتفياً.

التوقيع: فاسيليفسكي»[٤٠]

نعم، كان الذعر، كما في عام ١٩٤١، يهيمن على بعض الوحدات العسكرية. فقبل الحرب لم يكن يولى الاهتمام الكافي لضمان الصلابة النفسية لدى المقاتلين خصوصاً وإن طاقم الضباط كان قد أبيد تقريباً. لكن من المعروف أن ظروف التوتر الشديد، حين يفقد الناس ثقتهم بإحراز الهدف، تستدعي رد فعل سلبياً على الصعيد النفسي تجاه الخطر. وهذا قد يكون له عواقب وخيمة يصعب التحكم بها: تستيقظ لدى البشر أحاسيس القطيع، فيفقدون المقدرة على تقدير الوضع عقلانياً. كان ستالين يحاول أن يحل هذه المسألة بواسطة «وحدات الردع»، وفصائل المعاقبة، دون أن يولي ما يلزم من الاهتمام لرفع معنويات الضباط والموجهين السياسيين في ظروف التوتر الاستثنائي.

لست أدري إن كان ستالين قد قرأ كتاب نابليون «أفكار»، الذي كان لينين في حينه قد وضع خط تشديد تحت عبارة فيه: «في كل معركة هناك لحظة، حين يشعر أكثر الجنود شجاعة ـ بعد اشتداد التوتر ـ الرغبة في الفرار. وهذا الهلع يولده غياب ثقة الجندي بشجاعته. عندئذ يكفي حادث تافه أو ذريعة ما لكي يعيد له تلك الثقة. والفن العسكري الرفيع يكمن في خلق ذلك الحادث أو تلك الذريعة»(٤١). إن الشجاعة الشخصية للضابط وحسن الإدارة لديه وثقته بنفسه وأوامره الحازمة، كل ذلك يلعب دوراً كبيراً في اللحظة المذكورة. ففي أي موقف، لا يُعتبر الإنسان مهزوماً طالما أنه لم يعتبر هو نفسه مهزوماً... طالما أن إرادة الصراع عند المقاتل لم تتكسر، يبقى قادراً على أداء واجباته. الضباط والموجهون السياسيون وحدهم الذين كان بوسعهم، ومن واجبهم، أن يعيدو للمقاتل المذعور ثقته بنفسه؛ لكن ستالين، كما في السابق، يعوّل على إجراءات الترهيب والتأديب، فهو يعتبر إن الثقة بالنفس يمكن أن تعود إلى المقاتلين نتيجة انتصارات جديدة. هذا صحيح بحد ذاته، لكن الانتصارات لم تكن تأتي، وكان شبح الكارثة الجديدة لا يبتعد بل يقترب.

لنتذكر هنا، مرة أخرى، أن تروتسكي كان ينظر إلى مواقف كهذه كما يفعل ستالين: «لا يمكن قيادة جمهور من الناس نحو الموت، إذا لم يكن في حوزة القادة العسكريين عقوبة الإعدام. يجب أن يوضع الجنود بين احتمال الموت من الأمام والموت الحتمي من الخلف»(٤٢).

هكذا، ستالين أيضاً (وهو طبعاً لا يستشهد بتروتسكي): الموت في الأمام شيء مشرّف والموت في الخلف مخزٍ!

حين كانت الوحدات تخرج من الحصار، يجري فوراً إرسال الضباط إلى معسكرات خاصة تابعة لوزارة الشؤون الداخلية. وبما أن الوضع الناشيء في تموز (يوليو) ـ آب (أغسطس) ١٩٤٢ كان حرجاً، مضى ستالين إلى أبعد من ذلك:

«إلى قائد قوات منطقة موسكو العسكرية.
إلى قائد قوات منطقة الفولغا العسكرية.
إلى قائد قوات جبهة ستالينغراد.
إلى وزير الشؤون الداخلية بيريا.

لأجل توفير الإمكانية للضباط الذين ظلوا فترة طويلة على الأراضي المحتلة من قبل الخصم ولم يشاركوا في قوات الانتصار، لكي يبرهنوا إخلاصهم للوطن بقوة السلاح، نأمر بما يلي:

في موعد أقصاه ٢٥ آب (أغسطس) تكوين وحدات اقتحامية من قوام الضباط الموجودين في المعسكرات الخاصة لوزارة الشؤون الداخلية...» ـ ثم تلي تسميات المعسكرات الخاصة ـ «... وتحدد أعداد المقاتلين في التشكيلات الاقتحامية: ٩٢٩ شخصاً في كل منها... الغرض من الوحدات هو استخدامها لأجل القتال على أكثر قطاعات الجبهة سخونة». كما يتضمن التوجيه تفاصيل دقيقة جداً، حتى حول الحدادين

والخياطين والحذّائين، ويحدد المقصودين بـ «قوام» المعسكرات الخاصة: «القادة السابقون، ابتداءاً من قائد فصيل فما فوق»[٤٣].

في أغلب الحالات كان ذنب هؤلاء الناس هو أنهم خرجوا من الحصار الذي وقعوا فيه نتيجة ظروف قتالية غير مؤاتية أو غباء القيادات الميدانية وهيئات الأركان المحلية. مع ذلك، تدل الوثائق أن الضباط «السابقين» شعروا بسعادة لا حدود لها لنبأ استخدامهم «على أكثر قطاعات الجبهة سخونة»: أكثرهم سيلقون حتفهم هناك، وبموتهم يحصلون على أمل أن يغسلوا العار ويدرأوا العقاب عن أنفسهم وعن عوائلهم. أضف إلى ذلك أن التوجيه يقول: «في حال ظهور شهادات جيدة بحقه، يمكن تعيينه في الجيوش الميدانية لمنصب يعادل رتبة ضابط قائد».

لقد بقيت معركة ستالينغراد في ذاكرة «الأعلى» بمثابة تساريتسين جديدة. فقد لعبت معارك تساريتسين البعيدة دوراً فائق الأهمية في مصيره: الأرجح أن لينين اقتنع بمقدرة ستالين على حل المسائل العملياتية، المتعلقة باتساع الصراع المسلح على جبهات الحرب الأهلية، فقط بعد نجاح ستالين في تساريتسين. وبعد تساريتسين ازداد ستالين ذاته ثقةً بنفسه، واليوم أصبحت ستالينغراد لديه، كما لدى الشعب كله، رمز الصمود في وجه الهجمة اليائسة الجديدة التي شنها العدو.

كانت الأحداث تتطور بسرعة، وجاءت أشهر تموز (يوليو) وآب (أُغسطس) وأيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (أكتوبر) بزيادة في التوتر الذي بلغ الأوج في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢. لكن حتى عندما كان مصير ستالينغراد عالقاً بشعرة، أوكل فاسيليفسكي إلى مجموعة من ضباط الهيئة العامة للأركان أن يعدّوا ـ في سرية بالغة ـ خطة للالتفاف من الشمال والجنوب على مجموعة الاختراق المعادية التي توغلت عميقاً. توجد في الأرشيف الخريطة التي وضع عليها بويكوف لمسات الخطوط الأولية للعملية التي ستشتهر لاحقاً باسم عملية ستالينغراد. لكن ستالين لم يكن على علم بالأمر بعد، والسنة التي أعلنها «سنة تحطيم المحتلين الألمان» كانت تهدد بأن تسفر عن كارثة جديدة. بقي «الأعلى» طيلة أيام لا يغادر مكتبه، ويخلد أحياناً إلى نوم قلق داخل غرفة الاستراحة، قائلاً لـ بوسكريبيشيف:

ـ أيقظني بعد ساعتين...

حين تأخر بوسكريبيشيف ذات مرة، في إيقاظه، شفقة على الرجل المنهك الغارق في النوم، لمدة نصف ساعة فقط، نظر ستالين إلى الساعة وشتم معاونه بصوت خافت:

ـ يا لك من محب للبشر! ليتصل بي فاسيليفسكي فوراً. بسرعة، يا محب البشر الأصلع!

كان وجه بوسكريبيشيف، الذي يمتد ليتحول إلى صلعة كبيرة، لا يوحي بشيء ظاهراً. أصدر المعاون صوتاً خافتاً يشبه كلمة «حاضر!»، واختفى خلف الباب.

اتصل فاسيليفسكي (الذي عاد من ستالينغراد ليومين فقط). ألقى ستالين التحية بجفاف وسأل مباشرة:

ـ هل دخلت الجيوش الـ ٢٤ والـ ٦٦ والأول المعركة؟ هل وصلت الذخيرة (التي

كانت قد نفدت نهائياً في ستالينغراد عند أوائل أيلول)؟

عرض عليه فاسيليفسكي الموقف حتى مساء ٣ أيلول (سبتمبر): أحد جيوش الدبابات الألمانية اخترق الجبهة ليصل ضواحي ستالينغراد... لم يصبر ستالين وقاطعه بعصبية:

ـ أليسوا يفهمون هناك أننا لو سلمنا ستالينغراد يكون جنوب البلد قد عُزل عن المركز وهيهات أن نتمكن من حمايته؟ هل يفهمون أم لا أنها كارثة ليس فقط بالنسبة لستالينغراد؟ كيف نفقد أهم طريق مائي ومن ثم نفط الجنوب؟

انتظر فاسيليفسكي نهاية سيل الغضب لدى «الأعلى» ثم راح يتابع بنبرة توتر داخلي:

ـ كل ما هو صالح للقتال في منطقة ستالينغراد يتم سحبه إلى القطاعات الأكثر خطراً. أظن إن فرص الدفاع عن المدينة لم تنتهِ.

بعد دقائق اتصل ستالين بـ فاسيليفسكي من جديد، لكنه لم يكن موجوداً. ردّ على الهاتف الجنرال بويكوف، فأمر ستالين أن يُعثر فوراً على مكان وجود جوكوف في ستالينغراد (كان جوكوف قد عُيّن نائباً للقائد الأعلى قبل أيام، في ٢٦ آب، وإبلاغه الإيعاز التالي. صمت ستالين برهة ثم بدأ يملي:

«هام جداً.

إلى الجنرال جوكوف.

الوضع حول ستالينغراد تدهور، والخصم على بعد ثلاثة «فراسخ» من المدينة. قد يتم احتلال ستالينغراد اليوم أو غداً إذا لم تقدم المجموعة الشمالية المعونة فوراً. طالبوا قادة القوات المرابطة إلى شمال وشمال غرب ستالينغراد أن يضربوا الخصم فوراً ويتحركوا لمساعدة حماة ستالينغراد. التأخير غير وارد بتاتاً، فالتأخير الآن يساوي الجريمة..ارموا كل الطيران لمعونة ستالينغراد، فالطيران المتبقي في المدينة قليل جداً. بلغونا حالاً باستلامكم للبرقية، والإجراءات المتخذة.

٣/٩/١٩٤٢. الساعة ٢٢ و ٣٠ دقيقة. **ستالين**
أمليت بالهاتف من قبل الرفيق ستالين. **التوقيع: بوكوف»**

وسرعان ما جاء رد جوكوف: في الصباح، ستبدأ الجيوش الـ ٢٤ والأول والـ ٦٦ هجومها. الاستعدادات جارية.

كان جواب ستالين مقتضباً:

«إلى جوكوف ومالينكوف وفاسيليفسكي.

استلمت الجواب. أنتظر منكم التسريع اللاحق للضربة، لكي نتفادى سقوط ستالينغراد.

ستالين

٢٤/٩/١٩٤٢. الساعة ٢ والدقيقة ٢٥.
أمليت بالهاتف من قبل الرفيق ستالين **التوقيع: بوكوف»**(٤٤)



المارشال جوكوف بطل معركة ستالينغراد في صورة له مع كبار الضباط أثناء الحرب. وقد كرمته القيادة الروسية مؤخراً في الذكرى الخمسين للحرب العالمية الثانية.

كان ستالين كل ساعتين أو ثلاثاً يطالب بتقرير من ستالينغراد، ويتحدث مراراً بالهاتف مع جوكوف وفاسيليفسكي الذي أرسله إلى هناك من جديد. أما المحادثات مع مالينكوف، فلم تكن تجلب له الرضى. كان ستالين قد أرسل هذا الرجل الذي لا حول ولا قوة في الشؤون الحربية، فقط بمثابة رقيب يذكر العسكريين بمطالب «الأعلى» ويجمع المعلومات حول عمل هيئات الأركان. لم يحصل لـ مالينكوف أن ذهب إلى الجبهة سوى مرة أو مرتين، أما باقي الوقت، فكان يتواجد إمّا في هيئة أركان أو في مكتب خاص، يستدعي إليه الموجهين السياسيين وقادة «الأقسام الخاصة». كان القادة العسكريون يتعاملون مع مالينكوف بلباقة، وبما أنهم يفهمون الدور الموكل إليه، لا يدخلون معه في أحاديث إلا بمبادرة منه.

خلال أيام ٥ و ٦ و ٧ أيلول (سبتمبر)، نظم جوكوف بضع هجمات من الشمال، لكن الدعم المدفعي والتغطية الجوية كانا دون المطلوب، فلم تتحقق نتائج إيجابية كبيرة. أما ستالين، فبقي يصر على متابعة الهجوم ويطالب باستخدام أفضل لسلاح الطيران، وغير ذلك من مطالبه المعتادة[٤٥].

بعد فترة كان جوكوف مجبراً أن يبلغه هاتفياً بأنه لا يستطيع، انطلاقاً من حجم القوى الموجودة على جبهة ستالينغراد، أن يشق ممراً للاتحاد مع قوات الجبهة

الجنوبية الشرقية. لقد توطدت جبهة الدفاع الألماني بدرجة بالغة على حساب الوحدات الجديدة. والهجمات اللاحقة بنفس القوى وفي نفس المجموعة ستكون بلا هدف، وسيتحتم على الجيوش أن تتكبد خسائر فادحة. استمع ستالين إلى الكلام واستدعى جوكوف وفاسيليفسكي إلى موسكو.

الآن وهنا، حين جلس جوكوف وفاسيليفسكي في موسكو لدى الخريطة، وتشاوروا مع ضباط الهيئة العامة للأركان، توصلا إلى استنتاج أساسي: يجب إنهاك العدو بدفاع صامد والبدء من «تحت البساط» بالإعداد لهجوم شامل كبير تشترك فيه قوى الجبهات كلها. الآن وهنا، قرر القائدان العسكريان أن الضربات الرئيسية يجب أن تسدد إلى جناحي المجموعة الألمانية اللذين تغطيهما الوحدات الرومانية الأقل قدرة على القتال. هكذا ولدت الفكرة التي جاء بها الرجلان إلى «الأعلى» مساء يوم ١٣/٩، تلك الفكرة التي كُتب لها - بعد تجسيدها ميدانياً - أن تصبح أحد الأمثلة الكلاسيكية للعمليات الحربية في الحرب العالمية الثانية، وأحد الأمثلة الباهرة في التاريخ العالمي للفن العسكري. تلك كانت **لمعة**! لكن اللمعة هذه ومضت ليس في عقل ستالين بل في عقل اثنين من القادة العسكريين السوفييت الذين كانت المعارك تزيدهم براعة.

في البداية لم يبدِ ستالين كبير اهتمام بالفكرة، بل لاحظ أن الشيء الرئيسي الآن هو الحفاظ على ستالينغراد، وعدم تمرير الألمان لاحقاً نحو قاميشين. على ما يبدو، فإن ستالين إما لم يقدر مدى الجسارة التي تنطوي عليها الفكرة وإما أنه اعتبرها غير واقعية ضمن الظروف الناشئة. كما قلنا في السابق مراراً، كانت المواهب التنبؤية في تفكير ستالين ضعيفة بالمقارنة مع موهبة التحليل الفوري الراهن. لم يكن الرجل آنذاك قد بلغ لحظة لمعان الذهن. حين تحصل اللمعة كتجلٍ لفكرة أصيلة، مستندة إلى إدراك القوانين والنزعات الباطنية في الواقع، تبقى محجوبة عن بصر المراقب الخارجي. كان أقرب إلى طبيعة ستالين أسلوب التوصل إلى قرار ما بالتدريج، حيث لا يكون للحدس دور كبير. لكنه بعد حين استوعب الفكرة وراح، بإرادته وأوامره وتوجيهاته، يجعل منها فكرته الخاصة، من حيث المضمون ومن حيث الشكل: «قرار ستاليني حكيم».

في نفس اللحظة التي اطلع فيها ستالين على الفكرة الشجاعة الجسورة لاثنين من أهم معاونيه العسكريين (اللذين لولاهما لما استطاع الكشف عن إرادة!)، كانت قد بدأت في ستالينغراد حرب شوارع طاحنة. دخل الألمان إلى المدينة، وعلى مدى شهرين استمرت المعارك ليل نهار بتواتر لا نظير له. لقد كرس الكاتب نيكراسوف لتلك الملحمة البطولية التي سطّرها المقاتلون السوفييت كتابه «في خنادق ستالينغراد» الذي يظل من أفضل الكتب عن الحرب الماضية.

إذا كان المحتلون في بداية هجومهم على المحور الجنوبي الغربي يقيسون وتائر الهجوم بعشرات الكيلومترات، ومن ثم بمجرد كيلومترات، ومن ثم بمئات الأمتار يومياً في شهر أيلول (سبتمبر)، فإنهم، في تشرين الأول (أكتوبر)، كانوا يعتبرون نجاحاً كبيراً إذا تقدموا ٤٠ ـ ٥٠ متراً كل يوم. أما في أواسط تشرين الأول (أكتوبر)، فتوقف تقدمهم نهائياً. تلك كانت اللحظة التي أصبحت تنفيذاً حرفياً للأمر رقم (٢٢٧) بعبارته

الشهيرة «ولا خطوة إلى الوراء!». رغم أن المحتلين زجوا في منطقة ستالينغراد ٢٢ كتيبة ومثلها تقريباً من قوات حلفائها، تورطت آلة فيرماخت العسكرية وتوقفت.

ظهرت لدى ستالين فرصة لالتقاط الأنفاس، لكنه ما كان يسمح بذلك لا لنفسه ولا للآخرين. كان أعضاء لجنة الدفاع والقيادة العليا والوزراء ورجال المخابرات يعملون أياماً وليالي لتنفيذ الإيعازات التي تصدر عن «الأعلى» وتصدر وتصدر. لقد صدق ستالين قابلية الفكرة الشجاعة للتحقيق. على أي حال، لم تكن هنالك طريقة أخرى لفتح الطريق نحو الجنوب الذي أصبح نصف مقطوع من قبل الكتائب الألمانية التي أوغلت حتى ضفاف الفولغا. كما في نهاية عام ١٩٤١، حين كان الألمان يستعدون للسير في مارش عسكري عبر شوارع موسكو، أصبحوا الآن يحلمون بالقفقاز الذي قُضي أمره ـ كما يتصورون ـ وبمخزون النفط. ومن جديد، قام شعبنا وجيشنا ـ من خلال توتر منقطع النظير، يخرج عن دائرة الطاقة البشرية ـ بإنجاز ما هو مستحيل: من تموز حتى تشرين الثاني (يوليو ـ نوفمبر)، اتجهت نحو ستالينغراد، بناءً على قرارات القيادة العليا، ٧٢ كتيبة رماة وستة فيالق دبابات وفيلقاً آليات و ٢٠ لواء رماة و ٤٦ لواء دبابات. كان ستالين يستعجل ويستعجل ويستعجل... كان الكثير من تلك الوحدات يذهب إلى ستالينغراد منقوصاً: نسبة اكتمال الطواقم لا تزيد عن ٦٥٪ ونسبة ملاك المدافع والدبابات ٥٠ ـ ٦٠٪. كذلك تم تقوية الجيشين الجويين الثامن والسادس عشر بناءً على قرارات «الأعلى». وما أن حلّ تشرين الثاني (نوفمبر) حتى فقد الخصم هيمنته في الجو.

إلى جانب اشتغاله بالشؤون العسكرية الأخرى، كان ستالين في تشرين الثاني (نوفمبر) يعود يومياً إلى عملية ستالينغراد المقبلة، التي ستشترك فيها جبهات ثلاث: ستالينغراد والجنوب الغربي والدون. في الهيئة العامة للأركان، أطلقوا على العملية تسمية «أوران» («اليورانيوم» ـ المترجم). كان «الأعلى» صارماً في طلبه بأن تبقى فكرة، وتوقيت وطابع وتسلسل العملية حكراً على عدد معدود من الناس. نعم، معدود بالمعنى الحرفي. وأناط ستالين مهمة تنسيق الأمور بين الجبهات الثلاث بـ فاسيليفسكي.

حين بدأ الهجوم المعاكس في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر)، كان ستالين ـ لأول مرة ـ واثقاً من النجاح. ليس لأن غلبة العدد والعدة متوفرة بعد الجهد الكبير الذي بُذل، بل لأن ما من عملية في الماضي جرى الإعداد لها بهذه العناية وهذا الاتقان. مع أن بعض الشك خامر ستالين قبل البداية بأسبوع: كانت القوى في مجال سلاح الطيران متعادلة، وستالين يوليه ـ كما ندري ـ أهمية استثنائية، وكانت شكوكه جدية إلى حد أنه كان على وشك تأجيل الموعد:

«هام جداً.

إلى الرفيق قنسطنطينوف (جوكوف).

إذا كان الإعداد الجوي للعملية ليس على ما يرام من قبل إيفانوف (يريمنكو) وفيودوروف (فاتوتين)، فإن العملية ستفشل. تجربة الحرب مع الألمان تبيّن أنه يمكن

كسب معركة ضدهم فقط إذا كنّا نتمتع بغلبة في الجو... إذا كان نوفيكوف مقتنعاً أن سلاح الجو عندنا غير قادر الآن على تنفيذ هذه المهام، فمن الأفضل تأجيل العملية لبعض الوقت وتجميع المزيد من وحدات سلاح الجو. تحدثوا إلى نوفيكوف وفوروجيكين واشرحوا لهما هذه النقطة وأبلغوني برأيكم عموماً.

١٢/١١/١٩٤٢، أمليت بالهاتف من قبل الرفيق ستالين.

فاسيليف (ستالين)
التوقيع: بوكوف»[٤٦]

اعتمد ستالين في إجراء العملية على جوكوف كلياً، مانحاً إياه صلاحيات التدقيق في تركيب المجموعات وتقرير الكثير من التفاصيل وتحديد الموعد. لقد أدرك «الأعلى» في أعماق نفسه أن جوكوف يفهم بشكل أعمق منه طبيعة ما يجري والنوابض الداخلية الخفية في الحرب، وزاد من اعتماده على جوكوف لاحقاً. قبل أربعة أيام من البدء بالعملية أرسل ستالين إلى جوكوف من جديد شيفرة يخوله فيها حق التجديد النهائي لموعد العملية:

«هام جداً.
يُسلّم باليد.
إلى الرفيق قنسطنطينوف (جوكوف).

يمكنكم أن تحددوا على رأيكم يوم انتقال فيودوروف (فاتوتين) وإيفانوف (يريمنكو) إلى مسكن جديد، وأن تخبروني بذلك لاحقاً، حين العودة إلى موسكو. إذا كانت لديكم فكرة أن يبدأ أحد منهما انتقاله إلى مسكنه الجديد قبل أو بعد بيوم أو يومين، فإنني أخولكم حق اتخاذ القرار على رأيكم.

١٥/١١/١٩٤٢. الساعة ١٣ و ١٠ دقائق
أمليت هاتفياً من قبل الرفيق ستالين

فاسيليف (ستالين)
التوقيع: بوكوف»[٤٧]

واستخدم جوكوف هذا الحق، حين قرر أن تبدأ قوات الجبهة الجنوبية الغربية وجبهة الدون هجومها (انتقالها «إلى سكن جديد») في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر)، بينما راحت جبهة ستالينغراد «تنتقل إلى مسكن جديد» يوم عشرين منه. في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) كانت مجموعة الخصم في ستالينغراد محاصرة بالكامل.

كان ستالين، عادة، يخلد إلى النوم في الرابعة أو الخامسة صباحاً، لكنه خرج عن هذا العرف أيام ملحمة ستالينغراد: التقارير ترد بتواتر شديد، حتى في السادسة صباحاً. كان «الأعلى» يقترب من النافذة بعينين حمراوين بسبب السهر ويتنشق من الكوة صقيع الصباح الطازج ويحدق في بناء الكرملين المظلم. لقد قرأ في مكان ما أن نجمة الأمل يمكن رؤيتها صباحاً فقط. لكن ستالين لم يكن يميزها في الصباح التشريني المتجمد، ومع ذلك يؤمن: إنها تلمع!

تعلّم ستالين قراءة الخريطة العسكرية بالتدريج. كان يحب الجغرافيا سابقاً،

ويستطيع أن يبقى طويلاً ينظر إلى خريطة البلد وخريطة أوروبا وخريطة آسيا. الآن، أصبح يتعامل مع خرائط خاصة، عسكرية، يرسم عليها ضباط الهيئة العامة للأركان، بسرعة، الموقف العسكري: السهام الزرقاء والحمراء!... الأشرطة المسنّنة التي تشير إلى خطوط الدفاع،... أقواس المناطق التي يتم فيها تجميع القوات الاحتياطية،... الخطوط المتقطعة لأقواس تقدّم الدبابات، والكثير من التسجيلات الإيضاحية. حين رأى ستالين على الخريطة، مساء يوم ٢٣، الحلقة الحمراء الكبيرة لطوق الحصار الداخلي (الجيوش الـ ٦٢ والـ ٦٤ والـ ٥٧ من جبهة ستالينغراد، والجيش الـ ٢١ من الجبهة الجنوبية الغربية، والجيوش الـ ٦٥ والـ ٢٤ والـ ٦٦ من جبهة الدون)، غمره شعور معقد يجمع بين الفرحة والقلق. الفرحة مفهومة: ها قد حصل الأمر أخيراً! وفي ضواحي ستالينغراد! أليس ذلك رمزياً؟ لم يكن يعرف بعد العدد الدقيق للقوات الألمانية المحاصَرة (سيتبيّن أنها تعد أكثر من ٣٣٠ ألف إنسان)، لكنه يفهم: إذا مضت قواتنا حتى النهاية فهذه هي بداية الانعطاف العظيم. أما القلق، فسببه أن ستالين، حين رأى الجبهة الخارجية لطوق الحصار، أحس بأن القيادة الألمانية ستفعل كل ما بوسعها لانقاذ ٢٢ كتيبة من جيشي الدبابات السادس والرابع، المحاصرَين في ستالينغراد. إنه لم ينسَ كيف انتهت قواتنا من عملية المحاصرة في دميانسك، لكنها لم تتمكن من إبادة مجموعة العدو التي داخل الطوق.

هنا أيضاً، كما تبين لاحقاً، انطوى تدمير المجموعة الألمانية المحاصرة على تعقيد أكبر مما كان متوقَّعاً. إن ترتيب جبهة خارجية متينة ليس مسألة بسيطة. بدأ العدو بعملية فك الحصار عن قواته في ستالينغراد، لكنه رُدّ على أعقابه لمسافة ٢٠٠ ـ ٢٥٠ كم غرباً. ومنذ نهاية ١٩٤٢ أصبحت المبادرة الاستراتيجية بيد الجيش الأحمر. لكن جيش باولوس المحاصر تطلب كثيراً من المشاكل معه. ذات مرة جُلبت إلى ستالين ترجمة أمر كان الجنرال باولوس قد وجّهه إلى قواته المحاصرة:

«أمر للجيش.
يتم تبليغه في السرايا.

في الفترة الأخيرة، حاول الروس مراراً أن يدخلوا في مفاوضات مع جيشنا أو وحداته. هدفهم واضح تماماً: تقديم الوعود أثناء المفاوضات حول الاستسلام لكسر إرادة المقاومة لدينا. نحن نعرف جميعاً ما الذي ينتظرنا إذا توقف هذا الجيش عن المقاومة: أكثرنا ينتظره الموت الأكيد إمّا من رصاصة معادية أو من الجوع والمعاناة أثناء الأسر المخزي في سيبيريا. الشيء الأكيد حتماً هو أن من يسلّم منّا نفسه للأسر لن يقيَّض له قط أن يرى أهله وذويه! أمامنا مخرج واحد: القتال حتى آخر طلقة، رغماً عن اشتداد الجوع والبرد. ولذا، فإن أية محاولات للدخول في مفاوضات يجب أن تُرفض وتُترك بلا جواب، كما يجب طرد الرسل برشقات نارية. فيما تبقى سنظل نأمل بالخلاص الذي هو الآن في طريقه إلينا.

الجنرال باولوس
١٩٤٢/١٢/٢٤»(٤٨)

وضع ستالين الترجمة جانباً، وفكر ـ ربما ـ في نفسه: ها هم! على مثل هؤلاء

الجنرالات والضباط والجنود تقوم خطط هتلر: وضعهم ميؤوس منه، لكن يقاتلون. وكيف يقاتلون! ذات مرة، بعد النصر في ضواحي موسكو، روى جوكوف لـ «الأعلى» كيف أنه استجوب بنفسه عدداً من الأسرى الألمان في خريف ١٩٤١، وكيف أنهم أدهشوه بدرجة ثقتهم بالنفس وقناعتهم بصواب هتلر. الروح النازية قوية خصوصاً لدى الجنود والضباط الشباب. في نفس الوقت يجب الاعتراف ـ قال جوكوف له ـ للألمان بحسْن التدريب والانتظام والانضباط والصمود. من الأشياء الهامة جداً لديهم، تلك الانتصارات الكثيرة التي تركوها وراءهم في أوروبا كلها وثقتهم العمياء بتفوقهم العرقي والقومي... كان يطيب لهتلر ترديد قول الفيلسوف نيتشه: لتكن مروءتكم هي الطاعة! فالمحارب الجيد يجد في «يجب عليك...» لذة أكبر منها في «أنا أريد...»، وكل ما هو ثمين لديكم يجب أن تكونوا قد تلقيتم أمراً بشأنه(٤٩). في البداية كان يردد هذه الكلمات هتلر وزبانيته فقط، لكنها أصبحت تكرَّر لاحقاً على لسان الأمة كلها تقريباً، أمة الألمان التي كانت تسير المارش نحو الحرب. كانت تلك ثمالة مهووسة بفكرة كاذبة. إن ملايين المنشورات، التي حاولت الهيئات السوفييتية الدعائية توزيعها فوق الأراضي التي ترابط عليها القوات الألمانية المحتلة، جذبت إليها انتباه الجنود الألمان فقط بعد أن شربوا من كأس الهزيمة في معركة ستالينغراد. انقشاع الرؤية لدى الناس في الحرب لا يأتي من الانتصارات، بل من الهزائم.

يوم كان ستالين يقرأ الوثيقة الموقعة من قبل القائد العسكري الألماني باولوس، لم يكن يعرف (كما لم يكن باولوس نفسه يعرف) أنه بعد سنتين، في تشرين الأول (نوفمبر) ١٩٤٤، سيضع باولوس (الذي أصبح في أيام هزيمة ستالينغراد يحمل رتبة جنرال ـ فيلدمارشال) توقيعه تحت وثيقة أخرى تماماً، لا تزال موجودة في أرشيف ستالين الشخصي، نورد هنا فقرة صغيرة منها:

أيها الألمان.

٢٦/١٠/١٩٤٤

الجنرال ـ فيلدمارشال فون باولوس

لقد شعرتُ أن واجبي أمام الوطن والمسؤولية الخاصة، الملقاة على عاتقي بصفة فيلدمارشال التي أحملها، تلزمني أن أقول لرفاقي في السلاح ولكل شعبنا أنه قد بقي الآن مخرج واحد فقط من وضعنا الذي يبدو بلا مخرج، ألا وهو القطيعة مع هتلر وإنهاء الحرب.

إنه لَدَجَلٌ وقح ما يؤكده السيد هملر حول إن الجنود الألمان يلقون معاملة لا إنسانية في الأسر لدى الروس وإنه يتم إجبارهم تحت فوهات المسدسات بممارسة الدعاية ضد وطنهم. معاملة الأسرى في الاتحاد السوفييتي هي معاملة إنسانية وصحيحة...»(٥٠).

لم يكن باولوس يعرف بعد أنه سيقضي عشر سنوات في الاتحاد السوفييتي. لكن هذا كله سيأتي لاحقاً. أما الآن فجيش باولوس يقاتل.

فقط حين انتهت ملحمة ستالينغراد، حين بقيت أسابيع معدودة لأسر باولوس

وجنرالاته وبقايا جيشه، فقط حينها أدرك ستالين كل أهمية ما تم انجازه. إنه يدرك الآن: ليست المسألة تكمن فقط في إبادة وأسر مئات الآلاف من الجنود الألمان وتحرير أراضٍ شاسعة تم تسليمها بشكل مخزٍ ليدنسها المحتلون منذ صيف وخريف ١٩٤٢، ولا في الصدى العالمي الهائل من انتصار ستالينغراد. بعد ستالينغراد، عادت إلى شعبنا أخيراً الثقة التي لا تُقهر التي ستهز قدرة ألمانيا على متابعة الصراع من أجل النصر. كان ذلك تخماً انعطافياً بالنسبة لستالين ذاته، لأنه ـ بعد ستالينغراد ـ سيتغير داخلياً وسيثق بنفسه كقائد أعلى. لكنه سرعان ما سينسى أن لمعة الفكرة الرائعة، فكرة الهجوم المعاكس، التي ولدت في لحظة الكارثة الجديدة المحدقة، لم تكن لمعته هو. ليس هو المؤلِّف، كما ليس جوكوف وفاسيليفسكي وحدهما. لقد قام الضباط المتواضعون في غرف عمليات الهيئة العامة للأركان بإيصال فكرة جوكوف وفاسيليفسكي إلى حد الصفاء البلّوري: لقد تحولت الفكرة البسيطة البديهية حول محاصرة الخصم، الذي أوغل في أعماق ترتيباتنا الدفاعية، على أيدي هؤلاء الضباط، إلى خطة متناسقة مدروسة حتى أدق التفاصيل.

ولكن! لا توجد في الاستراتيجية أشياء بديهية. يخيّل إليّ أن الروعة في الفكرة ليست النية لمحاصرة المجموعة الألمانية بجهود ثلاث جبهات. كلا، في تلك الحربَ تم تنفيذ عدد غير قليل من محاولات الحصار وعمليات الحصار الفعلي. إن ذروة الذكاء في الفكرة الاستراتيجية لعملية ستالينغراد، برأيي، هي في المقدرة على التوصل إلى هذا القرار في **لحظة الأوج التي كان قد وصلها القتال الدفاعي** الطاحن، الذي ينذر بهزيمة جديدة... أن ترى طائر السعادة، علامة النصر الممكن، حين الحرائق الشاملة فوق ستالينغراد تنبىء بالوضع الميؤوس منه للوحدات والجيوش المقاتلة! لا أحد يدري إذا ما كان مؤلفا هذه الفكرة يشعران ان ما اعتزما القيام به سيساعد كل الشعب على رؤية الملامح العامة للنصر المقبل المشتهى،... الذي كان بعيداً جداً بعد. لقد كانت **لمعة وعي جماعية**.

كما قلنا، لم يقدر ستالين في البداية شجاعة الفكرة. لكن «الأعلى» استطاع أن يقدر الفكرة حق قدرها، لأنها بدت أمام ناظريه تحفة من تحف الفن العسكري. بعد الدراسة المفصلة للأمور على الخرائط العملياتية وجداول الحسابات الطويلة للتجهيزات التقنية والمادية وتحديد النقاط العلاّمة في مناطق سيرافيموفيتش وكليتسكايا وغيرها، جاء جوكوف وفاسيليفسكي ومعهما «الخريطة ـ الخطة»، أعرضَ ستالين عن النظر إليها لأول مرة في تلك الفترة. لقد كان يعيش الفكرة بكل حواسه ويسعى ما أوتي من إيمان أن يؤمن بها. في زاوية الخريطة كلمتان بخط عريض: «موافق. ستالين». في الأسفل، عند حافة الخريطة توقيعا جوكوف وفاسيليفسكي.

حين بدأت تظهر، بعد عام ١٩٤٥، الكتابات الأولى حول بعض العمليات العسكرية في الحرب الوطنية العظمى، أصيب ستالين بدهشة مزعجة لكون المؤرخين يذكرون بين مؤلفي الفكرة ـ عداه هو «مبدع الفكرة الاستراتيجية العبقرية لعملية ستالينغراد الهجومية» ـ كذلك جوكوف، نائبه، وفاسيليفسكي، رئيس الهيئة العامة للأركان وقادة الجبهات: فاتوتين وروكوسوفسكي ويريمنكو وأعضاء المجالس العسكرية: جيلتوف

وخروتشوف وغيرهم. لقد تعود الرجل على أن ستالينغراد وعملية فك الحصار عن لينينغراد والهجوم المعاكس في كورسك وتحرير الضفة اليمنى للدنيبر (أوكرانيا)، مثلها مثل العمليات الختامية في الحرب، هي قبل كل شيء من أفضاله هو كقائد عسكري. لن يستطيع ستالين بعد كل هذا أن يتقاسم أكاليل الغار مع أحد سواه، وهذا سبب عدم الرضى بعد الحرب على جوكوف وبعض القادة العسكريين الآخرين. مع أن لا أحد كان ينوي أن يقاسمه أكاليل المجد. كل ما في الأمر أن أسماءهم كانت أحياناً ترد إلى جانب اسمه كـ «قائد عسكري معصوم» في مقالات وتقارير وأفلام لا تتحدث إلا عنه هو. لم يكن أحد يذكر حتى قادة الجيوش. كان البطل الأساسي للحرب المنصرمة، ألا وهو الشعب، يبدو مجرد خلفية للأعمال الباهرة التي قام بها «القائد العسكري الذي لا يُقهر». مع أن الوثائق والوقائع تؤكد: لقد استطاع يوسف ستالين أن يقوم بدوره كقائد أعلى فقط بفضل وجود قادة عسكريين لامعين في القيادة العليا والهيئة العامة للأركان وفي الجبهات والأساطيل الحربية. إن بلدنا، بما لديه من قدرة حيوية، استطاع أن يبعث من جديد ـ عبر آلام ومعاناة ودم ـ شريحة القادة العسكريين أثناء الحرب. هكذا كان يولد الفن العسكري للحرب الوطنية العظمى. وستالين تعلّم أن يستخدمه.

«الأعلى» والقادة العسكريون

في زمن الحرب، لم يكن «الأعلى» يجد وقتاً لقراءة شيء سوى البلاغات وشيفرة البرقيات والتقارير العملياتية وخطط العمليات العسكرية وتقارير الوزارات والمراسلات الدبلوماسية؛ وربما كانت مكتبته في القصر الريفي والكرملين قد تغطت بالغبار. مع ذلك، فإنه تناول في تلك الفترة بعض الكتب بين يديه. لقد عثرتُ على ملحوظة كتبها إلى ستالين معاونه بوسكريبيشيف، ويورد قائمة بأسماء «كتب حول الفن العسكري». يبدو أن هذه القائمة جاءت بناءً على طلب «الزعيم» نفسه، وهي تحوي خمسة عشر كتاباً لكتّاب روس وأجانب، قدماء ومعاصرين.

على هامش القائمة تبدو دائرة صغيرة أمام بعض هذه الكتب بقلم ستالين نفسه. قد يكون «الأعلى» تصفح هذه الكتب أو غيرها من الكتب التي تتناول القادة العسكريين العظماء. ليس صدفة أن ستالين في بداية الحرب أمر بتعليق صورة لـ سوفوروف وأخرى لـ كوتوزوف في مكتبه بالكرملين. وليس صدفة أيضاً أنه في خطابه القصير أمام العرض العسكري في الساحة الحمراء يوم ١٩٤١/١١/٧، قال متوجهاً إلى الجنود:

«لتكن صورة أجدادنا العظماء الشجعان الهاماً لكم ووحياً في هذه الحرب: ألكساندر نيفسكي، دميتري دونسكوي، كوزما مينين، دميتري بوجارسكي، ألكساندر سوفوروف، ميخائيل كوتوزوف. لتكن إلهاماً لكم الراية الظافرة، راية لينين العظيم»(٥١).

لقد عاد ستالين أكثر من مرة إلى القادة العسكريين العظماء في الماضي، ناشداً

لديهم الثقة بالنصر، التي كان يبحث عنها، ليس في الأفكار الشيوعية، بل في الوعي القومي. وكانت مبادرته هو بالذات بتدشين أوسمة: «سوفوروف» و «كوتوزوف» و «خميلنيتسكي» و «نيفسكي» و «تخيموف» و «أوشاكوف». كان ستالين يفهم أن التقاليد العسكرية تبرز في زمن الحرب بمثابة سبيكة من الأساطير القديمة والشعبية، وبمثابة ينبوع حي للوحي القومي وللشرف والاعتزاز. كما يلفت الانتباه أن شيرباكوف كان يقدم إلى ستالين تقارير خاصة حول تنفيذه للتوجيهات: طباعة وتوزيع الكراريس حول القادة العسكريين الروس القدماء.

مرة أخرى سأكرر: إن صيرورة ستالين قائداً أعلى خضعت لتأثير كبير من قبل القادة العسكريين السوفييت، وخصوصاً أربعة منهم: شابوشنيكوف، فاسيليفسكي، أنطونوف، جوكوف. كان هؤلاء على تعاون وثيق مع «الأعلى» في سنوات الحرب، دائمي الاحتكاك به ويتركون في وعيه أعمق الأثر. كان ستالن يعرف جيداً كل قادة الجبهات وقادة الجيوش، وله صلاة شخصية عديدة مع جميع القادة العسكريين الكبار. إن تحليل وثائق الأرشيفات وكتب المذكرات يسمح لنا بالقول إن ستالين كان يضمر وداً خاصاً تجاه: روكوفسكي، فاتوتين، غولوفانوف، فورونوف، غوفوروف وخروليف. تدل البرقيات والتقارير والتواقيع أن «الأعلى» كان يقدر أيضاً كلاً من: كونيف، ريبالكو، روتميستروف، ليليوشنكو، فيديونينسكي، زاخاروف، إيساكوف، تيموشنكو ومالينوفسكي. من المفهوم طبعاً أن ستالين المنغلق على نفسه، والذي يترك مسافة بينه وبين الناس، نادراً ما كان يبدي وده علنياً. لقد شعر القادة العسكريون مراراً بـ «يده الثقيلة».

إن العديد من القادة العسكريين الذين تم تصعيدهم بسبب العدد الكبير من الشواغر بعد أعمال القمع، لم يبرهنوا في الواقع العملي على أهليتهم لأن يكونوا قادة عسكريين رفيعي المستوى. لقد مارست الحرب اصطفاء صارماً، وراحت تغربل، بلا رحمة، الناس الذين تكشفوا عن ضعف إرادة أو قلة دراية. مع ذلك، كان «المصطفى» الأساسي هو ستالين ذاته، حيث هبط إلى قاع الهرم العسكري، أو أبيد كلياً، عشرات الجنرالات الذين اعتبرهم «الأعلى» مذنبين في هذه الهزائم أو تلك، في هذا الخطأ أو ذاك.

في أواخر أيار (مايو) ١٩٤٠ انعقد اجتماع المكتب السياسي الذي درس قائمة الضباط المرشحين لنيل رتبة جنرال أو أميرال. وصدر قرار بشأن ما يزيد عن ألف ضابط نالوا تلك الرتب المشرفة في ٤/٦/١٩٤٠. عندئذ لم يكن ستالين يدري أن أكثر من مئتين من هؤلاء سوف يصبحون أسرى أو يُقتلون، وأن بضع عشرات منهم سيتم سجنهم بأمر منه شخصياً. لقد ذهبت الحرب ببضع مئات من القادة العسكريين أصحاب تَيْنك الرتبتين، الذين شكلوا شريحة جاءت لتحل محل الشريحة التي أبيدت عشية الحرب. كان هؤلاء وأولئك، على حد سواء، وطنيين مخلصين لوطنهم، لكن ستالين كان يقوّمهم فقط عبر مشوار الولاء لشخصه. تعالوا لنتخيل هذا الخطب الفظيع: مأساة الآلاف من قادة الجيش تقوم في أساسها على ريبة شخص واحد. تصوروا هذا! ولو أنه أوقف آنذاك «فرّامة اللحم» الفظيعة التي بين يديه، لما حصل

الذي حصل. لكن ستالين كان بحاجة إلى وجود نظامه، والعكس أيضاً صحيح؛ كان النظام بحاجة إلى ستالين.

إن «الرباعي» الذي ذكرناه بصدد تأثير القادة العسكريين على ستالين يتكون من أشخاص شغلوا على التناوب إمّا منصب رئيس الهيئة العامة للأركان أو عضو القيادة العليا (أو ممثلها) أو نائب القائد الأعلى. بفضل هؤلاء الناس، استطاع ستالين أن يبرز ويظهر بمثابة قائد عسكري. في ظل محيط من هذا المستوى **كان من الصعب أن لا يبرز** في القيادة العسكرية «القائد الأعلى»، لأن كلاً من الأربعة شخصية عسكرية فريدة. ولا يجوز أن ننكر على ستالين أنه لاحظ ذلك الأمر وقدّره حق قدره. والأهم من ذلك ـ استخدمه جيداً. كان تفكير هؤلاء القادة العسكريين يغذي ـ بالمعنى الحرفي ـ إرادة «الأعلى» وقراراته.

أسمح لنفسي بالقول إن التأثير الأكبر على ستالين (وعلى الثلاثة الآخرين في «الرباعي»: جوكوف وفاسيليفسكي وأنطونوف) قد مارسه **بوريس شابوشنيكوف**. شاءت الأقدار أن لا يرتبط اسم هذا الرجل، شخصياً ومباشرة، بالانتصارات الكبيرة (عدا معركة موسكو) وأن لا يشارك في العمليات الهجومية لسنوات ١٩٤٣ ـ ١٩٤٥، وأن لا يعيش حتى اليوم المنتظر والمشتهى، يوم النصر العظيم. لكن تأثيره الذهبي على شريحة رجال الاستراتيجيا في القيادة العسكرية السوفييتية هو أمر لا شك فيه. ليس صدفة أن يشدد ستالين في قائمة الكتب المذكورة أعلاه على الكتاب الرائع لـ شابوشنيكوف، رجل النظرية والفن العسكري.

تميز المارشال ـ البروفيسور شابوشنيكوف باجتماع صفات موفق: ثقافة عسكرية عالية وثقافة شخصية رفيعة وتجربة قيادية غنية وعمق نظري وجاذبية شخصية بالغة. كان ستالين شخصاً قوياً ذا إرادة، يكبت جميع من يتعامل معهم بسبب أسلوبه القطعي الذي لا يقبل الاعتراض، لكنه حين تعرف على شابوشنيكوف عن كثب، شعر بـ «صِغره» العسكري أمام سعة الاطلاع والمنطق لدى المارشال، وأمام قدرته على الصبر أثناء إقناع الآخرين. لم يكن شابوشنيكوف يتميز بإرادة باهرة، لكنه كان يعوض عن ذلك بعقله الرفيع والمرن والكبير، مما يجعل طبيعة ستالين ـ التي لا تقبل المساومة ـ تتراجع أمام ذهن وصبر وثقافة المدرسة العسكرية الروسية القديمة التي تتمثل بذلك الرجل. كان الجميع على معرفة بموقف ستالين المتميز من شابوشنيكوف. ها هو جوكوف، الذي كان له أن يسمع من ستالين كثيراً من كلام اللوم الجارح ـ بلا مبررات في معظم الأحيان ـ يقول عنه إنه «كان يكنّ احتراماً كبيراً لمارشال الاتحاد السوفييتي بوريس ميخايلوفيتش شابوشنيكوف. كان عندما يخاطبه ليس فقط يناديه باسمه الأول والثاني [علامة الاحترام في اللغة الروسية ـ المترجم]، بل ولا يرفع صوته مطلقاً أثناء مناقشة تقارير المارشال، حتى عندما لا يكون موافقاً معه. كان شابوشنيكوف الإنسان الوحيد الذي يسمح له ستالين بالتدخين في مكتبه»[٥٢]. تلك كانت حالة نادرة من حالات الثقة بأخصائي عسكري، لأن ستالين أباد قبل الحرب جميع الكبار منهم تقريباً.

كان شابوشنيكوف متخصصاً في نظرية إعداد الاحتياطيات الاستراتيجية

والعملياتية، فساعد ستالين كثيراً على التعمق في فن تحريك الاحتياطيات واستخدامها. وحين ترك شابوشنيكوف رئاسة الهيئة العامة للأركان لأسباب صحية وأصبح مديراً للأكاديمية العسكرية العليا، ظل ستالين يتصل به كثيراً ويدعوه إلى اجتماعات القيادة العليا ولجنة الدفاع الحكومية. وكان شابوشنيكوف واحداً من أناس قلة، لا يجد ستالين حرجاً في طلب الايضاحات والنصائح والمشورة منهم. تلك كانت نقطة ضعف الديكتاتور: محبة الاستماع إلى إنسان يعترف له بسوية ذهنية رفيعة. ومع أن تأثير شابوشنيكوف الروحي على ستالين كان جزئياً، لكنه كان. إن ستالين (الذي كان يقف فوق المحيطين به من القادة السياسيين الذين «يهزّون رؤوسهم» له علامة الموافقة و «يحزرون» رغباته) فوجيء بالعثور على شخص ترك لديه هذا الانطباع القوي بسعة اطلاعه ودرايته.

لاحظ شابوشنيكوف مستوى «الهواة» لدى ستالين في الشؤون العسكرية، خصوصاً في الأشهر الأولى من الحرب، فراح يسعى ـ دون المس بكبرياء «الأعلى» بلباقة، ولكن بإلحاح ـ إلى تقديم الاقتراحات باتخاذ هذه الإجراءات أو تلك. في عام ١٩٤١، مثلاً، كانت الجيوش الألمانية عادة تخترق خطوط دفاعنا في مفاصل الالتقاء بين وحدات وتشكيلات جيشنا، وراح هذا الأمر المحزن يتكرر كثيراً. قدم شابوشنيكوف تقريراً بذلك إلى ستالين وشرح له جوهر الأمر. وحين فهم ستالين كنه المسألة، وضع المارشال أمامه نص توجيه من القيادة العامة (رقم ٩٨) يقترح إرساله إلى قادة المحاور والجبهات. يقول النص: «إن قادة الجبهات وقادة التشكيلات والوحدات قد نسوا أن المفاصل كانت دائماً، وستبقى، أكثر النقاط ضعفاً في الترتيب القتالي للجيوش. فالخصم يخترق مفاصل الالتقاء بين وحداتنا بسهولة، لا بل بقوى قليلة في أغلب الأحيان، ويمد أجنحة عبر الترتيبات الدفاعية ثم يدفع الدبابات والمشاة المحمولين للتقدم عبر الشروخ، فيعرّض الترتيبات القتالية في جيوشنا لخطر الحصار ويضعها في موقف صعب...».

ثم يطرح النصّ مهام ملموسة لتأمين حماية المفاصل وإقامة «الحواجز النارية المتراصة عن طريق التنظيم المسبق لتقاطع النيران من قبل الوحدات التي تقاتل على الخط الأمامي والوحدات المرابطة في العمق...»[٥٣].

كان شابوشنيكوف، كما ستالين، يتقيد بمبادىء «النظام القديم». ويعرف ستالين أن المارشال يسمي جلساءه، عادة، بكلمة «يا حمامي» (في أدب الحديث، أيام روسيا القيصرية كانت تستعمل كلمة «يا حمامي» أو «يا حمامتي» كما تستعمل كلمة «يا عزيزي» في العربية ـ المترجم)، وقد كان لدى «الزعيم» العديد من الفرص ليتأكد من اللباقة الفائقة لدى الرجل. في مذكراته، يقول مارشال المدفعية فورونوف إنه حضر ذات مرة تقريراً لـ شابوشنيكوف أمام ستالين. أثناء التقرير قال المارشال إنه، بالرغم من الإجراءات المتخذة لم تَرِدْ أية بلاغات من الجبهتين. فسأله ستالين:

ـ هل عاقبتم الناس الذين لا يريدون إعلامنا عما يدور لديهم على الجبهات؟

أجاب شابوشنيكوف إنه اضطر لإعلان تنبيه لكل من قائدَي الأركان في تيْنك

الجبهتين، وكان تعبير وجهه ونبرته يوحيان بأن عقوبة التنبيه لديه تكاد تساوي عقوبة الإعدام. ابتسم ستالين كالحاً:

ـ التنبيه عندنا عقوبة تتم في كل خلية حزبية. بالنسبة للعسكري هذه ليست عقوبة...

عندئذ ذكّره شابوشنيكوف بتقليد عسكري قديم في روسيا: حين يصدر رئيس الهيئة العامة للأركان تنبيهاً لضابط من مستوى قائد أركان الجبهة، يتوجب على هذا الأخير أن يقدم فوراً طلب الاستقالة من منصبه. نظر ستالين إلى المارشال نظرته إلى مثالي لا آمل في «شفائه»، لكنه لم يقل شيئاً.

كان شابوشنيكوف أخصائياً عسكرياً لامعاً، وأظن إنه كان يدرك عيوب النظام السياسي القائم، لكنه لم يقدّم أية ذريعة للشك بولائه لذلك النظام.

إذا كان شابوشنيكوف قد ساعد ستالين على إدراك المنطق الصارم للصراع الحربي وأهمية تعدد الأحزمة في ترتيب الجيوش، أثناء الدفاع وأثناء الهجوم، وكذلك دور ومكانة الاحتياطيات الاستراتيجية في العمليات العسكرية، فإن **غيورغي جوكوف**. أشهر القادة العسكريين في الحرب الوطنية العظمى، قد مارس على «الأعلى» تأثيراً من نوع آخر. كان ستالين يرى في جوكوف ليس فقط قائداً عسكرياً موهوباً ومنفّذاً قوي الإرادة لقرارات القيادة العليا، بل وإنساناً قريباً إليه ـ كما كان يعتبر ستالين ـ من حيث الحزم والضغط العنيف ورفض المساومة. هذه هي وجهة نظر يبيشيف التي طرحها في حديث بيننا ذات مرة.

منذ زمن الحرب الأهلية أصبح ستالين يؤمن بفاعلية «مؤسسة» سبق ذكرها هي «ممثلو» السلطة العليا في الجبهات، وهذا هو السبب الذي جعله يكثر من إرسال ممثلين للقيادة العليا إلى الجبهات في أعوام الحرب الوطنية العظمى. وكان ستالين يعتبر جوكوف ممثله الأساسي، ثم جعله نائباً له في منصب القائد الأعلى. لماذا؟ لأن جوكوف كان ـ برأي «الأعلى» ـ قادراً على تنفيذ قراراته هو، ستالين، بغض النظر عن أي شيء، وقادرا على اتخاذ خطوات صارمة، لا بل قاسية، وعلى رفض المساومة.

ثم يضيف يبيشيف رأيه بأن ستالين كان يرى في جوكوف الرجل الذي يتناسب تماماً مع تصوره حول القائد العسكري المعاصر. طبعاً هذا الجانب كان موجوداً لدى جوكوف، لكن ستالين كان يقدّر أكثر من أي شيء آخر إرادة جوكوف القوية، دون أن يعطي عقل هذا القائد العسكري حقه، للأسف.

أعتقد أن يبيشيف، الذي كان عضواً في المجلس العسكري لأحد الجيوش، ومشى طريق الحرب من ستالينغراد حتى براغ، موفق جداً في هذه الرؤية للموضوع. كلنا نعرف اليوم دور جوكوف في تدمير الجيوش الألمانية قرب موسكو، وفي إنقاذ لينينغراد، وفي معركة ستالينغراد، وعشرات «الفصول» الأخرى من الحرب. لكن ما يلفت الانتباه هو أن ستالين بدأ يبدي في موقفه من جوكوف حذراً وبروداً متزايداً مع تزايد شعبية المارشال وشهرته، خصوصاً في نهاية الحرب. وليس صدفة أنه حين دقت الساعة لتنسيق الأمور بين ثلاث جبهات في معركة برلين، لم يسلّم ستالين هذه

المهمة إلى جوكوف رسمياً، بل احتفظ بها لنفسه وأرسل المارشال قائداً لجبهة بيلوروسيا ـ ١. نعم، كان «الأعلى» يفكر بالمستقبل وبالتاريخ، ولا يريد أن يشاطره أحد ما عزف النغمات الأخيرة، النغمات الظافرة في تلك الحرب، والصعود إلى ذروة النصر. كان ستالين يفهم أن جوكوف لا يقل عنه من حيث صلابة الإرادة، وقد أحس بعزم جوكوف الذي لا ينثني في المرحلة الأولى من الحرب بشكل خاص.

في أوائل أيلول (سبتمبر) ١٩٤١، طلب قائد جبهة لينينغراد فوروشيلوف، وعضو مجلسها العسكري جدانوف، السماح بتلغيم السفن التابعة للأسطول الحربي في البلطيق بقصد إغراقها في حال سقوط لينينغراد. سمح ستالين بذلك، فوقّع فوروشيلوف وجدانوف على القرار المعني في ٨ أيلول (سبتمبر). في تلك الأثناء تم تعيين جوكوف قائداً لجبهة لينينغراد. وصل من موسكو وقدّم أوراق تعيينه: «ها هو الأمر بانتدابي. إنني أمنعكم عن تفجير السفن. إنها تحمل أربعين طاقم ذخيرة!».

في عام ١٩٥٠ كان جوكوف يتذكر تلك الواقعة قائلاً: «كيف يمكن، بالأصل، تلغيم السفن؟ نعم، هناك احتمال بأنها سوف تدمّر. لكن، فلتدمر في المعركة، فلتدمر وهي تطلق النار! حين شن الألمان هجومهم على القطاع الساحلي من الجبهة، هيأ البحارة لهم حمام نار جعلهم ـ بكل بساطة ـ يلوذون بالفرار. وكيف لا يفرّون حين تشتغل مدافع عيارها ١٦ «دويم»؟ هل تتصورون أية قوة لها؟»(٥٥).

عرف ستالين بأن جوكوف قد ألغى قرار المجلس العسكري للجبهة، أي قراره هو، حين خبّره بذلك جدانوف. لم يعلّق ستالين على الخبر الذي نقله جدانوف، وهل بوسعه أن لا يقدّر شجاعة الرجل وبعد النظر لديه؟ وبذلك أشعر جدانوف: ليكن كما قرر جوكوف. كان ستالين يعرف أن جوكوف يستطيع أن يتصرف بلا شفقة وبلا مساومة، وهذا ينال إعجاب «الأعلى»، ويتلاءم مع روحية أسلوبه. كان جوكوف يتصرف بلا شفقة تجاه الجبناء والمذعورين، وقد يذهب إلى اتخاذ أكثر الإجراءات حزماً، حين يتطلب الموقف ذلك. في اللحظة الحرجة لعملية الدفاع عن لينينغراد في أيلول (سبتمبر) ١٩٤١، مثلاً، أصدر الجنرال جوكوف الأمر رقم (٦٤) الذي يقول: «المجلس العسكري لجبهة لينينغراد يأمر بإبلاغ كل طاقم الضباط والموجهين السياسيين والجنود المدافعين عن هذا الخط الأمامي بأن الضباط والموجهين السياسيين والجنود الذين يتركون مواقعهم بدون أمر خطي من المجلس العسكري للجبهة سوف يعاقبون بالإعدام فوراً.

تسليم هذا الأمر إلى الضباط والموجهين السياسيين بعد التصريح الخطي من قبلهم باستلامه وشرحه بشكل موسع لكل الجنود»(٥٦).

بعد أن وضع جوكوف توقيعه على الوثيقة، قدّمها إلى أعضاء المجلس العسكري ليوقعوا عليها فرداً فرداً: جدانوف وكوزنيتسوف وخوزين. كان الرجل ـ من أجل تحقيق المستحيل ـ مستعداً للجوء إلى مثل تلك الإجراءات المريعة.

لقد تصرف ستالين أكثر من مرة بحدة وظلم تجاه جوكوف، ليس فقط بعد الحرب، بل وأثناءها أيضاً، وفي بدايتها على الأخص. في تموز (يوليو) ١٩٤١ نشأ

وضع حرج في منطقة فيازما، واقترح جوكوف شن هجوم معاكس قرب يلنيا للحيلولة دون توغل الجيوش الألمانية في مؤخرة الجبهة الغربية. لم ينتظر ستالين نهاية التقرير، بل قاطع جوكوف بفظاظة:

ـ أية هجمات معاكسة؟ ما هذه الترّهات التي تتفوهون بها؟ جيوشنا لا تجيد حتى تنظيم الدفاع كما يجب، وأنتم تقترحون هجوماً معاكساً...

فكان رد جوكوف:

ـ إذا كنتم تعتبرون أنني، كرئيس الهيئة العامة للأركان، أنفع فقط للتفوه بالترّهات، فأرجو إعفائي من هذه المهمة وإرسالي إلى الجبهة، حيث أكون أكثر فائدة مما أنا هنا...

تدخّل في الحديث ميخليس الذي كان يحضر الجلسة:

ـ من أعطاكم الحق أن تتحدثوا بهذه الطريقة مع الرفيق ستالين؟!

وكانت نتيجة الحديث تعيين جوكوف قائداً لجبهة الاحتياطي. لكن ستالين لم يستطع أن يتدبر أموره بدون هذا القائد العسكري البارز، رغم أن بيريا وميخليس بذلا جهدهما للإساءة إليه في نظر «الأعلى». في المرحلة الأولى من الحرب، أصبح جوكوف لدى ستالين بمثابة «العصا السحرية». فحين أسفرت الأعمال الخاطئة للقيادة العسكرية السوفييتية عن قيام مجموعة «سنتر» الألمانية في بداية تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤١ باختراق خط الدفاع وتمت محاصرة جزء كبير من قوى الجبهة الغربية وجبهة الاحتياطي، أرسل ستالين جوكوف إلى هناك لتسوية الوضع المأساوي. ويذكر جوكوف كيف أشار ستالين إلى الخريطة وهو يقول بمرارة:

ـ انظروا المفاجأة التي قدّمها لنا كونيف. بعد ثلاثة أو أربعة أيام يمكن للألمان أن يصلوا موسكو. أسوأ ما في الأمر أن لا كونيف ولا بوديوني يعرفان أين جيوشهما، ولا يعرفان ماذا يفعل الخصم. يجب محاكمة كونيف. غداً سأرسل لجنة برئاسة مولوتوف...

تمكن جوكوف، بإجراءات استثنائية غير عادية أن يسوّي الوضع ويمنحه الاستقرار. كما يعود له الفضل في انقاذ كونيف من خطر المحكمة العسكرية، حيث جعله نائباً له في قيادة الجبهة الغربية. ثم سرعان ما أدرك ستالين أن ثقة جوكوف بنفسه وحزمه و «اليد القوية» التي يتميز بها كفيلة وحدها في إحداث انعطاف على صعيد تنظيم الأعمال القتالية؛ زد على ذلك أن خبر وجود هذا القائد العسكري على أية جبهة كان ينتشر فوراً، بطريقة غير مفهومة، ويرفع من المعنويات القتالية للجنود. ها هو مينيوك، حاجب جوكوف، يتذكر نشاط جوكوف في منطقة بيلغورود، حين أفلتت قيادة جبهة فورونيج (غوليكوف وخروتشوف) خيوط إدارة الجيوش من يدها: «في اللحظة الحرجة المقلقة، عمد جوكوف فعلياً إلى أخذ قيادة الجيوش على عاتقه و ـ يا للأمر المدهش ـ لم يلحظ أحد لديه ذرة واحدة من الارتباك، بل على العكس. في اللحظات التي كان يبدو فيها أن كل شيء ينهار ويتهاوى وأن الوقوع في اليأس مبرّر،

كان جوكوف يصبح أكثر تأهباً وحركة وحزماً. كان الخطر لا يكبته، بل يجعله يمتلىء إرادة عظيمة، فيبدو مثل نابض شديد التوتر أو طير متحفز يتأهب للالتقاء بالعاصفة. في تلك اللحظات كنت كثيراً ما أراه على عادته يضغط بقبضته على ذقنه...».

لم يكن بوسع ستالين أن لا يرى كيف أصبح جوكوف يجسّد النموذج العصري للقائد العسكري: تفكير مرن وشجاع، حزم كبير وجاذبية أخلاقية في أعين الضباط والموجهين السياسيين والجنود.

ورغم ذلك، فقد اختلق بيريا وأباكوموف، بعد الحرب، قضية ضد جوكوف، تم فيها استعمال ألبوم الصور، حيث يبدو المارشال في بعض الأماكن مصوراً مع القادة العسكريين والسياسيين الأمريكيين والإنكليز والفرنسيين. كذلك جرى التنصّت إلى أحاديثه الهاتفية ونبشت أرشيفاته الشخصية ومراسلاته. في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٤٦ وقّع «الجنراليسيموس» على أمر بحق جوكوف، يشير فيه إلى رسالة جاءت من قائد عسكري كبير إلى قيادة البلد وتفيد بوجود «وقائع تدل على سلوك مضرّ وغير لائق من جانب المارشال جوكوف تجاه الحكومة السوفييتية والقائد الأعلى». تزعم الوشاية أن جوكوف فقد تواضعه وراح «ينسب إلى نفسه المآثر في مجال الانجاز الكبير للانتصارات العظيمة»، ويجمع من حوله الساخطين...[٥٧] لكن الديكتاتور لم يتجرأ على تصفية القائد العسكري الشهير. فرغم كل الريبة التي ميزت ستالين، كان لديه من رجاحة العقل ما يكفي لكي يتوقف. كل الدلائل تشير إلى أن التحضير لاعتقال جوكوف كان جارياً، وأجرى ستالين اجتماعاً خاصاً، حضره، إلى جانب القادة العسكريين الكبار، بيريا وكاغانوفيتش وغيرهما من رجال الدولة. في هذا الاجتماع، وانطلاقاً من «إفادات» بعض القادة العسكريين المسجونين وُجّهت إلى جوكوف تهمة أنه «ينسب إلى نفسه أكاليل المنتصر الأول». لكن بعض القادة العسكريين الكبار (ريبالكو مثلاً) دافع عن جوكوف، فتردد ستالين في موقفه، واستبدل عملية السجن المحدقة بإرسال جوكوف للعمل في المناطق العسكرية البعيدة، على الأطراف: أوديسا ثم الأورال. كان القرار الأخير يومها هو قرار ستالين دون غيره.

يسمع المرء أحياناً تصريحات حول أن ستالين كان صارماً ولكن عادلاً. ذات مرة، أثناء الحديث مع أحد المدافعين عن هذا الرأي، سمعت من جليسي حجة تتعلق بمصير الابن الأصغر للقائد الأعلى، فاسيلي ستالين. لم يشفق «الأعلى» على ابنه وأقاله من منصبه. نعم، لقد أقال ابنه، لكنه فعل ليس فقط لأن فاسيلي ستالين بدأ يفقد سمعته كشخص فحسب، بل ولأنه أساء إلى سمعة أبيه. في أيار (مايو) ١٩٤٣، كان بيريا قد أبلغ ستالين حول المزيد من تصرفات فاسيلي السيئة في حالة سكر، وكان العقيد فاسيلي ستالين يومها قائداً لفوج جوي. اشتاط ستالين غضباً وراح يملي الأمر التالي:

«إلى قائد القوى الجوية في الجيش الأحمر، مارشال الجو الرفيق نوفيكوف.

أمر:

١ ـ إقالة العقيد ف. ي. ستالين حالاً من منصب قائد الفوج الجوي، وعدم تكليفه لاحقاً بأية مناصب قيادية حتى إشعار منّي.

٢ ـ الإعلام أمام الفوج، وإبلاغ القائد السابق للفوج، العقيد ستالين، أن العقيد ستالين أُقيل من منصبه كقائد فوج بسبب السكر والعربدة، ولكونه يفسد الفوج ويفسد أخلاق الفوج.

٣ ـ إبلاغي عن التنفيذ.

وزير الدفاع
ي. ستالين
٢٦/٥/١٩٤٣»[٥٨]

ستالين هنا غاضب إلى حد جعله، وهو يملي النص، لا يلاحظ أن جملة واحدة فقط تتضمن كلمة «فوج» خمس مرات وكلمة «عقيد» مرتين (وهاتان الكلمتان مشتقتان في اللغة الروسية من مصدر واحد ـ المترجم). لكن «أهل الخير»، بعد هذه «الإقالة» الرمزية، سرعان ما بلّغوا «الأعلى» أن فاسيلي ستالين قد «تعقّل» ومستعد «للقيام بمهمة قيادية». بعد حين بدأ ابن ستالين يقود فوجاً جديداً، وفي نهاية ١٩٤٣ تم تقديمه ليقود كتيبة جوية كاملة... ولا يستحق الأمر هنا الحديث عن عدل ستالين، فالمهم لديه في هذه الحالة هو سمعته الخاصة.

كان ستالين قاسياً وقاطعاً أثناء اتخاذ القرارات بشأن الكوادر، وحين يغير تلك القرارات يفعل ذلك في وقت لاحق دون تأثير جانبي ظاهر. ولم يكن، عادة، يشرح أسباب هذه القرارات أو تلك، ولا أسباب تراجعه عنها. أظن إنه بذلك كان يوحي لمحيطه أن المرشد الأساسي في قرارات الإقالة والتعيين لديه هو مصلحة القضية. حين برز السؤال حول الشخص الذي توكل إليه مهمة القضاء النهائي على مجموعة العدو المحاصرة في ستالينغراد، اختلفت الآراء. في النهاية كانت النقطة الحاسمة هي طابع الموقف الشخصي لستالين من المرشحين: اقترح بيريا ترك يريمنكو قائداً لجبهة ستالينغراد، بينما كان جوكوف يفضل روكوسوفسكي. يقول جوكوف في مذكراته أن ستالين لخص الكلام هكذا:

ـ إن تقويمي لـ يريمنكو أدنى منه بالمقارنة مع روكوسوفسكي. الجيوش لا تحب يريمنكو، في حين يتمتع روكوسوفسكي بهيبة أكبر. لقد ظهر يريمنكو بمظهر رديء كقائد جبهة بريانسك. إنه ليس متواضعاً ويمدح نفسه.

فاعترض جوكوف:

ـ لكن يريمنكو سيغضب جداً لمثال هذا القرار.

ـ نحن لسنا تلاميذ في مدرسة الأخلاق الحسنة. نحن بلاشفة، ويجب أن نضع على رأس الجيوش قادة يستحقون...[٥٩].

أقال ستالين في مناسبات مختلفة كلاً من جوكوف وكونيف ويريمنكو وتيموشنكو وخوزين وكوزلوف وفوروشيلوف وبوديوني وباغراميان وغيرهم الكثير من القادة العسكريين. وكانت هنالك أسس ما. كانت أحكام الضرورة القاسية تفرض شيئاً من ذلك، لكن «الأعلى» كان أحياناً يمنح الشخص المعني فرصة ليبرهن أن الخطأ

أو الفشل كان صدفة، ومع ذلك لا ينسى الخطايا القديمة. فها هو أثناء الحديث عن ستالينغراد يتذكر ذنوب يريمنكو في بريانسك.

عودة إلى جوكوف. كان ستالين يعرف أنه قادر ـ في طموحه إلى تنفيذ الأوامر ـ أن يلجأ إلى إجراءات الحد الأقصى. في صيف ١٩٤٢، بمبادرة واقتراح من ستالين، تقرر عدد من العمليات الهجومية على المحورين الغربي والشمالي الغربي، بهدف توطيد وضع الجيوش السوفييتية حول لينينغراد ورجيف. بدأت العمليات، وكان جوكوف يقود الجبهة الغربية.

أثناء اختراق الجيش الـ ٣١ والـ ٢٠ لخط الدفاع الألماني، أصدر جوكوف أمراً، كان فيما بعد لا يستطيع أن يفتخر به، ولا حتى أن يتذكره. هنا فقرة من تقريره إلى ستالين، حيث الكلام حول سير العملية ونتائجها:

«... لأجل الوقاية من تأخر بعض الوحدات ومكافحة الجبناء والمذعورين، جعلنا ضباطاً معيّنين من قبل المجالس العسكرية يجلسون على دبابة تسير خلف كل وحدة من وحدات الخط الأمامي. نتيجة للإجراءات المتخذة نجح الجيشان الـ ٣١ والـ ٢٠ من اختراق دفاع الخصم.

جوكوف، بولغانين

١٩٤٢/٨/٧»(٦٠)

كان جوكوف الشخصية الأساسية على مسرح الدفاع عن موسكو ودحر الجيوش الفاشية على مشارف العاصمة. والعدالة التاريخية تفرض أن يشارك الشخص الذي دافع عن عاصمة الوطن مشاركة مباشرة في احتلال العاصمة المعادية. كما في الشطرنج، لجأ ستالين إلى تبديل المواقع بين جوكوف وروكوسوفسكي: جوكوف يقود جبهة بيلوروسيا ـ ١، وروكوسوفسكي جبهة بيلوروسيا ـ ٢.

بقي جوكوف يحفظ عن ظهر قلب تقريباً الأمر الذي استلمه من القيادة العليا حول قيام الجيوش التابعة لجبهة بيلوروسيا ـ ١ باحتلال برلين:

«القيادة العليا تأمر بما يلي:

١ ـ إعداد وشن عملية هجومية بهدف الاستيلاء على برلين، عاصمة ألمانيا، والخروج نحو نهر الألب في موعد أقصاه اليوم الثاني عشر أو اليوم الخامس عشر من بدء العملية.

٢ ـ توجيه الضربة الرئيسية من «رأس جسر» على نهر أودر، غرب كوسترين، بجهود الجيوش العادية وجيشَي الدبابات، وسحب خمس أو ست كتائب اقتحام مدفعية نحو منطقة الاختراق، لتشكيل كثافة لا تقل عن ٢٥٠ ماسورة من عيار ٧٦ ملم وما فوق في كل كيلومتر من شريط الاختراق.

٣ ـ بقصد تدعيم المجموعة الرأسية للجبهة من الشمال ومن الجنوب، توجيه ضربتين مساعدتين بقوى جيشين من كل جانب...

٤ ـ توقيت العملية بموجب التعليمات التي استلمتموها شخصياً.

ستالين، أنطونوف
١٩٤٥/٤/٢، رقم ١١٠٥٩»[٦١]

بقي ستالين يتابع العملية بانتباه، فبعدها سيوضع على رأسه إكليل النصر. كان لا يتدخل تقريباً في الشؤون العملياتية، تاركاً ذلك لجوكوف وأنطونوف. لكن التقارير الصباحية والمسائية كانت تبدأ من البلاغات حول سير الاستعدادات ومن ثم حول سير عملية برلين فعلياً. كان جوكوف يخبره إن الهتلريين قد أنهوا المقاومة في الغرب تقريباً، ويقاتلون بضراوة من أجل كل بناية في الشرق. في رد فعل ستالين، ضمن أسلوبه المميز، طارت برقية صارمة حازمة، إلى جوكوف:

«إلى قائد قوات جبهة بيلوروسيا ـ ١.

استلمت شيفرتكم حول الإفادة التي أدلى بها الأسير الألماني متحدثاً عن توجيهات لديهم بعدم التراجع أمام الروس والقتال إلى آخر جندي، إلى أن تقترب الجيوش الأمريكية من مؤخرة جيشهم. لا تلقوا بالاً لإفادة الأسير الألماني. هتلر ينسج خيوط العنكبوت في منطقة برلين لكي يخلق خلافات بين الروس والحلفاء. يجب تمزيق عش العنكبوت عن طريق احتلال برلين من قبل الجيوش السوفييتية. اكسحوا الألمان بلا رحمة! وقريباً تكونون في برلين!

ستالين
١٩٤٥/٤/١٧. الساعة ١٧ و ٥٠ دقيقة»[٦٢]

كان ستالين يتابع بتوتر سير معركة برلين وكان مهتماً إلى أقصى حد بمسألة أسر هتلر. لأجل اكتمال الظفر كان ينقصه شيء واحد، ألا .وهو أسر الفوهرر النازي حياً ومحاكمته أمام محكمة دولية. ورغم أن بلاغات جوكوف كانت تقول إن المعارك تدور داخل بناية الرايخستاغ وعلى مشارف مبنى المستشارية، كان النبأ المشتهى لا يأتي. أخيراً، في ٥/٢ مساءً، جاءته الشيفرة:

«إلى الرفيق ستالين.

أرفع إليكم نسخة من أمر صادر عن قائد دفاع برلين، الجنرال فيدلينغ حول إنهاء مقاومة الجيوش الألمانية في برلين.

جوكوف
١٩٤٥/٥/٢

أمر:

في ١٩٤٥/٤/٣٠ أنهى الفوهرر حياته بعملية انتحار. لقد بقينا، نحن الذين أقسمنا على الوفاء له، وحدنا... بالاتفاق مع القيادة العليا للجيوش السوفييتية أطالب بإنهاء القتال فوراً.

جنرال المدفعية وقائد دفاع برلين
فيدلينغ»[٦٣]

ـ لقد تملص النذل ـ قال ستالين في نفسه وهو ينظر إلى البرقية. وتذكّر رواية مولوتوف من زمن ما قبل الحرب حول لقائه مع هتلر وحول إيمان «الفوهرر» المهووس بأنه سيدمر الانكليز... لا شك أن هتلر في تلك اللحظة كان يفكر بالضربة التي سيوجهها إلى الاتحاد السوفييتي. لكن نفد من العقاب...

في الأيام الأخيرة من الحرب كان ستالين، الذي يثق منذ زمن بالنهاية المظفرة للمعركة ومنذ زمن لا يفكر إلا بشؤون ما بعد الحرب، راح يوكل إلى أنطونوف توقيع وثائق القيادة العليا بنفسه. لكن حين حلّت أيام الظفر الخالد وبدأت الدبلوماسية تحل محل العمليات العسكرية، قرر ستالين ـ دون أي تردد ـ أن يخوّل جوكوف بتوقيع أهم وثيقة من وثائق الحرب على الاطلاق. وإذا كان «الأعلى» في آخر فترة يؤكد توقيعه على الوثائق الأخرى شفهياً أو بالهاتف، فإنه أمر أنطونوف بإحضار البرقية التالية شخصياً. نص البرقية مقتضب، ولكن حين نقرأ النص الأصلي المحفوظ في الأرشيف نشعر كم هو كبير الشيء الذي وراء هذه السطور القليلة. ففي النص نوع من فلسفة التراجيديا التي تنظر إلى الخلف وفلسفة النصر الذي سيعيشه الجميع قريباً:

«إلى نائب القائد الأعلى، مارشال الاتحاد السوفييتي غ. جوكوف.

مقر القيادة العليا يخولكم بالمصادقة على بروتوكول الاستسلام الكامل للقوات المسلحة الألمانية.

القائد الأعلى

رئيس الهيئة العامة لأركان الجيش الأحمر مارشال الاتحاد السوفييتي ي. ستالين

٧/٥/١٩٤٥ رقم ١١٠٨٣»(٦٤) جنرال الجيش أنطونوف

وضع ستالين توقيعه على البرقية، كما لو كان هو نفسه، وليس جوكوف، من سيوقّع بعد ساعات ذلك البروتوكول الذي طال انتظاره. بعد التوقيع على البرقية نهض ستالين وفجأة راح يشد على يد أنطونوف بقوة.

لقد كان «الأعلى» يقدّر جوكوف أعلى من تقديره لأي مارشال آخر من المارشالات السوفييت: بطل الاتحاد السوفييتي ثلاث مرات؛ وسام «النصر» مرتين؛ وسام «سوفوروف» تحت الرقم (١) ـ كل ذلك يدل على شهادة رفيعة بحق هذا القائد العسكري. طبعاً، مع كل خدمات جوكوف أمام الشعب، كان من يسمح بمنح تلك الأوسمة هو ستالين شخصياً. ومنذ عام ١٩٤٤ يتضح شعور ستالين بضرورة أن يحشر المجد الذي اكتسبه جوكوف ضمن قالب «أحد القادة العسكريين الموهوبين». حين اجتاز المجد العسكري للمارشال جوكوف حدود وطننا، قرر ستالين أن ذلك قد بدأ يلقي الظلال على اسمه هو.

على سبيل المثال، ظل في نفس ستالين أثر مزعج بعد المؤتمر الصحفي الذي عقده جوكوف في برلين يوم ٩/٦/١٩٤٥، بإيعاز من موسكو، وحضره المراسلون السوفييت والأجانب. ظل مارشال الاتحاد السوفييتي يجيب طويلاً على أسئلة

الصحفيين الإنكليز والأمريكيين والفرنسيين والكنديين، وشرح بالتفصيل سير الإعداد لعملية برلين ومجراها، كما تحدث عن التعاون مع الحلفاء وعن مواعيد التسريح في الجيش الأحمر وعن كيفية التصرف مع مجرمي الحرب، ثم عرض تصوراته حول أفضليات الجندي الألماني بالمقارنة مع الجندي الياباني وعن أشياء أخرى كثيرة...، لكن ولا كلمة عن ستالين، ولا كلمة على الإطلاق! فقط في نهاية المؤتمر الصحفي، سأل باركر، مراسل جريدة الـ «تايمز»، جوكوف (وكأنه يدري ضرورة انقاذ موقف المارشال»:

- هل كان المارشال ستالين يساهم مساهمة يومية نشيطة في العمليات العسكرية التي كنتم تقودونها؟

كان جواب جوكوف قصيراً:

- المارشال ستالين كان يقود، بشكل يومي ونشيط، كل قطاعات الجبهة السوفييتية - الألمانية، بما فيها القطاع الذي أتواجد عليه أنا.

أعاد ستالين قراءة العبارة الأخيرة، وهو ملدوغ بسبب «عدم الامتنان» من كلام نائبه. ربما في تلك اللحظة، بالذات، تكوّن لدى ستالين قراره حول المصير اللاحق للمارشال. سبق أن تحدثنا عن القضية التي تم اختلاقها بحقه لاتهامه بـ «الغرور والبونابارتية». لكن جوكوف يومها لم يكن يعرف أن عدم الرضى عليه ليس الأخير في حياته هو كقائد عسكري بارع أيام الحرب العالمية الثانية. معروف منذ القدم أن مصائر هذا النوع من الناس الصادقين والشرفاء والصريحين لم يكن بسيطاً وسهلاً قط.

أحد القادة العسكريين، الذي أصبحوا بمثابة نوع من حلقة الوصل بين ستالين والجبهات هو **ألكساندر فاسيليفسكي**، القائد العسكري السوفييتي الكبير. عند بداية الحرب، كان فاسيليفسكي نائباً لرئيس إدارة العمليات في الهيئة العامة للأركان. وفي ١٩٤١/٨/١ أصبح رئيساً للدائرة ونائباً لرئيس الهيئة العامة للأركان، ثم رئيساً لهذه الهيئة من حزيران (يونيو) ١٩٤٢ حتى شباط (فبراير) ١٩٤٥، وهو في ذات الوقت نائب وزير الدفاع. قيِّض لـ فاسيليفسكي أن يقود جبهة بيلوروسيا - ٣، ثم أن يصبح قائداً للقوات السوفييتية في الشرق الأقصى.

إن خدمة فاسيليفسكي في الهيئة العامة للأركان هي انعكاس لخصوصية أسلوب ستالين في إدارة القيادة العليا. أنفق فاسيليفسكي القسط الأكبر من الزمن على الجبهات بصفة ممثل القيادة العليا، والقسط الأصغر في موسكو، في العمل على إدارة الهيئة العامة للأركان. لقد جعل ستالين قاعدة أن يتم إرسال جوكوف أو فاسيليفسكي إلى الجبهات أثناء الإعداد لعمليات عسكرية تنطوي على مسؤولية أو عند بروز وضع حرج. في حالة ستالينغراد تم إرسال الاثنين معاً. كان فاسيليفسكي يقود إدارة العمليات في الهيئة العامة للأركان حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٢، حين اقترح بنفسه على ستالين تعيين أنطونوف لهذا المنصب، ثم أصبح أنطونوف نائباً لرئيس الهيئة العامة للأركان. بكلام آخر، كان فاسيليفسكي قائداً عسكرياً من النوع الشمولي،

يمكنه أن يبرّز بمثابة قائد ميداني وبمثابة ضابط أركان على حد سواء. كان ستالين يرى أن فاسيليفسكي يتصرف بنفس القدر من الثقة في اللحظات الحرجة من العمليات الدفاعية كما أثناء تنظيم العمليات الهجومية الكبرى أو في مجرى التخطيط الاستراتيجي بصفة ممثل للقيادة العليا أو بصفة قائد جبهة.

ذات مرة سأل ستالين فاسيليفسكي:

ـ هل استفدتم شيئاً من الدراسة في المدرسة الدينية؟

شعر فاسيليفسكي بشيء من الحرج لهذا السؤال، لكنه استحضر بديهته وأجاب:

ـ لا توجد معارف غير مفيدة. ثمة هنالك أشياء نفعتني حتى في الحياة العسكرية...

نظر ستالين بفضول إلى فاسيليفسكي (كان مزاج «الأعلى» جيداً، فقد تم للتو تحرير مدينة مينسك) وأضاف موافقاً على نبرة فاسيليفسكي:

ـ الشيء الأساسي الذي يمكن للقساوسة أن يعلّمونا إياه هو كيف نفهم الناس... ـ ثم انتقل فوراً ليقول للمارشال فاسيليفسكي عن ضرورة أن يقوم هو بالإشراف على عمل جبهات البلطيق ١، والبلطيق ـ ٢، وبيلوروسيا ـ ٣، بعد أن كان جوكوف قد كُلّف بالإشراف على عمليات جبهات بيلوروسيا ـ ١، وبيلوروسيا ـ ٢، وأوكرانيا ـ ١. هكذا أنشأ ستالين نوعاً جديداً من إشراف القيادة العليا على إدارة عمل الجبهات. بعد مبادرته هذه، رأى جوكوف وفاسيليفسكي النضوج الاستراتيجي لـ «الأعلى» يزداد.

اقترب ستالين من مكان جلوسه المعتاد، عند المقطع العرضي لطاولة الاجتماعات. في سنوات الحرب لم يكن، عملياً، يجلس إلى تلك الطاولة، فكل يوم كانت تجري في مكتبه ٥ ـ ٧ اجتماعات مختلفة، يجلس الناس خلالها حول الطاولة المذكورة، ولا تلبث أن تخرج مجموعة حتى يقوم بوسكريبيشيف بإدخال المجموعة التالية. بدأ عمل هذه «الماكنة» يتباطأ فقط في عام ١٩٤٤ وعام ١٩٤٥، حين اتضح للجميع أن قضية دحر المحتلين بقيت قضية زمن فقط. إذا كان ستالين قبل الحرب يقرأ، عدا عن البرقيات، خمسة أو ستة كتب (٤٠٠ ـ ٥٠٠ صفحة) يومياً، فإنه في زمن الحرب كان يقرأ ما لا يقل عن ذلك على شكل وثائق عسكرية ودبلوماسية واقتصادية. كانت المقدرة على العمل لدى هذا الإنسان البارد ذي النظرة الشوكية تبلغ حداً مدهشاً، وهذا ما يتذكره فاسيليفسكي.

كان ستالين دائم الاعتماد على فاسيليفسكي، الذي لا يكاد يعود من الجبهة حتى يذهب إليها من جديد، ولا يجد كبير مشقة في إحراز نتائج جيدة أو مقبولة، دون اللجوء إلى إجراءات استثنائية. نادراً ما كان المارشال يعترض. ليس مشاكساً مثل جوكوف، مع إنه يجيد تمرير موقفه بليونة تقترن بالإلحاح أثناء مناقشة المسائل العملياتية مع «الأعلى». من الصعب حساب عدد الكيلومترات التي طارها فاسيليفسكي خلال سنوات الحرب وهو ـ بتكليف من ستالين ـ يجول من جبهة إلى أخرى، ثم يعود إلى موسكو لأيام لتقديم تقرير واستلام تعليمات جديدة. كان ستالين، يومياً تقريباً،

يتحدث إلى فاسيليفسكي بالهاتف. يقول ألكساندر فاسيليفسكي في مذكراته: «ابتداء من ربيع ١٩٤٢، لم أكن أتحدث معه بالهاتف، فقد تحدثت معه في أوائل آب (أغسطس) ١٩٤٣، أيام سفره لحضور اللقاء بين قائدي جبهة كالينين والجبهة الغربية، وفي أيام سفره إلى مؤتمر طهران، حيث اجتمع رؤساء حكومات الدول العظمى الثلاث (من أواخر تشرين الثاني حتى ١٩٤٣/١٢/٢)»[٦٥]. إلى جانب الضرورة العسكرية، كان ستالين يشعر بحاجة دائمة إلى التشاور مع فاسيليفسكي وسماع تقريره المتمهل الموجز، الذي يشبه التفكير بصوت عالٍ.

رغم أن فاسيليفسكي بقي، رسمياً، في منصب رئيس الهيئة العامة للأركان حتى شباط (فبراير) ١٩٤٥، يرتبط عمل تلك الهيئة خلال النصف الثاني من الحرب باسم **الكسي أنطونوف**. أثناء قراءة أرشيف القيادة العليا يلفت الانتباه أن معظم الوثائق العملياتية بعد أواخر عام ١٩٤٣ يحمل توقيع أنطونوف إلى جانب توقيع ستالين، أو توقيع أنطونوف وحده باسم القيادة العليا.

كان من عادة ستالين أن يبقى يتفحص هذا الجنرال أو ذاك لمدة طويلة قبل تقريبه إليه. وكان أنطونوف ضابط أركان بالفطرة وصاحب ثقافة عليا، فكسب ارتياح وثقة «الأعلى» بسرعة.

لم يكن ستالين يحب أن يغيّر الناس المحيطين به كثيراً. حتى عندما أمر بإلقاء القبض على زوجة معاونه بوسكريبيشيف عام ١٩٣٨، بوصفها «ساعدت على الأعمال التجسسية لأقربائها»، لم يستمع إلى نصائح بيريا الملحاحة باستبدال معاونه: كان التعوّد على أناس جدد في مثل سن «الأعلى» ليس بالأمر السهل. بعد أن تواتر سفر فاسيليفسكي إلى الجبهة كان ستالين قد بدأ يتعود على تلقي التقارير من نائب رئيس الهيئة العامة للأركان للشؤون السياسية الجنرال بوكوف، الذي لم يكن مبرّزاً في الشؤون العملياتية. ولكنه أخيراً أمر ذات مرة، في أواخر آذار (مارس) ١٩٤٣، أن يقدم التقرير له الجنرال أنطونوف. كان التقرير مقتضباً لكن غنياً، ولم يظهر ستالين رضاه الداخلي («البروفة» الأولى ناجحة!)، بل ودّع الجنرال بجفاف. بعد شهرين أو ثلاثة من المعاشرة الدائمة بين «الأعلى» وهذا الجنرال الواضح والذكي والشاب، الذي لا يكثر من الكلام، أصبح أنطونوف واحداً من أقرب المستشارين العسكريين لستالين.

بعد تقرّبه من ستالين والتواجد اليومي لديه (مرتين أو ثلاثاً يومياً)، لاحظ أنطونوف أن «الأعلى» نادراً ما يتقدم بأفكار جديدة من بنات أفكاره، إذا استثنينا تقريب المواعيد وتقصير فترات الإعداد للعمليات والاستعجال الدائم. وكان بوسع أنطونوف، كإنسان دقيق الملاحظة، أن ينتبه لبعض عادات «الأعلى» التي تحمل طابع الطقوسية. كان ستالين مثلاً، يستمع أحياناً إلى تقرير أنطونوف بوجود مولوتوف وبيريا ومالينكوف، فيقاطع التقرير ويتصل مع بوسكريبيشيف ليحضر له الشاي. الجميع ينظرون بصمت إلى «صلاة» القائد الأعلى. ها هو يعصر الليمون على مهل في كأس الشاي، ثم يذهب إلى غرفة الاستراحة الواقعة إلى الخلف من طاولة الكتابة،

فيفتح الباب الذي يصعب تمييزه عن الجدار ويأتي بزجاجة من الكونياك الأرمني، في ظل صمت جماعي مخيم على المكان يصب ستالين ملعقة أو ملعقتين من الكونياك في الشاي، ثم يعود بالزجاجة إلى «خزان مؤونته» حيث أخذها ويعود مرة أخرى ليجلس خلف الطاولة ويخلط الشاي بملعقته، ثم يرمي:

ـ تابعوا.

حتى كأس الشاي (الذي نادراً ما كان ستالين، بالمناسبة، يقترحه على الحاضرين، يتحول إلى مشهد طقوسي ملؤه المعاني «الرفيعة» الاستثنائية التي تبدو وكأن لا أحد يفهمها سواه هو، ستالين).

كان أنطونوف يدرك أنه في نيابته عن رئيس الهيئة العامة للأركان أثناء غيابه شبه الدائم، ثم في شَغْله لهذا المنصب رسمياً، يتمتع بوضع أفضل بكثير من وضع أسلافه، ذلك أن أكثر مشاهد الحرب هولاً وقساوة تم أداؤها خلال الجزء الأول من هذه التراجيديا. ففي لحظة مجيئه كان نظام محدد من العمل اليومي الدائم قد نشأ في الهيئة العامة للأركان، وكانت قد تراكمت تجربة كبيرة في مجال العمل مع القيادة العليا. لكن أنطونوف، الذي كان «مدرسياً» بالمعنى الإيجابي لهذه الكلمة، زاد على كل من سبقه في ذلك المنصب بترتيب عمل الأركان، حيث جعل مواعيد دقيقة لمعالجة المعلومات ومواعيد دقيقة للتقارير من قبل ممثلي الاستخبارات والمؤخرة والجبهات والتشكيلات الاحتياطية. وزّع أنطونوف الواجبات توزيعاً واضحاً بين نوّابه. لأجل إضفاء طابع نهائي على الكمال التنظيمي في عمل الهيئة العامة للأركان، سجّل أنطونوف تصوراته على ثلاث صفحات وقرر عرضها على «الأعلى»: ثلاثة مواعيد لتقديم التقارير إلى القائد الأعلى، هاتفياً على الأغلب. والتقرير الإجمالي ـ شخصياً. نظام محدد لإعداد وتوقيع الوثائق التوجيهية. ترابط مع مختلف هيئات الإدارة، إلخ.

وحين انتهي أنطونوف ذات ليلة من تقديم تقريره الإجمالي إلى ستالين، توجه إليه بطلب النظر في برنامج عمل الأركان والموافقة عليه. ظل «الأعلى» ينظر إليه بدهشة صامتاً، ثم أخذ الأوراق وقرأها بانتباه، وكتب بيده (في ظل نفس الصمت): «موافق. ي. ستالين». ويبدو أنه فكر في نفسه: ليس هذا الـ «أنطونوف» بسيطاً كما قد يُخيّل لأول وهلة. فهو، في واقع الحال، أجبر ستالين ذاته ليس فقط على تنظيم مواعيد الآخرين، بل وعلى تنظيم مواعيده الخاصة.

إذا كان ستالين قبل ذلك يستطيع أن يستدعي الناس لتقديم التقارير في أية لحظة، أصبح يلزم نفسه الآن على التقيُّد بالنظام المُقرّ. وتمكن أنطونوف من فرض الربط الوثيق بين جهود الإدارات الأساسية في وزارة الدفاع وأهم وظيفتين للهيئة العامة للأركان: العمل لأجل حاجات القائد الأعلى وتزويده بالمعلومات اللازمة لاتخاذ القرارات، أولاً، وإعداد التعليمات وممارسة القيادة العملياتية للنشاط القتالي في الجبهات، ثانياً[٦٦].

إن أنطونوف، كجنرال أركان ذي موهبة، مارس على ستالين تأثيراً لا يقل عن تأثير شابوشنيكوف وجوكوف وفاسيليفسكي. فالثقافة العالية في ترتيب عمل الأركان والانضباط والتمحيص في كل شيء ـ من الأفكار الاستراتيجية حتى أدق التفاصيل ـ كل ذلك كان يحظى على إعجاب ستالين. الآن كان يعمل بقربه رجل يتوجب عليه، بحكم موقعه، أن يرتب كل الأشياء «على رفوفها»، وهو يفعل ذلك على نحو باهر و ـ الأهم من ذلك ـ بشكل فعّال.

كان صعود أنطونوف في السلّم العسكري سريعاً نسبياً. فقد جاء إلى الهيئة العامة للأركان في عام ١٩٤٢ برتبة لواء، ثم حصل في نيسان (ابريل) ١٩٤٣ على رتبة فريق، وفي نفس السنة ـ على رتبة جنرال الجيش، لكن أنطونوف لم يحصل على رتبة مارشال، رغم الموقف الإيجابي منه لدى «الأعلى». لقد تدخّل في هذه المسألة بيريا. كانت مواقع هذا الشرير في القيادة العسكرية غير متينة، وكان بيريا يرغب كثيراً في إيجاد موالين له بين «العسكر» في الشريحة العليا. اليوم نعرف أن الجنرالات السوفييت الكبار كانوا دائماً يقفون من بيريا موقف الحذر البارد، محتفظين في أنفسهم بالشك العميق إلى ذلك الرجل ذي النظارتين الصغيرتين الدائريتين. هذا مع أن بيريا كان دائم البحث عن أساليب لاجتذاب القادة العسكريين الكبار إليه، لكن مما يشرّف هؤلاء الناس أن محاولاته كانت عقيمة. وكون العسكريين هم من قام باعتقال بيريا والقضاء عليه في زمن ما بعد ستالين ـ دليل جليّ على موقفهم من مصّاص الدماء هذا.

كان بيريا شخصاً مقيتاً وكان الناس يخشونه. لكن ما من أحد كان يضمر له الود. لا أحد إطلاقاً. مع هذا، كان الرجل يبحث لنفسه عن مستنّد في الجيش، فهو يرى التسارع في شيخوخة «القائد»، وبعد نهاية الحرب، من يدري، قد تظهر خطط طموحة للمستقبل. دون دعم من الجيش (في هذا النظام الذي ليست الديمقراطية فيه سوى وهم) لا يمكن تحقيق تلك الخطط. لم تنجح محاولات بيريا إقامة علاقة طيبة مع أنطونوف. كان الجنرال جافاً معه ورسمياً. عندئذ، لجأ بيريا، كما تعود دائماً، إلى تشويه سمعة أنطونوف «من تحت لتحت». ومع أن ستالين ما كان في أعماقه يصدق ما يهمس به الشرير، لم يذهب إلى حد أن يقلّد رئيس الهيئة العامة لأركان القوات المسلحة في الاتحاد السوفييتي، أنطونوف، رتبة مارشال، رغم أنه كان يزمع القيام بذلك لمناسبة النصر. زد على ذلك أن «القائد» أعاد أنطونوف من جديد إلى منصب النائب الأول لرئيس الهيئة العامة للأركان (١٩٤٦)، ثم خفّضه أكثر، حين عيّنه نائباً لقائد منطقة القفقاز العسكرية (١/٩/١٩٤٨).

لم يحالف الحظ الجنرال أنطونوف كذلك في أدبياتنا التاريخية وفي أدبيات الحرب أيضاً. فكنية هذا الرجل لا تكاد تظهر في القوائم الطويلة للقادة العسكريين أصحاب الخدمات البارزة أمام الوطن، ولم يصبح لا مارشالاً ولا بطلاً، وهو لم يقدَّر حق قدره. كان أنطونوف جندياً نموذجياً ومثقفاً عسكرياً حقيقياً ورجلاً مرهف الحس، فهو الذي قال بعد الحرب إنه طالما ظل يحلم باليوم الذي يستطيع فيه أن يستمع براحة بال إلى الموسيقى التي يحب: مقطوعات تشايكوفسكي على البيانو ومعزوفة

رحمانينوف رقم (٣)، لكن الاسطوانات تغطت بطبقة ثخينة من الغبار في سنوات الحرب.

ولّت الحرب. ودخل ستالين، مثلما يوليوس قيصر، إلى قصر المجد على متن مركبة الظفر. لكن، إذا كان يوليوس الفذ راح يعذب نفسه بالتفكير كيف يشكر قادة أفواجه الأوفياء، فإن ستالين راح يبعد عن نفسه بالتدريج أولئك الذين كانوا ـ أكثر من غيرهم ـ يذكّرونه بالدور الحقيقي لكل واحد منهم في النصر العظيم. لم يقدّر ستالين في نهاية الأمر ذلك الرجل الذي يقف توقيعه إلى جانب توقيعه هو خلال آخر سنتين من الحرب، ذلك الجنرال الوحيد الذي نال وسام «النصر» الرفيع، الجنرال أنطونوف.

نسي ستالين أنه، حين أصبح قائداً أعلى، لم يكن لديه سوى تصور ضبابي حول نظرية وتجربة الفن العسكري، وأنه بدأ يربط بين الاستراتيجيا وفن العمليات والتكتيك كعناصر في فن القتال فقط بفضل جهود وشروحات وتقارير شابوشنيكوف وجوكوف وفاسيليفسكي وأنطونوف.

الحرب انتهت. المهم لدى ستالين هو النتيجة قبل كل شيء. وهو ظل يفضل الحديث عن ثمن الحرب فقط من زاوية وحشية النازيين. أما عن ذنوبه الخاصة، فلم يتكلم ولا مرة. ثم أُضيفت إلى قائمة «أسمائه الحسنى» («الزعيم العظيم»، «المعلّم الحكيم»، «القائد الذي لا يشق له غبار»، «رجل الاستراتيجيا العبقري») صفة جديدة: «القائد العسكري العظيم». لهذا، أود أن أعود إلى مسألة التفكير الاستراتيجي لدى ستالين بقصد إضافة لمسات أخرى إلى صورته.

تفكير استراتيجي؟

علامة الاستفهام في آخر العنوان قد تستدعي الاستغراب، لا بل السخط لدى البعض. كيف يجري التشكيك بما كان لا شك فيه عشرات السنوات؟ يمكن فوراً إيراد عشرات الاستنادات إلى كتب القادة العسكريين السوفييت للبرهان على «هرطقة» هذا التشكيك. ولربما كانت الأقوال التي تعود إليها تلك الاستنادات صحيحة على طريقتها الخاصة.

كما سبق أن قلنا، في الزمن الذي كُتبت فيه مذكرات القادة العسكريين السوفييت المشهورين، كان بوسع أصحابها أن يقولوا فقط **ما كان يُسمح** بقوله. كل الآراء السلبية أو الانتقادية بحق «الأعلى» كان يتم تقويمها بأنها مجرد «تسويد». لقد عملتُ سنوات في الإدارة السياسية العامة للجيش السوفييتي، وكان يجري الاطلاع ـ بتوجيه من سوسلوف وموظفي جهازه ـ على كل المذكرات في قسم المطبوعات ضمن تلك الإدارة. وقُيّض لي أن أتحدث إلى أشخاص تعرفوا، خلال الخمسينات والستينات وبعدها، على مذكرات القادة العسكريين: كانت مخطوطات تلك المذكرات تدور طويلاً «ضمن دائرة» المؤسسات العليا، ومؤلفوها يعرفون جيداً ما الذي يجب وما الذي لا يجب كتابته. هذا هو «الفلتر» الأساسي الذي حال دون أن تدخل في كتبهم الوقائع والآراء والأحداث والإحصائيات والأفكار والتقويمات التي يمكنها أن «تسوّد» تاريخنا.

وكان هذا التاريخ يبدو على ما يرام تماماً. لست أظن أن المسألة تنحصر في البحث عن مذنبين، بل يجب فقط أن نفهم: نشأ في الأدبيات نظام يقوم على مقدمات محددة وتقييدات، تفترض دخول كل كتاب ضمن قالب جاهز. فلا الإدارة العامة للأدبيات ولا الرقباء كان بوسعهم أن يتجاهلوا تعليمات **النظام** الإيديولوجي القائم على رؤية وحيدة الجانب للماضي.

أنا أعرف بالتأكيد أن ليس كل ما كتبه القادة العسكريون دخل في مذكراتهم المنشورة. وحين يقومون بإعدادها، غالباً ما كانوا يبحثون ـ تحت ضغط اعتبارات خاصة ـ عن مكان وذريعة ليأتوا على ذكر البعض من الناس الأقوياء (الذين يصعب اكتشاف مكانتهم في سنوات الحرب ولو تحت المجهر). نحن نعرف كيف راح الانتهازيون يبحثون عن الوحدة العسكرية التي كان يخدم فيها بيريجنيف قبل الحرب، وعن المحطة التي حدث ذات مرة أن أرسل تشيرنينكو منها (في كراسنويارسك) قطاراً يحمل الهدايا إلى الجبهة. إن الكثير من المؤلفات الجيدة «تشوبها» استنادات اضطرارية إلى أقوال بريجنيف ومحاولات للبحث عن ذريعة تبرر ذكر خدماته. ولكن لم تدخل في الكتب، مثلاً، شهادة القوميسار سينيانسكي حول تدهور التوجيه السياسي في الوحدة التي كان القوميسار بريجنيف (آب ١٩٤٢) يخدم فيها[٦٧].

كنّا نعيش في أسر وعي زائف، غالباً ما يضع الناس أمام خيار: إمّا أن يكون في الكتاب «ما هو لازم»، وإمّا أن لا يرى النور. كما إن معظم مذكرات القادة العسكريين السوفييت كتبها «منقّحون أدبيون»، أناس بعيدون عن الأحداث التي عاشها أصحاب المذكرات. نعم، كان يجري استخدام المواد والروايات التي تعود للقادة العسكريين، لكن «المنقّحين» هم الذين كانوا يكتبون في آخر المطاف، ولذلك تضيع المعاناة الشخصية لمؤلف المذكرات، شئنا أم أبينا. لقد أحسن القول في هذا الصدد باغراميان: المذكرات «تتوقف إلى حد كبير على سؤال: ما نوعية العقيد الذي يعمل معك لتدوينها. أن تُكتب مذكرات الإنسان عبر «وسيط» ـ وهذا قد يكون أمراً اضطرارياً ـ يعني دائماً خسارة شيء فريد فيها.

حين وضعتُ عنوان «تفكير استراتيجي؟» أردت فقط أن أحاول النظر بحياد إلى خصوصية التفكير الاستراتيجي لدى الرجل الذي وقف على رأس شعبنا وجيشنا في الحرب الوطنية العظمى. ولأقل فوراً: فيما يخص التفكير الاستراتيجي، كان ستالين يتمتع ببعض الأفضلية مقارنة مع الكثيرين من القادة العسكريين السوفييت، ولكن كانت هنالك مجالات لم يستطع فيها أن يتخلص من نزعة الهواة والنظرة أحادية الجانب ونقص الدراية والقوالب الجاهزة حتى نهاية الحرب. على أي حال، لنبدأ شيئاً فشيئاً.

رأيي هو أن ستالين لم يكن قائداً عسكرياً بالمعنى الكامل. القائد العسكري هو شخصية عسكرية. ويُنسب الشخص إلى معشر القادة العسكريين ليس بحكم منصبه بل بحكم موهبته وتفكيره الخلاق ورؤيته الاستراتيجية العميقة وتجربته العسكرية ودرايته وكذلك بحكم الحدس الفني وقوة الإرادة لديه. كان ستالين **قائداً سياسياً**: قاسياً، قوي الإرادة، هادف الطموح، محباً للسلطة؛ فاضطر بحكم الاعتبارات التاريخية

أن يشتغل بالشؤون العسكرية. جانب القوة في ستالين بصفة «قائد أعلى» يكمن في أن سلطته كانت بلا حدود، ولكن هذا وحده ما رفع ستالينن فوق الشخصيات العسكرية الأخرى. كانت أفضليته الأخرى بالمقارنة معهم هي مقدرته على رؤية أعمق (بحكم كونه قائد البلد) للعوامل التي يتوقف عليها الصراع الحربي والتي تشكل طيفاً من العوامل «اللاعسكرية»: الاقتصادية والاجتماعية والتقنية والسياسية والدبلوماسية والإيديولوجية والقومية. بحكم وضعه، كان ستالين يعرف الإمكانيات الفعلية للبلد، بصناعته وباقتصاده الزراعي، أفضل مما يعرفها أعضاء القيادة العليا وضباط الهيئة العامة للأركان وقادة الجبهات. كان ستالين يتمتع، إذا جاز التعبير، بتفكير **شمولي**، يترابط عضوياً مع دائرة واسعة من المعارف اللاعسكرية. إن جانب القيادة العسكري هو واحد فقط من الجوانب الكثيرة التي يجب أن يتميز بها رجل دولة على هذا المستوى.

من حيث المنصب كان ستالين قائداً عسكرياً: «القائد الأعلى». لكن أي قائد عسكري كان؟ دعونا مرة أخرى نعود إلى الماضي.

كثيراً ما يستشهد المؤرخون العسكريون بأقوال نابليون التي أصبحت كلاسيكية. وقد تناول بونابارت موضوع التناسب بين عقل وإرادة القائد العسكري: «إن الناس ذوي العقل الكبير والإرادة الضعيفة هم أقل من ينفع ليكون من أهل هذه المهنة. من الأفضل أن يتمتع الشخص بمزيد من قوة الإرادة وقدر أقل من العقل. وغالباً ما يكون النجاح في هذا الفن حليف الناس الذين يتمتعون بعقل عادي ولكن لديهم ما يكفي من قوة الشكيمة»[٦٨]. يجب أن نفهم المقصود بالعقل هنا. ليس فقط كمجرد عملية تعكس الواقع الموضوعي وتعطي المعرفة حول العلاقات القائمة في العالم وحول الخواص والترابطات، بل وأيضاً كدراية بمجال فن الحرب فعلياً. وكما قال العالم السوفييتي تيبلوف، فإن النشاط الذهني للقائد العسكري «يميزه تعقيد استثنائي في طبيعة المادة التي ينطلق منها وبساطة بالغة في النتيجة النهائية. في البداية: **تحليل مادة معقدة**، وفي الحصيلة: **تركيب ذهني يسفر عن أحكام بسيطة ومحدودة**. تحويل المعقد إلى بسيط ـ تلك هي الصيغة المقتضبة التي يمكن من خلالها وصف جانب من أهم الجوانب في عمل الذهن لدى القائد العسكري»[٦٩]، وبكلام آخر، فإن تفكير القائد العسكري يسمح برؤية متزامنة للكلّ وللتفاصيل، برؤية الحركة والسكون في آن،... إنه عبارة عن قوة ذهنية معمّمة تبرز من خلال التفكير بالملموس: العقل والإرادة يجب أن يكونا في وحدة دائمة: عندئذ فقط يكون القائد العسكري قادراً على إبداء المرونة تجاه قرار تمّ اتخاذه و ـ في الوقت ذاته ـ على إبداء التصميم والصلابة تجاه انجاز الهدف.

لقد أشرنا قبلاً أن ستالين كان إنساناً ذكياً، لكنه يتميز بصفات بارزة من الجمود الدوغمائي للعقل. كان القائد الأعلى يفكر، إذا جاز القول، وفق «قالب جاهز»؛ فأضعف الجوانب في تفكيره الاستراتيجي كان سيطرة الاعتبارات العمومية على الاعتبارات الملموسة. صحيح أن هذا الأمر، أثناء التحليل التعميمي، بوسعه أن يبرز بمثابة جانب قوي، لكن رجل السياسة داخل ستالين كان دائماً ينتصر على القائد

العسكري. ولنقل بمزيد من الدقة: كان السياسي المتمرس والقاسي ينتصر داخله على العسكري غير المحترف. لا شك في أن الاعتبارات العمومية هامة دائماً بالنسبة لرجل الاستراتيجيا، لكنها ـ عند ستالين ـ غالباً ما كانت تحجب القضايا الملموسة. وعلى العكس من ذلك، حين كان ستالين يركز الاهتمام على شيء ما محدد وملموس، تجده يفقد التحكم بالمسائل الأكثر عمومية. في الأيام التي بدت فيها كارثة خاركوف محدقة، بقي ستالين، مثلاً، طيلة الثلث الأخير من أيار (مايو) ١٩٤٢ (وهذا ما يتبين من تحليل عمله آنذاك) مشغولاً بتأمين مرور قوافل السفن عبر بحر بارينتس، وبشؤون جبهة فولخوف، وبتنظيم الغارات على مطارات العدو في الجبهة الغربية، وبفرز القوارب اللازمة للأسطول الحربي في بحيرة لادوغا، والتحويل اللاحق للجيوش من أجل القضاء على مجموعة القوى المعادية في دميانسك، إلخ. لم يكن يكفيه العقل الاستراتيجي كي يركز جهوده وجهود الهيئة العامة للأركان وجهود ممثلي القيادة العليا في الجبهات على أهم قطاع آنذاك من قطاعات الجبهة السوفييتية الألمانية. لم يشعر ستالين، كما لم يشعر تيموشنكو وخروتشوف، ولو للحظة واحدة، بعمق الخطر المحدق. وكالعادة، تجاهل ستالين قرارات ونشاطات قيادات المحاور، فاتخذ هذه المرة أيضاً موقفاً فيه استخفاف بالاستنتاجات والتأكيدات الواردة من قيادة الجبهة ومن هيئة أركان المحور الجنوبي الغربي. إن الضعف في تأهيله عملياتياً حال دون تحديد الحلقة الهامة استراتيجياً، ولم يسعفه الحدس في الوقت المناسب على إدراك الخطر الرهيب.

كان جانب الضعف في تفكير ستالين كقائد عسكري هو ما عُرف عنه من انقطاع التفكير عن الواقع الزمني، وهذا ما أشار إليه كل من جوكوف وفاسيليفسكي. غالباً ما كان ستالين يولع بفكرة ما فيطالب بتنفيذها الفوري، وأحياناً يصدر توجيهاً ما تاركاً للجبهة المعنية مهلة من بضع ساعات فقط لأجل تنفيذها، وهذا ما كان يحكم سلفاً على هيئات الأركان والتشكيلات العسكرية باللجوء إلى أعمال غير مهيأ لها، تؤول إلى الفشل. استلمت الجبهة الغربية، مثلاً، عام ١٩٤٢ بضعة إيعازات وأوامر من ستالين تقضي بتحريك القوات إلى مسافة ٥٠ ـ ٦٠ كم (من أحد القطاعات الجبهة إلى آخر)، على أن يكتمل إنجاز تلك المناورات خلال خمس أو ست ساعات! لكن تلك الساعات تكاد لا تكفي لوصول الأوامر ذاتها إلى القائمين على التنفيذ. حتى نهاية الحرب، بقي ستالين لا يدرك حقيقة أن حركة من يد «الأعلى» لا تعني التنفيذ الفوري لإرادته في الأفواج والكتائب. إن هذه النقيصة في تفكير ستالين تعود إلى ضعف استثنائي في تصوره حول حياة الجيوش ومعيشتها وعمل ضباطها وتسلسل تنفيذ الأوامر والإيعازات.

إن ستالين، الذي لم يكن عسكرياً محترفاً، كان يعتمد في حله لهذه المسائل العملياتية أو تلك، ليس على المعرفة الملموسة للموقف والوضع، بل على الضغط والإكراه. بالتالي، كانت إيعازاته واستنتاجاته تملى فقط على أساس العقل الراشد وليس على أساس التقدير الاستراتيجي أو العملياتي للأمور.

في ١٩٤٢/٦/٣٠، حين كان ستالين يوبخ الجنرال غوليكوف، قائد جبهة

بريانسك، على فقدان الاتصال مع الجيوش، صرخ مغتاظاً: «طالما أنكم تتجاهلون أهمية الاتصال اللاسلكي، لن تكون لديكم أية اتصالات؛ وستبقى كل جبهتكم مجرد حشد غير منظَّم... إنكم بطيئو الحركة، لا بل تتأخرون. لا يجوز القتال بهذه الطريقة...»(٧٠). إنه يتدخل هنا في الموقف من موقع قائد سياسي يطالب بتحسين إدارة الجيوش عن طريق التهديدات المبطنة بشكل غير موفق. في أحيان أخرى نجده في البرقيات يكتفي بالإشارة إلى الموقف القاتل، دونما أية استنتاجات أو إيعازات، ولكن الإشارة نفسها توحي بالشؤم:

«إلى قائد جبهة شمال القفقاز.

لجنة الدفاع الحكومية غير راضية إلى أبعد الحدود عن عدم وصول معلومات دائمة منكم حول الوضع على الجبهة، فنحن نسمع عن خسائر الأراضي في جبهة شمال القفقاز ليس منكم، بل من الألمان. تكوّن لدينا انطباع بأن الذعر قد سيطر عليكم، فبدأتم تتراجعون بلا طريق (هكذا في النص ـ المؤلف)، وليس مفهوماً متى سينتهي تراجعكم.

ستالين

١٠/٨/١٩٤٢. الساعة ٢٠ و ٤٥ دقيقة»(٧١)

مثل هذا التفكير من قبل «الأعلى» كان يؤدي إلى نتائج تعبوية، لأن «الحافز» مجرَّب: الترهيب والتخويف من صدور قرارات يمكنها ـ في أفضل الأحوال ـ أن تدفع القائد العسكري عدة درجات إلى الأسفل في سلّم المراتب العسكرية، أو أن تجعل رجال بيريا «يستلمون» قضيته.

في سنوات ١٩٤٣ ـ ١٩٤٥، تمكن ستالين، بمساعدة من معاونيه العسكريين، أن يدرك جملة من الحقائق الهامة في فن العمليات. فهم «الأعلى»، مثلاً، أنه يمكن ويجب الانتقال إلى الدفاع ليس فقط حين يجبرك الخصم على ذلك، بل وطالما أنت تستعد للعمليات الهجومية، كما كان الأمر في بعض عمليات ١٩٤٢. لم يكن «الأعلى» يحب الدفاع، كما قلنا سابقاً، لأنه ارتبط لديه بذكريات ومشاعر كئيبة. فهو يذكر كيف جاءه بوسكريبيشيف يوم ١٦/٩/١٩٤٢، بعد الغداء، ووضع أمامه ـ بصمت كامل ـ بلاغاً استثنائياً من الإدارة العامة للاستطلاع في الهيئة العامة للأركان، وقّعه الجنرال بامفيلوف. البلاغ يتحدث عن التقاط بثّ إذاعي من برلين: «استولت الجيوش الألمانية المجيدة على ستالينغراد. روسيا انقسمت إلى جزأين، شمالي وجنوبي، وكل منهما سيبدأ بالاحتضار قريباً...».

أعاد ستالين قراءة الخبر المقتضب بضع مرات، وراح يحدّق في نافذة المكتب بعينين لا تريان سوى أن كارثة ما قد وقعت في الجنوب البعيد. لقد خاض هناك صراعاً قبل ما يقارب ربع قرن، وآنذاك تمكنوا من الصمود في وضع حرج. لماذا لا يتمكنون من ذلك الآن؟ أي قادة يكون هؤلاء؟! لم تمضِ أيام على إقالة الجنرال لوباتين من قيادة الجيش الـ ٦٢ وإقالة اثنين من قادة الفيالق (بافلكين وميشولكين). لكن ما كان ليخطر في بال «الأعلى» أن شريحة كاملة من الضباط، الذين صعدوا بسرعة في

السلّم القيادي خلال ثلاث أو أربع سنوات، تعاني من نقص المعارف والتجربة والمهارة. ثم إن المسألة لا تنحصر في الضباط فقط. فهو لم يعترف قط أمام أحد من رفاقه أو معاونيه أن عدم تقديره لخطر الهجوم الألماني على المحور الجنوبي قد كلّف البلد غالياً. الآن، بعد البلاغ الألماني، كان ستالين يفكر بكيفية متابعة الصراع، وهو لا يعرف التردد في هذه المسألة إطلاقاً. بعد حين قال بوسكريبيشيف:

ـ اتصلوا مع الهيئة العامة للأركان. بسرعة...

بعد دقيقة كان ستالين يملي على الجنرال بوكوف برقية إلى يريمنكو وخروتشوف: «اشرحوا لنا بشكل مفهوم ما الذي يجري لديكم في ستالينغراد. هل صحيح أن الألمان استولوا على ستالينغراد؟ أجيبوا مباشرة وبصدق! انتظر جواباً فورياً!.

ستالين...»(٧٢)

لم يكن الناس يجيدون الدفاع. فيضطرون إلى الدفاع بشق الأنفس. أخطاء القيادة كانت تكلّفهم ليس خسائر فادحة وحسب، بل انسحاباً من الأراضي أيضاً، رغم الصمود منقطع النظير من قبل الجنود. كان «الأعلى» يعتبر التضحيات الكبيرة الجماهيرية ميزة ملازمة حتماً للحرب المعاصرة. ربما كان الدافع وراء هذا الاعتبار كون ستالين قائداً أعلى لجيش هائل العدد. ففي نهاية الحرب كانت قواتنا المسلحة تضم ٥٠٠ كتيبة رماة، عدا عن وحدات المدفعية والدبابات والطيران. هذا العدد يساوي ضعف مثيله في عشية الحرب. لكن الكتائب السوفييتية كانت أصغر من الكتائب الألمانية عددياً، ومع ذلك رفض ستالين اقتراحات متكررة من القادة العسكريين حول تكبير تلك الوحدات. في ظل هذا الجبروت العددي والعمل المتواصل لتعبئة وحدات جديدة، لم يكن «الأعلى» يرى لزوماً في الربط بين انجاز الأهداف الاستراتيجية وكميات الخسائر البشرية. كانت توجيهاته مليئة بعبارات أصبحت اعتيادية، كما في العبارة التالية:

«القيادة العليا تُلزم الجنرال يريمنكو والجنرال غوردوف على حد سواء بعدم توفير أي جهد، **وعدم التوقف أمام أية تضحيات...»**(٧٣). كان تفكير ستالين يجري في وحدات قياس مثل «عشرات الكتائب» أو ما إليها. لقد كان دائماً يحب المقاييس الضخمة، ولذا، ليس «عدم التوقف أمام أية تضحيات» مجرد سمة أخلاقية لذهنه، بل وكذلك سمة لتفكيره الاستراتيجي، سمة سلبية جداً في الحقيقة. فإنجاز الهدف، على الطريقة الستالينية، لا يرتبط بعدد الضحايا البشرية، التي غالباً ما كان إحصاؤها معدوماً.

في الوقت ذاته يجب القول إن ستالين كان له قسط في ظهور أشكال جديدة للنشاط الاستراتيجي، مثل العمليات التي تشارك فيها عدة جبهات. تمثل تلك العمليات تشابكاً معقداً من المعارك والاشتباكات التي تخضع لفكرة واحدة تربط بينها من حيث الهدف والتوقيت والمكان. شارك في بعض تلك العمليات من مئة إلى مئة وخمسين كتيبة، وأكثر من عشرات آلاف المدافع، ومن ثلاثة إلى خمسة آلاف دبابة، ومن خمسة إلى سبعة آلاف طائرة. كل هذا الجبروت كان يزَجّ في القتال وفقاً لتحليق الخيال

الاستراتيجي ولحسابات الهيئة العامة للأركان ولهيئات أركان الجبهات، على أساس تحليل للعديد من العوامل والإمكانيات (الذاتية والمعادية). في مثل هذه العمليات بالذات، حيث كانت تشارك بضع جبهات كل مرة، شعر ستالين فعلاً أنه قائد عسكري. لم تكن المقاييس الكبيرة تعني لديه مجرد تعبير كمّي فقط عن الجبروت الذي يجري استخدامه، بل يرى فيها إمكانيات كبيرة لتحقيق نفسه وتأكيدها استراتيجياً. بعد معركتَي موسكو وستالينغراد، راح ستالين يسعى دائماً إلى تجميع الجهود بين مختلف الجبهات في معادلات استراتيجية جديدة. فكثير من العمليات العسكرية اللاحقة (كورسك، بيلوروسيا، شرق بروسيا، برلين، منشوريا) كان يتواءم ليس فقط مع السير الموضوعي للأحداث، بل ومع ولع ستالين بكل ما هو ضخم وهائل الأبعاد وواسع الحجم. هكذا كانت تلك العمليات العسكرية، التي كان شريط الهجوم فيها أحياناً يصل إلى ٥٠٠ ـ ٧٠٠ كم في الجبهة و ٣٠٠ ـ ٥٠٠ كم في العمق، ويدوم حتى الشهر. وكالعادة، كان «الأعلى» يستعجل توقيت البداية، ويبدي عدم الرضى على الوتائر، ويهتاج لحدوث عثرات. كان ستالين يلتقط بسرعة الفكرة العامة للعمليات الهجومية التي تقترحها الهيئة العامة للأركان، فيضيف أحياناً تفاصيل جوهرية ترمي إلى زيادة جبروت الضربات.

لكن الأفكار المبدئية التي كان «الأعلى» يقترحها كبديل لاقتراحات الهيئة العامة للأركان بقيت نادرة جداً. فالفكرة كانت تولد في الهيئة العامة للأركان، في «دماغ الجيش». ستالين يطالب، عادة، بتقوية دور الطيران ويدقق مهام جيوش الدبابات (بعد بداية تكوينها في صيف ١٩٤٢)، متابعاً بانتباه استخدام تلك التشكيلات الضاربة الجبارة. إن تحليل الكثير من وثائق الأرشيفات يبين أن تخطيط وتحضير وإتمام أكثرية العمليات العسكرية لم يكن يحمل «خاتم» القائد الأعلى بوضوح. بعد الاستماع إلى تقرير جوكوف حول مجرى القتال في منطقة بونيري (٩ ـ ١٠/٧/١٩٤٣)، مثلاً، تخلى ستالين لصالح نائبه عن صلاحية القرار النهائي: «أما آن الأوان لزجّ جبهة بريانسك والجناح الأيسر من الجبهة الغربية في القتال؟». كانت لهجة السؤال تؤكد حق جوكوف في اتخاذ القرار بنفسه.

خلال آخر سنتين من الحرب كان ستالين قد تعلّم، إلى حد ما، كيف يفهم المسائل العملياتية، فيقترح في الكثير من الحالات محاصرة جيوش العدو خلال هذه العلمية أو تلك. بعد معركة ستالينغراد، حصل مراراً أن سأل «الأعلى» أنطونوف، بعد الاستماع إلى تقريره:

ـ ألا يمكن هنا أن نسبب للألمان «ستالينغراد» أخرى؟

لكن طاقم الأشكال العملياتية التي أمسك ستالين بناصيتها لم يكن غنياً، مع إنه كان يدرك كُنْه الفن العسكري ويقدّر الاقتراحات التي تأتيه (من قادة الجبهات وأعضاء القيادة العليا) حق قدرها،... ويبدي إعجاباً بفكرة تنظيم وإجراء عدد من العمليات المتتالية التي تختلف من حيث الفترات الزمنية والعمق الجبهوي. سيأتي زمن يبدأ فيه الكلام بالإجماع حول أن هذه النظرية هي ثمرة «العبقرية الاستراتيجية لستالين»، لكنه

كان يجد اكتشافات كبيرة في مقترحات الهيئة العامة للأركان والجبهات حول توجيه سلسلة من ضربات «التفتيت» وتصعيدها في العمق وعلى الجناحين (عملية أورلوف) أو حول تمزيق مجموعة معادية كبيرة وتدميرها بالتقسيط (عملية فيسلا وأودور).

إن ستالين، الذي ارتكب سلسلة من الأخطاء الكبيرة في تحديد اتجاه الضربة الأساسية للجيوش النازية أثناء الفترة الأولى من الحرب، بدا أكثر حذراً أثناء تحديده للجهود الأساسية للجيوش السوفييتية حين انتقلت إلى الهجوم المعاكس والهجوم. في شتاء ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ وصيف ١٩٤٣، ساند ستالين رأي القيادة العسكرية حول ضرورة إحراز النجاح الاستراتيجي على محور الجنوب الغربي. لكن في صيف ١٩٤٤ اتضح ان اقتراح الهيئة العامة للأركان حول نقل مركز الثقل في العمليات الهجومية إلى المحور الغربي من جديد يمكنه الاسراع في تحطيم الجيش الألماني... والأرجح أن «عبقرية» ستالين خلال الفترتين الثانية والثالثة من الحرب، كانت غالباً ما تتجلى من خلال فهمه وتأييده للمقترحات العقلانية التي يقدمها جوكوف وفاسيليفسكي وأنطونوف وقادة الجبهات.

كان الضغط والمطالبة «مهما بلغ الثمن» في أساس خطوات ستالين، بينما فكره يبحث بنشاط كبير عن طرق لزيادة فعالية الأعمال القتالية وتسريع القضاء على الجيوش الهتلرية. هذا ما تجلى في كونه لفت مراراً انتباه قادة الجيوش الاحتياطية إلى ضرورة الزيادة في التمويه العملياتي وتحسين العمل الإداري لهيئات الأركان في الجيوش والفيالق والكتائب، وتسريع مرور الأوامر والإيعازات والتوجيهات نحو القائمين على تنفيذها، وتشكيل وحدات خاصة ضد البطاريات، واستخدام سلاح الجو ووحدات الدبابات، إلخ. إن طيف هذه الإجراءات، التي وافق عليها «الأعلى» في سنوات ١٩٤٣ ـ ١٩٤٥، بمبادرة من الهيئة العامة للأركان، يدل بطابعه الاستراتيجي والعملياتي وحتى التكتيكي على أن الحرب والمعاونين العسكريين قد علّموا ستالين، فأصبح، بالحدس يشعر أين مواقع الضعف والقوة في القرارات التي يتّخذها.

أحياناً، كان يخطر لستالين بعض الأفكار التي تبدو لا منطقية، لكنها تلعب دوراً ملحوظاً. سبق أن ذكرنا قراره بإجراء العرض العسكري في ٧ تشرين الثاني (نوڤمبر). على نفس المنوال، اتخذ ستالين قراره بسوق عدد كبير من الأسرى الألمان عبر شوارع موسكو في صيف ١٩٤٤:

ـ هذا سيرفع أكثر من معنويات الشعب والجيش ويسرّعه في دحر الفاشيين. ماذا تقولون؟

كان مولوتوف وبيريا وفوروشيلوف وكالينين صامتين، ثم راحوا بعد برهة من الذهول يبدون موافقتهم:

ـ خطوة حكيمة يا يوسف فيساريونوفيتش!

ـ هذا يمكن أن يخطر ببالكم فقط!

ـ قرار عبقري!

لم يمضِ أسبوع حتى كان بيريا، في ١٣ تموز (يوليو)، يرفع تقريره إلى «الأعلى» حول العملية العجيبة:

«وفقاً لإيعازاتكم، يوسف فيساريونوفيتش، سوف يمر عبر موسكو في ١٧ تموز (يوليو) من هذا العام ٥٥ ألف أسير، بمن فيهم: ١٨ جنرالاً و ١٢٠٠ ضابط. سنجلب إلى موسكو من جبهات بيلوروسيا ـ ١، وبيلوروسيا ـ ٢، وبيلوروسيا ـ ٣، ستة وعشرين قطاراً. لقد بدأ الجنرالات دميتربيف وملوفسكي وغورنساتييف وقوميسار الأمن أركادييف يشتغلون بهذه المسألة على قدم وساق. المسؤولية عن حراسة ومرافقة القوافل داخل موسكو مناطة باثنين من العاملين في المخابرات هما فاسيليف وروماتيكو. في ١٦ تموز (يوليو) سنجمع الجميع على ساحة الاستعراض الخاصة بوزارة الشؤون الداخلية في ميدان سباق الخيل. حساباتنا كالتالي: ٢٦ قطاراً ـ ٢٦ رتلاً، ومسار الحركة هو: ميدان سباق الخيل ـ جادة لينينغراد ـ شارع غوركي ـ ساحة ماياكوفسكي؛ ثم الحلقة الدائرية: تريومفالنايا ـ كاريتنايا ـ ساماتيتشنايا ـ سوخاريفسكايا ـ سباسكايا ـ تشرنوغرياسكايا ـ تشكالوفسكايا ـ كريمسكي فال ـ جادة سمولينسكي، ثم عبْر باريكادنايا وكراسنوبريسنينسكايا، عودة إلى ميدان سباق الخيل... بداية التحرك ـ التاسعة صباحاً، والختام ـ حوالى الساعة ١٦»(٧٤). (بالمناسبة، طرأ تغيير على موعد ومسار الجولة فيما بعد).

سأل ستالين بيريا:

ـ هل سيتحمل الأسرى هذه الجولة الطويلة؟

ـ نعم، أيها الرفيق ستالين.

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ في الصباح الباكر من اليوم التالي سنقوم بإرسالهم في ١١ نقطة (محطات قطارات) إلى معسكرات في الشرق.

كان بيريا يود متابعة الكلام حول خطته، لكن ستالين لم يشأ الاستماع أكثر، بل نظر إلى رفاقه بمقت:

ـ إذا أُعطيتم فكرة، تنفذونها. لكن، أما كان بوسعكم أن تفكروا بأنفسكم في أمر كهذا؟

كان ستالين يولي أهمية خاصة لإجراءات التحفيز المعنوي. ففي أوائل أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣، اقترح «الأعلى» صياغة عدد من المعايير لأجل منح الأوسمة للضباط لقاء التنظيم الناجح لعمليات عبور الأنهار. بعد إضافات ستالين يبدو توجيه القيادة العليا المرسل إلى المجالس العسكرية في الجبهات والجيوش كما يلي:

«مكافأة على عبور نهر مثل ديسنا في منطقة بوغدانوفو (مقاطعة سمولينسك)، وأقل من مستوى نهر ديسنا من حيث صعوبة العبور يتوجّب أن يقدّم:

١ ـ قادة الجيوش لنيل وسام سوفوروف من الدرجة الأولى.

٢ ـ قادة الفيالق والكتائب والألوية لنيل وسام سوفوروف من الدرجة الثانية.

٣ ـ قادة الأفواج وقادة فصائل الهندسة والألغام وفصائل مد الجسور لنيل وسام سوفوروف من الدرجة الثالثة.

أما لقاء عبور نهر مثل الدنيبر وما يعادله من حيث صعوبة العبور، يجب تقديم القادة العسكريين المشار إليهم لنيل لقب بطل الاتحاد السوفييتي.

ستالين، أنطونوف

٩/٩/١٩٤٣. الساعة الثانية صباحاً»[٧٥]

ليس هذا التوجيه فريداً من نوعه، لأن ستالين كان، بشكل دوري، يستخدم الحوافز المعنوية قبل اجتياز الحواجز الصعبة، انطلاقاً من افتراض صحيح بأن مكافأة المبرزين هو عامل جوهري في تكوين ودعم الاندفاع القتالي لدى الجيوش المهاجمة. صحيح أن ستالين كان حساساً في مسألة منح الأوسمة، حيث رفض، مثلاً، الاقتراح بمنحه هو وسام النجمة الذهبية (بطل الاتحاد السوفييتي) في مناسبة عيد ميلاده هو (١/٩/١٩٤٩)، وهو اقتراح مالينكوف. لقد كان ستالين يحمل نجمتين ذهبيتين: بطل العمل الاشتراكي (١/٩/١٩٣٩) وبطل الاتحاد السوفييتي (١/٩/١٩٤٥)، فأبدى بُعد النظر حين اعتبر أنه يكفي أوسمة بعد نيله لوسام «النصر». يقال إن الرئيس ديغول، حين كان المداهنون يريدون تقليده أعلى وسام فرنسي، سألهم: «وهل تستطيع فرنسا أن تمنح وساماً لفرنسا؟». ستالين أيضاً قطع دابر الأوسمة المتدفقة، ليس عن مجرد حكمة، بل عن إدراك لمسألة بسيطة: الإكثار من الأوسمة بوسعه الإساءة إلى هيبة الزعيم وتخريبها. لكن بريجنيف وتشيرننكو لم يكن بوسعهما التوقف...

ذات مرة بلغ ستالين أن قائد جبهة البلطيق ـ ١، الجنرال يريمنكو، منح أوسمة وميداليات لمجموعة من العاملين في جريدة «قُدُماً نحو العدو» بالرغم من رأي المجلس العسكري للجبهة،... فما كان منه إلا أن أملى الأمر التالي (١٦/١٠/١٩٤٣، رقم ١٤٢)، باسم وزير الدفاع:

١ ـ إلغاء الأمر الصادر عن قائد جبهة البلطيق ـ ١، في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٣... وسحب الأوسمة والميداليات.

٢ ـ الغاء قرار المجلس العسكري لجبهة البلطيق ـ ١ حول منح وسام لمحرر الجريدة... كاسين، باعتباره قراراً غير شرعي، وسحب وسام «الحرب الوطنية» من كاسين.

٣ ـ الإيضاح للجنرال يريمنكو أن الحكومة أنشأت الأوسمة والميداليات لمكافأة المبرزين في النضال ضد المحتلين الألمان من جنود وضباط الجيش الأحمر، لكن ليس لأجل توزيعها الاعتباطي كيفما اتفق...

٤ ـ تخفيض رتبة العقيد كاسين، محرر الجريدة...

ستالين»[٧٦]

هكذا كان رد فعل ستالين على الإجراءات، الخاطئة برأيه، في مجال «سياسة

الأوسمة». لم تكن الأوسمة بالنسبة له أكثر من مجرد حافز لإحراز النجاح، وليس مكافأة على مأثرة ثم اجتراحها...

بعد توقيع الأوامر بعبور نهر فيسلا، صرف ستالين من مكتبه الجنرال أنطونوف، لكنه أعاده من عند الباب ليملي عليه توجيهاً جديداً: «ونظراً للأهمية الفائقة التي تتميز بها مسألة عبور فيسلا، تُلزمكم القيادة العليا بإبلاغ جميع قادة الجيوش في جبهتكم بأن الجنود والضباط المبرزين في عملية العبور سيحصلون على مكافآت خاصة، بما في ذلك لقب بطل الاتحاد السوفييتي.

١٩٤٤/٧/٢٩. الساعة ٢٤
ستالين، أنطونوف»(٧٧)

أثناء فترة الحرب، ما كان القادة العسكريون يعترضون على آراء ستالين إلا ما ندر. لكن بعد موته، وخصوصاً بعد المؤتمر العشرين، حصلت «مراجعة» جزئية أو عامة لآرائهم حول «موهبة» ستالين كقائد عسكري. بودّي هنا أن أسوق مثالاً على «الرأي الآخر» في الشؤون الاستراتيجية، وهو مثال قلّ من يعرفه اليوم.

في مذكراته «نهاية الرايخ الثالث» وفي عدد آخر من مقالاته وخطاباته، عبّر المارشال تشويكوف عن فكرة مفادها أن احتلال برلين كان ممكناً ليس في أيار (مايو)، بل في شباط (فبراير) ١٩٤٥. اعترض على هذا الرأي جوكوف وباجانيان وغيرهما من القادة العسكريين، ذمّا في ذلك من خلال الصحافة. حاول تشويكوف أن يرد على الاعتراضات في «المجلة التاريخية ـ العسكرية»، لكنها رفضت. عندئذ كتب تشويكوف إلى اللجنة المركزية للحزب، فقرر الناس هناك أن من الضروري «العمل» مع المارشال العنيد. هكذا، اجتمع لدى رئيس الإدارة السياسية للجيش، الجنرال يبيشيف، في ١٩٦٦/١٢/١٧، وبتكليف من اللجنة المركزية للحزب، العديد من المارشالات والجنرالات والخبراء لكي «يرشدوا» تشويكوف. كرر تشويكوف في خطابه مرة أخرى أن «القوات السوفييتية عبرت ٥٠٠ كم لتتوقف في شباط (فبراير) ١٩٤٥ على بعد ٦٠ كم من برلين... من الذي أخّرنا هناك؟ العدو أم القيادة؟ كان لدينا ما يكفي من الجيوش للهجوم على برلين. لقد منحنا العدو مهلة شهرين ونصف، قام بالاستفادة منها جيداً لإعداد الدفاع عن برلين...». وكان معارضو تشويكوف (يبيشيف، كونيف، زاخاروف، روكوسوفسكي، سوكولوفسكي، مسكالنكو، وغيرهم من المشاركين في اللقاء) يحاولون أن يشرحوا لزميلهم أن الزخم الهجومي لجيوشنا في تلك اللحظة كان قد همد: المؤخرة أصبحت بعيدة والوحدات منهكة، وكان لا بد من دعم إضافي وذخائر... ربما أن الحقيقة كانت إلى جانب الأكثرية، لكنني أرى في انعقاد ذلك الاجتماع شيئاً آخر، ألا وهو بداية «الحظر» على انتقاد ستالين... في الختام قدّم يبيشيف خلاصة الموقف، وفقاً لإيعازات اللجنة المركزية: آراء تشويكوف حول هذا الموضوع «غير علمية» ولا يجوز «تسويد تاريخنا، وإلا فبماذا نربّي الشبيبة؟»...

لنعد إلى سنوات الحرب. كان التصوّر الضعيف الذي يملكه ستالين حول الحياة في الجبهة وحول اللهاث الحار للخط الأمامي، حيث تلتقي في عراك ضار آلتا حرب

عملاقتان، كان تصوّره يفقر تفكيره كقائد. حين أدرك «الأعلى»، بعد ستالينغراد، إن الزمن أصبح يعمل لصالح النصر، راح يسترق كل مرة ٣٠ ـ ٤٠ دقيقة (في الليل، على الأغلب) ليشاهد التصوير السينمائي للجبهة. أحياناً كانت المشاهدة على بعض الأشرطة تدفعه على اتخاذ قرارات واسعة المدى: كان فكر القائد المكتبي، بعد استلام معلومات إضافية، يتكوّن عبر ما يتميز به من تصورات جاهزة توتاليتارية ونزعة قيصرية وريبة وشكوك وحذر.

ذات مرة، شاهد ستالين شريطاً سينمائياً فيه مشهد يجري على الحزام الجبهوي: في زريبة ما، نصف محترقة، في أحد الكولخوزات، قبض الجنود على اثنين من السوفييت الذين خدموا في البوليس الألماني خلال فترة الاحتلال. صدرت أوامر «الأعلى» فوراً: إرسال توجيه إلى قادة الجبهات (ونسخة منه إلى بيريا) يطالبهم بالتنفيذ القطعي لتوجيه القيادة العليا السابق بتاريخ ١٤/١١/١٩٤٢، الذي يقضي بإقامة شريط محاذٍ للجبهة يتم إخلاؤه بالكامل من السكان من أجل «الحيلولة دون وصول عملاء العدو وجواسيسه إلى مواقع القطع العسكرية». وكتب ستالين بيده: «هام جداً. يجب أن يكون الشريط المحاذي للجبهة مغلقاً على جواسيس العدو وعملائه. آن لنا أن نفهم: النقاط الآهلة بالسكان قرب الجبهة هي مرتع ملائم للجواسيس والعمل التجسسي»[٧٨]. لا تتضمن الوثيقة أية إشارة إلى ضرورة الإجلاء بهدف ضمان أمن السكان المدنيين (وهم مواطنون سوفييت!) أو إلى إبداء الحرص عليهم. إن «التفكير الجاسوسي» وجد هنا أيضاً، قبل كل شيء، خطراً ينبع من جانب المواطنين المحرَّرين ـ لم تطرأ أية تغييرات على ستالين في هذا الصدد...

لقد حدث لستالين أن يشك حتى بـ جوكوف من ناحية عدم الدقة في المعطيات الواردة من الجبهات حول عدد الخسائر:

«إلى الرفيق يوريف (جوكوف).

استلمت برقيتكم التي تطلبون فيها أن نرسل إليكم فيلقاً جوياً هجومياً، نظراً لأن هنالك في جبهة أوكرانيا ـ ١، كما تقولون، توجد ٩٨ طائرة مقاتلة فقط... لا بد أنه قد تم تضليلكم.

في الواقع، يوجد، لديكم ٩٨ طائرة مقاتلة زائد ٩٥ طائرة مقاتلة ضمن قوام الكتيبة الجوية الـ ٢٢٤ المنتشرة في بريلوكي. هذا يعني أن العدد الإجمالي لديكم هو ١٩٣ طائرة مقاتلة سليمة، يضاف إليها ١٤٣ طائرة مقاتلة أرسلت إليكم على دفعات لاستكمال طواقم الكتائب الجوية. بالتالي، العدد الإجمالي للطائرات في جبهتكم هو ٣٣٦ طائرة مقاتلة سليمة.

١٦/٣/١٩٤٤. الساعة الواحدة و ٤٥ دقيقة
إيفانوف (ستالين)»[٧٩]

معطيات القائد الأعلى تختلف عن معطيات نائبه: ٣٣٦ و ٩٨ ـ فارق كبير جداً. الأغلب أن كلا الرقمين غير صحيح، لكن هذا يدل على مصلحة بعض الضباط وهيئات الأركان في وجود معلومات مشوّهة!

إذا كان ستالين في بداية الحرب يثق بأية بلاغات واردة، فإنه بدأ لاحقاً يتخذ موقفاً أكثر هدوءاً من البلاغات مهما كانت دراماتيكية. لم يعد هتلر قادراً على إحداث تغيير جذري أياً كان، فالزمن يعمل لصالح الحلفاء. لذلك، كان حين يستلم إشارات غير دقيقة يوبّخ القادة ومعهم ممثلي القيادة العليا الموجودين في الجبهات:

«إلى قائد جبهة البلطيق ـ ١، الجنرال يريمنكو.

نسخة إلى الرفيق فورونوف.

الضجة التي أثرتموها حول هجوم كبير للقوى المعادية التي تبلغ حوالي كتيبتي دبابات قادمة من جبهة يزيريتشه نحو ستودينيتس، لا أساس لها في الواقع، وبلاغكم كان مذعوراً... مستقبلاً، لا تسمحوا بتقديم بلاغات تتضمن استنتاجات غير دقيقة ومذعورة إلى القيادة العليا والهيئة العامة للأركان.

١٢/١١/١٩٤٣. الساعة ٢٤
ستالين»(٨٠)

لقد قلنا سابقاً إن تفكير ستالين كرجل استراتيجيا كان يستند إلى معارف وتجربة القائد السياسي، إلى فهمه لدور ومكانة العوامل الاقتصادية والتقنية والتنظيمية والمعنوية في الصراع المسلح. هذا ما كان يسمح لـ «الأعلى» بنظرة أكثر اتساعاً إلى عمليات الحرب، وبرؤية أعمق لترابطها مع الوضع الدولي ومع نشاطات الحلفاء والعوامل السياسية الخارجية. يمكننا القول إن ستالين كان يتمتع بالعقل الحازم لرجل السياسة، المضطر إلى الاشتغال بالمسائل العسكرية، دون أن يرتفع إلى مستوى التفكير الاستراتيجي الحقيقي. لقد تمكن «الأعلى» من التعويض عن هذا الضعف بتنظيم عمل نشيط في «دماغ الجيش»، أي الهيئة العامة للأركان. إن كل الأفكار الهامة التي تجسدت في العمليات الدفاعية والهجومية قد ولدت في «المركز الدماغي» للقيادة العليا، أي في وسط معاونيه العسكريين. لذلك، سيكون من الأصح أن نقول إن «الأساس الذهني» للقيادة العسكرية كان في القيادة العليا والهيئة العامة للأركان. يتلخص دور ستالين إلى حد كبير في ضمان «الأساس الإرادي» للقيادة العسكرية. إن ستالين، بما اتصف به من سلطة لا حدود لها بين يديه كديكتاتور عسكري، كان يضفي على قرارات القيادة العليا طابعاً إلزامياً، وذاتياً أحياناً، يقترن بعواقب سلبية في أغلب الأحوال.

ربما كان «الأعلى» إلى حد ما يشعر بعيوبه ـ لا بل بالنقص الموجود لديه ـ كقائد عسكري لا يعرف حياة الجبهة. إن عقدة النقص هذه كانت تشتد أكثر بسبب التواجد الدائم لرفاقه في جبهات القتال: جدانوف على ارتباط وثيق مع جبهة لينينغراد، ورأى بأم عينه حصار المدينة وعاش، كعضو في المجلس العسكري، في غمرة الأحداث العسكرية. خروتشوف أيضاً لم يكن يغادر الجبهة. أما مالينكوف، فقد بقي فترة طويلة في مخبأ أرضي على جبهة ستالينغراد. كذلك كان الأمر مع ميخليس، الذي تتمخض زياراته للجبهات أحياناً كثيرة عن تحقيق في شؤون هذا القائد العسكري أو ذاك، كما في حالة سوكولوفسكي، قائد جبهة أوكرانيا ـ ١(٨١). لقد جرّب ستالين إرسال

كاغانوفيتش أيضاً إلى الجبهة، لكن النتائج لم تكن مشجعة، واضطر ستالين إلى تعنيفه هو والقادة الآخرين لجبهة شمال القفقاز(٨٢).

غالباً ما كان ستالين يجتذب بيريا إلى حل الشؤون الخاصة بتأمين مؤخرة الجبهة و «بعثرة» الجنود الخارجين من الحصار على معسكرات الاعتقال و «تعبئة» مئات آلاف المعتقلين للعمل على تلبية حاجات الجبهة، وكذلك تشكيل بعض الوحدات العسكرية الاحتياطية(٨٣). وغالباً ما كان ستالين يصدر إيعازات بناءً على طلب من بيريا(٨٤)، الذي كان استفزازياً عن حق، حيث شارك مع ستالين خلال فترة الحرب في اتخاذ عدد من القرارات الإجرامية في المسألة القومية التي ما زال صداها يتردد حتى يومنا هذا. لقد تكشّف بعض من جوانب العمل الإجرامي الذي قام به بيريا في جبهة شمال القفقاز، حين بُدئ التحقيق في قضيته عام ١٩٥٣ (٨٥ـ ٨٧). كان ستالين بحاجة ماسة إلى بيريا، رغم أنه كان ـ على ما يبدو ـ يحتقر هذا الرجل في قرارة نفسه، لكنه يستخدمه بمثابة جلاد ومنفّذ لإرادته ومخبر له عن مختلف الشؤون: من محاولات الألمان لاغتيال «الأعلى» في عقر داره، إلى نتائج التجسس على نشاط بعض القادة العسكريين، كما في حالة قائد القوى الجوية نوفيكوف أثناء فرز الطائرات اللازمة للعمليات العسكرية في جبهة كالينين والجبهة الغربية(٨٨).

بعد روايات بيريا ومالينكوف عن زياراتهما للجبهات، قرر ستالين أن يزور الجبهة حتماً، ولو من أجل التاريخ. وقد تم تنظيم زيارة من هذا النوع، بطريقة فائقة السرية، إلى جبهة كالينين والجبهة الغربية في أوائل آب (أغسطس) ١٩٤٣. كان ذلك، حسب اعتقاده، يزيل آخر نقاط الضعف في سيرته كقائد عسكري.

في الأول من آب (أُغسطس)، سافر ستالين على متن قطار من محطة كونتسوفو، حيث انتقيت لهذا الغرض قاطرة عتيقة ومقطورات نصف مهترئة، وأُلحقت بالقطار عربة محملة بالحطب ـ للتمويه. كان برفقة ستالين كل من بيريا ومعاون ستالين روميانتسيف وفريق الحرس الذي ارتدى ثياباً مختلفة بقصد التمويه أيضاً. في موقعة غجاتسك، التقى ستالين مع قائد الجبهة الغربية سوكولوفسكي وعضو المجلس هناك بولغانين، حيث استمع إلى قادة الجبهة وعبّر عن أمنيات عمومية. بعد المبيت لليلة واحدة، اتجه ستالين إلى مدينة رجيف، حيث قيادة جبهة كالينين وعلى رأسها يريمنكو. توقّف ستالين في قرية خوروشيفو في منزل فلاحة بسيطة على طرف القرية (بعد أن تم إخلاء البيت من صاحبته طبعاً). لا يزال ذلك البيت (الذي أُحيط بافريز من الخشب المنقوش وعُلّقت عليه لوحة تذكارية) موجوداً بمثابة ذكرى لـ «المأثرة» الميدانية للقائد الأعلى. يقال إنه في ذلك البيت بالذات أصدر أوامره حول إطلاق الشهب النارية على شرف تحرير أوريول وبيلغورد. لكن ستالين لم يشأ الذهاب إلى خط الجبهة والالتقاء بالضباط والجنود. بعد المبيت في خوروشيفو، دون أية حوادث دراماتيكية، ركب «الأعلى» سيارة وعاد إلى موسكو برفقة بيريا والحرس. الآن لم يعد أحد يتجرأ أن يفكر أن القائد العسكري الأعلى لم يرَ الجبهة إلا في التصوير السينمائي وفي تقارير الهيئة العامة للأركان وممثلي القيادة العليا في الجبهات.

لكن، هل كان هنالك من موجبات لتواجد «الأعلى» في الجبهة؟ فهل كان ستالين

يزور المصانع رغم أنه أشرف على عملية القفزة الصناعية في البلد؟ لقد حدث له مرة واحدة فقط أن تواجد في الريف، لكن أية «ثورة من فوق» أحدث هذا الرجل في الريف! هل تشكل ساحات القتال استثناءً للقاعدة؟ كان ستالين يجيد أن يرى كل شيء ويعرف كل شيء من مكتبه في الكرملين. لقد كان الرجل معلّماً لا يشق له غبار في القيادة المكتبية. ولذا، فإن تلك الزيارة «المماسة» للجبهة (في الحقيقة ستالين لم يقترب من خط الجبهة الفعلي) كانت تلزمه ليس للتعرف على شؤون الجبهتين، وليس للتزود بانطباعات من اللقاء مع الجنود الذي يستعدون لشن الهجوم. كلا. كانت زيارة ضرورية من أجل التاريخ، وكان ستالين يفكر بالاسم الذي سيتركه في التاريخ. فالمؤرخون اللاحقون يجب أن يعكسوا بكل تقدير تلك الواقعة في نشاط ستالين كقائد عسكري، ويدونوا في سيرة حياته صفحة حول الزيارة المحفّزة التي قام بها القائد الأعلى إلى وحدات الجيش المقاتلة. مع ذلك، اعتبر ستالين من الضروري أن يسمع الحلفاء بزيارته إلى الجبهة منه شخصيا. ها هي فقرات من رسائله إلى روزفلت وتشرشل:

«من ستالين إلى روزفلت.

١٩٤٣/٨/٨.

فقط الآن، بعد العودة من الجبهة، أستطيع إرسال الجواب عن رسالتكم الأخيرة بتاريخ ١٦ تموز (يوليو). لا شك لدي في أنكم تقدرون وضعنا العسكري، وسوف تفهمون التأخير الذي حصل في الإجابة... فأنا مضطر **للإكثار من التواجد الشخصي** (التشديد للمؤلف) في مختلف قطاعات الجبهة وإخضاع كل الأمور الأخرى لمصلحة الجبهة».

«من ستالين إلى تشرشل:

١٩٤٣/٨/٩.

لقد عدتُ للتو من الجبهة، واطلعت على رسالة الحكومة البريطانية بتاريخ ٨/٧... رغم بعض النجاحات التي أحرزناها على الجبهة في الآونة الأخيرة، يتطلب الوضع من الجيوش السوفييتية والقيادة العسكرية السوفييتية توتراً استثنائياً في الجهود ويقظة قصوى حيال ما يمكن أن يتخذه الخصم من خطوات جديدة. نظراً لذلك، أجدني مضطراً للتواجد **أكثر مما هو معتاد** (التشديد للمؤلف) في الجيوش، في هذه القطاعات أو تلك من الجبهة»[٨٩].

يكتب ستالين هذا الكلام فقط ليبرر عدم رغبته في السفر إلى سكوبا ـ فلو للقاء مع زعيمي الدولتين، يكفي التذرع بتعقيد في الوضع على الجبهة. كان «الأعلى» يتمنى أن لا يذاع خبره كقائد عسكري مكتبي. ولفرحته، يبدي روزفلت وتشرتشل في رسالتهما المشتركة إلى ستالين (١٩٤٣/٨/١٩) تقديراً عالياً لدور «الأعلى» الشخصي في القيادة المباشرة للجبهة: «... إننا نتفهم بالكامل تلك الأسباب الموجبة التي تضطركم للتواجد قرب جبهات القتال، حيث إن حضوركم الشخصي يحفز على الانتصارات بقدر بالغ»[٩٠].

لقد كان ستالين على رأس الشعب والجيش خلال الحرب. ومارس، بطموحه الهادف وإرادته، كقائد سياسي وحكومي، دوره في تحطيم النازية. إذا انطلقنا من أن قائد بلد ضخم وجبار كالاتحاد السوفييتي كان يتمتع بجوانب مختلفة في شخصيته، فإن الجانب الذي يتمثل بالقائد العسكري في تلك الشخصية لم يكن هو الأقوى. قاد «القائد الأعلى» قواتنا المسلحة إلى النصر عبر ثمن باهظ من الخسائر. يقول بيرديايف في سياق فكره الديني ـ الفلسفي ان «الحرب هي خطيئة، لكنها أيضاً تكفير عن الخطيئة»[٩١]. ويمكن أن ندقق نحن الكلام: الحرب هي تكفير الأبرياء عن خطايا الآخرين. الحرب تأخذ إلى الدنيا الآخرة الآلاف والملايين من أرواح الناس الذين لم يتمكنوا من السير حتى النهاية على الطريق التي قُدّر لهم أن يسيروا عليه.

من المعروف أن الموهبة الحقيقية والتفكير الاستراتيجي لدى القائد العسكري يكونان على قدر من الأهمية حين تتوفر لديه المقدرة على بلوغ أسمى الأهداف بأقل ما يمكن من التضحيات. ستالين لم يبدِ موهبة من هذا النوع، بل اضطر الشعب السوفييتي إلى تقديم ٢٠ مليون روح، ضحية على مذبح النصر.

تفيد معطيات البروفيسور كفاشا، انطلاقاً من الحسابات الرياضية، وكذلك معطيات التحليل الذي أجريته للعديد من الأرقام الدقيقة والنزعات الثانوية في الإحصاءات، أن الخسائر المباشرة لشعبنا خلال سنوات الحرب قد بلغت حوالى ٢٦ ـ ٢٧ مليون إنسان. وحساباتي التي أجريتها بعناية تؤكد أنه ما من شعب آخر عبر التاريخ كله دفع مثل هذا الثمن لقاء حريته واستقلاله. زد على ذلك أن عدد الخسائر غير المباشرة مخيف هو الآخر، وما زال التاريخ يجهل عددها الدقيق. إذا وضعنا العدد الإجمالي مقابل «عبقرية» ستالين كقائد عسكري، سيتضح لنا فوراً كم هو غير موفق كل الكلام حول فضله الخاص في إحراز النصر. كل الأفضال هنا تعود للشعب السوفييتي. قال ڤولتير ذات مرة: «الجنرال الذي يحرز النصر، لم يرتكب في نظر الناس أية أخطاء...» وهذه الكلمات أفضل تعبير عن حالة ستالين.

في نهاية الحرب، كان ستالين، إلى جانب انشغاله بالشؤون العسكرية، يعير اهتماماً متزايداً للقضايا الأخرى. كان ذلك يدغدغ ذاتيته: كل شيء تحت سلطته. كل شيء يتم بمشيئته. كان القائد العسكري الذي يسميه الجميع «عظيماً» ينقل مركز اهتمامه نحو الشؤون الأخرى: من الأنباء حول العثور على أقرباء روكوسوفسكي البولنديين إلى استقبال نائب الكاثوليكوس الأرمني جورج تشيوركتشيان الذي يطلب إحياء مدينة إشميادزين المقدسة وافتتاح أكاديمية دينية ومجلة، وترميم كنيسة «سفارتنوس»، إلخ[٩٢]...، إلى فرز فصيلة من قوات الأمن لحراسة الرئيس التشيكوسلوفاكي بينيتش[٩٣].

ستالين يتصفح عشرات الأوراق، واحدة تلو الأخرى: حول عدد أسرى الحرب في معسكرات الاتحاد السوفييتي، وحول عمل نقاط «الغربلة» على استقبال المواطنين السوفييت في الوطن (حيث ذهب عشرات الآلاف منهم إلى معسكرات الاعتقال)، وحول اشتداد حركة العصابات في منطقة البلطيق، وحول العملية التي تنظمها المخابرات تحت

إشراف كوبولوف وتسانافا وبيلتشنكو في غرب بيلوروسيا «لاقتلاع العناصر المعادية للسوفييت والقضاء على مجموعات العصابات المسلحة»... بيريا يبلغه أن العديد من المناطق في شرق البلاد يخيم عليها الجوع، خصوصاً كازاخستان وما وراء بحيرة البايكال... وبعد حين سيأتيه العسكر لتقديم تقريرهم... بعد العسكر سيأتي مولوتوف: بدأ زمن الحديث بلغة الدبلوماسية بدلاً من لغة المدافع، وسيكون الصوت عالياً.

ستالين والحلفاء

مشعل الحرب الذي أوقده هتلر قبل أربع سنوات في برلين يكاد ينطفيء، في برلين ذاتها. بين أواخر نيسان (ابريل) وأوائل أيار (مايو)، كان أنطونوف يقدم يومياً تقارير إلى ستالين حول التقاء جيوشنا بجيوش الحلفاء... هنا كان يكمن، بالنسبة للقائد الأعلى، ذلك الجانب من الحرب الذي تتعلق به (ليس لدى ستالين فقط) آمال وتوقعات وإحباطات ومتاجرات وشكوك وآمال جديدة، وأخيراً ـ تعاون عسكري حَسن المسار. إلى جانب التقرير الإجمالي لهيئة الأركان العامة حول حوادث التماس بين القوات السوفييتية وقوات الحلفاء، وضع أنطونوف على طاولة ستالين مصنفاً مليئاً بالبلاغات: من هيئة أركان الكتيبة الـ ٥٨، ومن هيئة أركان جبهة بيلوروسيا ـ ١، ومن قائد الجيش الـ ٦١، ومن قائد جبهة بيلوروسيا ـ ٢، ومن هيئة أركان جبهة أوكرانيا ـ ٣، ومن الإدارات السياسية للجيشين الخامس والثالث عشر، وغيرها. لقد طلب ستالين هذه البلاغات خصيصاً، إذ كان يريد أن يلمس بشكل مباشر شعور الجنرالات والضباط وضباط الصف والجنود، ليعرف سلوك الحلفاء ويدقق نهجه تجاههم في المستقبل: الحرب تقترب من نهايتها في الغرب فقط!

حين مدّ قادة الحلفاء الأيدي إلى بعضهم بعضاً في طهران ومن ثم في يالطا (وقريباً في بوتسدام)، انجزوا بذلك سلسلة من الخطوات نحو إدراك الحقيقة التي ستنهض أمام الأعين بكل قامتها، فقط بعد نصف قرن تقريباً، من النصر المشترك. إن أبناء هذا الكوكب يعيشون في بيت كونيّ مشترك يحلق في فضاءات الفلك اللانهائية، وإن حضارتنا الأرضية فريدة في نوعها، وربما كانت الوحيدة في هذا الكون الذي لا حدود له. ويبدو أن لا ستالين ولا تشرشل ولا روزفلت، الذي توفيّ قبل الأوان، كانوا يدركون ذلك آنذاك. لا توجد حول كوكبنا «سفن» تشبهه، ولذا فإن أية محاولة يبذلها جزء من سكان الأرض لإبادة الآخرين (لأنهم يعيشون ويفكرون على نحو آخر) قد تؤول إلى تدمير هذا العش الكونيّ الذي لا بديل له. آنذاك، ما كانت البشرية تدري بعد أنها تدخل العصر النووي ـ الفلكي، لكن تحالف الأعداء السابقين كان يبدو يومئذ، في ربيع عام ١٩٤٥، متيناً وطويل الأمد. رغم كل ما تميز به ستالين من أورثوذكسية، ضحى بالكومنتيرن (الأممية الشيوعية) لصالح التحالف المعادي للفاشية، كما وضع جانباً المبادىء الإيديولوجية وغضّ النظر عن العداء القديم والمتأصل للسوفييت لدى تشرتشل وباقي الديمقراطيات الغربية. ففي أشد اللحظات حرجاً، كان ستالين يضع الاعتبارات البراغماتية في المقام الأول.

كان القائد الأعلى يقرأ ـ عادة ـ بلاغات الهيئة العامة للأركان والجبهات وممثلي

القيادة العليا فقط. أما الآن، في أيام الظفر الداني، راح يتصفح الكثير من البلاغات التي تنطوي على مضامين أخرى. هنا أحد تلك البلاغات:

«في الساعة ١٥ و ٣٠ دقيقة من يوم ١٩٤٥/٤/٢٥، في منطقة الجسر الواقع إلى الشرق من «تورغاو» حصل لقاء بين طاقم الضباط في فوج الرماة الـ ١٧٣ ودوريات جيوش الحلفاء العائدة للجيش الأمريكي الأول والفيلق الخامس وكتيبة المشاة الـ ٦٩. عبَرَ إلى الضفة الشرقية من نهر إلبا خمسة أشخاص لخوض المفاوضات، يترأسهم ضابط الجيش الأمريكي روبرتسون...

رودنيك»(٩٤)

من هو رودنيك هذا؟ كيف سيتصرف هؤلاء الـ «رودنيكات» أثناء المعاشرة مع جنود الحلفاء ـ أبناء ذلك العالم، العالم الرأسمالي؟ هل سيحصل بينهم تآخٍ أم احتكاكات؟

تذكّر ستالين هنا البرقية التي استلمها قبل ثلاثة أسابيع تحت علامة «هام جداً»، التي يقول فيها أباكوموف ـ على أساس تقرير من قسم «سميرش» (قوات مكافحة التجسس ضمن المخابرات السوفييتية أيام الحرب ـ المترجم) في منطقة التمركز الجوي رقم (٦٨) في بولتافا (كان مطار بولتافا في صيف ١٩٤٤ يُستخدم من قبل الأمريكيين لأجل الغارات الجوية «المكوكية» ـ المحرر) ـ إن الجنرال كوفاليوف صرّح هناك: «أمورنا مع الأمريكيين لا تمشي، ولا يستبعَد احتمال صدام مسلح معهم هنا في بولتافا». وأصدر الجنرال أوامر باتخاذ بعض الإجراءات «تحسباً للأحوال الطارئة». قرأ ستالين البرقية واستعاذ من الشيطان بصوت منخفض:

ـ من أين ينبثق لدينا مثل هؤلاء الأغبياء؟ هذا الكوفاليوف، وصل إلى حد أن يرسم خطة للأعمال القتالية!...

ثم كتب على البرقية بالمَيْل وبخط عريض:
«إلى الرفيق فلالييف، القوى الجوية.
أرجو منكم كبح جماح الرفيق كوفاليوف ومنعه من تصرفات الجنوح التلقائية.
ستالين»

ها هو بلاغ آخر: «اللقاءات مع الجيوش الأمريكية والإنكليزية تجري في جو من الفرحة الجياشة. إليكم ما جرى أثناء لقاء الجنرالات: قائد كتيبة الرماة الـ ٥٨ روساكوف وقائد كتيبة المشاة الأمريكية الـ ٦٩ رينهارد... أنخاب وخطابات وهدايا وصيحات «هوراه!». ويبلغ كاتكوف، مدير القسم السياسي في الجيش الخامس، أن الأمريكيين حاولوا في ذلك اللقاء أن يأخذوا بمثابة هدايا تذكارية النجوم والكتافيات والأزرار من ضباطنا... ويكتب الجنرال أن الجنود السوفييت مندهشون من صعوبة التمييز لدى الأمريكيين بين الجنرال والجندي، فالجميع يلبسون زياً عسكرياً واحداً. أما عندنا، فيمكن معرفة الجنرال وهو آتٍ من بعيد، شيء آخر تماماً...»(٩٥).

ستالين موافق ضمنياً مع الجنود السوفييت. هو نفسه يحب بزة المارشال،

والآن لا يكاد يفارقها، لا بل يتباطأ أحياناً عند المرآة برهة أو أخرى. الأمريكيون، بديمقراطيتهم العفنة لا يدركون ضرورة أن يوجد في المجتمع تدرّج هرمي! البزة العسكرية تعرض ذلك التدرّج فوراً أمام الجميع... بالمناسبة، فإن كاتكوف يقول في بلاغه أن الكاتب قنسطنطين سيمونوف حضر ذلك اللقاء... فقال «الأعلى» في نفسه: «إنه يكتب عن الحرب بطريقة لا بأس بها»... إنهم، هناك، يتآخون اليوم، لكن كم من الجهود بذلنا لإقامة أواصر التعاون! كان لا بد من القفز فوق فترة طويلة من انعدام الثقة وسيطرة الريبة بين الاتحاد السوفييتي والديمقراطيات الغربية. وما لم يتسنّ فعله قبل الحرب، تم إنجازه بـ «معونة» من هتلر. فالفوهرر، حين راح يشن الحرب على جبهتين، جعل الاتحاد السوفييتي والديمقراطيات الغربية حلفاء، دون أن يريد ذلك. يذكر ستالين الآن كيف جاء إلى الكرملين في ١٢/٧/١٩٤١ سفير بريطانيا كريبس وموظفون، أعضاء البعثة البريطانية. التقى مع الانكليز ستالين ومولوتوف يرافقهما شابوشنيكوف وكوزنيتسوف وفيشينسكي. ستالين لم يكن قادراً بعد على التحرر من الهزة التي عاشها بعد بداية الحرب، ويجد صعوبة بالغة في أن يضع على وجهه قناع الهدوء المعتاد الموحي بالعظمة. فللتوّ، قبل هذا اللقاء الرسمي بنصف ساعة، أبلغه شابوشنيكوف أن مجموعتي الدبابات الألمانية الثانية والثالثة، وأجزاء من وحدات الجيش التاسع في مجموعة «سنتر» قد خرجت بجبهة عريضة نحو تخم نهر دفينا الغربي ونهر الدنيبر... يا للهول: الألمان عند نهر الدنيبر! كانت القبضة الضاربة للقوات الألمانية (حوالى ٧٠ تشكيلاً عسكرياً) تحاول ـ بعد بداية معركة سمولينسك ـ أن توجّه ضربة قاتلة إلى مدينة موسكو!... هكذا راح ستالين ـ فاقداً التوازن الداخلي ـ يتبادل التحية بطريقة آلية مع الانكليز وينظر ذاهلاً إلى مولوتوف وظهر كريبس، حين جلسا للتوقيع على اتفاق حول الخطوات المشتركة للبلدين.

إنه يذكر أيضاً كيف أن السفير السوفييتي في لندن، مايسكي، ووزير الخارجية التشيكي، ماساريك، وقّعا ـ بعد أسبوع من ذلك ـ على اتفاق مماثل، ثم جرىٰ هنالك أيضاً، في لندن بالذات وفي شهر تموز نفسه، الاتفاق بين الاتحاد السوفييتي والحكومة البولندية حول المساعدة المتبادلة في الحرب ضد ألمانيا. آنذاك ألحّ الجانب البولندي على التأكيد في الفقرة الأولى من الاتفاق: «حكومة الاتحاد السوفييتي تعتبر الاتفاقات السوفييتية ـ الألمانية لعام ١٩٣٩ حول التغييرات الحدودية في بولندا فاقدة المفعول»(٩٦). في نفس اليوم التقى ستالين مع المبعوث الشخصي للرئيس الأمريكي روزفلت، السيد هاري هوبكينز، حيث صرح الأخير ـ بتوكيل من رئيسه ـ أن «الذي يقاتل ضد هتلر هو الطرف المحقّ في هذا النزاع، ونحن ننوي تقديم المساعدة لهذا الطرف»(٩٧).

عندئذ، عرض ستالين بشكل موجز طلباً حول المساعدة التقنية وعبّر عن أمله في كون الرئيس يفهم وضع الاتحاد السوفييتي. ثم عقد الاتفاق حول المعونة في وقت لاحق، لكن زيارة هوبكينز دشنت بداية ترتيب التعاون.

بعد سنة سيوقّع السفير السوفييتي في الولايات المتحدة الأمريكية، ليتفينوف، ووزير الخارجية الأمريكي كوردل هيل على اتفاق حول مبادىء «خوض الحرب ضد

العدوان». قبل ذلك، أثناء الجلسة مع هوبكينز، عرض ستالين الوضع الحرج على الجبهات وطلب (لم يكن يعرف كيف يطلب، فهو لم يسبق له أن يطلب) من الولايات المتحدة إرسال مدافع مضادة للطيران ـ بأسرع ما يمكن ـ وكذلك رشاشات مضادة للطيران وبنادق وألمينيوم لصناعة الطائرات وبنزين يحوي على نسبة عالية من الأوكتان. ثم تابع ستالين يقول ـ بصوت خفيض، لكن بإلحاح: ـ أرجو أن تنقلوا إلى الرئيس. فيما بعد ستلزمنا طائرات، كثير من الطائرات...

في تموز (يوليو)، كان ستالين قد أرسل إلى إنكلترا بعثة خاصة برئاسة غوليكوف، وقام بإعطاء التوجيهات لهذا الجنرال شخصياً، وكلّف كلاً من شابوشنيكوف وتيموشنكو وميكويان القيام بنفس الأمر فيما يخص الشؤون التفصيلية. كان أمام الجنرال غوليكوف مهمتان رئيستان: تحفيز الاهتمام الاستراتيجي حيال إنزال انكليزي في أوروبا أو في دائرة القطب الشمالي، والعمل على الإسراع في تقديم المعونة العسكرية التقنية. بعد عودته إلى موسكو، وتقديم تقرير إلى ستالين على مدى نصف ساعة، تلقى غوليكوف إيعازاً بأن يتوجه فوراً إلى الولايات المتحدة. هنا ركّز ستالين الاهتمام على المسألة الأساسية: ترتيب الشحن العسكري على نطاق واسع وبأقصر مدد ممكنة. أمام خطر الهزيمة، راح ستالين يبدي نشاطاً كبيراً في المجال السياسي ـ العسكري، وتراجعت التناقضات الإيديولوجية بسرعة إلى المقام الثاني، كاشفة عن جوهرها الثانوي وإمكانية تجاوزها.

لقد تجاوز ستالين ـ بصفته براغماتياً نموذجياً كلّ القناعات المسبقة على الصعيد الإيديولوجي وذهب بحزم للقاء الدول الغربية العظمى. على أية حال، لم يكن لديه خيار عقلاني آخر. وعموماً، يجب القول إن ستالين له الدور البارز في تكوين التحالف المعادي للهتلرية. فالزعيم السوفييتي ـ منذ بداية الحرب، وبقدر ما كان يكتسب توازنه الداخلي ـ راح يطمح إلى الحصول على دعم أكبر عدد ممكن من الدول، وفعل كل ما يمكن لكي تبقى اليابان وتركيا على موقف الحياد تجاه الاتحاد السوفييتي. لكنه، بطبيعة الحال، كان يعلّق آمالاً خاصة على بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

سعى ستالين مباشرة إلى نقل التعاون الناشىء إلى الميدان العملي. فها هو في واحدة من أولى رسائله إلى تشرتشل، في يوم ١٩٤١/٧/١٨، يطرح مسألة مباشرة: «يبدو لي... أن الوضع العسكري للاتحاد السوفييتي ولبريطانيا ـ على حد سواء ـ من شأنه أن يتحسن بدرجة بالغة، إذا ما تم تشكيل جبهة ضد هتلر في الغرب (شمال فرنسا) وفي الشمال (دائرة القطب الشمالي)». في كل مباحثاته ومراسلاته وبرقياته ـ لاحقاً ـ لن يكلّ ستالين من التذكير بمسألة الجبهة الثانية. مع ذلك، نجده في رسالته هذه يفصل بين الوقائع الراهنة وبين مناوراته وخطواته قبل الحرب، مبرراً التغييرات الحدودية التي لم يوافق عليها الغرب: «يمكننا أن نتصوّر كم كان الموقف سيكون أفضل بالنسبة للجيوش الألمانية، لو أن الجيوش السوفييتية تلقّت أول ضربة منها ليس في مناطق كيشينيوف ولفوف وبريست وبيلوستوك وكاوناس وفيبورغ، وإنما في مناطق أوديسا وكافينيتس ـ بودولسك ومينسك وضواحي لينينغراد»[٩٨].

من المعروف أن تشرشل، في ٢٦ تموز (يوليو)، أعلن عن الاستحالة الفعلية لفتح الجبهة الثانية في فرنسا، وأن ستالين، الذي دفعته الجيوش الألمانية في شهر آب (أغسطس) إلى وضع حرج، وجّه رسالة شخصية إلى تشرشل بلهجة صريحة، لا بل قاسية تجاهه هو وتجاه الحلفاء. بعد الحديث عن الإخفاقات الاستراتيجية التي حصلت من جديد على الجبهة السوفييتية ـ الألمانية، يتساءل ستالين: «كيف يمكن الخروج من هذا الوضع الذي يبدو أكثر من معقد؟... أظن أن هنالك مخرجاً واحداً فقط من هذا الوضع، وهو أن تتشكل، في هذه السنة بالذات، الجبهة الثانية في مكان ما من إقليم البلقان أو فرنسا، ليكون بوسعها أن تشد من الجبهة الشرقية ٣٠ ـ ٤٠ كتيبة ألمانية، وفي الوقت ذاته، أن يقدّم للاتحاد السوفييتي زهاء ٣٠ ألف طن من الألمنيوم قبل بداية تشرين الأول (أكتوبر) من هذا العام، ومساعدة **شهرية** حدها الأدنى ٤٠٠ طائرة و ٥٠٠ دبابة صغيرة أو متوسطة.

بدون هذين النوعين من المساعدة، إما أن ينهزم الاتحاد السوفييتي وإما أن يبلغ ضعفه درجة أن يستحيل عليه تقديم العون لحلفائه...

أدري أن هذه الرسالة ستسبب لسيادتكم غمّاً. لكن ما العمل؟ لقد علّمتني التجربة أن أنظر إلى الواقع عيناً إلى العين، مهما كان منغّصاً، وأن لا أخشى قول الحقيقة، مهما كانت مزعجة»(٩٩).

هل كان يخطر في باله، وهو يملي هذه الأسطر، أنه استعجل في آب (أغسطس) ١٩٣٩؟ من يدري، ربما كان التحالف المعادي للنازية نشأ قبل عامين لو أنه، ستالين، أبدى مزيداً من الصبر، ولو أن لندن وباريس كشفتا عن بُعد النظر!... لكنه الآن لا يكشف عن شكوكه، لأنه أدرك منذ زمن: يجب أن يؤمن الناس بصحة خطواته.

في رسالته، يربط ستالين ضرورة المساعدة النشيطة للاتحاد السوفييتي بخطر هزيمته. وإذا كان ستالين قد تمكن، في آخر المطاف، من الحصول (بسبب طيب النوايا لدى الحلفاء) على المعونة التقنية ـ العسكرية التي بقيت لا تقدّر حق قدرها في أدبياتنا التاريخية أو تتعرض للنيل من أهميتها، فإن مساعيه إلى فتح الجبهة الثانية لم تثمر كثيراً. من المعروف أن ستالين توجه بذلك الاقتراح إلى تشرشل منذ تموز (يوليو) ١٩٤١. لكن عام ١٩٤١ المرير انصرم، ومضى عام ١٩٤٢ القاسي، وانقضى عام ١٩٤٣ الصعب... وفقط في حزيران (يونيو) ١٩٤٤ بدأت عملية «أوفرلورد». وبالمناسبة، حين سأل «الأعلى» مولوتوف ماذا تعني هذه الكلمة الانكليزية، وجاءه الجواب: «سلطان»، «سيّد»، شعر بالكدر. كان يخيّل إليه أن سيّد مصائر الحرب يتوجه نحو برلين من الشرق... مستحيل أن يهاودنا تشرشل، هذا صنع يديه حتماً... في تلك الأثناء كانت الجيوش السوفييتية تستعد لتحرير بيلوروسيا وأوكرانيا الغربية وشرق بولندا وتشكوسلوفاكيا بسلسلة من الضربات تسفر عن خروجها نحو حدود ألمانيا. لقد فُتحت الجبهة الثانية في اللحظة التي لم يعد فيها أحد يشك في مقدرة الاتحاد السوفييتي وحده إتمام التحطيم النهائي لألمانيا الهتلرية.

كان ستالين، كرئيس للجنة الدفاع الحكومية وكقائد أعلى، يضطر إلى إيلاء

اهتمام مركّز للمسائل الدبلوماسية. وكلما اقتربت ملامح النصر المنتظر، كان مولوتوف يمعن في التأخر ليلاً لدى ستالين، فهو الذي كان يلتقي ـ أكثر من غيره ـ مع ممثلي الحلفاء. كان «الأعلى» يفهم أن بريطانيا والولايات المتحدة، ضمن التحالف القائم، تنسق الجهود في معظم الأحوال بمثابة قوة غربية واحدة. لكن ستالين شعر، مع ذلك، بنوع من الاختلاف في موقف شريكيه، منذ بداية الحرب. إنه رجل خبيث جداً، فراح يحاول أن يرى خلف الخطوات الدبلوماسية الملموسة، التي يتخذها روزفلت وتشرتشل، المعاني الحقيقية والمنفعة التي يريدان استخلاصها من الوضع الناشىء. كان أكثر ما يشغل بال ستالين وما يستدعي غيظه أن الحلفاء راحوا يؤجلون بلا نهاية تدشين الجبهة الثانية في أوروبا. كان وهو يستلم ـ عبر القنوات الدبلوماسية والتجسسية ـ المعلومات حول مؤتمرات واشنطن وحول اللقاءات الأمريكية الإنكليزية، وحين يناقش تلك المعلومات مع مولوتوف، يرى ستالين طموح الحلفاء إلى بدء القتال في أوروبا فقط في لحظة أكيدة، حين يبدأ الوضع الحرج لألمانيا ولقواتها المسلحة.

بإلحاح من ستالين قام مولوتوف بزيارة إلى لندن وواشنطن في أيار (مايو) ـ حزيران (يونيو) ١٩٤٢. وضع «رئيس الوزراء» أمام وزير الخارجية مهمة أساسية: إجراء مفاوضات حول إعلان الحلفاء عن التزامات محددة فيما يخص فتح الجبهة الثانية خلال عام ١٩٤٢. لكن روزفلت وتشرتشل راحا يبديان الذرائع، مع أن التصريح المشترك الإنكليزي ـ السوفييتي في لندن أشار إلى أنه «تم إحراز اتفاق تام حول المهام الملحة على صعيد تدشين الجبهة الثانية في أوروبا خلال عام ١٩٤٢»[١٠٠]. لكن سرعان ما اتضح أن الحلفاء لا نية لديهم بتنفيذ هذه الإلتزامات. ولم يكن ستالين يخفي إحباطه وانزعاجه وسخطه، حيث يمكن الإحساس بذلك من خلال رسالته إلى تشرتشل في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٤٢، حيث يقول:

«فيما يتعلق... بمسألة... تنظيم الجبهة الثانية في أوروبا، فإنني أخشى أن تكون هذه المسألة قد بدأت تكتسب طابعاً جدياً. انطلاقاً من الوضع الناشىء على الجبهة الألمانية السوفييتية، يجب علي أن أصرح بأشد لهجة قاطعة أن الحكومة السوفييتية لا يسعها التسليم بتأجيل موضوع الجبهة الثانية في أوروبا حتى عام ١٩٤٣»[١٠١].

تذكّر تشرتشل لاحقاً أنه بعد مثل هذه البرقية ما كان بوسعه الاكتفاء بمجرد رسالة جوابية؛ فعبّر عن استعداده للقاء شخصي مع ستالين على أراضي الاتحاد السوفييتي. وافق ستالين، ووصل تشرتشل إلى موسكو يرافقه رئيس الهيئة العامة لأركان جيشه، بروك، ونائب وزير الخارجية كاوغان، وشخصيات رسمية أخرى. إليكم ما يتذكّره تشرتشل حول مزاجه أثناء رحلته الجوية من القاهرة إلى موسكو: «كنتُ أفكر بمهمتي في هذه الدولة البلشفية الكالحة، التي بقيتُ زمناً أسعى بإلحاح إلى خنقها أثناء ولادتها، والتي كنتُ ـ حتى ظهور هتلر ـ أعتبرها عدواً لدوداً للحرية الحضارية. ما الذي كان يتوجب عليّ الآن أن أقول لهم؟ وراح الجنرال ويفل، الذي يتميز بمواهب أدبية، يلخص كل ذلك في قصيدة شعرية عَرَضها عليّ مساء الأمس، وتتكون من بضع رباعيات، يقول السطر الأخير في كل منها: «لا جبهة ثانية في عام ١٩٤٢!». كان ذلك يشبه الذهاب بقطعة جليد إلى القطب الشمالي (كمن يبيع الماء في حي السقّائين)»[١٠٢].

رغم الوضع الصعب إلى أقصى حد في جبهة ستالينغراد والجبهة الجنوبية الشرقية، أمضى ستالين العديد من الساعات في مباحثات مع تشرتشل، شارك فيها، من الجانب السوفييتي مولوتوف وفوروشيلوف، ومن الجانب الانكليزي كير، وكذلك الممثل الشخصي للرئيس الأمريكي روزفلت، السيّد هاريمان. اضطر تشرتشل للإعلان صراحة: لن تُفتح الجبهة الثانية في عام ١٩٤٢. فإذا حاول الحلفاء أن يفتحوها، ستكون النتيجة الأكثر احتمالاً ـ على حد قول الزعيم الانكليزي ـ بعد خطوة الحلفاء هذه، هي هزيمتهم. وراح ستالين يطيل ويسهب في اعتراضاته ويسوق حججاً كثيرة، لكنها ذات طابع معنوي:

ـ من لا يريد المغامرة لن يكسب الحرب ـ يقول ستالين...

لكن رئيس الوزراء الانكليزي لا يسلّم سلاحه:

ـ ولكن الجبهة الثانية في أوروبا ليست الجبهة الثانية الوحيدة...

كان تشرتشل يحاول إبلاغ ستالين بخطط الحلفاء أزاء عمليات عسكرية يُزمَع اجراؤها في شمال أفريقيا.

بقيت مباحثات ستالين وتشرتشل في ١٢ آب (أغسطس)، مهما كانت المسائل التي تتناولها، تعود من جديد إلى موضوع الجبهة الثانية. دوافع ستالين في ذلك هي الحالة المزرية على الجبهة، لكن تشرتشل بقي ـ بمساعدة من هاريمان ـ يبحث عن المزيد من الذرائع الجديدة للبرهان على استحالة الجبهة الثانية خلال عام ١٩٤٢. عندئذ، وبعد التشاور مع مولوتوف، لجأ ستالين إلى خطوة غير عادية. خلال اللقاء يوم ١٣ آب (أغسطس)، سلّم ستالين إلى جليسه مذكرة حول مسألة الجبهة الثانية، رغم زعمه أنه يوم أمس «قدّم تنازلاً حين صرّح أن هذا القرار غير قادر لتحكّمه»[١٠٣]. تشير المذكرة إلى أن الحلفاء تخلوا رسمياً عن قرار منسّق تم تثبيته في التصريح الانكليزي ـ السوفييتي بتاريخ ١٢/٦/١٩٤٢. كان تشرتشل مرتبكاً، في وضع حرج، حين مصير ستالينغراد ـ ومعها كل الجنوب السوفييتي ـ عالقاً بشعرة، قرر ستالين إلقاء قدر بالغ من المسؤولية على حلفائه. في نص المذكرة نفس الكلمات التي قالها بالأمس ستالين لـ تشرتشل وهاريمان:

«إن رفض الحكومة البريطانية لتدشين الجبهة الثانية في أوروبا خلال عام ١٩٤٢ يشكل ضربة معنوية إلى الرأي العام السوفييتي الذي يبني حسابات حول تشكيل تلك الجبهة، ويعقّد وضع الجيش الأحمر على الجبهات ويلحق ضرراً بخطط القيادة السوفييتية... لذلك نعتبر أن من الممكن والموجب، في عام ١٩٤٢ بالذات، فتح الجبهة الثانية في أوروبا. لكنني لم أتمكن، للأسف أن أقنع بذلك السيّد رئيس الوزراء البريطاني. أما السيد هاريمان، ممثل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، فقد ساند كلياً، أثناء المباحثات في موسكو، السيد رئيس الوزراء.

١٣/٨/١٩٤٢

ي. ستالين»[١٠٤]

طبعاً، ما كان من تشرتشل ألا أن يجيب في اليوم التالي بـ «مذكرة» تشير إلى

أن «المباحثات مع السيد مولوتوف حول الجبهة الثانية كانت مشروطة باستدراكات شفهية ومكتوبة...»، ولذا لا يمكنها أن تكون أساساً «لتغيير في الخطط الاستراتيجية للقيادة العليا الروسية»(١٠٥).

بقيت مسألة الجبهة الثانية، حتى أواسط عام ١٩٤٤، قائمة في مركز الجهود الدبلوماسية التي يبذلها ستالين. لكن حين راحت رياح النصر تشدد هبوبها على أشرعة سفنه، لم يعد «الأعلى» يشدد من حدة تلك المسألة كما في بداية الحرب. فمثلاً، حين توجه مراسل «أسوشييتد بريس (Associated Press)»، كيسيدي، إلى ستالين (من خلال السفارة الأمريكية في موسكو) في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٢، لم يوافق رئيس لجنة الدفاع الحكومية على استقبال الصحفي، لكنه أرسل إليه بأجوبة كتابية مقتضبة جداً على أسئلته:

١ ـ ما هي مكانة الجبهة الثانية في التقديرات السوفييتية للوضع الراهن؟

جواب: مكانة هامة جداً. يمكن القول: مكانة من المرتبة الأولى.

٢ ـ ما مدى فعالية المساعدة التي يقدمها الحلفاء للاتحاد السوفييتي؟

جواب. مقارنة مع تلك المساعدة التي يقدمها الاتحاد السوفييتي للحلفاء، حين يشد نحوه القوى الرئيسية لجيوش ألمانيا الفاشية، لا تزال مساعدة الحلفاء للاتحاد السوفييتي حتى الآن قليلة الفعالية»(١٠٦).

حين كان ستالين يفكر بخط السلوك تجاه الحلفاء، نجده يدرك جيداً أن الدافع الذي يحركه هو ويحرك شركاءه هو الضرورة المريرة. فمشيئة الأحداث التاريخية (التي كان الحلفاء وستالين على علاقة مباشرة بوقوعها) جعلتهم يقفون في معسكر حربي واحد. إنه يذكر جيداً تصريحات ويلسون وتشرتشل وتشمبرلان وألادييه وغيرهم من القادة البرجوازيين حول الاتحاد السوفييتي. الآن، حين نهض أمام الحلفاء خطر رهيب مشترك، دُفعوا جميعاً نحو بعضهم بعضاً. لقد جرى ذلك مراراً عبر التاريخ. ومنذ عام ١٩٤٢، حدد ستالين موقفه المبدئي إزاء الحلفاء. فهو يفترض أن وضع البلد، الذي يحمل على كاهله العبء الأساسي في الصراع مع الفاشية، هو أساس كافٍ لتبرير نهجه نحو المطالبة بمكانة خاصة في التحالف: مكانة خاصة، بمعنى حقوقه في تقديم اقتراحات (تبدو كأنها مطالب) بشأن المعونة. لقد ظهر ستالين ـ في ميدان الدفاع عن مصالح البلد ـ سياسياً صلباً قليل التنازلات، وهو بذلك اكتسب احترام شركائه، بالمناسبة. لقد برز ستالين في أعين روزفلت وتشرتشل وديغول بصفة ديكتاتور ذكي وقاسٍ، وهو لم يسعَ لتبديل ذلك الانطباع، رغم معرفته به.

عدا عن ذلك، كان ستالين ـ في طموحه إلى الحصول على أكبر ما يمكن من مساعدات الحلفاء، في مجال التقنية العسكرية خصوصاً ـ يبحث جاهداً عن سبل لتجاوز الخلافات الإيديولوجية. ففي آب (أغسطس) ١٩٤٢، حين راح تشرتشل وستالين يتباحثان في الكرملين، كان كلاهما يعرف أن على مبعدة بضع حارات هنالك اللجنة التنفيذية للكومنتيرن، ممثل الحقد الطبقي العميق إزاء القوى التي تتمثل ليس

فقط بهتلر، بل وكذلك برئيس الوزراء البريطاني. لذلك لم يأتِ قرار ستالين (الذي أُذيع كقرار من الكومنتيرن ذاته) حول حل الأممية الشيوعية مفاجئاً للمحللين السياسيين ذوي البصيرة. فهنا ـ كما في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩ ـ لم يتردد ستالين أمام «النفقات» الإيديولوجية الكبيرة من أجل هدف محدد: لم يكن يقلقه قط إلى أي مدى هو موفّق في تمويه السبب الحقيقي للقرار. في خطابه يوم ١٩٤٢/١١/٦، أمام الاجتماع الاحتفالي بمناسبة الذكرى الـ ٢٥ لثورة أكتوبر، أكد ستالين أن اختلاف الحلفاء في الإيديولوجيا لا يشكل عقبة أمام تعاونهم العسكري ـ السياسي: «إن الخطر الناشىء يملي على أعضاء التحالف ضرورة العمل المشترك لأجل إنقاذ البشرية من العودة إلى البربرية وإلى وحشيات القرون الوسطى»(١٠٧). لا شك في أن هذه الكلمات تعني الفاشية تحديداً. من حيث الجوهر، تمرّ عبر خطاب ستالين فكرة حول أن المنطق الطبقي في مرحلة الصراع من أجل البقاء لا يتمتع بأهمية حاسمة. ذلك هو الاستنتاج الذي توصلت إليه البشرية في أيامنا مرة وإلى الأبد، كما نأمل.

لقد تقرر مصير الكومنتيرن. في ربيع ١٩٤٣، حلَّ التنظيم العالمي للشيوعيين، الذي كان يبدو ـ بعد ثورة أكتوبر ـ أنه سيغطي بأعلامه الحمراء كل العالم. في إجاباته على أسئلة كينغ، مراسل وكالة رويتر، أكد ستالين في ١٩٤٣/٥/٢٥: «إن الحل التلقائي للأممية الشيوعية هو خطوة صحيحة تأتي في حينها المناسب، لأنها تسهّل مهمة الهجوم المشترك من قبل كل الأمم المحبة للسلام ضد العدو المشترك ـ الهتلرية... وتفضح دجل الهتلريين حول أن موسكو تعتزم التدخل في حياة الدول الأخرى و «بلشفتها» أيضاً(١٠٨).

إن براغماتية ستالين السياسية، هي التي جعلته لا يتورع عن إزالة الكومنتيرن، ودفعته أيضاً إلى إقامة العلاقات مع الكنيسة الأورثوذكسية. فتلميذ المعهد الديني السابق، يوسف ستالين، لم يكن قبل ذلك يتكرم على الكنيسة باهتمامه، لا بل إنه كان في عام ١٩٢٥ صاحب المبادرة إلى عدم السماح بانتخاب رأس الكنيسة الروسية الأورثوذكسية. عندئذ، أصبح النائب البطرياركي، المطران سيرجيس، رئيساً مؤقتاً للكنيسة. وما كان ستالين يوافق على انعقاد المجمع العام، مما كان يحول دون اكتمال النصاب في السّنودس المقدّس الذي تعطل عمله لفترة طويلة. في ١٩٤٣/٩/٤، دعا ستالين فجأة إلى قصره الريفي، رئيس مجلس الشؤون الكنسية كاربوف. جرت أثناء اللقاء، الذي حضره مولوتوف وبيريا، مناقشة القضايا المتعلقة بدور الكنيسة في ظروف الحرب. يجب القول أن الكنيسة الروسية الأورثوذكسية قدمت مراراً مبالغ مالية كبيرة لأغراض الحرب، وسلّمت الكثير من الأشياء الثمينة جداً للدولة، كما استخدم الكهّان نفوذهم لتوطيد إيمان الشعب بالنصر النهائي على المعتدي.

بعد أن استمع إلى كاربوف، اقترح ستالين أن يستقبل فور ذلك اليوم كبار الكهنة. فلم تمضِ ساعات حتى كان عنده المطارنة سيرجيس وألكسي ونيكولاي المدهوشين جداً لهذه العناية الرفعية بهم. وفي حديث طويل لدى ستالين، تمّ الاتفاق على انعقاد المجمع العام وانتخاب البطريارك وافتتاح المعاهد الدراسية الدينية. راح القائد الأعلى يتغزل بـ «سماحته» الخاصة، فوعد الكنيسة بمساعدة مادية وبمختلف

التسهيلات، متلفتاً نحو بيريا بنظرات ذات مغزى. أظن أن ستالين كان يتلذذ بما قُيّض له، كتلميذ سابق في المعهد الديني، من إمكانية التأثير ليس فقط على مصائر الشخصيات الكنسية العليا، بل وعلى مصير الدين عموماً. العدالة تُلزمنا أن نقول: معظم الوعود التي قطعها ستالين على نفسه يومذاك تمّ تنفيذها.

في اليوم التالي (٥/٩/١٩٤٣)، أذاعت جريدة الـ «برافدا» نبأ اللقاء الشهير (الوحيد من نوعه حتى عام ١٩٨٨) بين قيادة البلد ورأس الكنيسة: «... نقل المطران سيرجيس إلى رئيس مجلس الوزراء أن لدى الأوساط القيادية في الكنيسة الأورثوذكسية نية لعقد المجمع العام في الفترة القريبة المقبلة، حيث سيجتمع الأساقفة لانتخاب بطريارك موسكو وعموم روسيا، وتشكيل السّنودس المقدّس.

عبّر رئيس الحكومة، الرفيق ستالين، عن موقف التعاطف مع هذه النوايا، وصرّح أنه لن تكون هنالك أية ممانعة في ذلك من قبل الحكومة».

لماذا تذكّر ستالين الكنيسة على هذا النحو المفاجىء؟ أظن إنه يوجد سببان اثنان. **أولاً:** تقدير القائد الأعلى للدور الوطني الذي مارسته الكنيسة في الحرب، ورغبته في تشجيع ذلك الدور. **ثانياً:** الاعتبارات المرتبطة بالوضع الدولي. كان ستالين يستعد لأول لقاء قمة بين الحلفاء في طهران أواخر السنة. لقد وضع الرجل نصب عينيه ليس فقط هدف العمل على الإسراع في فتح الجبهة الثانية، بل وهدف الزيادة من حجم المساعدة العسكرية. أحد الأدوار الهامة في هذا المجال كان يعود إلى «لجنة معونة الاتحاد السوفييتي في انكلترا» برئاسة جونسون، أحد قادة الكنيسة الإنجيلية، وما كان من ستالين، الذي تلقى بضع رسائل رسمية من رئيس كنيسة كانتيربيري، سوى أن يقرر الإقدام على تلويحة جهورة تشهد على موقف أكثر ممالأة للكنيسة من طرفه. كان ستالين يعرف تمام المعرفة أن الغرب سيلاحظ هذه التلويحة التي ستستدعي ردود فعل إيجابية. لا، ليس زهو التلميذ السابق في المدرسة الدينية هو الذي كان يدفع الزعيم السوفييتي إلى تلك الخطوة، بل الحسابات البراغماتية الخالصة، بشأن علاقاته مع الحلفاء.

وصلت العلاقات مع الحلفاء إلى أوجها في لقاء «الثلاثي الكبير». فمن المعروف أن مؤتمرات طهران (٢٨/١١ ـ ١/١٢/١٩٤٣) والقرم (٤ ـ ١١/٢/١٩٤٥) وبرلين كانت قمماً رفيعة في مسار التعاون العسكري السياسي بين الدول الحليفة ذات الاختلاف الشديد على كل الأصعدة. ربما كانت تلك المؤتمرات، ومجمل التعاون بين الحلفاء، قد بيّن ـ منذ تلك الأيام ـ أفضلية القيم الإنسانية العامة نسبة إلى القيم الطبقية والإيديولوجية. إن قرارات تلك المؤتمرات ودورها من الأمور المعروفة جيداً، ولست أنوي هنا سوى ملامسة بعض المسائل المتعلقة بموقف ستالين من القضايا المطروحة آنذاك.

كان ستالين «بيتوتياً». ومع استعداده للقاء مع قادة الدولتين الحليفتين، لم يكن يرغب في السفر إلى بعيد ولمدد طويلة. اقترح تشرتشل وروزفلت عقد اللقاء في القاهرة أو أسمرة أو بغداد أو البصرة أو غيرها من النقاط الواقعة إلى الجنوب من

الاتحاد السوفييتي. لا بل إن تشرتشل افترض أن ستالين سيوافق على اللقاء في الصحراء، حيث يمكن ـ حسب كلام رئيس الوزراء الانكليزي ـ إقامة ثلاثة مخيمات والتفاوض في أمان وعزلة. أصرّ ستالين على طهران، لأن بوسعه ـ كما قال ـ أن يتابع من هناك «القيادة اليومية لعمل القيادة العليا»، فاضطر تشرتشل وروزفلت إلى الموافقة بعد مراسلات طويلة. مفهوم، طبعاً، أن ستالين لم يقل لهما كم يخشى السفر على متن الطائرات؛ فقد كانت تلك رحلته الجوية الأولى في الحياة. إنه لا يريد إن يخاطر، ولا أن يدع الصدفة تدخل إلى حياته بشكل ما. كان «الزعيم» يسير إلى ذروة مجده،... ومجرد الاحتمال، مهما كان ضئيلاً، بأن يقع حادث غير مرغوب فيه يبعث لديه القلق. قبل السفر بيومين طيّر ستالين إلى تشرتشل وروزفلت برقيتين متشابهتين من حيث المحتوى:

«استلمتُ رسالتكم من القاهرة. سأكون تحت أوامركم في طهران يوم ٢٨/١٠ مساء».

عبارة «سأكون تحت أوامركم» هنا غريبة على لسان ستالين، لكن الزعيم السوفييتي يريد أن يظهر بمظهر «جنتلمان». لقد فعل ستالين كل ما بوسعه كي تكون مسألة الجبهة الثانية في مركز الاهتمام أثناء لقاء طهران. صحيح أنه والرئيس روزفلت، عند لقائهما مساء ٢٨، تحدثا عن الطقس في الاتحاد السوفييتي وعن الوضع في لبنان وعن تشان كاي تشيك وديغول والهند، لكن الحديث تناول الجبهة الثانية أيضاً. جرى كلام حتى حول النظام السياسي المقبل في الهند. وقال روزفلت على نحو مفاجىء: «سيكون من الأفضل إقامة ما يشبه النظام السوفييتي في الهند، ابتداء من الأسفل وليس من الأعلى، وربما يكون ذلك نظام السوفييتات (المجالس)». فسّر ستالين الأمر على طريقته وأجاب: «الابتداء من الأسفل يعني السير على طريق الثورة»(١٠٩).

إن ستالين، الذي وجد نفسه لأول مرة في مؤتمر دولي خارج حدود دولته، راح يدقق النظر في شريكيه: كل شيء جديد عليه. تشرتشل الآن يعنيه بدرجة أقل، فقد سبق أن التقى به، وتأكد من كون هذا السياسي يحوز على عقل باهر ومكر كبير. أعجبه روزفلت فوراً، بعينيه ثاقبتي البصيرة، ووشاح التعب والمرض على محيّاه، لكن لماذا؟ ربما لصراحته مع ستالين! في الجلسة الختامية معه، يوم ١/١٢، أعلن له روزفلت، بلهجة تبدو بسيطة، إنه لا يود الآن مناقشة المسائل المتعلقة بالحدود البولندية علنياً، فهو قد يرشح نفسه في العام المقبل للرئاسة من جديد، وفي أمريكا «ستة ملايين مواطن من أصل بولندي»، وإنه، روزفلت، باعتباره «إنساناً عملياً، ليس بودّه أن يخسر أصواتهم». أُعجب ستالين بهذه الصراحة، مع أن المارشال ذاته لم يكن دوماً يتقيد بقاعدة أن يقول المرء ما يفكر به.

كان روزفلت هو الأصغر سناً في «الثلاثي الكبير»، ولجأ أثناء افتتاح المؤتمر إلى تسمية المشاركين فيه «أفراد عائلة جديدة»، فأضاف تشرتشل أن الزعماء المجتمعين هنا الآن هم «أعظم خلاصة للقوى العالمية عرفها تاريخ البشرية يوماً ما».

ثم نظر روزفلت وتشرتشل إلى ستالين: ما الذي سيقوله هو في هذه الدقائق الأولى من المؤتمر؟

ـ أعتقد أن التاريخ يدللنا. إنه يضع بين أيدينا قوى ضخمة جداً وإمكانيات كبيرة جداً. آمل إننا سنتخذ كل الاجراءات للاستفادة من تلك القوى وذلك السلطان، الذي خوّلتنا إياه شعوبنا، على النحو اللائق في هذا المؤتمر ضمن أطر التعاون. والآن دعونا نبدأ العمل...

أخيراً تم تنسيق المسألة الخاصة بالجبهة الثانية. أثناء إفطار رؤساء الوفود في ٣٠/١١، راح روزفلت (وهو يذكر الأسئلة ـ المطالب التي طرحها ستالين خلال جلسات الأيام الماضية) يتوجه إلى ستالين ويفرش المنديل أمامه، قائلاً مع ابتسامة:

ـ اليوم، قررنا، السيد تشرتشل وأنا، انطلاقاً من اقتراح اللجنة الموحدة لرؤساء الأركان، أن تبدأ عملية «أوفرلورد» في شهر أيار (مايو) على التوازي مع إنزال جوي في جنوب فرنسا...

ـ إنني مرتاح لهذا القرار ـ قال ستالين بأقصى ما يمكن من الهدوء ـ لكنني أيضاً أود أن أقول للسيد تشرتشل والسيد روزفلت إنه حين تبدأ عمليات الإنزال الجوي ستكون جيوشنا قد هيأت توجيه ضربة قوية إلى الألمان... كانت تلك «وظيفة بيتية» معدّة سلفاً، لكنها تركت انطباعاً إيجابياً لدى جليسَي ستالين.

في إعلان الدول الثلاث، الذي وقّعه روزفلت وستالين وتشرتشل في ١٩٤٣/١٢/١، ورد ما يلي: «لقد أتينا إلى هنا ولدينا أمل وحزم. ونحن نسافر من هنا كأصدقاء حقيقيين، روحاً وهدفاً». بقي لدى ستالين رأيه الخاص أثناء النقاش حول يوغسلافيا وتركيا وفنلندا واليابان وألمانيا (بعد الحرب) والتعاون بعد الحرب في مجال السلام. كما في القرم وبرلين لاحقاً، شغلت «المسألة البولندية» مكانة خاصة في مباحثات «الثلاثي الكبير» التي جرت في طهران. ففي آخر جلسة عمل قبل الإعلان عن فرصة استراحة، أعلن تشرشل اقتراحاً، تم تنسيقه على ما يبدو مع روزفلت:

ـ إن وطن الشعب البولندي ودولته يجب أن يمتد بين ما يسمى بخط كيرزون وخط نهر أودر، على أن تضم بولندا منطقة بروسيا الشرقية ومقاطعة أوبلنيا.

فقال ستالين:

ـ إذا كان الإنكليز موافقين على تسليمنا الأراضي المذكورة (مرفأ كينيفسبيرغ ومرفأ ميميل اللذين لا يتجمدان شتاء ـ المؤلف) فإننا سنوافق على الصيغة التي اقترحها السيد تشرتشل...[١١٠].

طبعاً، يبدو الكثير مما قاله قادة «الثلاثي الكبير» في مؤتمراتهم ضعيفاً من وجهة النظر الأخلاقية، لكن لا يجوز أن ننسى: لم يسبق أن تم التوصل إلى تناغم بين القوة والعقل في العلاقات الدولية، وقبل أن تقترب البشرية من التفكير السياسي الجديد، كان لا بد من ظهور خطر الإبادة الذاتية حتى يبدأ ذلك.

أثناء تبادل التصورات حول مستقبل بولندا، خلال مؤتمر القرم الذي انعقد قبل ثلاثة أشهر من تحطيم الفاشية الهتلرية، عرض ستالين رأياً «يحضنه» منذ زمن طويل: «المسألة البولندية ليست مسألة شرف وحسب، بل وكذلك مسألة أمن. إنها مسألة شرف، لأن على الروس كثير من الخطايا أمام بولندا في الماضي، ومسألة أمن، لأن أهم القضايا الاستراتيجية للدولة السوفييتية مرتبطة ببولندا... لماذا كان أعداؤنا، حتى الآن، يمرون عبر بولندا بكل سهولة؟ قبل كل شيء، لأن بولندا كانت ضعيفة. ولا يمكن إغلاق المعبر البولندي من الخارج ميكانيكياً بواسطة القوى الروسية، بل يجب أن تكن بولندا ذاتها قوية. هذا هو ما يجعل للاتحاد السوفييتي مصلحة في إقامة بولندا القوية الحرية المستقلة... مسألة بولندا هي بالنسبة للدولة السوفييتية مسألة حياة أو موت»(١١١).

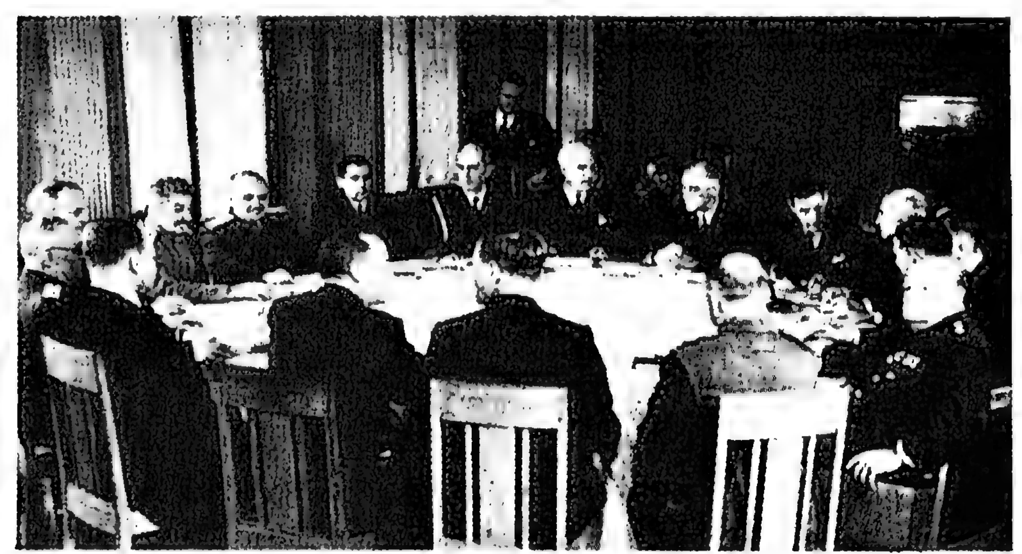
أثناء مناقشة المسألة البولندية، كان ستالين يوحي لشركائه أن الجانب الأهم لديه هو موضوع الحكومة البولندية وليس موضوع الحدود. لقد أعلن فوراً موافقته على خط كيرزون، مع بعض الشذوذ عنه في بعض المناطق وبكيلومترات قليلة في صالح بولندا. لكن فيما يخص الحكومة... لا! لن يتنازل ستالين هنا مع إنه هو الذي أبدى المشيئة في التعاون بعد بداية الحرب. إنه يذكر كيف أوعز إلى الجنرال فاسيليفسكي في ١٨/٨/١٩٤١ توقيع اتفاق بين القيادة العليا السوفييتية والقيادة العليا البولندية، حيث وقع عن الجانب البولندي الجنرال بوغوش ـ شيشكو. نص الاتفاق على أن الجانب السوفييتي يأخذ على عاتقه كل النفقات اللازمة لتشكيل جيش بولندي على أراضي الاتحاد السوفييتي، وعلاوة على ذلك ـ يفتتح بعثة عسكرية سوفييتية لدى القيادة البولندية العليا في لندن(١١٢). وها هما الآن، تشرتشل وروزفلت، يسميان الحكومة البولندية الشرعية «حكومة لوبلين»، مع إنها الآن في وارسو وتتحكم بالوضع في البلد! لقد طُرحت مسألة بولندا في كافة اللقاءات الثلاثية بين «الثلاثي الكبير»، لكن ستالين، الذي اتخذ موقفاً محدداً منذ البداية، كان ينثني لكنه لا يستسلم. أليس إلحاحه هو الذي جعل روزفلت وتشرتشل يوافقان على توسيع الحدود البولندية غرباً وشمالاً؟

في نهاية الحرب، بعد انتهائها مباشرة، انهالت على ستالين جملة من مسائل عسكرية ـ دبلوماسية لم يكن يتوقعها بهذا الحجم. صحيح إن مولوتوف كان يساعده في هذا الميدان، ويشترك في العمل نواب مولوتوف أيضاً: فيشينسكي، كافترادزيه ومايسكي وغيرهم... لكن «الأعلى»، انطلاقاً من الاتفاقات المبرمة مع الحلفاء ومن المصالح الخاصة للبلد، غالباً ما كان يتخذ القرارات بنفسه. كان يثير لديه النزق كون تشرتشل يكثر من حشر أنفه في شؤون أوروبا الشرقية. القوات السوفييتية هي التي جاءت إلى هناك، والأفضلية في تقرير الشؤون المقبلة ـ حسب رأي ستالين ـ يجب أن تكون لموسكو. طبعاً، من خلال التوافق مع الأصدقاء ومع القوى المعادية للفاشية والقوى الديمقراطية، التي ساعدت جميعاً وتساعد على تصفية الهتلرية.

لقد اقتنع ستالين الآن من جديد كم كان مولوتوف منفذاً حازماً لإرادته هو، حيث كانت توجيهاته وتوصياته لوزير الخارجية تفوق في أهميتها لدى الأخير حتى



أثناء مؤتمر يالطا عام ١٩٤٥: الرئيس روزفلت متوسطاً تشرتشل وستالين.



الزعماء الثلاثة مع أعضاء وفود بلادهم في جلسة عمل أثناء مؤتمر يالطا.

النظام الداخلي للحزب. بعد الحرب، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥، روى مولوتوف للجنراليسيموس كيف إنه كاد أن «يغتصب» هاريمان في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سعياً منه إلى تنفيذ توصية من ستالين. نظر الأخير إلى مولوتوف نظرة استفهام، فراح وزير الخارجية يصوّر حواره مع هاريمان. حين كان ستالين ذاهباً في أول عطلة للاستجمام بعد الحرب، ألح السفير الأمريكي على اللقاء به. عندئذ، قال ستالين لوزير الخارجية مولوتوف:

ـ استقبله بنفسك. لن أكون موجوداً. أخبرني فيما بعد ما الذي يريدونه.

ـ هكذا، إذن ـ يقول مولوتوف لستالين ـ جاء إليّ هاريمان والسكرتير الأول للسفارة بيج، وكان الحديث التالي:

هاريمان: لقد استلمتُ من الرئيس برقية إلى الجنراليسيموس. أنا مكلّف بتسليم الرسالة شخصياً ومناقشة بعض المسائل مع ستالين.

مولوتوف: ستالين سافر للراحة سيغيب حوالى شهر ونصف الشهر. مولوتوف سيقوم بإبلاغه حول طلب الرئيس.

هاريمان: الرئيس يعرف أن ستالين سافر للراحة، ولكنه يأمل في أن ستالين سيستقبل سفيره. الحديث يدور حول مؤتمر لندن. هاريمان مستعد للسفر إلى أي مكان يلزم السفر إليه.

مولوتوف: الجنراليسيموس ستالين لا يدير الشؤون حالياً لأنه يرتاح الآن بعيداً عن موسكو.

هاريمان: الرئيس يأمل أن ستالين سيستطيع استقبالي.

مولوتوف: سوف أبلّغ ستالين.

هاريمان: الرئيس يعتبر أن الجنراليسيموس يستحق قسطاً من الراحة.

مولوتوف: كلنا نعتبر أن على ستالين أن يتمتع بإجازة حقيقية.

هاريمان: أثناء الاستعراض الرياضي، انتبهتُ إلى أن ستالين معافى.

مولوتوف: ستالين فعلاً إنسان متين الصحة.

هاريمان: في الشريط السينمائي حول الاستعراض الرياضي، يبدو ستالين منتعشاً ومبتهجاً.

مولوتوف: كل المواطنين السوفييت مسرورون لرؤية ستالين في مزاج جيد.

هاريمان: بودي الحصول على ذلك الشريط السينمائي.

مولوتوف: ستحصلون عليه بالتأكيد.

هاريمان: ليس لدي ما أضيفه حول هدف زيارتي.

مولوتوف: سوف أبلغ ستالين، الذي خلد الآن إلى الراحة التامة.

هاريمان: لا حاجة أن أكثر من الحديث عن أهمية المسألة...

مولوتوف: نعم. مفهوم.

هاريمان: بودّي زيارة ستالين كصديق...

مولوتوف: سوف أبلغ ستالين، لكن الجنراليسيموس الآن يرتاح»(١١٣).

ربما كان هاريمان يتذكر هذا المشهد بالذات حين كتب في مذكراته «مبعوث روزفلت الخاص إلى ستالين» يقول: يجب عليّ الاعتراف بأن ستالين يبقى بالنسبة لي أكثر الشخصيات التي عرفتها تناقضاً وغموضاً ولغزاً. الحكم الأخير هنا بيد التاريخ، وأنا أترك له هذا الحق»(١١٤).

إن بافلوف، الذي سجل هذا الحوار ـ الفارغ ظاهرياً ـ يرسم العناد الذي يبديه ليس فقط مولوتوف، بل وأيضاً هاريمان. ما من مؤتمر أو طلب من جهة الرئيس بوسعه أن يثني مولوتوف الذي يضع فوق كل شيء مشيئة «الزعيم». هكذا كان مولوتوف ينفذ توجيهاته: لا مجال للكلام عن المرونة. إنها إرادة ستالين.

بعد الاستماع إلى رواية مولوتوف الطويلة، فاجأه ستالين قائلاً:

ـ ربما كان هاريمان بالفعل يعتزم يومها إبلاغ شيء هام عن لسان ترومان؟

التفت مولوتوف وبيريا أحدهما إلى الآخر وهما لا يفهمان: هل هو يمزح، أم إنه يتأسف على تفويت فرصة؟

جعل بوسكريبيشيف مصنفات خاصة لحفظ الوثائق التي تتضمن توجيهات ستالين بشأن البلدان المحررة. ما أكثرها! حتى ستالين اندهش لكثرتها حين راح ـ قبل فترة ـ يبحث عن وثيقة تلزمه. لا يزال يذكر مناورات ريوتي في هلسنكي: بدأت السفيرة كولونتاي ترسل من ستوكهولم أنباء حول أن الفنلنديين «نضجوا» للخروج من الحرب، وفجأة ـ بعد وصول ريبنتروب إلى هلسنكي في ٢٦/٦/١٩٤٤ ـ أذاع ريوتي تصريحاً رسمياً: «بوصفي رئيساً لفنلندا، أصرّح أنني لن أقيم سلاماً مع الاتحاد السوفييتي إلا بالاتفاق مع الامبراطورية الألمانية، ولن أسمح للحكومة الفنلندية، المعيَّنة من قبلي، ولا لأي كان، خوض مباحثات حول الصلح أو السلام... إلا بالاتفاق مع حكومة الامبراطورية الألمانية»(١١٥).

جاء رد ستالين سريعاً: التعجيل في شن العملية الهجومية على جبهة كاريليا. لقد اقتنع منذ زمن: الضربات القوية دائماً تجعل الخصم أكثر ميلاً للموافقة. وهكذا كان، رغم أن العملية جرت بنجاح أدنى مما كان يتوقعه ستالين. في نهاية الحرب كان «الزعيم» أكثر تطلباً، لكنه لا يقل صرامة إزاء من لا يبرر ثقته. نعم، سيقبل الفنلنديون بالشروط السوفييتية حول إيقاف الأعمال القتالية ضد الاتحاد السوفييتي (٤/٩/١٩٤٤). لكن ستالين منسجم مع ذاته. ها هو تقويمه للذين كان عليهم الإسراع في إجبار مانرهايم على التنازل:

«إلى قائد جبهة كاريليا.
إلى عضو المجلس العسكري في جبهة كاريليا.

تعتبر القيادة العليا أن العملية الأخيرة للجناح الأيسر من جبهة كاريليا انتهت

بالفشل، إلى حد كبير، بسبب التنظيم الرديء لقيادة وإدارة الجيوش. في الآن ذاته، تشير القيادة العليا إلى تلوّث الجهاز الإداري للجبهة بعناصر خمولة وقليلة المقدرة. أضف إلى ذلك إنه كان يوجد في عدد من المناصب القيادية ضباط فنلنديو القومية، ومن الطبيعي أنهم لم يضربوا كما يجب الجيوش الواقفة قبالتهم، المكوّنة من فنلنديين يشاركونهم الانتماء القومي. وهذا ما حال دون ثقة وحداتهم العسكرية بهم...

... طرد الكسالى والناس غير القادرين على قيادة الجيوش...

إرسال الجنرال كوزنيتسوف، نائب قائد الجبهة، إلى حيث يكون تحت تصرف رئيس الإدارة العامة للكوادر في وزارة الدفاع. إقالة الجنرال بيغاريفيتش، قائد أركان الجبهة... إرسال الجنرال سيميونوف، رئيس غرفة العمليات في الجبهة إلى حيث يكون تحت تصرف...»(١١٦).

إنه على روحيته ذاتها! جبهة كاريليا تضطر لقتالها بلداً معادياً إلى الخروج من الحرب، لكن «الأعلى» غير راضٍ. ستالين يدرك: الانتصار على هتلر وتوابعه أصبح قاب قوسين، لكنه حتى اللحظة يبقى وفياً لالتزاماته التحالفية. فالمباحثات مع فنلندا يجريها ممثلو الاتحاد السوفييتي وممثلو بريطانيا التي تنوب عن عصبة الأمم المتحدة. في ١٩/٩/١٩٤٤، تم التوقيع على معاهدة الصلح. ستالين يقلّب في الذاكرة حوادث الأشهر الماضية وتعتريه الدهشة: ما أكثر الأشياء التي يحصل له أن يبدي ردود فعل تجاهها! ها هو، مثلاً، توجيهه إلى قادة الجبهات ورئيس لجنة الحلفاء للرقابة في هنغاريا، فوروشيلوف، ونائب اللجنة المماثلة في رومانيا، سوسايكوف، وإلى شاتيلوف في وارسو:

«هام للغاية.

خلال الفترة الأخيرة، كثرت حوادث هبوط الطائرات الأجنبية، سيما الإنكليزية والفرنسية، على الأراضي التي تحتلها جيوشنا. إن طيبة الخاطر المضرة والثقة الزائدة وفقدان اليقظة... يساعد على استخدام حوادث الهبوط تلك من قبل العناصر المعادية، بهدف إنزال الإرهابيين والمخربين وعملاء حكومة المهجر البولندية في لندن على أراضي بولندا...»(١١٧).

ثم ها هي وثيقة أخرى، تحمل توقيعه:
«هام للغاية.
إلى قائد جبهة أوكرانيا ـ ٢.
إلى قائد جبهة أوكرانيا ـ ٣.
نسخة إلى المارشال تيموشنكو.
القيادة العليا تأمركم بما يلي:

١ ـ على قائد جبهة أوكرانيا ـ ٢ إدخال القوات إلى بوخارست في الساعة ١٠ من ٣١/٨. يجب عدم تأخير الجيوش في المدينة والانتقال، بعد المرور عبر المدينة، إلى تنفيذ المهام وفقاً لتوجيه القيادة العليا رقم (٢٢٠١٩١)، للإسراع قدر الإمكان في احتلال منطقة كرايوف...

٢ ـ على قائد جبهة أوكرانيا ـ ٣ إرسال فصيل الآليات (٤٦ ـ أ)، بعد دخوله إلى بوخارست، نحو جورجه بهدف احتلال المعابر فوق نهر الدانوب...

٣ ـ الاهتمام بالنظام والانضباط لدى الجيوش التي ستمر عبر بوخارست...

١٩٤٤/٨/٣٠
الساعة ٢٠ و ١٥ دقيقة
ستالين، أنطونوف»(١١٨)

بالمناسبة، كان أنطونيسكو حتى أوائل الشهر في مقر القيادة لدى هتلر، وحاول تنظيم الدفاع على خط هالاتس ـ فوكشاني، لكنه اندار بحدة وذهب إلى جيوش الانكليز والأمريكيين. مع ذلك، لم يُكتب النجاح لآمال الديكتاتور الروماني في إيقاف الهجوم السوفييتي وإدخال قوات الحلفاء. ذلك أن القوى الوطنية في رومانيا استفادت من التقدم الظافر للجيش الأحمر، وأنهت ديكتاتورية أنطونيسكو في ٢٣ آب (أغسطس). بعد توقيع الصلح بُلِّغ ستالين أن أجهزة الأمن بدأت باصطياد العملاء الفاشيين، فصدر عنه رد الفعل فوراً:

«إلى قائد جبهة أوكرانيا ـ ٣.

إلى قائدة جبهة أوكرانيا ـ ٢.

إلى الرفيق تيفتشينكوف.

القيادة العليا تمنع القيام بعمليات السجن في بلغاريا ورومانيا. لاحقاً، يُمنع اعتقال أي كان دون سماح من القيادة العليا...»(١١٩).

ستالين يقرأ ويفكر: من الذي سيطلب مني السماح؟

«هام جداً.
إلى المارشال تيتو.
نسخة إلى المارشال تولبوخين.

لقد توجهتم إلى المارشال تولبوخين بطلب إخراج الجيوش البلغارية من صربيا والإبقاء عليها فقط في مقدونيا. عدا عن ذلك، أنت تنبهون المارشال تولبوخين إلى أعمال غير صحيحة من قبل الجيوش البلغارية أثناء توزيع غنائم الحرب التي تم الاستيلاء عليها من الألمان. اعتبر من الضروري إبلاغكم بما يلي:

١ ـ تتصرف الجيوش البلغارية على أراضي صربيا وفقاً لخطة مشتركة، تم تنسيقها معكم وبطلب منكم جاء في برقيتكم بتاريخ ١٩٤٤/١٠/١٢، رقم (٣٣٧)، وهي تقدم معونة جدية للجيوش السوفييتية... وبما أن مجموعة كبيرة من الألمان لا تزال باقية على أراضي يوغسلافيا، لا يجوز لنا الآن إخراج الجيوش البلغارية...

٢ ـ حول مسألة غنائم الحرب. إن قوانين الحرب تقضي بأن من يستولي على الغنائم هو الذي يأخذها...

١٩٤٤/١٠/١٨ الساعة ١٩ و ١٠ دقائق
الكسييف الصديق (ستالين)»(١٢٠)

ستالين يتابع تقليب الأوراق: يا إلهي، كم من الشؤون والمسائل! والخطأ هنا لا يجوز مطلقاً. مرحى للجنرال أنطونوف، الذي تعلّم صياغة البرقيات الدولية على نحو لا يترك لـ مولوتوف دواعٍ للقيام بأي عمل يُذكر. مثلاً:

«هام جداً.
إلى قائد جيوش جبهة أوكرانيا ـ ٣،
إلى عضو المجلس العسكري للجبهة.

جواباً على تقريركم رقم (٢٤/ج) من يوم ٤/٤، تشير القيادة العليا إلى ما يلي:

١ ـ منح الثقة الكاملة لـ كارل رينر.

٢ ـ إبلاغ كارل رينر أن قيادة الجيوش السوفييتية ستقدم له العون في مجال إعادة تأسيس النظام الديمقراطي في النمسا.

٣ ـ إبلاغه بأن الجيوش السوفييتية دخلت أراضي النمسا ليس لأجل احتلالها، بل لطرد المحتلين الفاشيين.

١٩٤٥/٤/٤
الساعة ١٩ و ٣٠ دقيقة
ستالين، انطونوف»(١٢١)

إنه يتابع تقليب الوثائق التي وقّعها خلال الفترة الأخيرة... ما أكبر حجم العمل الذي سيبقى بعده لدى المؤرخين والكتّاب! ها هو مصنّف كامل: «الأوراق الهنغارية»... ها هي برقية من بيلا ميكلوش، رئيس الحكومة الهنغارية المؤقتة:

«إلى المارشال ستالين.

منذ تحرير مدينة بودابست على يد الجيش الأحمر المجيد من النير الألماني المقيت، يشعر كادحو المدية للمرة الثانية بمساعدة الاتحاد السوفييتي في تحسين الأوضاع المريرة عى صعيد التموين... أعبّر عن الشكر الخالص... وأحيي المارشال العظيم...»(١٢٢).

وضع ستالين البرقية جانباً وتذكّر: كم من المناورات أجراها خورتي لكي يكون الحلفاء هم أول من يدخل أراضي هنغاريا، لكنه لم ينجح. كل نداءات خورتي إلى هتلر ثم إلى الحلفاء، ثم إليه هو، ستالين، آلت في النهاية إلى إلقاء القبض عليه من قبل أسياده الألمان ـ هكذا دائماً يكون مصير الدمى الكراكوزية، التي لا يحتاجها أحد في آخر المطاف. لقد انهار آخر حلفاء ألمانيا، وألحّ ستالين ليس فقط على خروج رومانيا وبلغاريا وهنغاريا من الحرب، بل وعلى أن تعلن الدول الثلاث حرباً على ألمانيا الفاشية. وما كان بوسع حليفيه «رمي حجر إلى داره»، لأن القائد الأعلى كان يبلغ الدولتين الحليفتين بكل خطواته وإجراءاته في البلدان التي دخلتْها الجيوش السوفييتية.

هذه أيضاً وثيقة وقّع عليها قبل أيام:

«إلى قائد جيوش جبهة أوكرانيا ـ ٢ وإلى المارشال تيموشنكو.

نظراً لتراجع الخصم أمام جيوش جبهة أوكرانيا ـ ٤، تأمركم القيادة العليا بما يلي:

١ ـ إدارة القوى الرئيسية لجبهتكم نحو الغرب وتوجيه ضربة على المحور العام نحو ايفلافا و «أولابينغ» وهارن، ومن ثم الخروج نحو نهر فتلافا وتحرير براغ.

٢ ـ المتابعة في هجوم جزء من قوى الجناح الأيمن على محور «أولاموتز».

٢/٥/١٩٤٥ الساعة ١٩
ستالن، أنطونوف»(١٢٣)

هنا وثيقة جاء بها بيريا يوم النصر... بعد يومين وقّع ستالين على توجيه حول مصير المواطنين من الدول الحليفة ومصير الأسرى السوفييت:

«إلى قادة جبهات: بيلوروسيا ـ ١، بيلوروسيا ـ ٢، أوكرانيا ـ ١، أوكرانيا ـ ٢، أوكرانيا ـ ٣، أوكرانيا ـ ٤.

إلى الرفاق بيريا وميركولوف وأباكوموف، وإلى الرفاق غوليكوف وخروليف وغولوبيف.

بهدف تنظيم الاستقبال اللازم للأسرى والمواطنين السوفييت... والأسرى من مواطني الدول الحليفة، تأمركم القيادة العليا بما يلي:

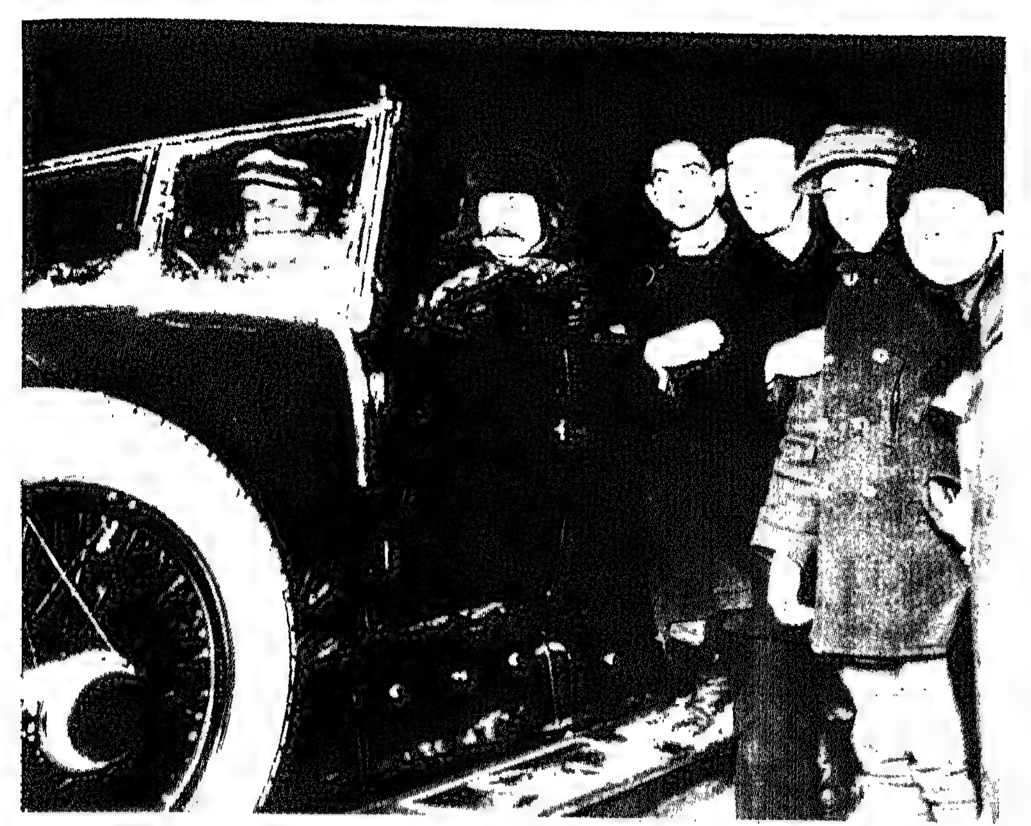
تشكيل معسكرات لتعبئة الأسرى،... بسعة عشرة آلاف شخص لكل معسكر: ١٥ معسكر في جبهة بيلوروسيا ـ ٢، و ٣٠ معسكراً في جبهة بيلوروسيا ـ ١، و ٣٠ معسكراً في جبهة أوكرانيا ـ ١، و ٥ معسكرات في جبهة أوكرانيا ـ ٤، و ١٠ معسكرات في جبهة أوكرانيا ـ ٢، و ١٠ معسكرات في جبهة أوكرانيا ـ ٣. يمكن إقامة المعسكرات، جزئياً، على أراضي بولندا أيضاً.

إناطة المهام المتعلقة بالتأكد من الأسرى السوفييت وأسرى البلدان المحرَّرة بالجهات التالية: التأكد من العسكريين تقوم به هيئات مكافحة التجسس «سميرش»، والتأكد من المدنيين تقوم به لجان وزارة الداخلية وقوى المخابرات وهيئات «سميرش»، تحت إشراف ممثل وزارة الداخلية. فترة التأكد من شهر إلى شهرين.

تسليم الأسرى والمواطنين من الدول الحليفة إلى ممثلي قيادة الحلفاء، وفقاً لأوامر المجالس العسكرية في الجبهات وممثلي مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي.

١١/٥/١٩٤٥. الساعة ٢٤ تماماً
ستالين، أنطونوف»(١٢٤)

ستالين يفكر: حوالى مئة معسكر... كم من الأسرى بقي على قيد الحياة؟ كم كان عددهم الإجمالي؟ لا بد من تكليف بيريا بتسمية الأرقام الرسمية، لإرضاء المؤرخين والكتّاب. الآن، وقع بصره على وثيقة أخرى، كان قد أملاها بنفسه، كما في



ستالين في الجبهة: إنها زيارته الوحيدة للجبهة أثناء الحرب.

سنوات ١٩٤٢ و ١٩٤٣. حالياً لا يملي وثائق بنفسه، أو لم يعد هنالك لزوم للتدخل الاستثنائي في الأمور. زد على ذلك أن أنطونوف قد درس «الأعلى» جيداً، فهو يأتيه دائماً بنصوص على النحو الذي يريد ستالين أن يراه، وكأنه يقرأ بنات أفكاره. لكن هذه البرقية أملاها هو شخصياً على تشيمنكو:

«إلى قادة جبهات: بيلوروسيا ـ ١، بيلوروسيا ٢، وأوكرانيا ـ ١.

أثنا اللقاءات بين جيوشنا والجيوش الأمريكية والإنكليزية، تأمركم القيادة العليا الالتزام بما يلي:

١ ـ القائد العسكري للوحدة العسكرية التي يجري اللقاء عل قطاعها يتصل في المقام الأول مع القائد الأمريكي أو الانكليزي ويتفق معه على إقامة خط فاصل. لا يجوز مطلقاً إبلاغ أحد حول خططنا ومهامنا القتالية.

٢ ـ عدم المبادرة إلى تنظيم الاحتفالات الودية من طرفنا. إبداء الترحاب أثناء اللقاء مع جيوش الحلفاء وفي حالة بروز الرغبة من جانب الجيوش الأمريكية أو الانكليزية، يمكن تنظيم لقاءات احتفالية أو ودية مع جيوشنا...»[١٢٥].

كان سيل لقاءات التآخي والأمسيات والاحتفالات، بين جيوش الحلفاء، قد بدأ يثير النزق لدى ستالين. حتى جوكوف طار ومعه فيشينسكي إلى «فرانكفورت على الماين» بدعوة من ايزنهاور. ويطلب جوكوف في برقيته إلى ستالين السماح له بتقليد عشرة ضباط من أركان ايزنهاور أوسمة «الراية الحمراء» وعشرة آخرين ـ ميداليات «لقاء الخدمات القتالية»[١٢٦]. في البداية هم يقلّدون الأمريكيين أوسمة، ثم الأمريكيون يقلّدونهم... وشؤون ما بعد الحرب لم تجرِ تسويتها بعد... إنهم يبتهجون ويحتفلون، وستالين يفكر بمؤتمر برلين بين الدول الحليفة الثلاث، حيث ستُقرّ المسائل المعقدة المتعلقة بعالم ما بعد الحرب. والحرب لم تنتهِ بعد... ستالين لم يماطل، كما فعل حلفاؤه، في فتح الجبهة الثانية، بل سيتقيد بالالتزام الذي أخذه على عاتقه في يالطا: دخول الحرب ضد اليابان بعد شهرين أو ثلاثة من استسلام ألمانيا[١٢٧].

اليوم، في ٢٨ حزيران (يونيو)، وقّع ستالين على بضع برقيات تحت علامة «سري جداً» و«هام جداً» بشأن الإعداد في الأول من آب (أغسطس) للإجراءات الضرورية من أجل «شن عملية هجومية، بناء على أمر خاص من مقر القيادة العليا». تضع التوجيهات أمام قادة الجبهات الشرقية مهمة تدمير جيش كوانتون الياباني: «إجراء كل الأعمال التحضيرية في جو من السرية الصارمة. إيصال المهام إلى قادة الجيوش شخصياً وشفهياً، دون تسليم توجيهات مكتوبة من قيادة الجبهة»[١٢٨]. لقد قرر ستالين أنه سيرسل إلى الشرق، عدا عن فاسيليفسكي، كلاً من ميرتسكوف وبوركايف وغيفانوف وماسلينكوف وشيكين، ومن تبقّى ـ ستعيّنهم الإدارة العامة للكوادر. كثيرون هم الآن العسكريون الذين يجيدون القتال...

المراجع

الفصل الثاني ـ القائد الأعلى.

(١) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٤١. ل ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) المصدر السابق. د ٣٠. ل ٢٤.
(٣) غ. ك. جوكوف. ذكريات وخواطر. المجلد ٢. ص ٩٧.
(٤) ب. م. شابوشنيكوف. مذكرات. أعمال عسكرية علمية. موسكو، ١٩٧٤. ص ٣٩١.
(٥) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٣. ل ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(٦) المصدر السابق. ف ١٣٢. أوب ٢٦٤٢. د ٢٣٣. ل ٢٨٥ ـ ٢٨٦.
(٧) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٤. ل ١٨.
(٨) المصدر السابق. د ٦. ل ٤٧.
(٩) المصدر السابق. د ١٤. ل ٦٢.
(١٠) المصدر السابق. ف ٩٦ ـ أ. أوب ٢٠١١. د ٥. ل ٤٥ ـ ٥٢.
(١١) غ. ك. جوكوف. ذكريات وخواطر. المجلد ٢. ص ٩٥.
(١٢) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٤١. ل ٧٥ ـ ٨١.
(١٣) المصدر السابق. ل ٧٥ ـ ٨١.

(١٤) المصدر السابق. ف ٩٦ ـ أ. أوب ٢٠١١. د ٥. ل ٧٠.
(١٥) المصدر السابق. ل ٦٨ ـ ٧٠.
(١٦) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١. د ١٦. ل ١٩.
(١٧) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٥. ل ٥١.
(١٨) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٦. ل ٢٠.
(١٩) المصدر السابق. د ١٣. ل ٢٠٩.
(٢٠) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٣٢. ل ٢٠٨.
(٢١) المصدر السابق. ف ٩٦ ـ أ. أوب ٢٠١١. د ٢٦. ل ٧٨ ـ ٨٠.
(٢٢) ي. ف. ستالين. حول الحرب الوطنية العظمى. ص ٧٨.
(٢٣) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٤١. ل ٧٩ ـ ٨١.
(٢٤) المصدر السابق. ف ٩٦ ـ أ. أوب ٢٠١١. د ٢٦. ل ٩٤ ـ ١٠٢.
(٢٥) المصدر السابق. ١١٤ ـ ١٢٢.
(٢٦) المصدر السابق. ل ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٢٧) المصدر السابق. ف ١٣٢، أوب ١. د ٩٦. ل ٢١.
(٢٨) غ. ك. جوكوف. مصدر سابق. المجلد ٢. ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٢٩) الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٧٧. أوب ٢. د ١٣٣. ل ١ ـ ٤.
(٣٠) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٤. ل ٨٦.
(٣١) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١٠٣. د ١٠٩. ل ٦ ـ ٢٩.
(٣٢) الأرشيف الحزبي المركزي لمعهد الماركسية ـ اللينينية. ف ٣٨٦. د ١. ل ٢ ـ ٥٦.
(٣٣) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ١٣. ل ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٣٤) المصدر السابق. د ٣٤. ل ٣٧ ـ ٣٨.
(٣٥) المصدر السابق. د ٣٥. ل ٤١.
(٣٦) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٩. ل ٢٨٧.
(٣٧) Ustinov P. My Russia. Boston - Toronto, 1983, p. 146.
(٣٨) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٩. ل ٣١٦.
(٣٩) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٢. ل ١٧٥.
(٤٠) المصدر السابق. د ٩. ل ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٤١) مختارات لينينية. ١٢. ص ٣٨٣.
(٤٢) ل. تروتسكي. حياتي. برلين، ١٩٣٠. المجلد ٢. ص ١٤١.
(٤٣) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٣. ل ٢١٠.
(٤٤) المصدر السابق. د ١٠. ل ٧، ٨.
(٤٥) المصدر السابق. ل ٩.
(٤٦) المصدر السابق. ل ٢٣٦.
(٤٧) المصدر السابق. ل ٢٣٩.
(٤٨) المصدر السابق. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٩. د ١٥٩. ل ٨٧.
(٤٩) ف. نيتشه. هكذا تكلم زرادشت. مختارات، ١٨٩٩. ص ٥١.
(٥٠) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٩٧. ل ١٧٨ ـ ١٨٠.
(٥١) ي. ف. ستالين. حول الحرب الوطنية العظمى. ص ٧١ ـ ٧٢.
(٥٢) غ. ك. جوكوف. ذكريات وخواطر. المجلد ٢. ص ٩٩.
(٥٣) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٩٦ ـ أ. أوب ١٧١١. د ٢. ل ٦ ـ ٧.
(٥٤) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٢. ل ٣٩٦ ـ ٣٩٧.
(٥٥) المارشال جوكوف. كما نذكره. موسكو، ١٩٨٨. ص ٨١.
(٥٦) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٢٤٩. أوب ١٥٤٤. د ١١٢. ل ١٤٤.
(٥٧) ك. م. سيمونوف. بعيون رجل من عصري. خواطر عن ي. ف. ستالين. موسكو، ١٩٨٨. ص ١٩٨.

(٥٨) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٤٨. أوب ٧. د ٢.
(٥٩) المصدر السابق. ف ١٣٢. أوب ٢٦٤. د ٢٣٠. ل ١٥.
(٦٠) المارشال جوكوف. كما نذكره. ص ٢٤٥.
(٦١) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٨. أوب ١١٦٢٧. د ٩٨٨. ل ٨١.
(٦٢) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ١٣. ل ٢٢٣ ـ ٢٣٠.
(٦٣) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٨. ل ١٠٣.
(٦٤) المصدر السابق. ف ٤٨. أوب ٣٤١٢. د ٦٣. ل ٤٦ ـ ٤٧.
(٦٥) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٣٩. ل ١١٥.
(٦٦) أ. م. فاسيليفسكي. قضية حياتي. موسكو، ١٩٨٣. ص ٤٧٠.
(٦٧) إ. إ. غاغلوف. الجنرال انطونوف. موسكو، ١٩٧٨. ص ٨٧.
(٦٨) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٢. د ٦٢. ل ٥٤٦.
(٦٩) نابليون. مختارات. موسكو، ١٩٤١. المجلد ١. ص ٣٢٠.
(٧٠) ب. م. تيبلوف. مسائل الفروقات الشخصية. موسكو، ١٩٦١. ص ٢٧٥.
(٧١) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٩٦ ـ أ. أوب ٢٠١١. د ٢٦. ل ١٠٣ ـ ١١٣.
(٧٢) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٩. ل ٢٣١.
(٧٣) المصدر السابق. د ١٠. ل ٢٧.
(٧٤) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ١٣. ل ٧.
(٧٥) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٢٦٥. المجلد ٢. ل ٣٤٠ ـ ٣٤٧.
(٧٦) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٤١. ل ٢٧١ ـ ٢٧٢.
(٧٧) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٤. ل ٨٢ ـ ٨٤.
(٧٨) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٣٦. ل ٤٢٨.
(٧٩) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٠. ل ٣٢٤.
(٨٠) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٣٦. ل ٦٦.
(٨١) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٣. ل ٤٥٥.
(٨٢) المصدر السابق. د ١٧. ل ١١.
(٨٣) المصدر السابق. ف ١٣٢ ـ أ. أوب ٢٦٤٢. د ٣٢. ل ١٤٥ ـ ١٤٧.
(٨٤) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٥. ل ٦.
(٨٥) المصدر السابق. د ٩. ل ٣١٣.
(٨٦) المصدر السابق. ف ١٥. أوب ١٧٨٦١٢. د ٨٦. ل ١٣٢، ١٤٠.
(٨٧) المصدر السابق. ل ٣٤٥ ـ ٣٤٧.
(٨٨) المصدر السابق. ل ١٩٨.
(٨٩) المصدر السابق. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ٩. ل ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٩٠) مؤتمر طهران لقادة دول الحلفاء الثلاث، وثائق مختارة. موسكو، ١٩٧٨. المجلد ٢. ص ٥٢، ٥٣.
(٩١) المصدر السابق. ص ٥٤.
(٩٢) ن. أ. بيرديايف. مصير روسيا. موسكو، ١٩١٨. ص ١٨١.
(٩٣) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٩٤. ل ٣٢٩ ـ ٣٣٣.
(٩٤) المصدر السابق. ل ٣١٧، ١٢٢ ـ ١٢٦، ٢٧٥.
(٩٥) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ١١٧٨. أوب ١. د ٣٨. ل ٩٣.
(٩٦) المصدر السابق. ف ٢٣٦. أوب. ٢٦٧٥. د ١٧٠ ل ١٠٨ ـ ٣١١.
(٩٧) السياسة السوفييتية الخارجية. وثائق مختارة، موسكو، ١٩٤٧. المجلد ٥. ص ٤٠.
(٩٨) المصدر السابق. ص ٤١.
(٩٩) مراسلات رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي مع رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ورؤساء وزارة بريطانيا (١٩٤١ ـ ١٩٤٥). المجلد ١. ص ١٩.

(١٠٠) المصدر السابق. ص ٢٩.
(١٠١) السياسة السوفييتية الخارجية. وثائق مختارة. المجلد ٥. ص ٢٠٦.
(١٠٢) مراسلات رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي مع رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ورؤساء وزارة بريطانيا... ص ٦٩.
(١٠٣) Churchill W. S. The Second World War, 1950, vol. IV, p. 428.
(١٠٤) The Diaries of Sir Alexander Cadogan. 1(38 - 1945. N. Y., 1971. p. 471.
(١٠٥) مراسلات رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي... ص ٧٤.
(١٠٦) المصدر السابق. ص ٧٥ ـ ٧٦.
(١٠٧) السياتسة السوفييتية الخارجية. وثائق مختارة. المجلد ٥. ص ٢٣٦.
(١٠٨) ي. ف. ستالين. حول الحرب الوطنية العظمى. ص ١٣٢.
(١٠٩) برافدا. ٣٠/٥/١٩٤٣.
(١١٠) مؤتمر طهران لقادة دول الحلفاء الثلاث. وثائق مختارة. المجلد ٢. ص ٨٩ ـ ٩٢.
(١١١) المصدر السابق. ص ١٦٧.
(١١٢) طهران. يالطا. بوتسدام. وثائق مختارة. موسكو، ١٩٧٠. ص ٢٢.
(١١٣) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣٢. أوب ١١٣٠٩. د ١٠١. ل ٣٣٨ ـ ٣٤١.
(١١٤) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ١٧٢. المجلد ٢. ل ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(١١٥) Averell Harriman and Elie Abel. Special Envoy to Churchill and Stalin, 1941 - 1946, XII. N. Y., Random House, p. 536.
(١١٦) Lundin C. I. Finland in the Second World war. Blomington, 1957, p. 216.
(١١٧) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٦. ل ٨٧ ـ ٨٨.
(١١٨) المصدر السابق. د ١٨. ل ٧٤.
(١١٩) المصدر السابق. د ١٦. ل ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(١٢٠) المصدر السابق. ل ١١٩.
(١٢١) المصدر السابق. ل ١٨٣.
(١٢٢) المصدر السابق. د ١٨. ل ٩٣.
(١٢٣) أرشيف إي. في. ف ١٩٠. أوب ٢٣٢. د ٧. ل ١٠٥.
(١٢٤) الأرشيف المركزي لمنطقة موسكو. ف ٣. أوب ١١٥٥٦. د ١٨. ل ١٣٣.
(١٢٥) المصدر السابق. ل ١٤٢ ـ ١٤٤.
(١٢٦) المصدر السابق. ل. ١١٠.
(١٢٧) المصدر السابق. ف ٤٨ ـ أ. أوب ٣٤١٢. د ٦٣. ل ١٨٧ ـ ١٨٨.
(١٢٨) مؤتمر القرم لقادة دول الحلفاء الثلاث. وثائق مختارة. موسكو، ١٩٧٩. ص ٢٧٣.

ذروة العبادة

«العَظَمة التاريخية شديدة الارتباط
بالدجل والحقد والقسوة والعنف والدم.
ن. بيرديايف

في التاسع من أيار (مايو) استلم ستالين محضر الاجتماع الرسمي الذي جرى فيه التوقيع على صك الاستسلام غير المشروط لألمانيا. يدلّ النص على أن الأمور تمت بسرعة. لكن، لا، حصلت عثرة واحدة، أخبره بها سيروف هاتفياً من برلين، ثم جاء بيريا ليقدم تقريره أيضاً حول الأمر. تفيد هذه التوضيحات بحصول تأخير في عملية التوقيع قدره ساعتان أو ثلاث: «بسبب الموقف غير المسؤول الذي أبداه موظف وزارة الخارجية، السفير سمينوف، الذي أسقط أربعة أسطر من نص الوثيقة الخاصة بالاستسلام، كما ورد من موسكو، فلاحظ الحلفاء ذلك ورفضوا التوقيع. بعد المقارنة مع النص الأصلي تم إضافة المُسْقَط، ولم يعد النص يستدعي أية اعتراضات»[١]. يومها، شعر ستالين بكدر لهذا الإهمال الأبدي الذي يرافقنا في كل مكان. لكنه راح يقرأ.

«الأعلى» يقرأ المحضر ويحاول أن يتخيل في عقله الأجواء التي تم فيها توقيع الصك: حرب طويلة... طويلة ورهيبة،... وخاتمة قصيرة! يبدو لستالين أن الكلمات الختامية التي قالها جوكوف، رئيس مراسم التوقيع على صك الاستسلام، جاءت دون المستوى: «أهنىء مارشال الجو تيدر وجنرال الجيش الأمريكي سباتس والقائد الأعلى للجيش الفرنسي ديلاتر دي تاسيني بالاختتام الظافر للحرب على ألمانيا»[٢]. يا له من إكليل عادي!... على كل حال لا يزال وقت الإكليل باكراً: ستبدأ تجارة سياسية صعبة مع الحلفاء حول ترتيب شؤون العالم بعد الحرب... لن تأخذ الحرب مع اليابان وقتاً طويلاً. والأهم هو الاحتفاظ بثمرة النصر الأساسية ـ السلم الوطيد طويل الأمد!

ستالين يفهم أن هيبته، التي كانت فوق النقاش داخل البلد وفي الكومنتيرن خلال مرحلة ما قبل الحرب، أصبحت اليوم هيبة دولية، عالمية. طالما راح قادة الدول العظمى الغربية، أثناء اللقاءات الشخصية والمراسلات، يرشّون عبارات المديح لزعيم الاتحاد السوفييتي، القائد الأعلى للقوات المسلحة السوفييتية. في رسالة إلى ستالين،

يكتب الرئيس الأمريكي الجديد ترومان قائلاً: «لقد كشفتم عن مقدرة شعب محب للحرية وفائق الشجاعة على تحطيم قوى البربرية الشريرة، مهما بَلَغَتْ من الجبروت. بمناسبة انتصارنا المشترك، نحيي شعب وجيش الاتحاد السوفييتي وقيادته الرائعة»[٣]. أما تشرتشل، فتوجه ـ كعادته ـ برسالة أكثر عاطفة وأعمق، أوكل تلاوتها عبر الإذاعة، يوم ٩ أيار (مايو) إلى السيدة كليمنتينا تشرتشل: «أرسل إليكم تحياتي القلبية بمناسبة النصر الباهر الذي أحرزتموه بطرد المحتلين من بلدكم وبتحطيم الاستبداد الفاشي. إنني شديد الثقة في أن مستقبل الإنسانية يتوقف على الصداقة والتفاهم بين الشعبين البريطاني والروسي. هنا، في جزر بريطانيا، وطننا، نفكر اليوم كثيراً بشخصكم ونرسل إليكم من أعماق قلوبنا التمنيات بالسعادة والتوفيق. إننا نتمنى، بعد كل التضحيات والآلام، في ذلك البَرّ المشؤوم الذي عبرناه سواء، أن نتمكن الآن في صداقة وود من السير قُدُماً تحت الشمس الساطعة للسلام بعد الظفر...»[٤].

آنذاك كان يبدو من غير المعقول تصور هذا الرجل وهو يخطب بعد سنوات في فولتون ليقول أشياء مخالفة تماماً. حتى ديغول، الذي كان ستالين يعتبره صاحب كبرياء، مفرطاً في التأدب، اعترف له بدور مميز في النصر، حين أكد في برقية التحية: «لقد جعلتم من الاتحاد السوفييتي واحداً من الأركان الرئيسية في النضال ضد الدول الظالمة. لقد استحقّت روسيا العظيمة وأنتم شخصياً عرفان أوروبا كلها، التي تستطيع العيش والازدهار فقط عندما تكون حرة»[٥].

كيف صاروا يتحدثون بعد النصر!... كم من التهنئات يرسلون!... كم من البرقيات: بوليسلاف بيروت، تيتو، تشان كاي تشي، أوصياء العرش في بلغاريا، ماكنري كينغ، يوهان نوغورسفول، جوزيف تشيفلي، محمود فهمي النقراشي، زونيك فيرلنغر، بيلاميكلوش، كارل مانرهايم، وغيرهم من زعماء الدول!... أزاح ستالين كومة البرقيات، وكعادته، أخذ الغليون ليمشي الطريق الذي اعتاده على مر السوات: عشرون خطوة جيئة وعشرون خطوة ذهاباً عبر غرفة المكتب.

تحرك كل شيء في العالم بعد أن نبشته الحرب: الشعوب والجيوش والقادة والزعماء... حتى روزفلت، شبه المشلول، كان يذهب في رحلات طويلة على متن الطائرات. وحده ستالين اكتفى بالحد الأدنى خلال الحرب: المرات الوحيدة التي ركب فيها الطائرة كانت رحلته إلى طهران، ثم سفره إلى القرم للقاء تشرتشل وروزفلت في أوائل عام ١٩٤٥، وزيارته السرية للجبهة عام ١٩٤٣. «زعيم» أكبر دولة في العالم لا يحب عبور رحابها، فهو يريد أن يعرف كل شيء من هنا، من هذا المكتب. كان يخيّل إليه أنه تعلّم كيف يرى من الكرملين الأبعاد البعيدة، كأنه على قمة جبل إلبروس؛ وعادة الانغلاق على النفس (بين الكرملين والقصر الريفي الأدنى) تشدد من «غموض» ستالين. لست أدري كيف كان سيتصرف هذا الرجل لو وُجد التلفزيون على عهده. فهل كان سيرغب مثل بريجنيف في الظهور الدائم على الشاشة؟ آنذاك كان ستالين يفضل أن يبقى الناس يتحدثون ويكتبون عنه، ويفكرون به دون أن يروه إلا نادراً، فهو قانع بدائرة ضيقة للعشرة الشخصية: أعضاء المكتب السياسي وبعض الوزراء والقادة العسكريين و ـ أحياناً نادرة ـ الشخصيات الأجنبية.

قريباً سيذهب في آخر رحلة خارجية له. التقى ستالين يوم ٢٦ حزيران (يونيو) في موسكو مع المعاون الخاص لرئيس الولايات المتحدة هاري هوبكينز، واقترح من خلاله على الحلفاء عدم تأجيل الأمور وعقد لقاء القمة في برلين. إنه يشعر كيف تراكم داخله خلال سنوات الحرب تعب ثقيل مثل الرصاص، يصبح من الصعب مقاومته يوماً بعد يوم. خمسة وستون عاماً، معظمها كان عاصفاً، تبدو الآن كثقالات مربوطة إلى قدميه. لقد قرر بحزم أنه، بعد انتهاء الحرب في الشرق، سيذهب إلى إجازة استراحة طويلة وجدية في الجنوب، فهو يؤمن أن القفقاز سينفخ فيه طاقات جديدة. قبل الحرب كان ستالين يذهب إلى هناك في أواخر الصيف لشهر أو شهرين، متابعاً سير الأمور باهتمام من مدينة سوتشي.

وافق ترومان وتشرتشل على اللقاء في برلين مع تأجيل موعده إلى ١٩٤٥/٧/١٥. لم يكن ستالين يعرف بعد أن الرئيس الأمريكي، في تحديده لتوقيت اللقاء، ينطلق من الاستعدادات لتجريب القنبلة الذرية الأمريكية. في الاتحاد السوفييتي أيضاً، كانت الأعمال قائمة على قدم وساق في هذا الميدان تحت اشراف بيريا. في آذار (مارس)، كان ستالين قد استدعى الجنرال غوليكوف (رئيس الإدارة العامة للكوادر في وزارة الدفاع) لتقديم تقرير حول تسريح الأخصائيين في مجال الفيزياء من الجيش لإرسالهم إلى معهد سكوبلتسين للأبحاث الفيزيائية وغيره من المراكز العلمية. ولقد سبق لبيريا أن أبلغه: ضمن النظام الخاضع لأجهزة الأمن يوجد عدة مخابر يعمل فيها العلماء من قوام السجناء السياسيين. لكن، حين قال له ترومان، في بوتسدام، عن نجاح التجريب الذي جرى للقنبلة الذرية في آلاموغودرو، لم يبدِ ستالين أي اهتمام. كتب أندريه غروميكو، الذي شارك في أعمال مؤتمر برلين (بوتسدام)، يقول في مذكراته أن «تشرتشل كان ينتظر بفارغ الصبر نهاية الحديث بين ترومان وستالين. حين انتهى الحديث، أسرع رئيس الوزراء البريطاني يسأل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية:

ـ كيف كان الأمر؟

فأجابه الرئيس:

ـ لم يطرح عليّ ستالين أي سؤال تفصيلي واكتفى بتوجيه شكر على المعلومات»[٦].

وراح الاثنان يخمّنان: هل فهم ستالين معنى الخبر أم لا؟ ما كان بوسعهما أن يعرفا كيف طارت مساء ذلك اليوم برقية إلى بيريا في موسكو حول ضرورة الإسراع الفائق في نشاطاتنا الذرية.

أما الآن، فستالين لا يزال في طور الاستعداد لتلك الرحلة...

رفض «الزعيم» فوراً فكرة الطيران على متن «دوغلاس» مع أن بيريا حاول البرهان ـ معتمداً على آراء الخبراء ـ بأن الرحلة ستكون آمنة تماماً. لكن ستالين حتى اللحظة الأخيرة يتذكر مرتعداً طيرانه إلى طهران عام ١٩٤٣، سيما أن الطائرة هَوَتْ

عدداً من المرات في منخفضات هوائية فوق الجبال... لذلك قرر السفر إلى برلين بالقطار. واخترع بيريا مساراً غير اعتيادي، إلى الشمال من السكة المعروفة، وهيأ قطاراً مدرع الحافلات مع حراسة خاصة ومرافَقة خاصة.

لنتحدث بمزيد من التفصيل عن عملية نقل «الزعيم» إلى برلين، باعتبارها فاقت من حيث التهيئة الكثير من العمليات العسكرية الكبرى. ستالين يطالب بتقديم تقارير متواترة عن الإعداد للمؤتمر وعن ترتيبات سفره. يهتم بالتفاصيل ويصدر الإيعازات. وانشغل بعملية الحفاظ على حياة «الزعيم» عشرات آلاف الناس. قبل أسبوعين من السفر، كانت وثيقة على طاولة الجنراليسيموس تلخص ـ بأبهى الأشكال ـ موقف ستالين من شخصه:

«إلى الرفيق ستالين.

إلى الرفيق مولوتوف.

تبلغكم وزارة الشؤون الداخلية عن اكتمال التحضير للإجراءات الخاصة بتحضير الاستقبال والتوزيع للمؤتمر المقبل (هكذا في النص ـ المؤلف). لقد جرى إعداد ٦٢ ڤيلاً (١٠ آلاف متر مربع) وڤيلاً بطابقين لأجل الرفيق ستالين: ١٥ غرفة وشرفة مكشوفة وعليّة، (إجمالاً ٤٠٠ متر مربع). الڤيلا مزودة بكل شيء: هنالك احتياطي من الطيور والحيوانات والمواد الغذائية ومواد البقاليات والمشروبات. لقد أنشأنا ثلاث مزارع خاصة على بعد سبعة كيلومترات من بوتسدام وفيها حيوانات وطيور وخضار. هنالك فرنان يعملان خصيصاً. كل العاملين من موسكو. وهنالك مطاران خصوصيان على أتم الجاهزية. فرزنا للحراسة سبعة أفواج من قوى وزارة الشؤون الداخلية و ١٥٠٠ شخص من رجال المخابرات، وتم تنظيم الحراسة على ثلاثة أحزمة. رئيس حرس الڤيلا ـ الجنرال فلاسيك. رئيس حراسة مقر المؤتمر ـ كروغلوف.

جهّزنا قطاراً خاصاً. المسير طوله ١٩٢٣ كم (١٠٩٥ كم في الاتحاد السوفييتي و ٥٩٤ كم في بولندا و ٢٣٤ كم في ألمانيا). ضمان الأمن في الطريق مناط بـ ١٧ ألف شخص من قوى الوزارة و ١٥١٥ شخصاً من العاملين في المخابرات. على كل كيلومتر من السكة الحديدية يناوب من ٦ إلى ١٥ شخصاً من الحرس. وسوف تتجول في مناطق سير القطار ٨ قطارات مدرعة لقوى وزارتنا.

أُعدّت لأجل مولوتوف بناية من طابقين (١١ غرفة)، و ٥٥ ڤيلاً لأجل الوفد، بما في ذلك ٨ ڤيلات بطابقين.

١٩٤٥/٦/٢

بيريا»[٧]

من الصعب أن نجد سابقة لمثل هذه الإجراءات الأمنية. ثم لاحظوا كم ابتعد «الزعيم» عن «تقشّفه» المعروف أثناء فترة العشرينات! كلما كان مجد ستالين يتعاظم وكلما كان يتقدم في السن، كلما ازداد خوفه على حياته. حتى لحظة السفر إلى برلين، بقي يسأل بيريا، بضع مرات يومياً، حول سرية الرحلة حيناً وحول ثخانة درع الحافلة

حيناً آخر وحول برنامج الحركة على أرض بولندا حيناً ثالثاً... هل كان يخطر في باله أن ذلك الطريق، بين موسكو وبرلين، تم اجتيازه من قبل الجنود السوفييت مشياً على الأقدام، تحت نيران العدو؟ حجم التحضيرات لا يدل على شيء من هذا القبيل.

عند اللقاء مع ترومان في الساعة ١٢ من يوم ١٧ حزيران (يونيو)، في بوتسدام، قال ستالين بعد تبادل التحية:

- أرجو المعذرة على التأخر ليوم كامل. لقد أخّرتني المفاوضات مع الصينيين. كنت أريد الطيران، لكن الأطباء منعوني.

- أفهمكم تماماً. مسرور للتعرف شخصياً على الجنراليسيموس ستالين.

لقد تأخر ستالين لأجل التأكيد على أهمية شخصيته: من الجدير والممكن أن يتم انتظار الزعيم العظيم... واستخدم ستالين هذه التجربة النفسية أكثر من مرة. يتذكر السّير ويليم هايتر، عضو الوفد البريطاني في مفاوضات بوتسدام، قائلاً: «كان ستالين دائماً يتأخر على الاجتماعات وكنّا نضطر لانتظار قدومه طويلاً...»(٨).

عند المساء بدأ «الثلاثي الكبير» يتقاسم ثمار النصر في أوروبا. وبدا الأمر أسهل من الحفاظ على التحالف لأمد طويل، إذ كان الثلاثة يشعرون أن تحالفهم الغريب يعيش آخر أيامه، لكن شهر آب (أغسطس) سيذكّر بهذا التحالف مرة أخرى.

ثمار النصر وثمن النصر

كانت قافلة السيارات الطويلة التي ترافق ستالين تقترب من بناية صغيرة رمادية على بعد ٧ أو ٨ دقائق سفر من قصر سيسيلينهوف، قصر ولي العهد الألماني الأسبق ويلهلم. ابتداء من ١٧ حزيران (يونيو)، وعلى مدى أسبوعين ظل رؤساء الدول العظمى الثلاث منهمكين في إجمال حاصل الحرب، وتحديد مستقبل ألمانيا، والنقاش حول مستقبل دول أوروبا الشرقية، والبحث عن سبل لحل «المسألة البولندية»، وتقاسم الأسطول الحربي الألماني، وتحديد حجم التعويضات الحربية، والاتفاق حول محاكمة مجرمي الحرب وحول المدد التقريبية لإنهاء الحرب ضد اليابان وحول العديد من الشؤون الأخرى. ثلاث عشرة جلسة للرؤساء وإحدى عشرة جلسة لوزارة الخارجية للنظر في عشرات المسائل ومناقشة ما يزيد عن مئة وثيقة.

حين عودته إلى الفيلا، كان ستالين يستطلع البرقيات الواردة من موسكو ويتصل أحياناً عبر خط الهاتف الحكومي ويقترب من النافذة ليجلس في المقعد وينظر إلى الحديقة والبحيرة الجميلة وأشجار الصنوبر النحيلة. بِمَ كان يفكر، وهو على الأرض التي أنجبت تلك الماكنة العسكرية العملاقة التي ظل أربع سنوات طوالاً يخوض ضدها صراعاً مميتاً؟ ربما تذكّر أن على تلك الأرض أيضاً وُلدتْ الإيديولوجيا التي بقي هو نفسه كاهنها الأعلى لسنوات طويلة؟ أم إنه تذكّر اجتماع اللجنة المركزية للحزب في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٤، حين ألقى خطاباً لمناقشة تقرير زينوفييف حول

الوضع الدولي، قال فيه إنه «لا يؤيد أعمال القمع ضد راديك بسبب أخطائه في المسألة الألمانية»[٩]؛ أم إنه أدان راديك لاحقاً على نهج التعاون مع الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الألمان، دون أن يفهم: هناك بالذات منبع أحد الأخطاء الكبرى التي ارتكبها في مجال القضايا الدولية؟ ربما لو أن الشيوعيين والاشتراكيين ـ الديمقراطيين تحالفوا، لما سمحوا لوحش الفاشية أن يرفع رأسه؟... ستالين يذكر راديك ويذكر المزحة التي أطلقها عام ١٩٢٨، حين كان في المنفى بمقاطعة تومسك، والتي لا يغفرها له ستالين: في جلسة لأصدقائه قال راديك: «بيني وبين ستالين خلاف في القضية الزراعية: هو يريد زراعتي في الأرض الرطبة وأنا أريد العكس...».

كلما مرّت السنوات، تمعن الذاكرة في العودة إلى الماضي. راديك أبيد منذ زمن، لكن ستالين يتذكره الآن باعتباره كان مسؤولاً عن «القضية الألمانية» في أوائل العشرينات. ربما كان ستالين، الذي تتعبه النقاشات الطويلة مع تشرتشل وترومان، قد تذكّر أيضاً إيرنست تيلمان، الذي لم يساعده «الزعيم» أو لم يشأ أن يساعده. في أواخر ١٩٣٩، جاءه مولوتوف ببرقية من كوبولوف (الذي كان مستشاراً للسفارة السوفييتية في برلين) يقول فيها إن زوجة تيلمان، بعد أن سمعت بمعاهدة «الصداقة» مع المانيا، جاءت لتطلب من موسكو إنقاذ زوجها من زنازين النازية. وقالت زوجة تيلمان أن «لا مخرج لديها، إذ فقدت وسائل العيش وتعاني من الجوع بالمعنى الحرفي للكلمة». قال كوبولوف لها ـ كما تفيد البرقية ـ إننا لا نستطيع مساعدتها بشيء»، فطفرت الدموع من عينيها وسألت: «هل يعقل أن يكون كل عمل من أجل الشيوعية قد ضاع هباء بالفعل؟». فكرر كوبولوف جوابه لها. ثم يقول كوبولوف إن زوجة تيلمان «تسأل المشورة: هل يمكنها التوجه بطلب إلى غيرينغ»، فأجابها إن ذلك شأن يخصها. وذهبت زوجة تيلمان منزعجة جداً»[١٠].

يذكر ستالين أنه قال لـ مولوتوف يومها: فكروا. ربما كان من الممكن مساعدة زوجة تيلمان ببعض الماركات الألمانية، لكنه لم يتخذ أي قرار جذري بخصوص غيرنست تيلمان، الذي استطاع وهو في سجون النازيين أن يرسل إلى موسكو بضع رسائل يطلب فيها المساعدة. لم يكن ستالين يريد أن يتوجه شخصياً إلى هتلر و «يعكر» اتفاق «الصداقة»، مع إنه ـ بعد إرسال مجموعة من أعداء النازية إلى ألمانيا ـ كان بوسعه أن يطلب العفو عن تيلمان. كوبولوف محق، إنها قضية خاصة بالسيدة روزا تيلمان. ولا شيء من عذاب الضمير ـ كالعادة ـ فستالين لا يعرف ذلك الشعور. لكن ذكرى روزا تيلمان جرّت إلى ذاكرة ستالين وثيقة أخرى على علاقة بقائد البروليتارية الألمانية. بلى، بلى، كان هنالك وثيقة جاء بها بيريا ذات مرة:

«إلى لجنة الدفاع الحكومية، الرفيق ستالين.

ممثل وزارة الشؤون الداخلية في جبهة بيلوروسيا ـ ٢، الرفيق تسانافا، يفيد بأن مجموعات العاملين في المخابرات قد عثرت على زوجة إيرنست تيلمان، روزا تيلمان، التي فرت من معسكر التعذيب وظلت متخفية في مدينة فورستنبورغ، وكذلك ابنته، إيرما فيستر، التي حررتها قوات الجيش الأحمر من معسكر التعذيب بمدينة نويبر اندنبورغ...

تروي روزا تيلمان أنها رأت زوجها لآخر مرة في ١٩٤٤/٢/٢٧ في سجن مدينة بيوتين بحضور رجل من الغستابو. قال لها تيلمان إنهم يعذبونه بشكل دائم ويطالبونه بالتخلي عن معتقداته...

١٩٤٥/٥/١١

بيريا»(١١)

عندئذ، أوعز ستالين إلى بوسكريبيشيف: تهيئة الظروف اللائقة وتقديم المساعدة اللازمة لأقرباء تيلمان، ربما تحرك شيء ما داخله، ولو بعد تأخير. كم من القصص المشابهة برزت في تلك الأيام! تحرير رئيس الوزراء في الجمهورية الإسبانية السابقة، فرنسيسكو كاباليرو(١٢)... وفرار ابن الرأسمالي الألماني كروب من السجن بمعونة من ملك رومانيا ميخاي(١٣)... وهل بوسع «الزعيم» متابعة كل شيء؟ ليشتغل بتلك الأمور بيريا ومولوتوف. أما هو، فيتوقف عليه شيء أهم: التصفية السياسية للحرب! بعد إحرازه للنصر العسكري لا يحق له إفلات النصر من يديه على الصعيد السياسي!...

ستالين يعود من الماضي البعيد إلى اللحظة الراهنة وهموم اليوم. أثناء الاستماع إلى ترجمة كلام المشاركين في المحادثات كان يظل يخط أو يرسم شيئاً على الورق: عادة توضع أمامه عدة أقلام ملونة وقلم حبر. أحياناً، كان ستالين يعيد كتابة كلمة ما عشرات المرات، محاولاً التمركز على مغزاها الخفي: «تعويض حرب»، «غرامة حرب»، «حصص تعويض الحرب»... وأحياناً ـ كما لاحظ البارون بيفربروك أثناء مفاوضات في موسكو عنند بداية الحرب ـ كان ستالين «يرسم عدداً لا حصر له من الذئاب على الورق، ثم يلوّن الخلفية بقلم أحمر»(١٤). حين ينهي المترجم فاصل الكلام، يكون ذئب إضافي قد انضم إلى القطيع ليذوب في الغيهب الدامي لذلك الزمن القاسي...

ستالين يدرك أن تحطيم الفاشية يجعل من الاتحاد السوفييتي دولة عظمى، ويجعله هو، زعيم تلك الدولة، واحداً من أعظم القادة المعاصرين. شركاؤه الغربيون أناس مؤقتون، أبناء «الديمقراطية»: روزفلت كان سياسياً كبيراً، ومع هذا، فإنه سيخلي البيت الأبيض حين انتهاء عهده، لو بقي حياً. وها هو تشرتشل: جاء إلى المؤتمر وهو على ثقة كاملة من فوز حزبه في الانتخابات. في ١٧ تموز (يوليو)، أثناء اللقاء مع ترومان، تساءل ستالين إذا ما كان الرئيس قد التقى مع تشرتشل، فأجابه ترومان:

ـ نعم، التقيت به صباحاً. تشرتشل واثق من الفوز في الانتخابات...، فوافق ستالين:

ـ لا يمكن للشعب البريطاني أن ينسى المنتصر(١٥).

لكن الأمور سارت على نحو مغاير: في ٢٦ تموز (يوليو) أُعلن عن هزيمة المحافظين وجاء كليمنت إتلي ليحل محل تشرتشل في مفاوضات بوتسدام. هذا غير مفهوم لدى ستالين: تلك «الديمقراطيات العفنة» تضعِف نفسها بنفسها أما النظام الذي أنشأه هو، فلا يعرف «قفزات» من هذا القبيل. إنه واثق: سوف يبقى في قمة السلطة طيلة ما تسمح به صحته من زمن.

مثل «ملك الشمس» الفرنسي، كان ستالين يطابق بين نفسه والدولة (والشعب، والحرب)، فقد تعود أن يتكلم باسم الشعب، واثقاً من أنه يجلب السعادة على هذا الشعب. ومنذ الأشهر الأولى بعد الحرب، بدأ خط مصيره يقترب بسرعة من ذروة المجد العالي، ذروة الجبروت والعبادة المقدسة.

كان ستالين يرى أن ثمار النصر ليست فقط تحطيم النازية وتحوُّل الاتحاد السوفييتي إلى إحدى الدول الأقوى نفوذاً... البصيرة الثاقبة وحدها التي كانت تستطيع أن ترى: خلف طاولة في قصر سيسيلينهوف يجلس حلفاء يمكن تسميتهم «الأصدقاء ـ الأعداء». لم ينخدع ستالين لعبارة ترومان في أول لقاء حول إنه «يريد أن يكون صديقاً للجنراليسيموس ستالين». وأحسّ الزعيم السوفييتي بوضوح، عند مناقشة تعويضات الحرب: لقد تراجع الأمريكيون عن موقفهم في يالطا، ووقفوا إلى جانب الانكليز في المطالبة بحل يضر بمصلحة الاتحاد السوفييتي إلى أقصى حد... ستالين يؤكد أن لدى الاتحاد السوفييتي وبولندا ويوغسلافيا حقاً سياسياً، لا بل ومعنوياً، في التعويض عن خسائر الحرب، لكن ترومان وتشرتشل يسدّان آذانهما أمام نداءاته. فقط في الجلسة الأخيرة، الثالثة عشرة، وافق ستالين على هذا الغبن. فقد كان أمام خطر الحصول على ما هو أقل. وانتقم الجنراليسيموس أثناء حل «المسألة البولندية»، خصوصاً بشأن مرور الحدود بمحاذاة نهر أودر ونهر نيس: ستالين يمدّ بولندا نحو الغرب، لتكون دولة سلافية قوية على حدود ألمانيا.

كان لديه ما يكفي من دواعي القلق لأن الرئيس ورئيس الوزراء يكثران من الحديث عن أوروبا الشرقية ولكنهما لا يريدان الكلام حول أوروبا الغربية. حين طرح ستالين مسألة نظام فرانكو الفاشي لم يلقَ أي تفهّم، بينما راح ترومان وتشرتشل يطالبان بدعم خصوم تيتو في يوغسلافيا، ويتحدثان بقلق عن بلغاريا ورومانيا، لكنهما لا يريدان رؤية أن اليونان أمام خطر الحرب الأهلية إذا لم تحصل على مساعدة الحلفاء. أحياناً كان يخيّل إلى ستالين أن الجالسين خلف الطاولة ليسوا حلفاء، بل هم خصوم قدامى، يحاول كل منهم أن يقتطع أكبر حصة من الكعكة التي خبزوها معاً. على المصاف الأمامية برزت السياسة، وهي «سيدة» منافقة ولا رحمة لديها. في ميدان السياسة كانت مواقف الشركاء على اختلاف أشد بكثير مما يجعل المرء ينتظر نتائج كتلك التي كانت في يالطا. الحرب والخطر المشترك والأهداف المشتركة تدفع إلى التقارب. أما الآن، والأهداف منجّزة، تقدمت إلى المرتبة الأولى ـ كما دائماً ـ الإنانية السياسية والطبقية... وما كان بوسع المترجمين القديرين في بوتسدام أن يجبروا زعماء التحالف المعادي للهتلرية على التكلم بلغة موحدة.

لكن ستالين، على العموم، كان راضياً ـ مثلما الانكليز والأمريكيون ـ عن نتائج المؤتمر: في صيف ١٩٤٥ تم انجاز ما سيصبح مستحيلاً بعد سنة أو سنتين ـ الاتفاق على نزع السلاح من ألمانيا والتوصل إلى حلول مقبولة لعدد من المسائل الأساسية الأخرى. أصر ترومان، خصوصاً، على التأكيد العلني لالتزامات الاتحاد السوفييتي بشأن القتال ضد اليابان، ولم يتملص رئيس الوفد السوفييتي:

- الاتحاد السوفييتي سيكون جاهزاً لبدء القتال في أواسط آب (أغسطس)، وسوف يلتزم بعهوده!

وبالفعل، جرت الاستعدادات، وفي شهر آب (أغسطس) كانت الخطط العسكرية جاهزة[١٦]، وكان ستالين حريصاً على عدم بروز احتكاكات مزعجة للحلفاء[١٧].

في الجلسة الختامية للوفود (ليلة ١ ـ ٢ آب)، كانت العبارة الأخيرة التي قالها ستالين هي: «يمكن القول إن المؤتمر، على الأغلب، كان موفقاً». قبل دقائق، كان الزعماء الثلاثة قد وقّعوا على برقية تحية إلى تشرتشل وإيدن، ثم أعلن ترومان:

- أعلن عن اختتام مؤتمر برلين لأعماله. إلى لقاء آخر، آمل أنه سيكون قريباً.

- إن شاء الله، قال ستالين[١٨].

لم يكن ستالين يدري بعد أن صك استسلام اليابان، الذي سيوقّعه، بتكليف منه هو، الجنرال ديريفيانكو، على متن البارجة الأمريكية «ميسوري»، سيكون آخر خطوة كبيرة يتم تنسيقها بين الحلفاء. إنه لا يعرف بعد أن خطط القصف الذري لأراضي الاتحاد السوفييتي («دروبنسوت» و «تشاريتير») ستظهر قريباً في البنتاغون الأمريكي، وأن مجلة «كوليرز» ستنشر السيناريو التفصيلي لـ «الحرب المقبلة ضد روسيا الحمراء» ولاحتلال الاتحاد السوفييتي لاحقاً. أما الآن، فإن قادة الدول الحليفة في بوتسدام ـ شاءوا ذلك أم أبوا ـ قاموا بخطوة أسفرت ليس فقط عن التصفية السياسية للحرب في أوروبا، بل وكذلك عن تقسيم أوروبا إلى عالمين منفصلين. كان التحالف يعيش ساعاته الأخيرة، وتشرتشل يرى، على حد تعبيره، كيف يهبط «الستار الحديدي» ليقسم أوروبا من لوبيك حتى تريستا[١٩]. آنذاك، لا ستالين ولا ترومان ولا تشرتشل (أو إتلي)، كانوا يعرفون أن درب الكراهية المتبادلة الذي سيسيرون عليه بعد حين، سيؤول بخلفائهم إلى المأزق النووي التاريخي.

إن الانتصار العظيم على الفاشية، الذي كانت شعوب الاتحاد السوفييتي والدول الحليفة الأخرى هي مبدعه الأساسي، عاد على المواطنين السوفييت ثمرة مُرّة: لقد كرس النصر ثقة ستالين بعصمته وبدوره الرسولي في تقرير مصائر الشعب ومصير الاشتراكية. فالنصر هو الذي أسفر نهائياً عن تحوُّل ستالين إلى إله أرضي.

نعم، لقد حمى الناس حريتهم في الصراع ضد الفاشية، لكن التحرر من الستالينية كان لا يزال بعيداً كل البعد،... عشرات السنوات. كان أبناء الوطن يعودون إلى بيوتهم المهدمة، مثلما أجدادهم بعد الحرب الوطنية عام ١٨١٢ (ضد نابليون)، ويأملون بتغييرات طيبة. كانت ريح الحرية والظفر الوطني والانتصار الذي كلف ملايين الأرواح، تلد آمالاً مبهمة: يريد الناس حياة أفضل، بلا رعب ولا ملاحقة. بلى، كانوا، كما في السابق، يبجلون ستالين ويمجدونه وينحنون له ويرفعونه عالياً، لكنهم يؤمنون ـ في الوقت ذاته ـ أنه لن يكون بعد الآن حملات إرهاب لا نهاية لها ونقص في أشد الحاجيات ضرورة، وهو ما أصبح سمة ملازمة لنمط الحياة السوفييتي.

أما ستالين، فعلى العكس، جعله النصر يؤمن بخلود مؤسسات الدولة والمجتمع

التي بناها وبعمق القدرة الحياتية للنظام وصحة السياستين الداخلية والخارجية. وسرعان ما جعل «القائد» الجميع يفهمون. كل شيء سيبقى على حاله في المجال الداخلي... يجب العمل وإنهاض الاقتصاد الوطني المدمَّر، انطلاقاً من التوجيهات التي تصدر عنه هو، ستالين. في ١٩٤٦/٢/١٠ انعقد اجتماع اللجنة المركزية ليوجه «نداء إلى جميع الناخبين بشأن انتخابات السوفييت الأعلى»: ولا كلمة عن الديمقراطية أو عن سلطة الشعب أو عن مشاركة الكادحين في إدارة الدولة. بالعكس. عبارات معتادة حول «تحالف الشيوعيين وغير الحزبيين» وحول أن «الناس السوفييت» كانت لديهم الفرصة خلال سنوات طويلة ليقتنعوا بصحة سياسية الحزب التي تتلاءم مع المصالح الجذرية للشعب» وأنه «لا يجب أن يبقى ناخب واحد دون أن يستخدم حقه المشرّف...»[٢٠]. العبارة الأخيرة، كما يعرف المواطنون السوفييت، ليست سوى تحذير.

ومن جديد راحت تعمل ماكنة القرارات الحزبية: حول دراسة «موجز تاريخ» الحزب وحول ضعف العمل في جريدة «المطرقة» وجريدة «كومونة الفولغا»، إلخ، إلخ...

توقيع ستالين على الكثير من الوثائق، فهو، كما في السابق، يؤمن بالقوة السحرية **للإيعازات والتوجيهات والأوامر**. إذا كانت الآلة البيروقراطية الستالينية قبل الحرب لا تزال في مرحلة التشغيل والتجريب والتعديل، فإنها، بعد الحرب، رقّمت نفسها، لا بل راحت تسرع في دورانها. إن نهج ستالين بعد الحرب هو نهج **البيروقراطية الشاملة الكلية**. فالعديد من المؤسسات صار لديه زي موحد (عاملو سكك الحديد قبل غيرهم)؛ وراحت تظهر مؤسسات جديدة، تكاد مهامها لا تخرج عن إطار «مراقبة تنفيذ القرارات والتوجيهات». ولكي يجري تثبيت الفلاح في القرية إلى الأبد، حُرم سكان الريف من الهويات واستمرت أعمال النفي حتى أواخر الأربعينات، ولم تكن مؤسسة بيريا تشعر بالبطالة.

تم تحويل علماء الاجتماع، بشكل نهائي، إلى معلّقين بلهاء يفسرون دوغمات «الأفكار العظيمة»، ومن جديد انتشرت طقوس وتعابير التمجيد بـ «الزعيم». كما في السابق، كانت الصراحة حتى مع الأقرباء شيئاً خطيراً. وراح الرقباء الفكريون على الثقافة، تحت قيادة جدانوف، يغتالون حرية الفكر. من جديد، راحت البيروقراطية المتزايدة تتمخض عن ثمرة خطيرة بالنسبة للمجتمع: اللامبالاة والبرود لدى الإنسان العامل والاستعداد لشيء واحد فقط هو التنفيذ، واشتداد الانحطاط المعنوي للكثير من الناس عبر ازدواج الشخصية أخلاقياً. شيئاً فشيئاً كل الحزب يتحول إلى ظل الدولة (أو العكس؟). لا أحد يقوى على امتلاك رأي خاص يتميّز عن الرأي الرسمي. ومن جديد أصبحت حيويةً كلماتُ بوشكين التي قيلت في عصر آخر: «... غياب الرأي العام هو لا مبالاة تجاه الواجب أياً كان واتجاه العدالة والحق والحقيقة... إنه احتقار صفيق للفكر ولكبرياء الإنسان»[٢١]. هكذا، رغماً عن الشعارات، راحت الاشتراكية المعتدلة تولد النخبة البيروقراطية الجديدة، مع كل ما قد يبدو هنا من تناقض في الأمر.

لقد استخدم ستالين ثمار النصر من أجل «التعليب السياسي»، حيث تعمّد **تعليب**

النظام» القائم لحفظه، وبيّن عجزه عن الإبداع الاجتماعي الحقيقي، كما في فترة العشرينات. من حين إلى آخر كان يقيل وزيراً أو مارشالاً أو مسؤولاً ما، بتهم مختلفة، لكن الغاية واحدة: المزيد من تبجيله، الذي لا حدود له، بوصفه «زعيماً عبقرياً». كان ستالين بالأصل «قيصراً جيداً» في أعين الشعب، ومثل تلك الإجراءات ترفع هيبته أكثر، إذ يتم ربطها بالحرص على احتياجات الشعب. وحتى اليوم لا يزال هذا الأسلوب ينال إعجاب الكثيرين، إذ يقال إن ستالين لم يكن ليسمح بالفساد والرشوة... لكن جذور التفسخ البيروقراطي آتية من هناك... كان يكفي أن يرحل ستالين جسدياً (ثم، إلى حد ما، سياسياً) حتى اتضح للعيان أن «تعليب النظام» الذي أنجزه يوماً ما لم يسفر إلا عن استفحال الظواهر الحرجة في تلك الأيام وبعد ذلك. عبر عشرات السنوات سيقتنع الجميع بأن **السلطة المطلقة تؤدي إلى الفساد المطلق**. لقد وطد الانتصار على النازية الحكم الفردي للمستبد وزاد من عبادته وتبجيله، إذ أصبح الشعب يرى فيه رسولاً وصانعاً للنصر العظيم وقائداً عسكرياً لا مثيل له. لكن هذا الإيمان كان يحث طاقة الشعب الذي حُرم من الحقيقة والعدالة زمناً طويلاً.

لم يكن وارداً عند ستالين أن يقول يوماً ما: «نحن بحاجة إلى تغييرات في البنيان السياسي». فعقله الدوغمائي، حين يعطي تقويمه لذلك النظام الذي يقف هو في مركزه، كان عاجزاً عن إدراك حقيقة هامة هي أن محاولة تعليب هذا النظام سوف تعود بمزيد من التآكل والانحطاط على القيم والمثل العليا التي استمرت ملايين الناس تؤمن بها.

إلى جانب تلك العمليات السالبة، كان ثمة أمل وإرادة وطاقة شعبية تعيش وتنبض وتصارع من أجل البقاء. فالانتصار على النازية أقنع الناس السوفييت بأن الوطن باقٍ، وبأن الطريق التاريخي الذي دفع البلاشفةُ روسيا إليه، قادر على الحياة. فرغم العوائق الكثيرة والصعوبات والشنائع والجرائم، بقي الشعب بمثابة المحافظ الأساسي على قيمه الروحية وإيمانه بمستقبل أفضل. تمكّن الشعب، خلال فترة تاريخية قصيرة لا سابق لها، أن ينهض بالطاقة الاقتصادية للبلد من بين الدمار وأطلال الحرب. حين تُليَت على ستالين، في أواخر عام ١٩٤٥، المعلومات الشاملة حول الدمار الاقتصادي الذي جلبته الحرب على البلد، كان رد فعله ـ وهو الذي يعرف أكثر من غيره الجراح والندوب على جسد الوطن ـ عبارة عن سؤال باهت إلى فوزنيسينسكي:

ـ ألا توجد مبالغة ما؟

ـ يمكن أن يوجد تقليل فقط. من المستحيل تقدير كل الخسائر بعمقها واتساعها خلال فترة قصيرة...

إنه يذكر اجتماع قادة الجبهات وقادة صنوف الأسلحة المكرس لموضوع التسريح في الجيش الأحمر وإعادة تنظيمه (٢١ ـ ١٩٤٥/٥/٢٢). وعندئذ، قال «الأعلى» للمارشالات والجنرالات: بدون الجيش، والأصح ـ بدون الناس الموجودين حالياً في الجيش، لا يمكننا معالجة جراحنا... ثم راح ينظر أحياناً إلى الأوراق التي

بين يديه ويرمي عباراته في قاعة الاجتماع: «... يجب أن يشمل التسريح، قبل كل شيء، وحدات الدفاع الجوي والخيالة ولا يجب أن يمس وحدات الدبابات والأسطول الحربي. بالنسبة لسلاح المشاة، سيبلغ التسريح ٤٠ ـ ٦٠٪ من التعداد العام، دون أن يشمل جيوش الشرق الأقصى وما وراء بحيرة البايكال وما وراء القفقاز... يجب أن يباع لكل جندي يتسرح، بثمن رخيص، مقدار من البضائع التي تم الاستيلاء عليها كغنائم حرب، وأن يُمنح راتباً عن كل السنوات التي قضاها في الجيش...»[٢٢]. ستالين هنا يتحدث عن تسريح الجيش وهو يفكر بكيفية زج هذه القوى في العملية التي ما برح فوزنيسينسكي يلح في الكلام عنها: إنهاض البلد اقتصادياً. كل شيء عند الرمق الأخير: القوى والإمكانيات والصبر. الشعب يعيش فقراً مريعاً. بيريا يقدم تقارير عن الجوع في مناطق تشيتا وطاجكستان وتتاريا وغيرها. وزير الداخلية في جمورية طاجكستان يقول: «في منطقة لينين ـ آباد عشرون ألف شخص ماتوا من الجوع و ٥٠٠ منتفخون بسبب سوء التغذية. في منطقة ستالين ـ آباد... مات بسبب الجوع سبعون شخصاً... المساعدات التي جرى تقديمها قليلة...»[٢٣]. من تشيتا تأتي أنباء عن «أكل الناس الرّمم ولحاء الشجر». وتُروى حادثة مريعة: «إحدى الفلاحات وأبناؤها قتلوا اختهم الصغيرة وأكلوها...»[٢٤]. حين لاحظ بيريا عدم الرضى على وجه «الزعيم» وهو يضع التقرير جانباً، قال:

ـ سنفرز كمية من الطحين في الموسم المقبل. فليتحملوا!

كانت الحرب مع اليابان على جدول الأعمال. وتقارير فوزنيسينسكي تدل على الأبعاد الهائلة لما يترتب من عمل اقتصادي. كان هذا الرجل، العضو المرشح للمكتب السياسي، يفهم أفضل من الآخرين في محيط «الزعيم» أبعاد وعمق العمليات الاقتصادية، وستالين يدقق النظر في أمره منذ زمن، لكنه يشعر بإحساس متناقض. بلى، إنه أكثر القادة ذكاء ممن حول «الزعيم»، لكن الأخير لا يعجبه استقلال فوزنيسنسكي، لا بل وحدّة آرائه أحياناً. على أي حال ـ فكر ستالين في نفسه ـ سيكون من الصعوبة بمكان انهاض الاقتصاد بدون دماغ كدماغه. وفي شباط (فبراير) ١٩٤٧، فاجأ ستالين الكثيرين حين اقترح انتخاب فوزنيسينسكي عضواً في المكتب السياسي.

ستالين يقرأ تقرير فوزنيسينسكي حول الدمار الاقتصادي الذي خلفته الحرب ويتوقف أمام بعض الأرقام: تم تدمير ١٧١٠ مدينة وبلدة... حرق ٧٠ ألف قرية (والكثير منها على ذمة «الزعيم»، فهل يفكر الآن بذلك؟)... تفجير وتعطيل ٣٢ ألف مؤسسة صناعية و ٦٥ ألف كيلومتر من سكة الحديد، ونهب ١٠٠ ألف كولخوز وسوفخوز ومحطة جرارات... ستالين يقرأ الأرقام المرعبة ويتذكر طريقه إلى برلين. لم يكن القطار يتوقف في المدن والمحطات الكبيرة، و «الزعيم» يرى، من خلال الزجاج العازل للرصاص في الحافلة المدرعة، الامتداد الفسيح للسهول الروسية مثْلوماً بأخاديد الخنادق والحرائق. كانت تمر أمام ناظريه هياكل الأبنية بنوافذها الفارغة والمعامل المدمرة. حتى في القرى التي سلمت، هناك بيوت محترقة، وبقايا المدافىء القرميدية، بعد احتراق البناء الخشبي حولها تتضرع إلى السماء بسواعدها المنصوبة الباردة. حتى خَضَار شهر تموز (يوليو) ما كان بوسعه أن يموه آثار النكبة الرهيبة.

تفيد معلومات فوزنيسينسكي، التي يقرأها «الزعيم»، أن ٢٥ مليون إنسان في البلد بلا مأوى، وهم يسكنون في حفر أرضية واسطبلات وأقبية. أما تربية الحيوان، التي كانت ضعيفة منذ فترة الثلاثينات، فقد تقوضت نهائياً. عشرات ملايين الدواب صودرت أيام الحرب أو أبيدت. ويكتب فوزنيسينسكي: الحسابات الأولية تفيد أن الضرر المباشر الذي سببه الزحف الهتلري يعادل مبلغ ٧٠٠ مليار روبل بأسعار ما قبل الحرب، مما يعني إن البلد خسر ٣٠٪ من **ثروته** الوطنية[٢٥]. والمستوى المعيشي للشعب يبلغ أدنى حد يمكن تصوره...

الفكرة الأخيرة لا تهم ستالين كثيراً. دون تضحيات كبيرة لا يمكن بناء الاشتراكية ـ ذلك كان اعتقاده دائماً. بدون تضحيات لم يكن بالإمكان تحطيم الفاشية. بدون تضحيات لا يمكن ـ الآن ـ إنهاض الدولة من بين أطلال الحرب. ستالين واثق أنه يستحيل إنجاز المهمة القصوى دون إبقاء الوعي الاجتماعي في حالة من التوتر الدائم، ودون نوع من «الحرب الأهلية» العجيبة (الحرب ضد الصعوبات والأعداء الداخليين). ها هو تقرير من خروتشوف يعطي برهاناً على ذلك. في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥، كتب خروتشوف إلى ستالين حول نشاط القوميين الأوكرانيين في غرب أوكرانيا بمناسبة اقتراب الانتخابات إلى السوفييت الأعلى. في نهاية التقرير: نرجو المساعدة بتقديم وحدات إضافية إلى منطقة الكاربات ومنطقة لفوف العسكريتين. وهل الأعداء هناك فقط؟ كم من الناس كانوا في الأسر وتحت الاحتلال؟ ستالين واثق أن «المتمردين» العائدين من الحرب كثيرون! وافق ستالين على طلب خروتشوف وإحالته إلى بولغانين والهيئة العامة للأركان[٢٦]. ها هو تقرير مماثل من بولغانين حول «فصائل الإبادة» للنضال ضد العصابات في لاتفيا بمنطقة البلطيق. بولغانين يقترح تمويل الفصائل المذكورة على حساب الميزانية المحلية[٢٧]. هناك أيضاً ضحايا وضحايا. الحرب انتهت، لكن عدد الضحايا لا نهاية له. ها هو ميركولوف وكروغلوف يبلغان أن «نشاط التنظيمات السرية المعادية للسوفييت يشتد» في لتوانيا. القائمة طويلة جداً:

- ١٥/١٢/١٩٤٥: في منطقة شاولياي تم اقتياد ميتوزاس، عضو اللجنة الانتخابية المحلية، إلى الغابات وإعدامه.
- ١٦/١٢: في ناحية فيسياي قامت عصابة بقتل رئيس اللجنة الانتخابية، ليفوليس.
- ١٧/١٢: في منطقة روكيش قتلت عصابة رئيس اللجنة الانتخابية، هيكلس.
- ٢٠/١٢: في ناحية تاويان قتل رجال العصابات عضو اللجنة الانتخابية، رئيس مجلس القرية، كبريلافيتشوس[٢٨].

ستمر بضع سنوات أخرى حتى يتوقف سيل الدم في جمهوريات البلطيق. لكن هذا لا شيء مقارنة مع خسائر الحرب. لقد فكر ستالين مراراً بالثمن البشري للنصر، لكنه كان يرى فيه، على ما يبدو، «مسألة سياسية» كغيرها من المسائل.

ما ثمن النصر إذن؟ كم من البشر قُتلوا؟ في زمن الحرب لم يكن «الأعلى» يفكر

بالأمر، والموارد البشرية للبلد تبدو وكأنها لا تنضب. لكن حين وصل التراجع إلى ستالينغراد، صار يحسب. بقي في الأراضي المحتلة من ٧٠ إلى ٨٠ مليون إنسان. تقرير فوزنيسينسكي يقول إن الحديث عن خسائرنا يمكن أن يكون تقريبياً فقط. الإحصاءات الدامية في بداية الحرب لم تكن دقيقة، والتقدير الدقيق للخسائر ممكن بعد شهور، لكن التقديرات الأولية تشير إلى مقتل ما يزيد عن ١٥ مليون إنسان. سكت ستالين وهو يستمع إلى فوزنيسينسكي، ولم يقل أن أرقام الهيئة العامة للأركان تشير إلى ٧,٥ مليون فقط. في عام ١٩٤٦ اختار ستالين هذا الرقم الأخير، فهو لا يريد الحديث عن ثمن باهظ، وإلا فقد تخبو صورته اللامعة كقائد عسكري، وذلك لا يجوز.

ما هو في الواقع ثمن انتصارنا؟ في رسالته إلى رئيس وزراء السويد عام ١٩٥٦، أطلق خروتشوف لأول مرة الرقم الذي أصبح دارجاً: «أكثر من عشرين مليون». المؤرخون الآن يعملون لكي يتوصلوا إلى الرقم الفعلي، فالشعب يجب أن يعرف كم قدّم من أبنائه وبناته على مذبح ذلك النصر العظيم.

استناداً إلى عدد من الإحصائيات الموجودة في الأرشيفات، بما في ذلك إحصائيات الأسرى (كان الألمان يحسبون بطريقة «مدرسية» كل الأسرى التي يبيدونهم وكل الأسرى الموجودين في معسكرات التعذيب)، وبعد تحليل نتائج الاحصائيات العامة للسكان، واعتماداً على إعداد التشكيلات العسكرية وطواقمها وحركة تلك الأرقام خلال فترة الحرب، وعلى المعطيات حول خسائرنا في أكبر العمليات العسكرية، وبعد الاطلاع على الدراسات العلمية لكل من فيرودوف وفلاسيفيتش وكفاشا وسوكولوف، توصلتُ إلى الاستنتاجات التالية، التي لا أعتبرها حقيقة كاملة ونهائية، بالطبع. عدد العسكريين ومقاتلي الأنصار والعاملين السريين والسكان المدنيين الذين قتلوا في سنوات الحرب الوطنية العظمى يتراوح **بين ٢٦ و ٢٧ مليون إنسان**، منهم **أكثر من عشرة ملايين** سقطوا قتلى إمّا في المعارك أو في الأسر. المصير الأكثر مأساوية كان من نصيب الذين قاتلوا في الحزام الاستراتيجي الأول والتشكيلات الاحتياطية الاستراتيجية. إن معظم الضباط وجزءاً من الجنود في الجيوش المعنية بهاتين الفئتين هم الذين سقطوا في عام ١٩٤١، كما وقع **ثلاثة ملايين** منهم في الأسر. خسائر عام ١٩٤٢ أقل من ذلك بقليل.

أكثر المفاهيم غموضاً ولُبساً من الناحية السياسية هو مفهوم **«المفقود»**. انه يضم مَن سقط في المعركة ولم يدخل في قوائم الخسائر في قطعته العسكرية، ومَن وقع في الأسر، أو انضم إلى قوات الأنصار، وكذلك كل من ساقه القدر إلى بلاد أخرى.

لو أن ستالين كان قادراً على النظر إلى نفسه بعين الانتقاد، فإن المقارنة البسيطة بين خسائرنا نحن وخسائر الألمان كان من شأنها إقناعه بأن لمعان «العبقرية العسكرية للزعيم» مبني ـ إلى حد بالغ ـ على جهل الناس بالحقائق. حساباتي تسمح لي بالقول أن تناسب خسائرنا نحن والألمان هو ٣,٢ مقابل ١ مع إنهم هُزموا، ونحن انتصرنا.

لا بد طبعاً أن نضع في الحسبان الممارسات البربرية للنازيين الذين عمدوا إلى إبادة السكان المدنيين ـ السلافيين واليهود وغيرهم من القوميات. هذا واحد من أسباب الرقم الفلكي لخسائر الشعب السوفييتي، فالجزء الأساسي من القتلى يشكله السكان المدنيون. لكن، حتى إذا أخذنا بالاعتبار بداية الحرب المفجعة، فإن خسائرنا العسكرية تحديداً بقيت أكبر من خسائر الألمان في الفترة التالية من الحرب، إلى أن تعلم مقاتلونا أن يحاربوا، عام ١٩٤٣. كان مبدأ ستالين هو «بغض النظر عن التضحيات»، وهذا سبب آخر من أسباب الثمن الباهظ لانتصارنا. إن مرارة الخسائر ستبقى ملازمة لذلك الانتصار، لكن أمراً كهذا ما كان ليعذب ضمير ستالين. اشتراكية التضحيات على طريقة ستالين كانت تفترض انتصارات بتضحيات كبيرة. وهذه الواقعة التاريخية تؤكد الصبر العظيم للشعب السوفييتي، لكنها أيضاً تذكّرنا: لقد سُمح لستالين أن يصبح ستالين الذي كان!

... إنه ربح الحرب. وبوسعه الآن أن يعبّ هواء القفقاز ملء صدره. بيريا «يلوب» ويتحرك، مع أن عملية نقل «الزعيم» إلى الجنوب أبسط من نقله إلى برلين، ولكن... ها هي فقرات من تقرير أرسله نائب مدير المخابرات في مقاطعة كراسنودار إلى ميركولوف: «حول الإجراءات المتخذة بشأن حلول الموسم الخاص في سوتشي (هكذا في النص ـ المؤلف)... العناصر المعادية للسوفييت، الواقعة في مجال نظر فرعنا بمدينة سوتشي، تجري متابعتها ومراقبتها بشكل نشط، وأعمال السجن قائمة على قدم وساق.

... يتم تمشيط الغابات والحدائق في المنطقة من نهر غولفينكا حتى نهر بسو. وقد وسعنا مركز الرقابة وشددنا التفتيش على الهويات وتفتيش السيارات. بين محطة القطارات والفيلا الصيفية أقمنا ١٨٥ نقطة، وكل الطريق قيد الحراسة. خصصنا قطاراً لتوليد الطاقة... نقوم بإبلاغ الرفيق فلاسيك يومياً...»(٢٩).

«قائد الشعوب» يخشى على حياته ليس فقط في ألمانيا، بل وفي وطنه أيضاً. قطع ستالين جزءاً من الطريق بالسيارة، وكان يرافقه فلاسيك وبوسكريبيشيف وإستومينا وحاشية من الموظفين والحرس، وسائر «الخدم». وبالمناسبة، فإن ستالين بعد هذه الزيارة بالذات، أصدر أوامره ببناء طريق معبّد يصل مدينة سيمفروبل في القرم. أثناء الطريق خرج «القائد» من السيارة بضع مرات ليتحدث مع الناس... كانت تدهشه روحية نكران الذات لدى النساء والأطفال، رغم أن الحرب وضعتهم في أصعب وضع. في الجنوب قيل له إن مؤسسة بيريا ناشطة في بناء الفيلات الحكومية قرب سوخومي ونوفي ـ آفون وبحيرة ريتسا ونهر خولودنايا. طوال الطريق كانت ترافقه صيحات الولاء ودموع الفرح في عيون النسوة وتأكيدات الرجال: «لقد تحسنت الأمور أيها الرفيق ستالين»، ودهشة الشيوخ والأطفال: «أهذا هو ستالين؟».

وبالفعل، كان «القائد» يعرف أن الأفضل لشهرته أن يقف على شرفة ضريح لينين في الساحة الحمراء، وأن يبتسم في اللقطات السينمائية، ويظهر أمام الشعب فقط من خلال الصور والتماثيل. إنه يفهم النفسية الجماعية ويعرف أن اللقاءات المباشرة مع الناس تزيل السحر لديهم وتحبطهم، حين يَمْثل أمامهم رجل قصير القامة، ذو بدن

غير متناسق وجذع قصير وذراعاه وساقاه طويلة نسبياً. تحت السترة العسكرية كرش ملحوظ، مشدود ببنطال المارشال، وشعر قليل يحيط بوجه عليه آثار الجدري ويغطيه الشحوب المميز لأي إنسان مكتبي. أسنانه غير جميلة، وليست بيضاء. فقط عيناه تشعان حيوية بلونهما الأصفر، وتنمّان عن طاقة كامنة في داخل الرجل وعن شعوره بالسلطان وثقته بنفسه. في مدينة كورسك وصل الأمر بإحدى النساء أن تتجرأ على ملامسة كُمّ البزة العسكرية التي يلبسها ستالين؛ إلى هذا الحد كان الأصل يختلف عن الصورة التي انطبعت في ذهنها. أحسّ ستالين بما يشعر به الناس من إحباط في تصوراتهم: أسئلته لهم لا تستدعي سوى أجوبة مقتضبة. لم يكن الناس يسمعون أحاديثه، بقدر ما «يلتهمونه» بعيونهم مندهشين لا يصدقون أن الواقف أمامهم هو «الزعيم» بنفسه. الإنسان الذي يجعل من نفسه إلهاً أرضياً يصطدم بهذه الدهشة حتماً. فهو إنسان عادي كالآخرين، وكل نظام الأساطير والحكايات والكليشيهات، المحيطة بصورته في الدعاية، تبقى فعالة حتى لحظة التقاء الناس بهذا الإنسان مباشرة.

ستالين يرتج في السيارة الفارهة، وينظر من خلف ستائرها، وهو يؤكد لنفسه مرة أخرى: الزعيم الغامض، الذي يتحدث إلى الشعب أقل ما يمكن، يتمتع بأفضلية أكبر؛ وهو لن يقوم بعد الآن بتصرفات مثل اليوم لأن فيها «خِفّة» سلوك. يجب أن يجمع في نفسه صفة الحضور الكلّي وصعوبة المنال المميّزة للآلهة، فيبقى في أعين الناس القائد الذي بنى الاشتراكية وحطم كل أعداء الشعب وانتصر على الفاشية. وبعد حين ـ عندما تلتئم الجراح ـ سينادي المواطنين السوفييت إلى «ساحات البناء الشيوعي العظيمة». إن قوة غموضه ومقدرته في اللحظات الظافرة وأزمنة الوهن الروحي لدى الشعب هي التي ستوحد الناس للقيام بحملة جديدة. وهو وحده القادر ـ مثل «الجامعة» في التوراة (المقصود سفر الجامعة، الإصحاح الثالث ـ المترجم) ـ أن يحدد متى يحين «للقتل وقت وللشفاء وقت. للهدم وقت وللبناء وقت». يجب توطيد النظام وتقوية جبروت الدولة وإزالة كل مَنْ ليس جاهزاً لذلك. النصر العظيم الذي أحرزه هو، ستالين، حجة قوية تؤكد صحة خطه تاريخياً.

ربما كنتُ، كما يرى القارئ، ابتكر الكثير من الأقوال على لسان ستالين، ولذا أجد من واجبي التأكيد على أنني أفعل ذلك مستنداً، بكل دقة، إلى الوثائق والشهادات وإلى منطق التفكير السليم. فكل أعماله وخطواته وقراراته تدل على أن الحاكم ـ الفرد، ستالين، كان ينوي تغيير شيء على نحو جوهري: يمكن، بل ويجب تغيير الناس، لكن لا يجوز تغيير ما هو أساسي، أي النظام البلشفي الذي رفعه إلى أوج السلطة. كان ستالين مقتنعاً بأن النظام الذي قرر «تعليبه» الآن، بعد الحرب، هو أقرب ما يكون إلى المثل الأعلى الذي حلم به مؤسسو الاشتراكية العلمية: كل شيء مبرمج ومدروس ومبوّب ومحدَّد! عما قريب سنرمم ونصلح صرح الاشتراكية الذي خربته الحرب، وسيبرز من جديد شعار ستالين «اللحاق بـ... وسبق...»، وستلزم ضحايا جديدة من أجل بناء الشيوعية، هذه المرة الشيوعية!

اعتبر ستالين ـ منطلقاً من بعض الأسس الموضوعية ـ أن العالم بعد الحرب يتعرض لانزياح عام نحو اليسار. فالنضال ضد الفاشية أسفر عن رص الجماهير

وانتعاش القوى الديمقراطية وانحسار الرجعية. لقد ولدت بطولة الناس السوفييت وروح نكران الذات لديهم تعاطفاً عميقاً مع الدولة السوفييتية. حتى الكثير من أنصار الحرس الأبيض والمهاجرين عموماً، انجذبوا نحو الاتحاد السوفييتي، بمن فيهم المناشفة الجورجيون في باريس الذين يهتم ستالين لموقفهم. فها هو نوح جوردانيا، مع كل شكوكه المعلنة، يصرح أن «الحرب كسبها ستالين. إنني أعتبره إنساناً عظيماً. من الغباء بمكان نكران عظمته لمجرد الاختلاف معه سياسياً. سوف يقول التاريخ مزيداً من الأشياء عن عظمته ويكشف عن جوانب نشاطه التي ما زالت مجهولة لدى معاصريه»[٣٠]. لا شك أن جوردانيا محق في فكرته الأخيرة. فهذا ما حصل. لقد عبّر العديد من خصومه السياسيين السابقين عن الرغبة في العودة إلى الوطن بعد الحرب. وأظنّ أن ستالين كان ينظر إلى ذلك ببساطة: المنتصر دوماً على حق.

أدى الانتصار على الفاشية إلى ازدياد في صفوف أنصار الاتحاد السوفييتي وأصدقائه، كما أثر على بدء عمليات عميقة في العلاقات الدولية: انهيار الامبراطوريات الاستعمارية واشتداد النبض لدى حركات التحرر الوطني وزيادة دور الشيوعيين في بلدان شرق أوروبا وفي الصين. شعر ستالين بتيارات نهوض ثوري جديد، مما جعله يعتبر أن الحركة الشيوعية تكتسب «النَفَس الثاني».

لكن سرعان ما أضعفتْ «الحرب الباردة» ذلك «النَفَس»، حيث أطلق شرارتها الأولى خطاب تشرتشل في فلوتون يوم ٥ آذار (مارس) ١٩٤٦، كما احتدت الأزمات الداخلية في الاتحاد السوفييتي. ففي عام ١٩٤٦ شمل الجفاف مساحات شاسعة من رحاب البلد، وبدأ طوق الحرمان القاسي يشد على الدولة المنتصرة. ثم تحولت أوكرانيا الغربية وجمهوريات البلطيق إلى مسرح لصدمات غير ملحوظة، لكنها عنيفة، بين القوات الحكومية والتنظيمات المعارضة. واستمر قمع حرب الأنصار فترة طويلة، رغماً عن توجيهات ستالين الشخصية بشأن «تسريع القضاء على العصابات». بقيت صدامات مع فرق القوميين المسلحة في أوكرانيا الغربية تندلع حتى عام ١٩٥١.

كانت الصعوبات الاقتصادية تتقاطع مع صعوبات معنوية. فمن جديد أُزيحت إلى المرتبة الخلفية توقعات الناس بشأن التغيرات وآمالهم في حياة أفضل. في خطابه أمام اجتماع انتخابي بمسرح «بولشوي»، راح ستالين يدعو إلى عمل شاق وصبر كبير. يجب القول إن شعبنا لم يكن ينقصه الصبر، وذلك أيضاً جزء من الثمن الكبير الذي دُفع من أجل النصر.

كَفَن «الأسرار» الستالينية

القارئ يعرف أن ستالين كان يحب الأسرار، كبيرها وصغيرها. لكن أحب الأسرار إلى قلبه كانت أسرار السلطة، وهي ـ في غالب الأحيان ـ أسرار شنيعة. فقط الآن بدأ الناس يفكرون بجدية: كيف تسنى لشخص لا أخلاقي، وغير جذاب خارجياً ومثير للاشمئزاز سياسياً أن **يجبر** شعباً عظيماً بأكمله على محبته؟ كيف تسنى له أن «يصهر» مأساة شعب ليسبك منها مجده الشخصي؟ لماذا كانت تصدقه ملايين من

البشر، ليس فقط في بلدنا وحده؟ كان ستالين يعرف ويحب ويصون «أسرار» هذه الظاهرة!

كثيرون هم اليوم أولئك الذين يحاولون الفصل بين ستالين والاشتراكية، بين ستالين والشعب، وكذلك كان يحاول تروتسكي في كتابه «ستالين». كنتُ قريباً من هذا الموقف أنا أيضاً، لكنني أدركت أن إجراء ذلك الفصل دون الانتقاص من الحقيقة التاريخية مستحيل. هل يمكن ـ أثناء التقويم الواقعي لفترة الثلاثينات والأربعينات ـ أن ننظر إلى ستالين على حدة وإلى الشعب على حدة؟ هل كان الشعب والحزب منفصلين عن قائدهما؟ ألم يكن الناس يمجدون «الزعيم» الذي يسيّر شؤون بلد ضخم؟ لقد كان الشعب والقائد عنصرين في **نظام** واحد! هنا يكمن أكبر «سر» من أسرار ستالين. لقد استطاع الرجل أن يصبح رمزاً للاشتراكية. يمكن الفصل، بدرجة ما، بين ستالين والاشتراكية، إذا اعتبرنا أن البلد كان يعيش تحت سلطة توتاليتارية (شمولية)، رغم الإعلان في الثلاثينات عن بناء الاشتراكية. إن «اشتراكية الثكنات» سمحت بإمكانية أن يقودها رجل ليس أهلاً للمثل العليا المعلنة. لكن المنتصر فصل نفسه بنفسه عن الشعب بقدر يساوي مقدار الأخلاق بين نموذج الاشتراكية المبنية وفقاً لـ «تصميمه» والنموذج الأصلي. لذا، نجد الكثير من الأمور الإيجابية التي ولدت في المجتمع قد أصبحت واقعاً ليس بفضل ستالين، بل بالرغم من وجوده، أي بفضل ما نسميه شحنة الوطنية لدى الشعب. مع هذا، يستحيل الفصل كلياً بين ستالين والاشتراكية **الستالينية**. فهو، حين راهن على ممارسة الحلول **العنفية** للمسائل الاقتصادية والاجتماعية والإيديولوجية، كان يفهم تمام الفهم أنه يستحيل التوصل إلى وضع يمكّنه من الوقوف دائماً في مركز **النظام**، دون تغيير الوعي الاجتماعي. من هنا يأتي الاختلاف الجذري بين فكرته حول «الإنسان الجديد» والأفكار الإنسانية (الهيومانيستية) حول التطور المتناغم للشخصية في المجتمع الديمقراطي.

كيف كان يقيّض لستالين التحكم بالوعي الاجتماعي للشعب؟! طبعاً، بواسطة جهاز إداري ضخم، سعى إلى تربية بعض العناصر الإيجابية في ذلك الوعي، لكنه حقنه أيضاً بأفكار «الزعيم». للوهلة الأولى تبدو «أسرار» تأثير ستالين على تلك العملية بسيطة.

ذات مرة روى لي دميتري شيبيلوف، السكرتير السابق للجنة المركزية، الرواية التالية:

كثيراً ما كان ستالين يدعو إلى جلسات انفرادية بعضاً من رجال الثقافة والفن والعلم ومن الشخصيات الاجتماعية. كنت أعرف ـ يقول شيبيلوف ـ أن بوسع «الزعيم» أن يستدعي، بشكل مفاجىء، كاتباً كبيراً أو فناناً أو صحفياً أو مخرجاً. بالنسبة للمدعو، هذا حدث جليل طبعاً، فـ «الزعيم» بشخصه يتكرم عليه بإيلاء الاهتمام. في أغلب الأحيان، كان يجري إبداء «طلب» اجتماعي أو إيديولوجي في مجال الإبداع، أثناء الاستقبال الرفيع، وستالين يعرف كيف يفعل ذلك دون إلحاح، لكن بسلطان. تم إبلاغي ذات مساء بطلب غريب: اتصلوا هاتفياً بالرقم الفلاني. ضربتُ الرقم والتساؤلات تنهشني داخلياً. على الطرف الآخر من الخط كان ستالين:

ـ الرفيق شيبيلوف! هل لديكم بعض من الوقت؟ أتستطيعون المجيء إليّ الآن؟

ـ بلى، طبعاً... لا أذكر ما الذي قلته أيضاً، لكن السماعة كانت قد سكتت. ما كنت أعرف حتى المكان الذي يجب أن أذهب إليه. بعد لحظة، رنّ الهاتف من جديد وقال لي مجهول إن سيارة ستأتي لتأخذني بعد دقائق. على جهل كامل بما يجري، كنت أسير عبر ممرات الكرملين، يرافقني موظف صموت من سكرتاريا ستالين. على كل طابق وعند كل منعطف، كان يقف حراس يبدون وكأنهم تجمدوا في مكانهم.

استمرت الجلسة ما يزيد عن ساعة كاملة. بدأ ستالين حديثه من بعيد: الزمن الجديد يتطلب نظاماً اقتصادياً جديداً، والمسؤولون، «ضباط الانتاج» الحاليون، يتميزون بمستوى متدنٍ من المعارف. يجب أن يظهر، على وجه السرعة، كتاب دراسي جديد حول الاقتصاد السياسي للاشتراكية. ما فهمته من الكلام أن المهمة هذه توكل إليّ وإلى اثنين من العلماء الكبار. وجاءت التوصيات مدروسة سلفاً: الزيادة من فرض الصفة الاجتماعية عن ملكية وسائل الانتاج، تحسين التخطيط، جعل الخطة الاقتصادية «قانوناً حديدياً» للجميع، زيادة إنتاجية العمل،... وأشياء أخرى ضمن روحية «الاقتصاد القسري». حين كان ستالين ينظر إليّ بعينين لا ترمش جفونهما، كنت أفقد أعصابي. فهو يبدو كأنه يرى داخلك. نظرته تحرق. إذن، حدد ستالن مطلبه. المواعيد صارمة. تم إخفاء ثلاثتنا ضمن ڤيلاً في ضواحي موسكو، وكان سوسلوف يتصل هاتفياً في نهاية كل أسبوع ويسأل: كيف يسير العمل؟ متى يمكن قراءة النص؟ الرفيق ستالين ينتظر... تذكروا ذلك! ذلك كان أحد الأساليب المستخدمة ـ أسلوب **الطلب الشخصي**، بشأن مسرحية أو فيلم أو كتاب أو منهاج دراسي. وكان ستالين شخصياً يحدد مواصفات العمل المقبل. إنه «سر» بسيط جداً، خلاصته أن ستالين كان يمارس تأثيراً شخصياً على عملية التطور الروحي في المجتمع، ضمن الاتجاه «اللازم». كتب الناقد الأدبي الروسي الذي التقى مراراً مع الأديب ميخائيل شولوخوف، أن ستالين، في ٢٤ أيار (مايو) ١٩٤٢، وهو يوم ميلاد شولوخوف، دعا الكاتب الكبير لزيارته. في حديث طويل، أثناء العشاء، قال ستالين لـ شولوخوف عن دوافع دعوته له:

ـ الحرب جارية. وهي حرب صعبة، قاسية. مَنْ الذي سيكتب عنها بعد النصر بشكل باهر؟ بشكل لائق، كما في «الدون الهادىء»... حيث صوّر أشخاص شجعان مثل ميليخوف وبوتيلكوف وغيرهما من الحمر والبيض؟ لا يوجد لدينا أناس مثل سوفوروف وكوتوزوف. والحروب، أيها الرفيق الكاتب، يكسبها تحديداً قادة عسكريون كبار مثل هؤلاء. في يوم ميلادكم كان بودّي أن أتمنى لكم صحة طيبة وسنوات مديدة ورواية جديدة، تكون موهوبة وشاملة، يتم فيها تصوير صادق وباهر ـ كما في «الدون الهادىء» ـ للجنود الأبطال والقادة العسكريين العبقريين، المشاركين في الحرب الرهيبة الحالية...

إن «السر» الدائم في تأثير ستالين على الوعي الاجتماعي، يكمن في الإبقاء على التوتر الدائم في المجتمع. كان الجو يشبه جو «حرب أهلية» محتملة دائماً، جو النضال المستمر ضد «أعداء الشعب» و «الجواسيس» و «قليلي الإيمان» و «الكوسموبوليتيين» و «المتفسخين» و «المخربين»، وهو جوّ يجعل نداءات ستالين إلى اليقظة تجد التربة

المهيأة في النفوس. وعندما شعر ستالين، بعد الحرب، أن توقعات التغيير قد ظهرت، خفيفة وغير بارزة، لدى الشعب، خصوصاً في أوساط المثقفين،... وأن الحرب تركت لدى الناس الشعور بالانعتاق،... صدرت إيعازاته إلى جدانوف:

ـ يجب توجيه ضربة إلى العدمية الفكرية... يلاحَظ، في ميدان الأدب، تراجع عن المبادىء الطبقية في الإبداع. جربوا تفتيش مجلة أو مجلتين، والأفضل في لينينغراد...

هكذا، ظهر قرار اللجنة المركزية سيء الصيت «حول مجلة «النجم» ومجلة «لينينغراد»...». كانت تلك حملة ترمي إلى إعادة المجتمع للعيش في جو الريبة والخوف. إنه يعرف: حيث يكون الخطر قائماً على الدوام (من جانب الأعداء، داخليين وخارجيين)، تكون الحاجة الماسة إلى زعيم قوي و «قبضة حديدية» وقيادة حازمة. نعم، ستالين يعرف هذا «السر» العتيق، سر جميع الطغاة، الذي اكتشفه بنفسه منذ زمن. حين لا يوجد في المجتمع أعداء ولا مخالفون في الرأي ولا صراع، ما الحاجة إلى الديكتاتور، إذن؟

عرف ستالين «سراً» آخر من أسرار التحكم بالوعي الاجتماعي: من الهام جداً أن تغرس فيه أساطير وميثيولوجيا وقوالب جاهزة وكليشيهات ترتكز في الأساس ليس على المعرفة العقلانية بقدر ما ترتكز على الإيمان. فإلى حد كبير، كان «المنهاج المختصر» لتاريخ الحزب وخطابات «الزعيم» ترويجاً لأساطير وقوالب إيديولوجية جاهزة. في بداية هذا القرن تقدم عالم الاجتماع جاك سوريل بنظرية حول أن الجمهور البشري، الذي لا يتميز بسوية ذهنية رفيعة، ميال إلى الإيمان بالأساطير اللاعقلانية التي لا تحتاج إلى تعليل. يقول سوريل إن الأسطورة تمنح تصوراً «حدسياً» عن الاشتراكية بوصفها حلماً ومثلاً أعلى وهدفاً[٣١]. ليس إلزامياً **فهم** الأساطير، بل يجب **الإيمان** بها. لقد تم تعويد الناس على الإيمان بالقيم المطلقة لديكتاتورية البروليتاريا و «الإنسان الجديد» وبقوة القرارات العليا. أما الاجتماعات الطقوسية، وشعائر التظاهرات، وأداء اليمين، ورسائل التحية، فكانت تضفي القدسية على الأساطير السياسية وتجعلها جزءاً من العقيدة السائدة. استبدال الثقة المبنية على الحقائق بمجرد **الإيمان** ـ ذلك هو الميدان الذي أفلح فيه ستالين كثيراً، فراح الناس يؤمنون بالاشتراكية وبـ «القائد» وبأن مجتمعنا هو الأكثر كمالاً وطليعية، وكذلك بعصمة السلطة. إن «لغز» الجبروت الذي تميز به رجل واحد، ما كان بوسعه أن يظهر لولا نظام الأساطير التي كان يجري استنباطها وغرسها في وعي المجتمع باستمرار. لست أتغافل عن المغزى الإيجابي الموجود في الإيمان بمثل الاشتراكية وقيمها. لكن الوعي القائم على الأسطورة وحدها يُفقِد القدرة على **الإبداع الاجتماعي**، وهذا أحد منابع النمط الذي برز، نمط الشخصية التي تتميز باللامبالاة والبرودة والإيمان بالتوجيهات وبضرورة حل المسائل «فوق»، وبانعدام المبادرة وبالإتكالية ـ إلى جانب سمات إيجابية. هذا الوعي يرى العالم الملوّن من حوله وكأنه «أبيض ـ أسود» فقط، ولا تتمتع لديه الحرية الشخصية إلا بأهمية ثانوية. الإنسان، صاحب هذا الوعي، ينتظر دائماً أن «يقوده» و «يوجهه» و «يلهمه» أحد ما. تلك نتيجة «أسرار» ستالين التي كان بواسطتها يمارس الحكم.

لا أظن أن ستالين قرأ «حوارات» أفلاطون. على كل، لم أتمكن من اكتشاف أية آثار لاطلاعه المباشر على كتاب «الدولة» المشهور لذلك الفيلسوف اليوناني. مع ذلك، لا شك أن العديد من «أسرار» السلطة الفردية لستالين هي من أسس القواعد التي ما برح يستخدمها الكثير من الطغاة منذ قديم الزمن.

عادة، يبرز الديكتاتور - أو المستبد، كما يقول أفلاطون - بوصفه «صنيعة الشعب». ومما يميزه كونه «في الأيام الأولى، وعموماً في الفترة الأولية، يبتسم بودّ للجميع، ويقول عن نفسه أنه ليس بمستبدّ. إنه يقطع الكثير من العهود على نفسه أمام أشخاص وأمام المجتمع ككل...»، فهو يعيش بين الناس، وسر قوته يكمن في مقدرته على تحويل الأعداء إلى أصدقاء وبالعكس... «أما حين يتصالح مع بعض أعدائه ويبيد البعض الآخر ولا يعودون يشغلون باله، أعتقد أن مهمته الأولى تصبح زجّ المواطنين الدائم في حروب ما، لكي يشعر الشعب بحاجة إلى قائد...». هنا أفلاطون يرمي ببصره عبر الدهور!... «وإذا شك بوجود أفكار حرة لدى البعض وبإنكارهم أهليته للحكم، فإنه يبيد هؤلاء الناس تحت ذريعة أنهم خانوه مع العدو. لأجل ذلك كله، يتوجب على المستبدّ دوماً إثارة الجميع بواسطة الحرب»... الحرب «الداخلية»، قبل كل شيء. ثم ماذا بعد ذلك؟ - نسأل نحن أفلاطون. ويأتينا الجواب: «البعض من ذوي النفوذ، الذين ساعدوا على صعوده، سيبدأون، علناً وفي أحاديث بينهم، يعبرون له عن سخطهم على كل ما يجري - على الأقل الشجعان منهم»...

حين يقرأ المرء هذه الحوارات ينسى أنها كُتبت بين ستينات وأربعينات القرن الرابع قبل الميلاد. أليس كل هذا يذكّر بما نعرفه عن ستالين؟... «لأجل الاحتفاظ بالسلطة، سيضطر المستبدّ إلى إبادتهم جميعاً، إلى حدّ أن لا يبقى - في نهاية المطاف - لا من أصدقائه ولا من أعدائه أحد ممن ينفع لشيء ما»[٣٢].

يمكن أن نتابع «حوارات» أفلاطون، لكن هذا كافٍ لكي نرى: مع كل الخصوصيات، يتميز الحكم الديكتاتوري في أي عصر كان بسمات عامة مصاغة أعلاه لدى أفلاطون... وستالين، الذي لم يكن يعرف عمل أفلاطون المذكور، استخلص تلك «الأسرار» من قراءته لسِيَر القياصرة الروس. مع احتقاره لهم جميعاً، وجد الوقت ليتصفح الكتاب الضخم الذي صدر بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لسلالة آل رومانوف[٣٣]. لقد فهم ستالين أفضل من كل رفاقه: السلطة أياً كانت يجب أن تكون قوية!

يجب الإبقاء دائماً على توتر عالٍ للصراع في المجتمع - تلك هي الفكرة التي رست في أساس كل «أسرار» ستالين. ففي أجواء الصراع فقط كان يشعر أنه واثق من نفسه: قبل الثورة كانت حياته صراعاً من أجل البقاء وتهديم أسس القيصرية. في العشرينات تمكن من نقل الصراع إلى مستوى الاتهـام الفكري والإزاحة السياسية لمعظم الذين يفكرون بشكل مختلف ويمكن أن يتنطحوا للأدوار الأولى. في الثلاثينات تحوّل الصراع إلى إبادة جسدية لجميع الخصوم الفعليين والمحتملين. وقد أبلى ستالين في ذلك بلاء فظيعاً سيجعل سكان الأرض - إذا بقيت البشرية - يربطون مفهوم البربرية ليس فقط بأسماء تيمورلنك وجنكيز خان وهتلر، بل وباسمه أيضاً.

ستالين لم يكتب، مثل هتلر كتاباً بعنوان «كفاحي»، لكن كل حياته وأعماله كانت صراعه مع جموع لا حصر لها من أعداء وهميين ومحتملين أكثر من كونهم واقعيين.

كان ستالين يدرك دائماً كم هي أساسية بالنسبة له فكرة الصراع الطبقي. بعد القضاء على الإقطاعيين والرأسماليين، وجد ستالين طبقة جديدة يجب إبادتها ـ هي الكولاك. ثم اخترع صيغة فريدة ـ حين بقي بلا أعداء طبقيين ـ تضمن وجود العدو الطبقي دائماً: كلما تقدمنا إلى الأمام ستزداد مقاومة البقية الباقية من الطبقات الاستغلالية. هذا «الاختراع» حصل عشية اجتماع اللجنة المركزية المشؤوم في شباط (فبراير) ـ آذار (مارس) ١٩٣٧... هناك، أطلق ستالين عبارة شهيرة بخصوص الأعداء: «سوف نحطمهم في المستقبل كما نحطمهم الآن وكما كنّا نحطمهم في الماضي»[٣٤].

وحتى بعد إخضاع شعبنا العظيم لسلطانه، لم يهدأ ستالين. في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، استدعى ذلك «الرجل المستبد» وزير الداخلية كروغلوف، وأعطاه إيعازاً بدراسة «إجراءات ملموسة» لتأسيس معسكرات جديدة وسجون خاصة. كان سمعه يميز نبرات خفيفة في نبض الوطن تدعو إلى القلق، فقد راحت تتكرر حوادث التعبير عن عدم الرضى وظهرت محاولات لمغادرة حدود البلد، وصمت بعض الكتّاب وكأنهم يحتجون على اليأس من طوق الديكتاتورية الخانق. قال ستالين لوزيره:

ـ في شباط (فبراير) يجب أن تقدموا لي مشروع القرار. يجب خلق ظروف خاصة للتروتسكيين والمناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين وأنصار المهاجرين البيض...

ـ سمعاً وطاعة، أيها الرفيق ستالين، سمعاً وطاعة... ـ قال خليفة بيريا وصنيعته، كروغلوف.

لا يحسبنّ القارىء أن هنالك خطأ في التاريخ. بلى، في عام ١٩٤٨، كان ستالين يتحدث كما في السابق عن التروتسكيين والمناشفة، إلخ... إنه يبحث عن «أعداء جدد»، ولم يتأخر عليه كروغلوف. جاء بوسكريبيشيف في أواسط شباط (فبراير) إلى ستالين بالتقرير التالي:

«اللجنة المركزية للحزب. إلى الرفيق ستالين.

بناء على توجيهاتكم، نلحق طياً بهذا التقرير مشروع قرار باسم مجلس الوزراء حول تنظيم معسكرات وسجون ذات نظام صارم لأجل استيعاب الخطيرين من مجرمي الدولة وحول إرسال هؤلاء بعد انتهاء فترات عقوبتهم، للسكن في المناطق النائية من الاتحاد السوفييتي.

نرجو موافقتكم

أباكوموف، كروغلوف»[٣٥]

يقول مشروع القرار إن «التروتسكيين والإرهابيين والمناشفة اليمينيين والاشتراكيين ـ الثوريين والفوضويين وأنصار المهاجرين البيض» يجب إرسالهم إلى عشرات المعسكرات في كوليما ونوريلسك وفي جمهورية كومي وفي يلابوغ وقره ـ

غندا وغيرها من الأماكن، على أن «يعمل رجال المخابرات معهم لاكتشاف من تبقّى من أنصارهم خارج السجن». ويؤكد المشروع على «استبعاد أي تخفيض في فترات العقوبة أو أية تسهيلات أخرى»، وعلى قيام وزارة الداخلية «في حال الضرورة بإيقاف من أطلق سراحهم وترتيب اعتقالاتهم، وفقاً للأنظمة المقرّة قانونياً».

«موافق»، هذا ما كتبه ستالين على المشروع، مضيفاً لمسة جديدة إلى صورته كديكتاتور. لقد أصبح الصراع والعنف ومصادرة الحريات بمثابة أدوات لـ «الإبداع الستاليني». خطير هو إضفاء صفة المطلق على إية فكرة كانت. وإضفاء صفة المطلق على الصراع الطبقي، دفع ستالين إلى درس الكثير من القيم الإنسانية الفعلية: العدالة الاجتماعية والإنسانية «الهيومانيستية» وحرية الفرد. إن «أسرار» الحكم الفردي لستالين ما هي إلا أسرار **الاستبداد**. ولو بقي تروتسكي، الذي أباده «الزعيم»، على قيد الحياة، لكان بوسعه أن يردد من جديد: «ستالين يقودنا إلى تيميدور».

بقدر ما كانت تتزايد في العالم معرفة الناس بستالين ـ ليس فقط بفضل فيختفانغر وهنري باربوس ـ كان هؤلاء الناس يزدادون قناعة بأن قوة ستالين الرئيسية و «سر» مناعته، هما في الصفة المطلقة التي أضفاها على فكرة الصراع الطبقي. وبدأ البعض يتذكر ما كتبه ميريجكوفسكي في «عالم يسوع الدجال» بعد ثلاث سنوات فقط من ثورة أكتوبر: «جيدة هي أم رديئة، فكرة الصراع الطبقي، نبيلة هي أم دنيئة، فإننا نحن الناس الأحياء المشاركين في هذا الصراع، جلادين كنّا أم ضحايا، عرفنا عن الفكرة إياها أشياء وأشياء ما كان ماركس يدري بها ولا تراءت في الأحلام لحكماء الاشتراكية ـ الديمقراطية. كانت الفكرة عندهم تعيش في الذهن، أما عندنا، فعاشت في الدم والعظام: دماؤنا تسيل وعظامنا تنهرس بسبب هذه الفكرة»[٣٦].

نعم، لقد فعل ستالين ما لم يستطعه أي رجل آخر، لكي يتحول الصراع الطبقي من فكرة إلى مبدأ مسيطر في الاقتصاد والسياسة والإيديولوجيا والثقافة، لا بل وفي الحياة اليومية.

بعد الحرب، حين أصبح بادياً للنظر انزياح أوروبا والعالم عموماً نحو اليسار، كان قد يخيّل للمرء أن التاريخ يوافق مع ستالين: المحراث الحديدي للصراع الطبقي سيبدأ من جديد شق الأرض الصلبة. ما كان الناس آنذاك يفكرون تفكيراً شمولياً، لأن «سيف ديموكليس» النووي لم يكن مرئياً بشكل جيد. وحتى اللحظة التي هبّت فيها رياح «الحرب الباردة» لتجمّد الفعالية الاجتماعية للقوى المناهضة للامبريالية، كان يبدو أن الأمور لن تتوقف عند انهيار النظام الاستعماري، بل ستمضي قُدُماً.

بقيت خطابات ستالين، بعد الحرب، مكرسة للنضال من أجل إعمار الاقتصاد وتطوير الصناعة الثقيلة وإنعاش الانتاج الزراعي. كان الوضع متردياً في الزراعة، حيث اقترن انقطاع توريد الحبوب من الولايات المتحدة الأمريكية مع سوء الموسم في القسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي، مما أسفر عن وضع حرج. مع ذلك، ما كان بوسع تلك الصعوبات أن تُفقد ستالين توازنه النفسي: التأجيل في إلغاء العمل بنظام البطاقات التموينية حتى خريف ١٩٤٧!... ليست المرة الأولى التي يصطدم فيها البلد بمصيبة المجاعة في ظل حكمه. كم تكلّف البلد من إبادات جماعية أثناء الجوع الذي

تسبب فيه ستالين عام ١٩٣٣؟! وهو يذكر أيضاً تقريراً من كازاخستان، يتحدث فيه وزير الداخلية هناك عن المجاعة. جاء إليه بيريا بذلك التقرير في ربيع ١٩٤٤. كان موسم ١٩٤٣ سيئاً، وتم إنقاذ الجيش بواسطة المعونة الأمريكية، أما السكان المدنيون، فلم يكن بأيديهم حيلة سوى الصبر. مريع هو تقرير بوغدانوف، وزير داخلية كازاخستان: آلاف الناس ينتفخون بسبب سوء التغذية. فلاحة قُتل زوجها في الجبهة، تجمع الرمم والنفايات لتأكل... عائلة الفلاحة في دوسوفا (قُتل ابناها في الحرب، وزوجها يقاتل بعد الإصابة الثالثة) لا تستلم أية معونة، فتأكل لحم الكلاب والقطط... ١١٠ عائلات في ٢٣ كولخوزاً، أربابها في جبهات القتال ولا تستلم أية معونة: الأطفال ينتفخون، والوضع ميئوس منه... الناس ينبشون جثث الخيول الميتة... الفلاحة غاستل انتحرت تاركة رسالة: «أموت لأن لا أمل يرجى ولا أحد يمد يد العون...»[٣٧].

تفكير ستالين، بعد القراءة، يسير على المنوال المعهود: لا بد من التضحيات. بين البحر الهائل من الوثائق والبرقيات والتقارير حول الوضع المزري في مجال التموين، لا تجد أي أثر يدل على موقف بنّاء لدى ستالين ويشير إلى مجرد رغبته في مساعدة الناس. نشأت حالة مشابهة لحالة كازاخستان في مقاطعة تشيتا، والتقارير مريعة وحافلة بنفس الوقائع التي تقشعرّ لها الأبدان[٣٨]. طبعاً، لا أحد يحمّل ستالين مسؤولية الوضع المزري لعوائل أو كولخوزات أو مقاطعات محددة. ما يلفت الانتباه هو انعدام الإحساس أو المواساة من جهته: الناس «جمهور» وهو «زعيم»... فالقائد الحقيقي لا يجدر به أن يكون عاطفياً، لأن ستالين لم يقل ذلك بصوت مسموع ـ ذلك أيضاً واحد من «أسراره». ليتوهم الجميع أنه حريص عليهم جميعاً، دفعة واحدة.

بقي الكثيرون يعتقدون لفترة طويلة أن الحكم الديكتاتوري لستالين كان قائماً على هيبته وعلى سلطانه الروحي والمعنوي لدى الناس، لكن ستالين نفسه كان يدري أن الأمر ليس كذلك. أدواته الأساسية هي جهاز العنف المتركز في «إن. كا. في. دي». (وزارة الشؤون الداخلية، أي المخابرات)، وكذلك الحزب، الذي حوله الأمين العام منذ زمن إلى «عصبة» إيديولوجية. لم تكن تلك الأدوات مجرد عتلات لإيصال إرادته، بل هي عناصر رئيسية في النظام الذي أسسه ستالين. تلك هي بالذات أدوات السلطة التي كانت تخلق المطابقة بين الاشتراكية و«الزعيم»... تلك أيضاً «أسرار» نظامه وقوته ونفوذه.

كان لدى ستالين أسرار شخصية أيضاً!

يبدو أنه لم يكن يدوّن يومياته وكان حذِراً في تسجيل الأشياء. كثيرة هي الوثائق التي أُتلفت بإيعاز منه. في المجلدات الثخينة لمراسلاته (اسمها «مراسلات»، وهي في الحقيقة وثائق تأتي إليه فيكتب عليها عبارات من نوع «موافق» أو «بلّغوا عن النتائج» أو «المسألة غير مدروسة جيداً»، إلخ) يمكن العثور على عبارات من نوع «أرجو إتلاف هذه الوثائق. ي. س»[٣٩]... وكما تأكد لي، كان يتعرض للإتلاف أحياناً بعض التقارير الواردة حول تنفيذ توجيهاته وإيعازاته عبر قنوات المخابرات.

من «أسرار» ستالين الشخصية، أيضاً، أنه كان واحداً من قلة قليلة يحق لها

قراءة الكتابات الصادرة في الخارج، والتي تصوّر ستالين بطريقة حاقدة أو كاريكاتيرية أو فكاهية. كان ستالين يقرأ تلك الكتابات (مترجمةً) لتكون «بطارية» حقد يشحن منها نفسه إزاء أعدائه الكثر داخل البلد وخارجه.

مثلاً، بلغ ستالين أن الشاعر غارين ـ ميخايلوفسكي يريد أن يعتاش وأن ينشر في جرائد المهجر قصيدة هزلية بعنوان «بوشكين وستالين». في الوقت ذاته جيء إليه بنص القصيدة (عام ١٩٣٧) التي تتكون من حوار بين «الزعيم» والشاعر الروسي العظيم بوشكين. شعرَ ستالين، وهو يقرأ بحنق وقرف، حتى وصل إلى المقطع الختامي:

«ستالين يفيق من نومه ويفرك عينيه ثم يتصفح مجلدات بوشكين. إنه وحده. يصيح:

إيه. يا خَدَم. إليّ بغدائي المعتاد.
وبالقائمة التي جاءت أمس من المخابرات،
لقد نسيت أن أسجل فيها اسماً إضافياً،
فبوشكين اللعين لخبطني...
(ستالين يفرك يديه علامة الرضى ثم يتابع الصياح):
وهكذا، يا رفاق، في غمرة العمل،
في زحمة هموم هذه الدولة.
تجري حياتي، مثلما نهر الفولغا...
وليكن معلوماً لديك يا بوشكين
«روسيا ليست أنت بل أنا!»...»(٤١).

يذكر ستالين أيضاً شعور الحنق الذي استولى عليه حين قرأ في عام ١٩٣٧ خطاب تروتسكي «أنا أتّهم...» الذي هزّه من الأعماق، والذي كان صاحبه ينوي أن يلقيه في نيويورك أمام حشد في ساحة سباق الخيل: «لماذا تخشى موسكو بهذا الشكل صوت فرد واحد؟ فقط لأنني أعرف الحقيقة ولأنه لا يوجد لديّ ما يدعوني لإخفائها. إنني مستعد لتقديم الوثائق والوقائع والشهادات التي تتضمن الحقيقة إلى لجنة تحريات دولية. وأتعهد: إذا قررت لجنة من هذا النوع أنني مذنب، ولو بقدر ما، في تلك الجرائم التي يتّهمني بها ستالين، فسوف أسلم نفسي طوعاً إلى أيدي المخابرات السوفييتية. هذا هو تصريحي أمام العالم أجمع... لكن، إذا وجدت اللجنة أن المحاكمات الجارية في موسكو هي استفزاز متعمد ومقصود، فإنني سأطالب مَن يتهمني أن يجلس في قفص الاتهام بنفسه»(٤١).

كان ستالين يحتفظ بمثل تلك الوثائق، وبعد فترة يعطيها لـ بوسكريبيشيف الذي يُتلف الكثير منها، لكن بعضها بقي في الأرشيفات. هنا وثيقة طريفة تعود إلى عام ١٩٢٣ وعنوانها «معلومات عن سيرة حياة ستالين»، بقيت نسخة منها في أرشيف وزارة القوميات (الوزارة التي كان يرأسها ستالين ـ المترجم). ليس معروفا ما الغرض

من الوثيقة ومَن هو مؤلفها، لكن يمكن الافتراض أن ستالين أشرف على التأليف: «في أيام ثورة أكتوبر، كان ستالين عضواً في الخماسي الذي مارس القيادة السياسية للانتفاضة... إن النشاط الثوري لستالين، في السابق وفي الوقت الحاضر خصوصاً، يتمتع بأهمية كبيرة. إنه يتميز بطاقة لا تكل وبعقل استثنائي فذ وبإرادة لا تنثني. الرفيق ستالين هو أحد النوابض الخفية، النوابض الفولاذية حقاً لثورتنا، ذلك النابض الذي سيحوّل الثورة الروسية إلى أكتوبر عالمي بقوة لا تُقهر. إنه من أتباع لينين القدامى، وقد تعلّم ـ أفضل من أي شخص آخر ـ أساليب وأفكار لينين في الممارسة العملية.

في الوقت الحاضر يمارس ستالين، بفضل كل ذلك، النيابة الباهرة عن لينين في فترة غيابه، ليس فقط في مجال العمل الحزبي الخاص، بل وكذلك في مجال بناء الدولة»[٤٢].

لا يستطيع المرء أن يصدق كيف كان يمكن كتابة نص كهذا في حياة لينين. مَن المؤلف؟ ولماذا كُتبت هذه «المعلومات» عن «النابض الفولاذي»؟ ربما كان ستالين، الذي أصبح أميناً عاماً، يشعر أن لينين المريض لن يعود إلى مقود السلطة في الدولة والحزب ولذا بدأ يستعد ليصبح خليفته منذ عام ١٩٢٣؟... تلك هي أسرار ستالين.

أكد يبيشيف (الذي عمل لفترة نائباً لرئيس المخابرات) إن ستالين كان لديه دفتر سميك، حسن التجليد، يسجل فيه ملاحظات مختلفة (ليس للذكرى، فذاكرته كانت مثل الكمبيوتر)، وأنه بقي لفترة يحتفظ برسائل من زينوفييف وكامينيف وبوخارين وحتى تروتسكي. لست أعرف المصادر التي كان يبيشيف يستند إليها.

الناس الذين كانوا على تماس مباشر مع ستالين ثلاثة: بيريا وفلاسيك (رئيس الحرس) وبوسكريبيشيف (اللذين كان ستالين يثقُ بهما أكثر من ثقته بأي كان)، وهو الشخص الوحيد الذي بقي حول «الزعيم». قبيل موت ستالين، وحين جاء بيريا وخروتشوف بالأطباء ليفحصوا ستالين الذي أودى به النزيف الدماغي (بعد ١٢ ـ ١٤ ساعة، كان «الزعيم» خلالها دون رعاية طبية)، أدرك «العفريت» بيريا أن تلك هي النهاية. ترك بيريا خروتشوف ومالينكوف وباقي أعضاء المكتب السياسي قرب ستالين الذي يعاني سكرة الموت وتوجه إلى الكرملين. مَن الذي يستطيع أن يؤكد أنه لم يكن يقصد الاستيلاء على خزنة وثائق «الزعيم»؟ إذا كان الجواب نعم، فإلى أين ذهب بيريا بوثائق ستالين؟ كانت الريبة المتبادلة بينهما قد ازدادت خلال آخر سنة ونصف، وكان لدى بيريا ما يكفي من الأسباب للاستعجال. هل ترك ستالين قبل موته وصية ما؟ المعلومات التي حصلتُ عليها تؤكد أن خزنة ستالين كانت فارغة عند فحصها الرسمي، اللهم إلا إذا استثنينا بطاقته الحزبية وبعض الأوراق التي لا أهمية لها. إذا كان بيريا فعلاً قد نظف خزنة ستالين ودفتر مذكراته المشار إليه سابقاً، فإنه كان ينظف لنفسه الطريق نحو قمة السلطة. ربما لن يُقيَّض لنا أبداً معرفة مضامين ذلك الدفتر. يبيشيف كان واثقاً أن بيريا نظّف الخزنة قبل فحصها رسمياً.

من «أسرار» ستالين أيضاً أنه كان يحيل إلى «المصنّف الخاص» بعض الوثائق

التي تهمه لسبب ما: رسائل وبرقيات وشهادات. ففي أوائل عام ١٩٤٦، قدّم بيريا إلى ستالين صورة عن الوصية الشخصية والسياسية التي تركها هتلر قبل انتحاره. وتوقف «الزعيم» لدى البعض من عبارات «الفوهرر»؛ الذي طالما حلم ستالين في نهاية الحرب بإلقاء القبض عليه حياً:

«... لقد قررتُ، قبل إنهاء الوجود الدنيوي، أن أتخذ زوجة لي: الفتاة... رغبتنا هي أن يتم حرقنا فوراً... لستُ أريد الوقوع في يد الأعداء، الذين يحتاجون إلى أعمال الفرجة التي ينظمها اليهود للترويج عن الجماهير المسمّمة... أموت وقلبي ملؤه الفرح... البعث الساطع للحركة... آتٍ...»(٤٣).

في ربيع ١٩٤٥، كان ستالين قد أمر بتشكيل مجموعة خاصة لإلقاء القبض على هتلر حياً... هل كان بوسعه أن يتصوّر آنذاك كيف سيأتي يوم يصبح المؤرخون والفلاسفة والكتّاب يبحثون فيه عن سمات التشابه بين الديكتاتورين ويقارنون بينه هو، ستالين، وبين هتلر الذي انتصر عليه؟

في «المصنّف الخاص»، أيضاً، وثائق مختلفة، يبدو أن ستالين كان يعود إليها. سأسمي بعضاً من تلك الوثائق: رسالة إلى ستالين من خريجي معهد الأساتذة الحمر (٢٧/١٠/١٩٣٥)(٤٤)؛ محضر اجتماع اللجنة الخاصة بتصفية «جمعية المعتقلين السياسيين سابقاً والمنفيين»؛ رسالة إلى «الزعيم» بتوقيع أكولوف، الذي يقترح إنشاء تمثال في بيريكوب وتشونغار؛ رسالة من صديق سفيتلانا أليلوييفا (ابنة ستالين ـ المترجم) السجين كابلر، وهو يطلب إرساله من السجن إلى الجبهة؛ تقرير من بيريا بخصوص معلومات حول ياكوف، ابن ستالين، الأسير لدى الألمان؛ تقرير كروغلوف حول جلب «الأرشيف الروسي الأجنبي»(٤٦) من براغ في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥؛ رسائل إلى ستالين من ياغودا وراديك وزوشينكو وجدانوف وسيروفا وغيرهم.

مع الزمن، كانت بعض الوثائق تذهب إلى الأرشيف الشخصي والباقي يتلَف، على الأرجح. هنا، جزء من الغطاء الذي كان ستالين يغطي به «أسراره»؛ حين يكون الناس لا يعرفون سوى الحد الأدنى من الأشياء، يصبح من الأسهل قيادتهم. «الحد الأدنى» كان يقدّره أناس مثل جدانوف وسوسلوف وتلاميذهما.

هناك سر آخر بين أسرار ستالين الشخصية، هيهات أن يمكن كشفه بالكامل، ألا وهو موت زوجته. التفسيرات الرسمية والاجتهادات المختلفة معروفة منذ زمن، لكنها ليست جميعها مقنعة. سأقدم هنا تصوّراً، ليس إلا. هنالك في الأرشيف وثيقة طريفة جداً موجهة إلى كالينين: رجاء بالعفو عن ألكساندرا كورتشاغينا، المسجونة في معسكر بجزيرة سولوفكي. الرجاء مكتوب بقلم بنفسجي على بضع أوراق من دفتر مدرسي. التاريخ ٢٢/١٠/١٩٣٥.

يتضح من رسالة الرجاء هذه أن عضوة الحزب كورتشاغينا عملت لمدة خمس سنوات خادمة في بيت ستالين وألقي القبض عليها حين تم انتزاع اعترافات في السجن من شخص اسمه سينيلوبوف، عمل في الكرملين فترة، وهو يقول في إفادته

أن كورتشاغينا قالت له: إن ستالين ذاته هو الذي أطلق الرصاص على ناديجدا أليلوييفا (زوجة ستالين ـ المترجم). كورتشاغينا في الرسالة حاولت ـ بشكل غير مقنع ـ أن تنفي هذه الحقيقة، وتستند إلى الرواية الرسمية حول «انفجار القلب» لدى سيدتها. تقول كورتشاغينا أن سينيلوبوف وبوركوف وغلومي (من الحرس في الكرملين) كانوا يسألونها: لماذا لم تكتب الجرائد عن سبب الموت بوضوح؟ ويبدو من النص أن الرواية الرسمية لم تكن مقنعة، سيما أن ستالين في تلك الليلة ـ كما تقول كورتشاغينا ـ عاد إلى شقته في الكرملين مباشرة بعد زوجته. أغلب الظن أن الأحاديث بين العاملين في الكرملين بلغت ستالين، فخاف وقرر أن يسجن كورتشاغينا ليجبر على الصمت جميع من كان يعرف شيئاً ما عن الأمر.

في تلك الأيام (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) كان الناس يحاكمون على الطريقة الستالينية. كورتشاغينا تكتب إلى كالينين في رجائها، إن تهديدات المحقق كوغان أجبرتها على الاعتراف بالتهمة، ثم أرسلت دون محاكمة إلى المعسكر في سولوفكي. مع الرسالة هنالك جواب رسمي من ممثل المخابرات لوتسكي، الذي يقول أن كورتشاغينا «متهمة بقضية المجموعات الإرهابية المعادية للثورة في المكتبة الحكومية التابعة إلى إدارة قصر الكرملين وغيرها». قرار «مختار الاتحاد السوفييتي»، كالينين، بشأن رجاء كورتشاغينا مقتضب؛ «مع الرفض ١٩٣٦/٣/٨»[٤٧].

يجب الإضافة أن كثيرين من الناس في تلك الأيام كانوا ميالين إلى الاعتقاد بأن ستالين قتل زوجته، حين لم يستطع أن يتحمل عنادها. هذا ليس مستبعداً، إذا تذكرنا أن «الزعيم» لم يرف له جفن وهو يرسل رفاقه إلى المقصلة. ليس من المستبعد أيضاً أن ناديجدا لم تتعب من قساوة زوجها فحسب، بل وعبّرت بواسطة الانتحار عن احتجاجها ضد أعماله التي كانت تعرفها.

بين أسرار ستالين الشخصية أيضاً، قضية ابنه الأكبر ياكوف. هنالك عدد من الشهادات، بما في ذلك ما كتبتْه دولوريس إيباروري، يدل على أنه جرت محاولات، مرة أو مرتين لترتيب فرار الملازم ياكوف دجوغاشفيلي من الأسر: لم يكن ستالين يهتم بتحرير ابنه قدر اهتمامه بتحصين سمعته الخاصة، خائفاً من إمكانية أن «يكسر» الفاشيون إرادة ياكوف ليستخدموه ضد أبيه. لكن الألمان صمتوا بالتدريج في شأن ياكوف ستالين، وهدأ أبوه بشكل كامل، حين استلم من وزير الداخلية في ١٩٤٥/٣/٥ التقرير التالي:

«لجنة الدفاع الحكومية. إلى الرفيق ستالين.

في أواخر كانون الثاني (يناير) من هذا العام، حررتْ جيوشنا في جبهة بيلوروسيا ـ ١ من الأسر الألماني مجموعة من الضباط اليوغسلاف ، بينهم الجنرال ستيفانوفيتش الذي روى ما يلي:

في معسكر «إكس ـ س» بمدينة لوبيك كان مسجوناً الملازم ياكوف دجوغاشفيلي وكذلك الكابتن روبير بلوم، ابن ليون بلوم، رئيس الوزراء الفرنسي

الأسبق، وغيرهما. كان دجوغاشفيلي وبلوم في زنزانة واحدة، وقد زار ستيفانوفيتش دجوغاشفيلي حوالى ١٥ مرة مقترحاً عليه المساعدة المادية، لكنه رفضها وبقي يتصرف بكبرياء وعزة نفس: لم يكن يقف تحية للضباط الألمان، فيعاقبونه على ذلك، ويقول إن ثرثرة الجرائد الألمانية بخصوصه عبارة عن دجل. كان واثقاً من انتصار الاتحاد السوفييتي، وأعطاني عنوانه في موسكو: شارع غرانفسكي، بناية ٣، الشقة ٨٤.

بيريا»(٤٨)

كان قلق الأب، ومعه بيريا، حول أن ياكوف سوف «ينطق» لا دواعي له، لكن السبب الذي وراء ذلك القلق أيضاً سر من أسرار ستالين الأب.

مع اقتراب الموت، كان ستالين يفكر بما سيبقى للمؤرخين من آثار حياته. قبل سنة ونصف من يوبيله السبعين، أوكل «الزعيم» إلى مالينكو التفتيش في الأرشيفات: ما هي الوثائق المتعلقة بلينين وستالين التي ما زالت غير معروفة للناس. لم يكن يهمه لينين كثيراً في هذه المسألة، فهو إنسان ماكر إلى أقصى حد ويعرف أن ربط المسألة مع اسم لينين يجعل تفتيش الأرشيفات أمراً لا يدعو للشبهة والشكوك. بعد ٨ ـ ١٠ أشهر جاء تقرير وزير الداخلية الذي كانت وزارته تشرف على كل الأرشيفات:

«اللجنة المركزية للحزب. إلى الرفيق مالينكوف.

هيئات الأرشيف في وزارة الداخلية تعمل بشكل منتظم على إيجاد وتصنيف الوثائق المحفوظة في الأرشيف المكتوبة من قبل لينين وستالين. خلال عام ١٩٤٨، تمت مراجعة ١٩٠ ألف مصنّف ووثيقة في ٣٨ مستودعاً، من أهم مستودعات الأرشيف... نتيجة لتلك المراجعة، سلّمنا حوالى ١٢٠٣ وثائق إلى معهد الماركسية ـ اللينينية على شكل نسخ من الأصول المكتوبة بيد لينين وستالين. في هذا العام ستتم مراجعة ٥٨ ألف مصنف في أرشيف ثورة أكتوبر لنفس الغاية.

١٩٤٩/١/٢٨

وزير الداخلية كروغلوف»(٤٩)

توجد أسس للاعتقاد بأن تلك الوثائق لم تذهب إلى الأرشيف بأكملها. وليس غريباً أننا لا نجد في بعض الأرشيفات النسخ الأصلية لوثائق معينة، بل نسخاً منها لا تحمل الملاحظات والقرارات التي كان ستالين يكتبها بخط يده. هذه أيضاً «أسرار ستالين» التي ليس من السهل كشفها.

حين جاء من براغ «الأرشيف الروسي الأجنبي» في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ (وهو يتكون من تسع حافلات قطار ملأى بوثائق جنرالات الحرس الأبيض وأقطاب المعارضة)(٥٠)، أوكل ستالين استقبال الأرشيف إلى الأخصائيين، ولكن تحت إشراف كبار المسؤولين في المخابرات. بين تلك الوثائق مخطوطة الجنرال بروسيلوف (الذي خدم في الجيش الأحمر، وكان مشهوراً منذ الحرب العالمية الأولى) بعنوان «ذكرياتي»(٥١).

كان ستالين قادراً على تحويل كل شيء إلى سر. حتى استمارات إحصاء السكان في حزيران (يونيو) ١٩٣٨، التي تتضمن معلومات عن عوائل قادة الحزب والدولة، عُرضت عليه للنظر فيها ومرّ عليها بقلمه:

ـ نينا بيريا... ابنها سيرغي، ١٤ سنة.
ـ ماريا كاغانوفيتش، ابنتها مايا وابنها يوري.
ـ كاترينا فوروشيلوفا.
ـ بولينا جمتشوجينا، ابنتها سفيتلانا مولوتوفا، وابنتها ريتا آرون جمتشوجينا.
ـ دورا أندرييفا، ابنتها ناتاليا.

ترك القلم الأحمر مقابل بعض الأسماء دوائر لا يفهم مغزاها سوى صاحبه، فهو «يصنف» زوجات وأطفال المقربين منه. وعند كنية خاريتونوف، الإحصائي الشخصي لستالين ـ خط أحمر غامق ـ ألغاز وأسرار، ما كان المجتمع الذي أسسه ستالين يستطيع العيش دونها. كل حياة هذا الرجل محاطة بغشاوة متينة تشبه الكَفَن.

كان ستالين دائماً يراقب المقربين منه، وبيريا يقدم له التقارير المنتظَمة حولهم. حين ذهب فوزنيسينسكي في استقلالية الرأي وشجاعة التفكير إلى الحد، غير المرئي، الذي لا يجوز الوصول إليه، تغيّر مصيره بشكل حاد. كان ستالين، بدوره، يراقب بيريا، لكن معلوماته لم تكن كاملة، فالتقارير شفهية ويتم تقديمها سراً.

إنه ليصعب على القادة الكبار، الذين يعيشون على مرأى ومسمع من عدد كبير من الناس، أن يصونوا أسرارهم الخاصة. في المجتمع الديمقراطي لا توجد حاجة لذلك أصلاً. في زمن ستالين، كانت المعطيات حول أفراد عوائل القادة والمسؤولين الكبار، وحول أذواقهم وعلاقاتهم الخاصة، تشكل سراً من أسرار الدولة.

بقي ستالين طوال حياته يتوقع محاولة اغتياله. وكان لدى بيريا دائماً رواية جاهزة حول احتمال محاولة من هذا النوع. لكن محاولة اغتيال لم تحصل... فربما لم يكن «الزعيم» يقدّر بالشكل اللائق إمكانياته الخاصة في مجال إسكات الناس. فكل الذن كانوا يعرفون كيف كان التصوّر الأولي حول الاشتراكية أبادهم الديكتاتور، والشباب يعرفون بالتأكيد أن الاشتراكية يجب أن تكون فقط كما بناها ستالين. خوف ستالين من الاغتيال هو أيضاً «سر»، كان يعرفه كل المقربين منه.

انغلاق المجتمع يبدأ من القيادة. كان الملأ يرى قسطاً زهيداً فقط من الحياة الشخصية لستالين. في البلد آلاف وملايين من صور وتماثيل ذلك الرجل الغامض الذي يؤلهه الشعب ويعبده، لكن لا يعرف عنه شيئاً يذكر. كان ستالين يجيد حفظ أسراره، بفضل ما له من سلطان وبقوة شخصيته، فيعرض أمام ناظرَيْ المجتمع فقط الأشياء المخصصة للابتهاج والإعجاب، وكل ما دون ذلك يغطيه كَفَن غير مرئي.

نوبات العنف

الزمن يكيل لكل الناس على وجه الأرض بمكيال واحد، وأعمار الزعماء ليست استثناء.

كان السن يتقدم بستالين والسنوات تثقل كاهله، ومجده يتعاظم. أصبح المجد الستاليني كونياً، من حيث الجوهر، عندما اضطر الأعداء والأصدقاء أن يحسبوا الحساب لإرادته وعقله. الحذق ومخططاطه. قبل يوبيله السبعين بفترة طويلة، بادر مالينكوف في المكتب السياسي إلى اقتراح قائمة طويلة من الإجراءات الرامية إلى الاحتفال بذلك اليوبيل كما يليق. لم يقتصر الأمر على تخليد «الزعيم» في تماثيل جديدة وفي تسمية المصانع والمؤسسات باسمه وفي سيل التقارير الانتاجية حول الإنجازات «المكرسة» لليوبيل. بين الرسائل التي كانت تأتي إلى ستالين، تشكل رسائل بيريا (ومؤسسة بيريا) الأغلبية الساحقة. حتى في سنوات الحرب كان بيريا يُفرِح «الزعيم» بالإنجازات التي يجترحها «الكادحون» من السجناء في المعسكرات والمصانع الخاضعة للمؤسسة الامنية. ها هو تقرير بتاريخ ٢٦/١/١٩٤٤:

«لجنة الدفاع الحكومية. إلى الرفيق ستالين.

يسرني إبلاغكم أن مؤسسة بناء الصناعات المعدنية، التابعة لوزارة الشؤون الداخلية في مقاطعة تشيليابينسك، قد أنهت بناء الخط الأول من مركز التدفئة الحرارية لمصنع التعدين وسلّمت للاستثمار العَنَفة رقم (١)، وطاقتها ٢٥ كيلو واط، وكذلك المرجل رقم (١). بدأت أعمال بناء المركز في آذار (مارس) ١٩٤٣ على ساحة بكر وأنجزت خلال عشرة أشهر. أرسل لكم طياً برقية التحية من العاملين في البناء ومشروع البرقية الجوابية.

بيريا»[٥٢]

ثم راح كروغلوف أيضاً، خليفة بيريا، يُمطِر «القائد» بتقارير مماثلة قبل سنة من اليوبيل السبعين:

«إلى الرفيق ستالين.

وزارة الداخلية تبلغكم، أيها الرفيق ستالين، أن العاملين في مناجم حوض بيتشورا يناضلون من أجل الانجاز المسبق لخطة السنة الثالثة، في ١٩ كانون الأول (ديسمبر) (قبل يومين من ميلاد ستالين الـ ٦٩ ـ المؤلف)، وحققوا هذا الانجاز...

كروغلوف»[٥٣]

كان «عمال المناجم» ـ السجناء السياسيون ـ يعملون في مئات وآلاف المؤسسات الإنتاجية في البلد تحت حراسة مفارز الأمن. ستالين يعتبر ذلك طبيعياً تماماً. كل من يستحق عنده لقب «إنسان جديد» يجب أن يمر بتجربة «إعادة التربية» الطويلة في المعسكرات. حتى عندما أصبحت الجيوش النازية في ضواحي موسكو، كانت مفارز الأمن ـ على بعد قذف مدفعي فقط من القوات الألمانية! ـ تحرس عدداً

كبيراً من السجناء الذين كان معظمهم يجب أن يكون في ساحة القتال تحت السلاح. عندئذ، اضطر جوكوف وغيره من القادة العسكريين إلى ترقيع الخروق في الجبهة بجلب التلاميذ من المدارس العسكرية وزجّهم في القتال وهم أغرار. قوات المخابرات كانت تحرس «أعداء الشعب»، رغم كل شيء. يبدو أن ستالين كان يخشى إطلاق سراحهم أكثر من خشيته لقدوم الألمان.

تدل الوثائق على أن ستالين بالذات كان صاحب المبادرة بجعل السجناء مصدراً دائماً لليد العاملة الرخيصة المحرومة من الحقوق. ولنتذكر خطابه في السوفييت الأعلى يوم ١٩٣٨/٨/٢٥، حيث أُضفيت الصفة القانونية على انتهاك صارخ للقانون هو الاحتفاظ بالسجناء حتى بعد انقضاء فترة عقوبتهم. لقد ذاق مرارة هذا الإجراء أناس يعدون بالآلاف[٥٤].

مع مر الزمن، وبموافقة من ستالين، أقام بيريا نظاماً كاملاً لاستغلال المثقفين السجناء: المهندسين والأطباء والمعماريين ومهندسي التكنولوجيا والعلماء. في سنوات الحرب، ظهرت اكتشافات كبيرة واختراعات قام بها المثقفون السجناء ولعبتْ دوراً هاماً في تقوية الطاقة الدفاعية للبلد. وهنالك حالات كان السجناء فيها يكسبون حريتهم بهذه الطريقة.

في شباط (فبراير) ١٩٤٤، قدّم بيريا التقرير التالي:

«إلى رئيس لجنة الدفاع الحكومية، الرفيق ستالين.

بموجب تصميمات الأخصائيين المسجونين لدى القسم الخاص رقم (٤)، تم تنفيذ الأعمال التالية في المصنع رقم (١٦) التابع لوزارة الصناعات الجوية خلال فترة ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣، وهي أعمال ذات أهمية دفاعية بالغة:

١ ـ بناء نماذج تجريبية من محركات نفاثة تعمل على الوقود السائل، من تصميم غلوشكو، وهي مخصصة للطائرات بمثابة محركات تسريع.

٢ ـ من خلال المكاملة بين المحركات المعروفة (م ـ ١٠٥)، وبناء على مشروع قدّمه دوبروفولسكي، تم انتاج محركات قوية لأجل الطائرات (م. ب ـ ١٠٠)، طاقة التحليق لديها ٢٢٠٠ حصان وكذلك (م. ب ـ ١٠٢)، طاقة التحليق لديها ٢٤٢٥ حصان...

نظراً لأهمية التصاميم المذكورة، تعتبر وزارة الشؤون الداخلية من المفيد إطلاق سراح الأخصائيين المعنيين مع إلغاء فترات عقوبتهم... بانتظار توجيهاتكم.

بيريا»[٥٥]

ويرفق بيريا بالتقرير قائمة تضم أسماء ٣٥ سجيناً. كان ستالين ممن يؤمنون بأن ذهن الإنسان يمكنه أن يعمل في الزنزانة بإبداع يجلب الخير العام.

كان «الزعيم» **يريد** أن يقرر كل شيء **بنفسه**. طوق المركزية الشنيعة كان يخنق

المبادرة ويخمد الإبداع الحي لدى الناس ويدفع الفكر الاجتماعي إلى حالة الركود. فمن بناء المصانع الجديدة إلى الإصلاح النقدي، ومن استخدام جهود الأسرى الألمان واليابانيين وحتى كمية التسريحات في قوات الدفاع الجوي... من الإشراف على تصميم الدبابة (ت ـ ٥٤) إلى فرز غرام واحد من الراديوم إلى معهد أبحاث... من سفر الوفد السوفييتي لحضور مؤتمر الجراحين في براغ حتى افتتاح المركز الثقافي السوفييتي في فيينا ومتابعة التجارب الذرية الأمريكية... كل شيء يجب أن يقرره ستالين شخصياً. بولغانين وغوليكوف يقدّمان تقريراً حول «تصرّف ذاتي» من المارشال جوكوف: أصدر المارشال أمراً بمكافأة المغنية روسلانوفا بعد حفلة أمام الجنود... المسؤول الحزبي الأول في لينينغراد بويكوف وافق على تنظيم معرض تجاري في المدينة دون العودة إلى المركز، وسرعان ما تحولت تلك الخطوة إلى أساس لاتهامه، هو وقيادة المدينة بالصراع «ضد الحزب»...

حين اقترب يوبيله السبعون، كان الشعب قد انتهى من ترميم جميع المصانع التي هدمتها الحرب، كما تم وضع أسس لمصانع جديدة. إنهاض الاقتصاد يجري بوتائر سريعة، وستالين في أحاديثه مع فوزنيسينسكي يؤكد: الصناعة الثقيلة قبل كل شيء! الإنتاج الزراعي والصناعات الاستهلاكية ليست بالأمر الحاسم. كل الموارد المالية والتقنية ـ كما قبل الحرب ـ كانت تتمركز في الصناعة. لكن النمو الصناعي بقي يحمل طابعاً كمياً وليس نوعياً، بينما يتدهور وضع الزراعة، رغم تشديد الضغط والقسر تجاه سكان الريف. كان الكولخوزيون فئة محرومة حتى من إمكانية الاحتجاج وعاجزة عن تغيير أي شيء. الدولة تستولي على المحاصيل لقاء أسعار زهيدة، والشبيبة تسعى بكل السبل إلى الهجرة من الريف، وتتحول إلى يد عاملة رخيصة في أعمال البناء وصناعة الأخشاب وغيرها.

استمراراً لـ «الثورة الزراعية من فوق» التي بدأت في أواخر العشرينات، بقيت قرارات اللجنة المركزية بشأن الزراعة لا تعني سوى البحث عن أدوات جديدة لإجبار الناس على العمل. في «دليل الكادح السوفييتي» مقالات تقتطف من قرارات المركز فقرات حول ما يجوز وحول ما لا يجوز، وحول إجراءات الردع الرامية إلى «الحماية الاجتماعية» التي يمكن أن يتعرض لها المنتج الزراعي[٥٦]. صدر هذا الدليل قبل الحرب. لكن مفعول المبادىء الواردة فيه بقي سارياً بعد الحرب أيضاً. كان من الواضح أن الطريق إلى «المستقبل الزاهر» يُشَقّ بواسطة العنف، وكان ستالين يرى في ذلك واحدة من «قانونيات» البناء الاشتراكي.

لم يكن يحق للكولخوزي مغادرة القرية بإرادته. وأية زلة من لسانه قد تكلّفه السجن، فالمعسكرات كانت مليئة على الدوام. في ١٠/٦/١٩٣٤ صدر قرار عن «اللجنة التنفيذية المركزية» حول تشكيل «المجالس الخاصة»، التابعة لوزارة الشؤون الداخلية (المخابرات)[٥٧]. شهرياً كان ستالين يتلقى سيلاً من التقارير حول عمل «المجالس الخاصة» التي تحولت إلى هيئات تعسفية تصدر الأحكام بلا رقيب:

«اللجنة المركزية للحزب، إلى الرفيق ستالين.

نبلغكم أن المجلس الخاص لدى وزارة الداخلية، بتاريخ ٢٤/١٢/١٩٤٨، قد نظر

في قضايا الاتهام الموجهة إلى ٣٦٠ شخصاً. وصدرت أحكام بالسجن لفترات مختلفة على عدد منهم:

ـ لمدة ٢٥ سنة: ٨ أشخاص.
ـ لمدة ١٠ سنوات: ٨ أشخاص.
ـ لمدة ٧ ـ ٨ سنوات: ٤٨ شخصاً.
ـ لمدة ١٢ سنة، أعمال شاقة: ٢٩ شخصاً.

وزير الداخلية كروغلوف»[٥٨]

حتى في يوم ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) لم تنخفض «انتاجية» عمل المجلس الخاص. فقط عدد المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة في ذلك اليوم كان أقل: ١٥ شخصاً[٥٩]. وكل هذه القرارات تنال الموافقة الشخصية لستالين، سيما وأنه هو مؤلف عقوبة «الأعمال الشاقة».

نعم. في ١٩٤٣/٤/١٩، صدر مرسوم السوفييت الأعلى ـ الذي لم يُنشر علناً ـ حول إدخال نوع خاص من العقوبة، هو الأعمال الشاقة خصيصاً لأجل الفاشيين القتلة ولأجل الخونة وأعوان المحتلين. مدة الأعمال الشاقة من ١٠ ـ ٢٠ سنة، وتحددها المحاكم العسكرية الميدانية. بعد انتهاء الحرب، أخذت «المجالس الخاصة» على عاتقها صلاحيات المحاكم العسكرية الميدانية، وكانت أحكام تلك المجالس غير قابلة للطعن أو الاستئناف. وأصبح من الممكن أن يتعرض للحكم بالأعمال الشاقة ليس الفاشي القاتل أو عميل الألمان، بل كل من هو مغضوب عليه.

لم يوافق ستالين على اختزال صلاحيات «المجالس الخاصة» بعد الحرب، وبقي اختراعه هذا على قيد الحياة بعد موته هو ليزول بعد حين في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٣، فتنفس المجتمع أول صعداء بعد موت الديكتاتور.

نوبات العنف والقمع كانت رديفاً دائماً لنكران الذات والتقشف الذي يبديه الشعب السوفييتي، وكان «القائد» يعتبر ذلك أمراً عادياً.

كان الجميع تقريباً يظنون أن ستالين يعرف ويرى كل شيء. ليس صحيحاً. كان الرجل يرى فقط ما يحلو له. فهو لم يشأ يوماً أن ينظر إلى ملايين العيون اليائسة للمواطنين الذين مرّوا عبر **معسكراته هو**. ولو نظر إلى تلك العيون لرأى فيها الظل الحقيقي الشنيع لمجده الكوني العظيم. لكنه لم يكن يريد. كان ستالين ـ وفقاً لفكرته القديمة ـ يريد لبلده الجبروت الذي يضاعف من مجده الشخصي، أكثر وأكثر.

في السنة السبعين لميلاده، اتخذ «القائد» إجراءً لا تزال شعبيته كبيرة حتى اليوم في أوساط الشيوخ والعجائز حين يتذكرونه. ففي ظروف الانهيار الفعلي للزراعة وتدهور الصناعات الخفيفة، أقدم ستالين (كما في سنوات لاحقة) على تخفيضات هامة في الأسعار بالنسبة لبضائع الاستهلاك الشعبي.

مع إنه وقّع قبل يوم على قرار مجلس الوزراء حول تخفيض الأسعار ابتداءً من ١٩٤٩/٣/١، طاب لستالين في الصباح التالي، بعد فطوره المتأخر كالعادة، أن يتناول

الـ «برافدا» ـ عدد ١ آذار (مارس) ـ لينظر إلى عمود الأرقام المطبوع فيها: «ابتداء من ١٩٤٩/٣/١، تخفيض أسعار المفرّق الحكومية لبضائع الاستهلاك الجماهيري، وفقاً للمعايير التالية:

الخبز والطحين	١٠٪
الزبدة والسمن	١٠٪
اللحم والمارتديلا والمعلبات	١٠٪
الفودكا	٢٨٪
العطور	٢٠٪
الأقمشة الصوفية	١٠٪
الدراجات	٢٠٪
التلفزيونات	٢٥٪
الساعات	٣٠٪

وبشكل متناسق مع ما سبق، تخفيض الأسعار في المطاعم والمقاهي وغيرها من مؤسسات الطعام الاجتماعي».

ستالين يضع الجريدة جانباً ويفكر: الشعب يعيش فقراً مدقعاً. تقارير الأجهزة الأمنية من مناطق شرق البلاد تؤكد ذلك. لكن منح الناس إمكانية المعيشة فوق الحد الأدنى من شأنه أن يفسدهم، والموارد محدودة أصلاً. يجب تقوية البلد، وبالتالي ـ شد الحزام على البطن أكثر. في كل سنة كان السكان ينتظرون تخفيضاً جديداً في الأسعار، وستالين يمنحهم هذا التخفيض! وزادت هيبته أكثر. فلم يكن الناس يرون أن سياسة تخفيض الأسعار لا تعني شيئاً في ظروف العجز الشديد في الكتلة البضائعية ولا ترفع من مستوى المعيشة بشكل يُذكر. كان مستوى الأجور متدنياً جداً وتخفيض الأسعار جمّده فعلياً. مثل هذه السياسة تنطوي على تهويش اجتماعي واضح: المؤشرات المقارَنة تبيّن أن مستوى المعيشة والأجور الفعلية، عند أوائل الخمسينات لم يكن يفوق مستوى عام ١٩١٣ إلا بقليل.

لا يمكن غض النظر عن تحوُّل إيجابي هو ارتفاع السوية الثقافية في المجتمع وتوطد الصداقة الأممية للشعوب السوفييتية وبروز خطوات معينة على صعيد الضمان الاجتماعي، حيث بدأ منح المعاش التقاعدي وإجازة الأمومة والمعونات لعوائل الشهداء وغير ذلك. لكن هذه الأمور كلها لم تكن تشكل سوى الحد الأدنى الذي يعبر عن الفقر العام في المجتمع لأن التركيز الشديد على تطوير الصناعة الثقيلة بالتوازي مع تدهور الانتاج الزراعي كان يرسم آفاقاً غر مبهجة أمام البلد.

كثيراً ما نسمع، أثناء النقاشات الحامية حول ذلك الزمن البعيد، حججاً في صالح ستالين من نوع: كان هنالك «نظام» و «انضباط» و «احترام للقوانين»، أما الآن، فانظروا إلى أين وصلنا: البدعارة والإدمان على المخدرات والسكر. لست أدري كيف كانت الأمور مع الدعارة، لكن الآفات الاجتماعية الأخرى كلها كانت موجودة على زمن ستالين أيضاً. الفارق هو أن تلك المعلومات كانت «سرية للغاية». ربما كان حجم تلك الآفات أقل، لكنها كانت موجودة. فها هو تقرير وزارة الداخلية في كيرغيزيا

(تشرين الثاني ١٩٤٧) «حول إلقاء القبض على مجموعة من تجار الأفيون ومصادرة ١٧ كغم من هذه المادة[٦٠]. وها هو تقرير وزير الداخلية كروغلوف: في عام ١٩٤٦ تم إلقاء القبض على ١٠٥٦٣ شخصاً من تلاميذ المدارس الحرفية والمهنية. الجرائم كثيرة في هذه الأوساط؛ سرقة وتنظيم عصابات، إلخ[٦١].

إن أنظمة الثكنات والقسر والإجراءات الإدارية كانت عاجزة عن إزالة الجريمة أو تخفيض مستواها جدياً. ثم إن التناقضات الناجمة عن نظام الحكم الفردي ـ ديكتاتورية فرد واحد مقابل انعدام حرية الملايين، الهيمنة الشاملة للبيروقراطية مقابل الحاجة إلى النشاط الاجتماعي، فرض التفكير الواحد مقابل الحاجة الطبيعية إلى الإبداع ـ كل ذلك كان يعمّق المقدمات التي ولّدت الأزمات الاجتماعية اللاحقة. إن «باقة» من التناقضات الاجتماعية المستفحلة كانت تتشابك لتشكل إكليل النصر الذي حمله ستالين. وليس صدفة أن يتزامن يوبيله السبعون مع نوبة جديدة من العنف: قضية لينينغراد. كل انتصارات «الزعيم» اقترنت بنوبات من العنف، وهذا واحد من القوانين الجوهرية للسلطان الديكتاتوري في الأنظمة التوتاليتارية.

بدأت «قضية لينينغراد» من الحملة على مجلتَيْ «النجم» و «لينينغراد» بتوجيه مباشر من «القائد»، كما رأينا. ثم بدأ التشهير بفيلم «الحياة الكبيرة» للمخرج لوكوف وكاتب السيناريو نيلين وبالأوبرا التي ألفها موراديلي «الصداقة العظيمة»، وتم توجيه الضربة إلى برنامج المسارح. وأصبح الهجوم على الكاتب الهزلي ميخائيل زوشنكو والشاعرة آنا أخماتوفا إشارة البدء لعملية كبيرة في مجال التطهير الإيديولوجي. مدينة لينينغراد، التي ما زالت تتعافى بعد مأساة حصارها في الحرب، توضع في مكانة «بؤرة الهرطقة». تلك كانت تلويحة ذات مغزى: إذا كان لا تساهل مع مدينة لينينغراد البطلة، مدينة لينين، فليفهم الآخرون.

في أرشيف جدانوف توجد رسالة من ڤيرا زوشنكو، زوجة الكاتب زوشنكو، موجهة إلى ستالين، تسبقها ملحوظة إلى معاونه: «الرفيق المحترم بوسكريبيشيف. أرجوكم شديد الرجاء نقل هذه الرسالة إلى الرفيق ستالين أو ـ إذا كان ذلك سيتعبه ـ نقل مضمونها باختصار... ١٩٤٧/٩/٨. مع التحية القلبية...».

في بداية الرسالة، كالعادة في تلك الأيام، سطور إلزامية موجهة إلى «الزعيم»: «... أكبر فرحة في حياتي هي كوني أعرف إنكم موجودون في هذه الدنيا، وأعظم رغبة عندي هي أن توجدوا أطول مدة ممكنة... العزيز يوسف فيساريونوفيتش! لقد هزني قرار اللجنة المركزية حول مجلتَيْ «النجم» و «لينينغراد»... كيف أمكن حصول كل هذه الأشياء. الجميع كانوا يحبون زوشنكو ويعترفون له (غوركي، تيخونوف، شاهينيان، كوزنيتسوف، مايسكي). من غير الوارد إطلاقاً الكلام حول إنه كان يودّ الهروب من لينينغراد. طيلة شتاء ١٩٤٤ كان يشتغل على كتاب قوات الأنصار... لا يمكن الحديث عن دجل وسوء نية في كتبه...». هذه المرأة الشجاعة تكتب إلى الديكتاتور لتنفي كل الاتهامات بحق زوجها. وتتكلم حتى عن الأشياء الخاصة، الشخصية: «... لديه مرض نفسي شديد هو النوراستينيا... وعُقد نفسية غريبة. كان يخشى، مثلاً، خشية شديدة

من الجنون، كما حدث مع غوغول. وراح يعالج نفسه بطريقة التحليل الذاتي... ويبدو أنه شفي. لقد أهداه مرضه موهبة الكاتب الهزلي، وهنا طاقته الكبرى. لكن يصعب عليه الامتثال لإرادة الغير ولا يستطيع أن يفعل شيئاً بتوجيه من الآخرين...»[٦٢].

يبدو أن ستالين قرأ الرسالة، ففي النص علامات تأكيد بنفس القلم الذي كتب به الإيعاز بإحالة الرسالة إلى جدانوف. من المدهش حقاً أن ستالين اكتفى بالإرهاب المعنوي تجاه زوشنكو ولم يذهب إلى أكثر من ذلك.

بعد سنتين من الحملة الإيديولوجية في لينينغراد، تلت حملة سياسية. في أواسط شباط (فبراير) ١٩٤٩، أرسل «القائد» إلى لينينغراد مالينكوف في مهمة خاصة. ما المناسبة؟ في المؤتمر الحزبي لمنظمة المدينة، كان هناك عدد من الأصوات ضد قادة المنظمة. أما رئيس لجنة إحصاء الأصوات، فأعلن ـ وكان ذلك دارجاً في تلك الأيام ـ أن الانتحاب تم بالإجماع. بعد حين جاءت رسالة وشاية حول الأمر إلى المركز. كان ستالين في عام ١٩٣٤ قد زوّر بنفسه نتائج انتخابه في المؤتمر الحزبي السابع عشر، لكن رد فعله تجاه نفس الممارسة من قبل الآخرين كان صارماً. اتسعت دائرة الاتهام، شيئاً فشيئاً: قيادة منظمة لينينغراد لا تحسب حساباً للهيئات المركزية، فهي التي وافقت على تنظيم معرض تجاري في المدينة دون العودة إلى موسكو، وبعض تصريحات سكرتيرها الأول بوبكوف تشير إلى محاولة القيام بتأسيس «الحزب الشيوعي في روسيا»، وتلك محاولة بعيدة الأهداف. هذه هي النقاط الأساسية في تقرير مالينكوف أمام الحزبيين في لينينغراد. وفهم الجميع على الحال: إنها نُذُر المصيبة! لم يكن مستمعو مالينكوف في لينينغراد يعرفون أن المسؤول السابق لمنظمتهم، كوزنيتسوف، الذي أصبح سكرتيراً للجنة المركزية قد أُقيل في موسكو من منصبه قبل أسبوع. بعد ذلك أُقيلت كل قيادة المدينة، وبدأت عمليات الاعتقال: بوبكوف «المعادي للحزب» وكابوستين «الجاسوس»، إلخ...

في آذار (مارس) تم فصل فوزنيسينسكي (اللينينغرادي أيضاً) من عضوية المكتب السياسي... فوزنيسينسكي، عضو أكاديمية العلوم، القائد الفعلي للاقتصاد في سنوات الحرب، الرجل الصريح، المنفتح على الآخرين، يبدو أنه أصبح خطيراً في أعين ستالين. وعلى الفور قام بيريا وكروغلوف وأباكوموف وغوغليدزيه بتأليف «قضية» ضد فوزنيسينسكي من لا شيء. هكذا تخلص مالينكوف وبيريا من منافسَين خطيرين هما فوزنيسينسكي وكوزنيتسوف، سيما أن «القائد» يشيخ بسرعة.

ما الذي جعل ستالين يقوم بهذا الاجراء التعسفي، تحديداً عشية يوبيله السبعيني؟

كان فوزنيسينسكي وكوزنيتسوف أقل من يمجده شفهياً وكتابياً. وزيادة الاستقلالية في سلوكهما كانت تثير التوجس لديه. وكان كل منهما يمكن أن يكون خليفة له بعد موته. هذا بالذات ما لم يكن بوسع زبانية ستالين ـ بيريا ومالينكوف بالدرجة الأولى ـ أن تسمح به. كثيراً ما كان بيريا يأتي بوشايات حول فوزنيسينسكي، لكن ستالين لا يبالي بها. ذات مرة، صُعِق «القائد» لمداخلة

فوزنيسينسكي في المكتب السياسي، حيث أورد رئيس هيئة التخطيط الاقتصادي جملة من الحجج الدامغة ضد زيادة الضرائب على الكولخوزيين. ولم تعجبه نوايا كوزنيتسوف ـ سكرتير اللجنة المركزية لشؤون الكوادر ـ في فرض رقابة أفضل على وزارة الداخلية وجهاز الأمن. كما بلغه عن لسان كوزنيتسوف أن التحقيق في مقتل كيروف في الثلاثينات لم يكشف عن القتلة الحقيقيين. لم يكن بوسع ستالين، وهو يقرأ مخطوطات فوزنيسينسكي، إلا أن يلاحظ مدى الاتساع في طاقاته الذهنية. كان الرجل يسعى إلى توسيع مشاركة المنتجين في تحديد الخطط الإنتاجية، وعموماً كان فوزنيسينسكي الاقتصادي الثاني الأخير ـ بعد بوخارين ـ في القيادة السوفييتية. لكن أكثر القادة قيمة وكفاءة كان يجب عليهم ـ لدى ستالين ـ الانسجام مع مطلب أساسي بالنسبة له: الولاء التام والضمانة الكاملة.

كتب فوزنيسينسكي والآخرون من قادة لينينغراد إلى ستالين يؤكدون براءتهم. وتردد «القائد» قليلاً، حين أراد تعيين فوزنيسينسكي لمعهد ماركس ـ إنجلز ـ لينين، لكنه عدل عن ذلك. حتى بعد صدور الحكم بالإعدام بقي فوزنيسينسكي ثلاثة أشهر في السجن (ربما كان ستالين متردداً بالفعل، فقد عمل مع هذا الرجل سوية طيلة سنوات الحرب). مع كل ذلك، قرر «القائد» أن كل «طاقم» لينينغراد يجب أن يشرب من «كأس يوسف»، فأعدم فوزنيسينسكي وكوزنيتسوف وبوبكوف وكابوستين وبادايف وخاريتونوف وكثيرون غيرهم، يصل عددهم إلى مئتي إنسان(٦٣).

أثناء المحاكمة التي جرت في نادي الضباط على شارع ليتيني في لينينغراد، لم يسمع أحد كلمات الندم الذليل من فوزنيسينسكي وكوزنيتسوف. ويذكر بعض الحاضرين كلمات كوزنيتسوف أمام المحكمة: «كنتُ بلشفياً وسأبقى، مهما كان الحكم الذي سيصدر بحقي، فالتاريخ سوف يبرىء **ذمتنا**». وبالفعل، فإن المحكمة العليا للاتحاد السوفييتي أصدرت في نيسان (ابريل) ١٩٥٤ قراراً بإلغاء الحكم الصادر بحق مجموعة لينينغراد في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٠، والذي كان يتهمهم بالعداء للسوفييت والنشاط التخريبي في الحزب والنضال ضد اللجنة المركزية، إلخ... ويؤكد أن المتهمين اعترفوا بذنبهم كاملاً(٦٤).

في عام ١٩٥٤، كان أحد المتهمين وهو توركو، لا يزال في السجن وشرح كيف «اعترفوا بذنبهم»:

«لقد قدمتُ إفادتي نتيجة التعذيب المتواصل... كان المحقق بوتينيتسيف يضربني بشكل متواصل... حتى نفر الدم من أذني في إحدى المرات... كان يهددني بإبادة زوجتي وأطفالي... وفي آخر المطاف وقّعتُ على كل ما اقترحه عليّ...»(٦٥).

إضافة إلي فوزنيسينسكي، عضو المكتب السياسي، تم القضاء على أخيه ألكساندر، عميد جامعة لينينغراد، وأخته ماريا، المسؤولة الحزبية البارزة التي اتُهمت (عام ١٩٥٠!) بأنها كانت متعاطفة مع آراء «المعارضة العمالية» في العشرينات!! وبالمناسبة، فإن قرار إعادة الاعتبار إليها في عام ١٩٥٤ كان أنكى: لم تكن ماريا فوزنيسينسكايا تشاطر آراء المعارضة العمالية «... في العشرينات، بناءً عليه تُرفع

التهمة عنها»[٦٦]. تلك هي روحية القضاء... الستاليني في ذلك العصر.

بعد حين، كادت يد البطش أن تطال الجنرال شيكتوروف الذي استلم قيادة فرع لينينغراد لوزارة الداخلية منذ عام ١٩٤٨، لأنه لم «يطهر هيئات الوزارة في المدينة من الأشخاص الذين لا يوحون بالثقة»، على حد تعبير كروغلوف، وزير الداخلية[٦٧].

لم يكن بوسع «الزعيم» أن يترك مذبح التضحيات خاوياً. لقد اعتاد العنف، متمادياً بسبب الطاعة والخنوع من جانب الحزب والشعب. إنه يعرف: في ذروه أعمال القمع في أواخر الثلاثينات، طال العنف ما لا يزيد عن ٣ ـ ٤٪ من السكان، وهذا شيء زهيد. لكن انظروا كم أصبح الجمهور بعد ذلك التطهير طيعاً وسهل المران! من الصعب تفسير نوبات العنف المستمرة. كان البلد يداوي جراحه بسرعة كل مرة، والوضع الداخلي يتميز بالاستقرار: لا صوت يعارض، والتفاف الشعب حول القيادة السياسية المتجسدة في ستالين هو التفاف فعلي، والعلاقات بين القوميات وطيدة والحزب يتمتع بسيطرة إيديولوجية دون منازع. مع كل ذلك، كان ستالين ـ وهو في ذروة مجده ـ يلجأ إلى العنف. فالديكتاتور الذي وقف على قمة السلطة خمسة وعشرين عاماً، مستنداً إلى العنف، لم يكن قادراً على الكفّ عنه. هذا ما يفسر اهتمامه الخاص بأجهزة الأمن ووزارة الداخلية.

كان بيريا وكروغلوف وسيروف وأباكوموف وغيرهم من «شخصيات» الأجهزة المذكورة يقدمون إليه تقارير منتظَمة حول الوضع في معسكرات «غولاغ». وذات مرة استطاع مالينكوف أن يضطر «الزعيم» لاتخاذ «إجراء إنساني»، حين وضع أمام الجنراليسيموس تقريراً من المسؤول عن «غولاغ» دوبرينين: في العام اليوبيل السبعيني للزعيم، هنالك ٥٠٣٣٧٥ امرأة في معسكرات «غولاغ»!

ـ يجب النظر في مسألة تحرير النساء اللواتي يرافقهن أطفال دون سن السابعة... ـ قال مالينكوف.

نظر ستالين في القوائم والأسماء، ثم وافق على اقتراح مالينكوف: النساء اللواتي لديهن أطفال دون السابعة يجب إخلاء سبيلهن وإجبارهنّ على العمل في مكان الإقامة القسرية التي تحدد لهن. الحجة الأساسية لدى مالينكوف أثرت على قرار ستالين «الإنساني»: رعاية أطفال السجينات تكلف الدولة ١٦٦ مليون روبل سنوياً... مع ذلك أمر ستالين أن لا يشمل القرار النساء اللواتي صدرت بحقهن أحكام سياسية لنشاطهن «المعادي للثورة»[٦٨].

في أيلول (سبتمبر) ١٩٥١، زار الاتحاد السوفييتي وفد نسائي انكليزي، وهذا حدث نادر في تلك الأيام. توجه الوفد بطلب رسمي إلى الجهة السوفييتية لزيارة معسكر من معسكرات اعتقال النساء. وبدأت الاتصالات ترتفع من مستوى إلى آخر في هرم الدولة: مؤسسات وزارة الداخلية لا يمكنها اتخاذ القرار، فتوجهت إلى سيروف، نائب رئيس المخابرات. سيروف يتوجه إلى وزير الداخلية كروغلوف. كروغلوف يتوجه إلى سوسلوف. سوسلوف أيضاً عاجز عن اتخاذ القرار، ويتوجه إلى مالينكوف. مالينكوف، عضو المكتب السياسي، يتشاور مع ستالين، ثم يوقّع على القرار. بدأت

تهيئة المعسكر، وتم تنظيفه وإعطاء التوجيهات الدقيقة لكل السجينات. ٧٠٪ من السجينات، ذوات السحنة الشاحبة أو غير المقبولة تمّ إخراجهن إلى العمل خارج المعسكر. كان انطباع الوفد الانكليزي ساطعاً، كما يتبيّن من التدوين الباقي في «كتاب الضيوف» الذي تم اختراعه للمناسبة: «تركت الزيارة لدينا انطباعاً قوياً. كم هي مريحة تلك البساطة في تعامل السجينات معنا. كل شيء نظيف. إننا نعتبر هذا المعسكر تجربة قيّمة وناجحة.. »(٦٩).

بالمقابل، تروي الأرشيفات قصصاً غير مزوّقة عن الوضع الحقيقي للسجناء وذويهم:

«اللجنة المركزية. إلى الرفيق مالينكوف.

في ١٢ آب (أغسطس)، في حقول سوفخوز «صن يات صن»، ناحية ميخايلوفسكي، مقاطعة بريموريه، تم العثور على جثث ثلاثة فتيان قتلى هم أبناء الفلاحة دميترينكو: ميخائيل ـ ١١ عاماً، وبافل ـ ٩ أعوام، وإلينا ـ ٨ أعوام.

قامت بعملية القتل الأم نفسها... وقد اعترفت أنها فعلت ذلك بسبب الظروف المادية المزرية التي آلت إليها العائلة بعد الحكم على الأب دميترينكو، مواليد ١٩١٢، بموجب قانون ٧/٨/١٩٣٢ (قانون حول سرقة الممتلكات العامة وعقوبته الإعدام، أو ـ في حالات خاصة ـ السجن لمدة عشر سنوات فما فوق ـ المحرر)، سيما أن المواطنة دميترينكو، بعد الحكم على زوجها طُردت من التدريس في المدرسة وأجبرت على إخلاء الشقة. منذ شهر نيسان (إبريل) كانت تعمل في الكولخوز ولا تستلم أية معونة مادية من الإدارة...

كروغلوف»(٧٠)

بين كل مؤسسات الدولة، كانت الأجهزة القمعية تخضع لأقل قدر من الرقابة، وستالين بالذات هو الذي جعلها خارج الرقابة، حيث كان يقودها بنفسه. فقط في فترة الحرب كان هنالك مؤسسة تحظى لدى ستالين باهتمام أكبر من أجهزة الأمن، ونعني بها الجيش. بعد الحرب كان كل من بيريا وكروغلوف وميركولوف وأباكوموف يرسل إلى «القائد» يومياً عدة من الوثائق، التي يدرسها باهتمام ويترك على بعضها عبارات تتضمن قراراته. ليس صدفة أن يبادر ستالين في سنوات ما بعد الحرب إلى تضخيم إضافي للأجهزة القمعية، فالمطلوب هو إبقاء الشعب وأجهزة الدولة في حالة دائمة من «التعبئة واليقظة» ومن ابتكار «الأعداء» و «الإرهابيين» و «الخونة» الجدد.

ما هو ثمن السلطة الفردية لستالين؟ كم عدد الضحايا؟ كم من البشر قُتلوا بمشيئة هذا المستبدّ وإرادة الآلة القمعية التي أسسها؟ أظن إن معرفة الجواب الدقيق مستحيلة الآن وإلى الأبد. أكثر الأجوبة كمالاً يمكن انتظاره من اللجنة الخاصة بدراسة المواد المتعلقة بأعمال القمع خلال الثلاثينات والأربعينات وأوائل الخمسينات. إن «أسرار» ديكتاتورية ستالين قد تحولت إلى ألغاز تاريخية. هنالك دراسات عديدة حول أعداد الناس الذين تعرضوا للقمع. نتائج عملي في هذا المجال تسمح بإيراد المعطيات التالية: أسفرت «الثورة» التعاونية التي فُرضت على الريف في سنوات ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣

عن قمع ٨,٥ ـ ٩ فلاح. في سنتَيْ ١٩٣٧ و ١٩٣٨ طالت أعمال القمع ٤,٥ ـ ٥,٥ مليون مواطن سوفييتي. لكن بين هاتين «النوبتين» أيضاً لم تكن مؤسسة القمع عاطلة عن العمل، فتم اعتقال ما يقارب مليون إنسان. بعد الحرب، خصوصاً في أواخر الأربعينات ـ وبعد القرار بإلغاء عقوبة الإعدام ـ ازداد عدد المعسكرات، وبالتالي عدد السجناء فيها، وهو يقارب ٥,٥ ـ ٦,٥ مليون. طبعاً، كان هنالك سجناء جنايات (ليسوا سجناء سياسيين) في تلك النوبة الثالثة. لكن معطيات بيريا ذاته تؤكد: ٢٥ ـ ٣٠٪ من السجناء كانوا متهمين بـ «النشاط المعادي للثورة»[٧١]. إجمالياً، تعرض لأعمال القمع الستاليني بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٥٣ ـ باستثناء سنوات الحرب ـ ١٩,٥ إلى ٢٢ مليون مواطن، حكم على ثلثهم بالإعدام أو ماتوا في معسكرات الاعتقال والمنافي. يمكن الافتراض فقط أن هذه المعطيات غير كاملة، فهي تستند إلى الوثائق التي أعرفها أنا.

إنها، على الأرجح، أفظع وأشنع وليمة للبطش أُقيمت على مرّ التاريخ في كوكبنا هذا. كان ستالين وفياً لمبدأ أعلنه من ذي قبل: «سوف نبيد كل عدو من هذا النوع، حتى وإن كان بلشفياً قديماً، وسنبيد كل أهله وعائلته. كل من يتجرأ بأعماله وأفكاره، نعم وبأفكاره، أن يتطاول على وحدة الدولة الاشتراكية، سنبيده بلا رحمة». أليس هذا شبيهاً بكلام جلاّد في محاكم التفتيش أيام القرون الوسطى؟ كانت دولة بأكملها تعيش وفقاً لهذا الكلام، الذي شكّل برنامج عمل أثمر ثماراً فظيعة: «البذرة الشريرة تعطي نبتة شريرة»، كما قال شيلر ذات يوم. هذا البرنامج أصبح أساساً فيما بعد لاتهام الاكاديمي فوزنيسينسكي، صاحب المؤلفات الاقتصادية، بأنه «يؤلف وينشر أعمالاً مضرة سياسياً»[٧٢]. العقل والروح الإنسانية والوفاء للحرية، بل الحرية ذاتها ـ كل ذلك كان مؤجلاً إلى مستقبل بعيد وغامض. لم يكن هنالك كتاب فلسفي أو دراسة ما يمكن العثور فيها على فصول حول: الديمقراطية، الحرية، حقوق الفرد، أو ما شابه. كل شيء كان مكسواً بالجَرَب، جَرَب العنف والصراع الطبقي الذي يسري في كل شيء.

لقد لاحظ نيكولاي بيردياييف، وهو من المفكرين الروس الأصيلين الذين تم نفيهم من البلاد عام ١٩٢٢، حين كان يراقب تطور الأمور في البلد بمرارة، إن مبدأ القوة يعرّض جميع القيم الأخرى إلى التآكل والحتّ. ها هو يكتب عام ١٩٣٠: «تماشياً مع النمط الروحي الروسي، انتصرت في الشيوعية الروسية، ليس العناصر العلمية في الماركسية، بل ـ على الأرجح ـ العناصر الرسولية فيها: فكرة البروليتاريا بوصفها محرر البشرية ومنظّمها وبوصفها حامل الحقيقة العليا والعدالة العليا. لكن تلك الفكرة الرسولية فكرة عدوانية وهجومية. إنها فكرة انتصار وفكرة قوة صاعدة. هذا ما يسفر عن إزاحة كاملة لعناصر المعاناة والتحمّل الخمولي في الوعي الرسولي المميز لروسيا. إن البروليتاريا في دور المخلِّص لا تبدو معذَّبة ولا ضحية، بل هي منظّم عالمي ينتصر، وهي مكثِّف لمبدأ القوة»[٧٣].

كان «القائد» وفياً على الدوام لمبدأ القوة، مع فارق بسيط هو أن القوة كانت تتحول، على الصعيد الاجتماعي، إلى عنف دائم يظل قائماً بين مدٍّ وجزر. كل فترة من فترات المدّ كانت تسبقها نوبة. نوبة من الحقد لدى «القائد» الممعن في الشيخوخة.

شيخوخة «القائد»

عيد ميلاد ستالين السبعين يقترب. إنه يعرف الارتباك الذي يعيشه الناس بهذه المناسبة في المكتب السياسي وعلى الطوابق الأخرى في هرم السلطة. لكن ذلك لا يقلقه كثيراً. فهو يبدو وكأنه شبع من المجد. ها هو يدعو مالينكوف ويحذره:

ـ لا تجاولوا، مرة أخرى، اسعادي بـ «نجمة» ما!

ـ ولكن، أيها الرفيق ستالين... يوبيل كهذا... الشعب لن يفهمنا...

ـ لا تتذرعوا بالشعب... لستُ أنوي المماحكة. بلا تصرفات ذاتية، هل تفهمون؟

ـ طبعاً، أيها الرفيق ستالين، لكن أعضاء المكتب السياسي يعتبرون...

قاطعه ستالين، موحياً بذلك أن الموضوع انتهى وأمره بجلب السيناريو المُعَدّ للاحتفال بيوبيله، الذي كان يُزمَع إقامته في مسرح «بولشوي». حديث ستالين عن «النجمة» لم يكن وليد الصدفة.

بعد استعراض النصر والاستقبال الاحتفالي على شرف قادة الجبهات، في حزيران (يونيو) ١٩٤٥، بادرت مجموعة من المارشالات باقتراح إلى مولوتوف ومالينكوف حول مكافأة «المساهمة الاستثنائية من قبل القائد» بمنحه أعلى وسام في الوطن، نجمة «بطل الاتحاد السوفييتي». كان المارشالات يعرفون أوسمته السابقة: نجمة «بطل العمل الاشتراكي» في يوبيليه الستيني ووسام «النصر» رقم (٣) (بعد جوكوف وفاسيليفسكي) ووسام سوفوروف من الدرجة الأولى ووسام «الراية الحمراء». في ٢٦ حزيران (يونيو) صدر المرسوم بمنحه نجمة «بطل الاتحاد السوفييتي» ووسام «النصر» مرة ثانية. ثم تلاه مرسوم ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٥ حول منحه رتبة «جنراليسيموس». كانت تلك هي المرة الوحيدة التي خرج فيها مرؤوسوه عن طاعته. حين رأى ستالين الأنباء في الجرائد اشتاط حنقاً: كيف لم يستشيروه! واستدعى فوراً مولوتوف ومالينكوف وبيريا وكالينين وعنّفهم بشدة، لكنهم كانوا يعرفون أنه غضب تمثيلي، غير حقيقي.

ستالين يذكر أن نابليون في أواخر حياته كان يسمي الأوسمة «أزراراً»، ولا يذكر أين قرأ: يمكن منح الإنسان «زرّاً» ومقابل ذلك المطالبة بحياته. ألا يفهم هؤلاء الناس من حوله أن معيار عظمته لم يعد يتسع لأشياء كالأوسمة. كانوا يعرفون شيئاً آخر، بالتأكيد، ألا وهو أن «القائد» بحاجة إلى مناسبة جديدة لاستعراض تواضعه. بيريا يشعر بأشياء من هذا النوع أكثر من الآخرين، فها هو في مقالة صحفية يكتب قائلاً: «عبقرية زعيمنا تقترن ببساطته وتواضعه وجاذبيته الشخصية الاستثنائية وصرامته تجاه أعداء الشيوعية ورقّته تجاه الناس وحرصه الأبوي عليهم. إنه يتميز بوضوح الأفكار وعظمة الطبع الرزين، واحتقار الضجيج ومقت المظاهر الطنانة»[٧٤]. عنوان مقالة «العفريت» هذه هو «الملهم العظيم لانتصارات الشيوعية ومنظّمها».

لقد تلقى الاسكندر المقدوني ذات يوم اقتراحاً بالمشاركة في مسابقة، فكان

جوابه: «كنتُ سأشارك بالتأكيد لو أن الذين يركضون إلى جانبي ملوك». أما كالينين، «مختار الاتحاد السوفييتي»، الذي يؤدي دوره الطقوسي كما يجب، ما كان يفهم أن الأوسمة التي قد يحصل عليها الآخرون، لم تعد أوسمة بالنسبة لستالين. حفلة التعنيف في عام ١٩٤٥ انتهت بعبارة:

ـ تصرفوا كما تريدون، لكنني لن أتقبل الأوسمة. هل تسمعون: لن أتقبلها!

وظل لا يتقبلها طويلاً. عدة مرات حاول رفاقه من جديد أن يقنعوه. ثم دفعوا فلاسيك وبوسكريبيشيف ليحاولا إقناعه. لا فائدة. في اللوحات والصور كانوا «يعلّقون له» النجمة الثانية ووسام «النصر»، دون أن يكون قد استلمها فعلياً. فقط بعد مرور خمس سنوات، عاد «الزعيم» بنفسه للحديث عن الأوسمة أثناء عشاء في القصر الريفي. في ٢٨/٤/١٩٥٠ قام شفيرنيك بتسليم ستالين أوسمة عام ١٩٤٥، وكذلك وسام «لينين» بمناسبة يوبيله السبعيني.

أما المخرج من الوضع في عام ١٩٤٩، فكان كالتالي: «بمناسبة عيد الميلاد السبعين للرفيق ستالين، ونظراً لخدماته الاستثنائية في مجال توطيد الاتحاد السوفييتي وتطويره ومجال بناء الشيوعية في بلدنا... تقليد الرفيق ستالين... وسام «لينين»...»(٧٥).

أثناء استلامه للأوسمة من شفيرنيك لاحظ ستالين العابس:

ـ إنكم تكرمون عجوزاً... لكن ذلك لا يقوّي الصحة...

ذلك كان تعبيراً عن المخاوف التي بدأت تخالجه عشية بلوغه السبعين. فعندما كان ينوي الانطلاق من الكرملين إلى القصر الريفي قبل اليوبيل مساء، كاد أن يغمى عليه... أمسكه بوسكريبيشيف من ذراعه وهو يرتعد من الخوف:

ـ اسمحوا لي أن استدعي الأطباء... لا يجوز لكم السفر الآن... لا بد من طبيب...

ـ لا تتلبّك... ـ قال له ستالين وتأخر بضع دقائق لشرب الشاي بعد مرور الأزمة العابرة. قحفه يؤلمه، لكنه منع استدعاء أي طبيب. ليس فقط الأطباء مَن لا يصدقهم ستالين، بل إنه لم يعد يصدق بيريا الذي يشرف على «الإدارة الرابعة» (المؤسسة الطبية الخاصة بزعماء الكرملين ـ المترجم) في وزارة الصحة. كما إنه لا يريد انتشار النبأ حول مرضه.

إذن، قرر المكتب السياسي الاحتفال باليوبيل السبعيني لستالين على نطاق واسع، وتم تشكيل لجنة حكومية خاصة برئاسة شفيرنيك الذي وقّع بعد فترة على الوثيقة التالية:

«الموافقة على جدول النفقات الخاصة باستقبال وخدمة الوفود الزائرة بمناسبة عيد الميلاد السبعين للرفيق ستالين، وبتنظيم معرض «هدايا إلى الرفيق ستالين». المبلغ الإجمالي ٥٦٢٣٢٥٥ روبل، وفقاً للملحق...»(٧٦).

تكونت اللجنة من شخصيات بارزة عديدة، وتحدد الأشخاص الذين سيقومون باستقبال الهدايا، وظهرت قوائم بأسماء الوفود المدعوة إلى الاجتماع الاحتفالي المكرس لليوبيل.

لكن المفاجأة الطريفة كانت تنتظرهم. فقد قرر المقربون من «القائد» تأسيس «وسام ستالين» في هذه المناسبة، وأعدوا مشروع المرسوم التالي:

«تخليداً للذكرى السبعين لميلاد يوسف فيساريونوفيتش ستالين، ونظراً لخدماته الاستثنائية للشعب السوفييتي في مجال بناء وتوطيد الدولة السوفييتية، وبناء المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، وضمان الانتصارات التاريخية في الحرب الوطنية العظمى، يجري تأسيس «وسام ستالين»...

رئيس السوفييت الأعلى شفيرنيك
سكرتير السوفييت الأعلى غوركين
«كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩»

مع المشروع، هنالك مشروع مجسم الوسام ووصفه، وكذلك مرسوم حول إصدار ميدالية خاصة بمناسبة اليوبيل السبعيني لستالين، حسابات متحذلقة: كلفة الميدالية ستكون ٧,٦٤ روبل. وسيتطلب انتاج مليون منها تخصيص ٢٤ طناً من النحاس و ٦ أطنان من النيكل. هنا أيضاً مشروع مرسوم حول تأسيس جائزة «ستالين» في مجال «توطيد السلام بين الشعوب»[٧٧].

عُرض على ستالين ١٣ رسمة مختلفة تصوّر الوسام المقبل كي ينتقي من بينها: وسام على شاكلة وسام «لينين»، مع فارق أن الشخص المرسوم له شوارب شهيرة... وسام على شاكلة الأوسمة العتيقة: صورة «الزعيم» تلفّه الراية الحمراء... وسام يصوّره في زي المارشال بين باقتين من السنابل، إلخ... خيالهم ضعيف: ذهب وراية وشخص في الزي العسكري[٧٨]!

كان كل شيء جاهزاً لكي يظهر في البلد الوسام الرفيع. وكان ستالين قد أعلن الموافقة، لكنه أبدى عناداً في آخر لحظة:

ـ موافق فقط على تأسيس الجائزة العالمية... ـ ثم صمت قليلاً وأضاف ـ... أما مثل هذه الأسمة، فيتم تأسيسها بعد الموت... ـ ارتفع ضجيج الرفاق من حوله علامة الاحتجاج، فرفع يده مهدئاً:

ـ لكل شيء ميعاده!...

أظن أن الديكتاتور اعتبر أن تجاوز الحد المعقول في مجال تبجيله قد يؤدي إلى نتيجة معاكسة. ففي كل متر من البلد: ستالين، ستالين ـ صور في المجلات وفي الجرائد، وذكر اسمه عشرات المرات، تماثيل ومنحوتات، وأسماء الشوارع وتسميات المصانع والكولخوزات والمدن... ما الذي سيضاف بعد موته؟ طبعاً، لا شيء سوى

وسام. بالمناسبة، بعد موت ستالين، لم يتذكر أحد من أولئك المتحمسين في اللجنة رغبة ستالين بشأن الوسام!

في يوم اليوبيل صباحاً، نهض ستالين ـ كعادته ـ في الحادية عشرة. المزاج طبيعي. نوبة الأمس كانت الآن تبدو له حادثاً عابراً لا أهمية له. اليوم سيكون يوما مرهقاً. بعد التشريفات في المكتب السياسي مساءً كامل سيضطر فيه إلى سماع أمدوحات وتمجيدات لا نهاية لها. سيتسابق الجميع: من الذي سيبتكر أوصافاً جديدة ينسبها إليه، ومن سيضيء على نحو أفضل خدمات «الزعيم العظيم»؟! طيلة شهر كانون الأول (ديسمبر) ظلت جريدة الـ «برافدا» تنشر المقالات والتقارير والبلاغات حول استعداد البلد للعيد. كان ستالين يطالع الجرائد ويقرأ البلاغات: أكثر الرسائل تمجيداً كانت تأتي من معسكرات «غولاغ»: الناس ينفذون الخطة ويزيدون عليها أملاً في صدور عفو بهذه المناسبة! لا بأس أن الرسائل ليست صادرة عن السجناء، بل عن مدراء السجون والمعتقلات!

ستالين يتساءل: هل يعقل أن يكون انحناء الرُّكب هذا علامة حب تجاهه هو؟ ما هذا؟ هل هي لعبة الصدفة التاريخية؟ أم ضربة حظ خيالية؟ أم أنه فعلاً جوهرة نادرة؟ المهم أنه أربط جأشاً من الجميع. لا أحد يستطيع السير إلى الهدف بطموح كما يفعل هو!...

قبل ساعة من الاحتفال كان مسرح «بولشوي» مليئاً بالبشر. كلهم اختيروا و «غُربلوا» ووُزعوا في أماكن محددة داخل القاعة التي تعج بالزينة. قبل نصف ساعة من البدء جاء ستالين. غرفة الرئاسة مليئة بالناس الذين استقبلوه بعاصفة من التصفيق. ستالين يصافح بحرارة: بالميرو تولياتي، ماوتسي تونغ (بالمناسبة، المرة الوحيدة التي سافر فيها ماوتسي تونغ خارج بلده ـ المترجم)، والتر أولبريخت، دولوريس إيباروري، وآخرون من الشخصيات العالمية والرفاق السوفييت.

حين دخلت الرئاسة إلى مكان الاحتفال، بدت القاعة عاجزة عن الصمت. عاصفة من التصفيق حادة وطويلة. قبل يوم عرض عليه مالينكوف مخطط القاعة، فأدخل ستالين تعديلاً: لا يجب أن يكون «القائد» جالساً في المركز. معروف أنه في المؤتمرات والاجتماعات كان يجلس في الصف الثاني من الرئاسة، تأكيداً على تواضعه. الآن هذا غير وارد لأنه صاحب اليوبيل. طلب ستالين من مالينكوف إزاحة مكانه في الصف الأمامي نحو اليمين، مؤكداً ـ بقلم الرصاص ـ أن ماوتسي تونغ يجب أن يكون على يمينه وخروتشوف على يساره.

بعد كلمة قصيرة ألقاها شفيرنيك وقوطعت بالتصفيق مراراً ـ كلما ورد ذكر «الزعيم» ـ، بدأت الخطابات. وطوال المساء ظلت ترن في القاعة «أسماؤه الحسنى». «العبقري»، «المفكّر والزعيم العبقري»، «المعلّم العبقري»، «القائد العسكري العبقري»... ماوتسي تونغ هو الوحيد الذي سماه «العظيم». هل كان ذلك ينطوي على مغزى خفيّ؟

خطب ممثلو الجمهوريات الاتحادية والأحزاب الشيوعية والعمالية وممثلو الشبيبة وممثلو المنظمات الإبداعية ـ تعبير مكثف عن «محبة الشعوب» تجاهه. في التصوير

السينمائي يبدو التعب واضحاً على بيريا وفوروشيلوف ومولوتوف وميكويان، وهذا مفهوم: عدد لا يحصى من أفعال الوقوف والتصفيق ثم الجلوس... لو أن ستالين قرأ حوارات أفلاطون، عندئذ فقط كان سيؤمن (في ذلك المساء) أنه أفلح فعلاً في تحقيق الحلم الأبدي للبشرية: تأسيس «الدولة المثالية» الخالية من أهم مبدأ هدّام، ألا وهو صراع الفقر والغنى(٧٩).

قبل فترة صادق ستالين على اقتراح من وزير الداخلية كروغلوف:

«في معسكرات الاعتقال التابعة لوزارة الداخلية يوجد حالياً، برفقة الأمهات السجينات، ١٤١٧٠ طفلاً دون سن الرابعة و ٧٢٢٠ امرأة حاملاً. عدد الأطفال هذا يزيد ثلاثة أضعاف عن الحد الأقصى لطاقة «بيوت الرضع» الموجودة في المعسكرات. لذلك اقترح اطلاق سراح النساء واستبدال عقوبة السجن لهن بالعمل القسري في مكان الإقامة...»(٨٠).

لماذا يبقى الغرب يردد اختلاقات تروتسكي حول قسوته؟!

ها هو يرتد إلى الخلف في كرسيه، مستمعاً. عبء المجد يتعب «القائد»، لكن هيهات أن يستطيع التخلي عنه! إنه ينتعش حين يخرج خطيب ما لتمجيده شعراً. «ياكوف كولوس»، من بيلوروسيا، يقرأ قصيدة طويلة نظم فيها سيرة ستالين شعراً، وختمها بالأبيات التالية:

«أنت راية النصر، أنت رمز الحرية!
أنت تقود الشعوب إلى السعادة،
فعِش يا معلمنا سنوات مديدة!
تمجدك الشعوب في أغانيها،
يا أبانا وقائدنا العظيم!»

ستالين يستمع ويفكر: كم أحسن الفعل حين رفض اقتراحاً من مالينكوف ومجموعة أدباء سوفييت حول نشر أشعاره أيام الشباب، أشعار يوسف دجوغاشفيلي... هذه نزوات عابرة لا تليق بزعيم!

عاصفة من التصفيق بعد قصيدة تفاردوفسكي:

«لياتِ ربيع بعد ربيع وربيع، رتلاً طويلاً.
ليحمل الشجر أوراقاً بعد أوراق،
ليرمِ الربيعُ الزهورَ بعد الزهور،
على شيبتك المجيدة،
وعلى حياتك، أغلى حياة في العالم!»

أظن أن تفاردوفسكي كان صادقاً في كلماته. وهي تعبير عن «عمانا الجماعي» وإيماننا بالأصنام بدلاً من المثل العليا. ودرجة هذا التمجيد تساوي تماماً درجة إذلال الشعب.

«كمبيوتر» الذاكرة لدى ستالين يخزن التعابير التي تقال. ماوتسي تونغ: «زعيم الطبقة العاملة في كل العالم»، بالميرو تولياتي: «نقطع على أنفسنا عهداً أن نبقى أوفياء لعقيدتكم»، كيم دوبون: «عاش ستّالين العظيم، منقذ الشعب الكوري»، هنري مارتيك: «أنت منظّر عبقري وثوري عظيم»،... وانتعشت القاعة حين قدّم له فيلكو تشيرفينكوف رسالة شكر عليها تواقيع خمسة ملايين من مواطني بلغاريا (! ـ هذا تقريباً عدد جميع السكان البالغين في البلد، باستثناء الأمّيين).

في اليوم التالي كان «القائد» ذاهباً إلى مأدبة العشاء بعد أن اطلع على مزيد من آيات التمجيد في الصحف. قبل الخروج من المكتب، التفت ستالين إلى معاونة بوسكريبيشيف:

ـ من الذي هداك لتكتب عن الحمضيات في الجريدة؟

لم يكن المعاون ينتظر هذا السؤال، فارتبك وأجاب بسرعة:

ـ سوسلوف ومالينكوف نصحاني بذلك. في قسم الدعاية قرأ المقالة سوسلوف بنفسه...

أنهى ستالين الحديث لأنه بحاجة إلى مزيد من القوة هذا المساء. فمن جديد ستكون هناك خطابات وأنخاب. أما سؤاله لـ بوسكريبيشيف، فكان يتعلق بمقالة هذا الأخير في جريدة الـ «برافدا» بعنوان «الأب الحبيب والمعلّم العظيم». تقول إحدى الفقرات فيها أن ستالين لم يساعد فقط أنصار ميتشورين على تحطيم مذهب فيسمان ومورغان في علم النبات، بل وبيّن كيف يجب استخدام المناهج العلمية التقدمية في الممارسة العملية: «إن الرفيق ستالين ظل، على مدى سنوات عديدة، يعمل على دراسة زراعة أشجار الحمضيات في منطقة ساحل البحر الأسود»... وبيّن أنه «عالم مبدع مجدد»... ثم «يمكن إيراد الكثير من الأمثلة الأخرى على العمل التجديدي للرفيق ستالين في مجال الزراعة. من المعروف، مثلاً، الدور الحاسم للرفيق ستالين في تربية أشجار الأكاليبتوس (أشجار الكينا) على شاطىء البحر الأسود، وفي مجال زراعة الخضروات في ضواحي موسكو، وفي نشر زراعة القمح المتفرع».

كان معرض «هدايا إلى الرفيق ستالين» مهيباً يتضمن ـ إلى جانب الهدايا الواردة بمناسبة اليوبيل ـ هدايا سابقة أيضاً... رايات ورايات... ومئات اللوحات: زيتية، ومائية، وزخرفية...

ستالين ينظر إلى وجهه مصوراً بأشكال لا حصر لها، ولا يحس أنه يوجد في عالم خيالي، مقلوب ولا عقلاني، بل يعتبر هذا العمى الجماعي اعترافاً بعبقريته. وكما يجدر بالإله الأرضي، كان ستالين يمرّ عبر المعرض من قاعة إلى قاعة، بلا عجل، ناقلاً جسده الشائخ ـ أخيراً ـ نحو السيارة الفارهة، ليختفي بعد حين خلف السور المسنن للكرملين.

نعم، لقد كان كارل كاوتسكي ـ الناقد العتيق للحركة البلشفية ـ على حق بخصوص شخصية ستالين، حين قال متسائلاً بسخرية (منذ عام ١٩٣١، أي عند بداية

تشييد الديكتاتورية الستالينية): «ما الذي يبقى على ستالين أن يفعله بعد، لكي يصل إلى مرتبة البونابارتية؟ هل تعتقدون أن عليه بعد أن يلجأ إلى تتويج نفسه ملكاً؟»[٨١]. بلى، إن البيروقراطية التوتاليتارية في حاجة ماسة، إن لم يكن إلى امبراطور، فإلى «قنصل أول» (لقب حاكم الامبراطورية الرومانية قبل تسمية يوليوس قيصر امبراطوراً ـ المترجم)، على الأقل. والنظام البيروقراطي، بديمقراطية شكلية على الواجهة، لا يستطيع العيش دون شخصية سياسية من الطراز الاستبدادي.

بعد البوبيل بدأت صحته تتراجع: ارتفاع الضغط طوال الوقت. لكنه يرفض الذهاب إلى الأطباء، لأنه لا يثق بهم. كان يستمع إلى نصائح الأكاديمي فينوغرادوف، قبل أو يوحي بيريا لـ «الزعيم» أن هذا الأكاديمي العجوز مشكوك في أمره، مقترحاً أطباء آخرين، فرفض ستالين. بعد فترة ترك التدخين، لكنه استمر على نمط من الحياة ليس صحيحاً: ينهض متأخراً ويعمل ليلاً. رغم ارتفاع الضغط يستحم في الحمام البخاري (عادته منذ أيام المنفى القيصري في سيبيريا)، ويشرب النبيذ الجيورجي العطر، ويتجنب الأدوية.

تلك هي «قسمة» الديكتاتور ـ دائماً هنالك أُناس حوله بكثرة، لكنه وحيد. فالمستبدّ يحرم نفسه بنفسه من العلاقات الإنسانية الطبيعية. الآن، مع المجيء المفاجيء للشيخوخة، أصبح ستالين يعود بأفكاره إلى الماضي، وتلك هي اللذة الوحيدة المتاحة للجميع في سن الشيخوخة، بمن فيهم الطغاة.

لم يعد بوسعه أن يمارس سلطته. آن أوان الذكريات فقط: لقد حصل على كل ما يمكن، لكنه يقترب أكثر فأكثر من ذلك التخم الذي لا عودة بعده ـ حتى بالنسبة للزعماء.

هل أدرك في نهاية الحياة أنه، بانتصاره على الجميع، قد خسر؟ هل كان يخشى أن انتصاره الشخصي سينبذه التاريخ؟ أو هل كانت ظلال الآلاف من رفاقه وأصدقائه الذين أرسلهم إلى الموت بنفسه تلامس أوتار الضمير المخبأ بعيداً في أعماق روحه؟ ما الذي يراه الآن وهو ينظر بعينين دامعتين (من الوهج) إلى الجمر في الموقد الشتائي داخل المبنى الجديد الذي بني له في القصر الريفي إلى جانب المبنى القديم؟ لا أصدق أنه كان قادراً أن يتأسف على شيء. ربما كان يحبطه فقط كون الزمن لا يرحم،... الزمن الذي لا شفقة فيه لا للجلاد ولا للضحية، اللهم باستثناء المكانة: واحد يستحق الاحتقار الأبدي، والآخر ينال طوبى المعذبين.

كإلهٍ أرضي، التفت حوله في «اليوم السابع للخلق». كان بوسع ستالين أن يقول: لقد بلغت كل شيء: أسستُ دولة جبارة، وجعلتُ شعباً عظيماً يطيعني، وهزمتُ كل أعدائي، وحظيتُ بمحبة صادقة من ملايين الناس. لكن، لماذا لا تفارقه الكآبة؟ هل لأن الثورة العالمية لم تنجح معه؟ أم أنه اقتنع أن التجارب الاجتماعية الدموية عجزت ـ في آخر المطاف ـ عن تقديم بديل لائق للاقتصاد الحر؟ أم أنه رأى فشل أفكاره القائمة على العنف؟ لا أظن. هذا ليس من شيم ستالين. كل ما في الأمر أنه كان يخشى الموت، كما ظل طوال حياته يخشى الاغتيالات والمؤامرات والتخريب. كان يخشى أن كل شروره ستنكشف بعد الموت. كان يخشى على صنع يديه، ذلك العالم الذي أقامه

والذي سيتغير بعده، فلا يبقى له مكان فيه. كان خروتشوف يتذكر أن ستالين ـ في السنين الأخيرة من حياته ـ كان يردد لهم: «ماذا ستفعلون بعدي؟ سوف تضيعون مثل جِراء القطط!». وهذا صحيح: لم يدم عالمه ونظامه وعبادته، وكذلك بطانته، سوى زمن قصير بعد موته.

كان الديكتاتور في شيخوخته يخاف... كتبت ابنة ستالين، وهي ترسم الصورة النفسية لأبيها، أنه حين راح يسير إلى نهايته كان يبدو مهدماً من الداخل، و «نسي كل أشكال التعلق الإنساني، وصار يعذبه الخوف الذي تحوّل في سنوات حياته الأخيرة إلى هوس حقيقي يلاحقه، فانهارت في آخر المطاف أعصابه القوية. لكن الهوس عنده لم يكن وليد خيال مريض: كان يدري ويفهم أن الناس يكرهونه، ويعرف لماذا يكرهونه...»[٨٢].

في الماضي كان بالكاد يتذكر أولاده. لم يكن لديه وقت لذلك. ولم يكن يعرفهم بشكل حقيقي. بعد موت الابن الأكبر ياكوف، ذهب عن ستالين الحنق الدائم الذي كان يخالجه حين يسمع هذا الاسم. ولم يكن بوسعه الحديث مع فاسيلي (الابن الثاني). لم يكن الناس يبلغونه بكل شيء، لكنه يعرف أن ابنه باقٍ في الخدمة بفضل كنيته فقط وبفضل «الأصدقاء» الذين اخترعوا لأجل الجنرال فاسيلي ستالين منصب «معاون قائد القوى الجوية في منطقة موسكو العسكرية». لاحظ الأب أن الناس يرفعون ابنه لأجل إرضائه هو، لكنه لم يعد يبالي: افعلوا ما تشاؤون. هكذا أجاب بولغانين، حين اقترح الأخير تعيين فاسيلي قائداً للقوى الجوية في نفس المنطقة العسكرية. لو أنه يملك القدرة على انتقاد الذات، لكان قال لنفسه: لم أُوفَّق بأولادي...، لكنه كان يدعو إلى انتقاد الآخرين فقط لذاتهم[٨٣].

ابنته تنقّلت من زوج إلى زوج، حتى تركت آخرهم، فرتب أبوها الأمور كي تستلم شقة، وتركها لشأنها. كانت تزوره أحياناً لتسمع تذمر الأب العجوز ولتحصل على بعض النقود. كان يعطيها من راتبه كنائب في السوفييت الأعلى، وهو الذي لا يعرف ما تعنيه النقود: كان ستالين يعيش على حساب الدولة، طبعاً، ومضى ربع قرن من حياته دون أن ينفق روبلاً واحداً مباشرة. فهو لا يذهب إلى حانوت، ولا يعرف كيف يعيش الناس برواتبهم التي لا تسد حاجة الشهر...

الشيوخ يحبون أحفادهم، ويمنحونهم ما لم يمنحوه من حب لأولادهم. ستالين لم يكن يريد رؤية أحفاده، لا بل ولا يعرف سوى نصفهم. كانت المشاعر البشرية (شعور الابن أو الاب أو الجد) مجهولة لديه. الديكتاتور يصبح ديكتاتوراً، ليس فقط لأنه يكسب أشياء كثيرة، بل ولأنه يفقد الكثير أيضاً. يبدو أن حب السلطة طغى عند ستالين على تعلّقه بأمه. تتذكر ابنته سفيتلانا أليلوييفا أن أباها لم يكن يولي اهتماماً لأمه التي عاشت حتى بلغ مجد ابنها شأواً عظيماً، لكنها قالت لابنها في آخر لقاء:

ـ يؤسفني أنك لم تصبح كاهناً يا يوسف!

ليس بوسع المرء هنا إلا أن يوافق أمه على هذا الكلام.

عند أفول العمر أصبح ستالين أكثر نزقاً وهياجاً. المحيطون به (وابنته) يتذكرون: أحياناً كان يقذف الجدار بجهاز الهاتف ويشتم معاونه أو جليسه بألفاظ قذرة. في كتابها «عام واحد فقط»، تقول ابنته أن ستالين، حين كان يرسل الناس إلى الموت، كان يشيح بوجهه عنهم وينساهم: «الكثيرون يتخيلون أن الأصح تصويره كعفريت فظ ظاهرياً، أما الحقيقة فهي أنه كان عفريتاً من الداخل، روحياً وأخلاقياً، وهذا أفظع بكثير...»(٨٤).

لم يلاحظ ستالين قط أن الإنسان أو الجمهور أصبح لديه مجرد **وسيلة** لإحراز «الهدف العظيم»، الذي كان يراه على نحو مخالف لما رآه مؤسسو الماركسية. الهدف ـ الفكرة ـ المثل الأعلى هو كل شيء، ولأجل بلوغه كل شيء يجوز. حول هذه الراديكالية الثورية اللاعقلانية في روسيا، يقول المفكر الروسي سيرغي بولغاكوف: «إنها تقفز قفزة تاريخية في الخيال، ولا يقلقها طريق القفزة، فهي تثبّت بصرها فقط على نقطة مضيئة تقع عند حافة الأفق التاريخي. إن هذا التطرف يتميز بسمات الهوس الفكري والتنويم المغناطيسي الذاتي، فيقيّد الفكر ويولّد التعصب **الأصم تجاه صوت الحياة**».. ثم يقول بولغاكوف على لسان المتطرف: «أنا أحقق فكرتي، ومن أجلها أحرر نفسي من كل قيود الأخلاق العادية. أنا أعطي نفسي حقاً، ليس فقط في أملاك الآخرين، بل وكذلك في أرواحهم وموتهم، حين يكون ذلك ضرورياً لفكرتي. داخل كل متطرف يجلس نابليون صغير يرفع راية الاشتراكية أو الفوضوية أو...»(٨٥).

لكن الجالس داخل ستالين لم يكن مجرد «نابليون صغير». كان ذلك واحداً من أعظم القياصرة، أصبحت الميكيافيلية لديه ـ منذ زمن بعيد ـ جزءاً لا يتجزأ من تفكيره وأعماله. لم يكن بوسعه إلا أن يرى ـ رغم ما امتلكه من حق «في أرواح وموت الآخرين» ـ أنه لم ينجز الكثير مما فكر به. كان التوجس المرعب يدخل إلى نفسه، فيلجأ ـ على عادته ـ إلى الهروب للانغماس في غمرة شؤون الدولة. والشؤون تلك كانت معقدة، داخل البلد وخارجه. لقد بقي طابع خضوره ممهوراً على العديد من الأحداث العالمية في تلك الأيام.

الرياح الجليدية

نطلُّ من أعالي العقود المنصرمة على تلك السنوات الثماني، التي قيِّض لستالين أن يعيشها بعد النصر في الحرب الوطنية العظمى، ونرى أنها كانت سنوات غير عادية إلى حد بالغ. فعلى الصعيد الداخلي في البلد، كانت تعبئة شديدة للطاقات البشرية قد بدأت من جديد لإنهاض الدولة وزيادة جبروتها. أما على الصعيد الدولي، فتميزت تلك السنوات باشتداد في هبوب الرياح الباردة.

أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قائلاً: «لقد خرجنا من هذه الحرب بمثابة أقوى دولة في العالم، أو لربما، أقوى دولة على مرّ التاريخ البشري». ولم تستطع الولايات المتحدة ـ الدولة التي انفردت بامتلاك أفظع سلاح للدمار الشامل آنذاك ـ أن تردع نفسها عن إغراء الحصول على أقصى فائدة ممكنة من ذلك الوضع. في عام

١٩٤٦، ألقى ستالين أمام اجتماع انتخابي خطاباً هادئاً، لا بل سلمياً، لكن الغرب وجد فيه نداء للتحدي. ربما لأن ذلك التحدي كان، بكل بساطة، ضرورياً جداً للكثيرين من الناس على الجانب الآخر من المحيط الهادئ. في الواقع، كانت الولايات المتحدة تطمح إلى قيادة العالم، ودرجت «الموضة» هناك على تعابير أشد لهجة، مثل القول بضرورة «تكوين العالم على صورة وشاكلة الولايات المتحدة».

ليلة ١٩٤٦/٣/٦، حين كان ستالين يهم بالانطلاق نحو القصر الريفي، دخل بوسكريبيشيف إلى المكتب مسرعاً، ووضع على الطاولة أمام الجنراليسيموس برقية تم استلامها للتو. جلس ستالين من جديد إلى الطاولة وغرق في القراءة. السفارة السوفييتية في واشنطن تقول: انعقد في فلوتون لقاء عادي مع تشرتشل، حضره ترومان (وهو من ولاية ميسوري ذاتها بالأصل)، وألقى فيه رئيس الوزراء البريطاني السابق خطاباً عدوانياً إلى أقصى حد.

ستالين، الذي التقى بتشرتشل أربع مرات، وقدّر عالياً العقل الموسوعي لهذا الرجل، لم يمنحه الثقة قط. وبالرغم من هذا، أصابته دهشة شديدة لقساوة التعابير التي استخدمها تشرتشل. صحيح أن تشرتشل ـ في بداية الخطاب ـ قال كلام إطراء بحق ستالين: «إنني لمعجب وأقدّر عالياً الشعب الروسي البطل ورفيقي في السلاح المارشال ستالين»، لكنه يحذر بعد ذلك: إن «الخطر الأحمر» يحيق بالديمقراطيات الغربية. لكن، الحمد لله لأن الولايات المتحدة الآن تقف «على ذروة الجبروت العالمي»، مما يعطي الأمل بإمكانية الاحتماء من «نوايا الشخصيات سيئة النية، ومن الروح العدوانية للأمم القوية». وأعلن تشرتشل أمام كل العالم أن «من شتيتين على شاطئ بحر البلطيق حتى تريستا على شاطئ بحر الأدرياتيك هبط ستار حديدي فوق القارة الأوروبية». في هذه النقطة، كان رئيس الوزراء السابق محقاً: بعد الحرب مباشرة، اتخذ ستالين سلسلة من الخطوات النشيطة بهدف التقليص من أي علاقات مع الغرب وباقي العالم. فعلاً، كان قد هبط الستار «حديدياً» اعتبرناه أم «إيديولوجياً». واحد من أعضاء «الثلاثي الكبير» ظل على الدوام يخشى من تأثير «الديمقراطيات العفنة»: خلال سنين طويلة ظل الناس في الاتحاد السوفييتي يستطيعون أن يعرفوا عن الغرب فقط ما يراه ضرورياً أناس من نوعية ميخائيل سوسلوف. وراحت الهوة الإعلامية بين العالمين تفقر العقول وتقوّض الروابط بين الثقافات العالمية. فاشتد الفقر الروحي لدى الجميع...

لكن تشرتشل في خطابه لم يكتفِ بهذا الحد، بل حذر قائلاً: «على مبعدة من الحدود الروسية... هناك الطابور الخامس، الشيوعي، الذي يمارس عمله... إنه يشكل خطراً متنامياً على الحضارة المسيحية». الأرجح، أن البريطاني العظيم كان يبالغ هنا... فحتى هو وقع أسير الهوس بالجاسوسية وحملات «صيد العفاريت». كان الرئيس الأمريكي واضح التعاطف مع أفكار ضيفه الذي دعا إلى الدفاع في كل العالم عن «المبادئ العظيمة للحرية وحقوق الإنسان، تلك الحقوق التي تشكل تراثاً تاريخياً مشتركاً لكل العالم الناطق بالإنكليزية».

أزاح ستالين الأوراق وراح ينظر بعينين لا يرف جفنهما، إلى ليل آذار (مارس)

وراء النافذة. كان الربيع قد بدأ بوجل هذه السنة، مما يجعل الصقيع عند المساء يمسك بالأشياء من جديد. خطاب تشرتشل هو إشارة وتحدٍّ في آن واحد. اقترب «الزعيم» من الهاتف واتصل مع مولوتوف. مولوتوف كان في مكتبه. عموماً، اعتاد أعضاء المكتب السياسي في الكرملين أن يراقبوا المخارج حتى يغادر ستالين، وفقط بعد ذلك يذهبون إلى بيوتهم.

حين جاء مولوتوف، بدأ حديث بين «مهندسَيْ» السياسية الخارجية للبلد، ودام حوالى ساعة كاملة. لم يكن ستالين ومولوتوف يعرفان أن خطاب تشرتشل في فلوتون قد سبقته «برقية طويلة» من القائم بالأعمال في السفارة الأمريكية بموسكو، كينان، الذي حوّر مضمون الخطاب الذي ألقاه ستالين في شباط (فبراير)، فأكد لقيادته أن القادة السوفييت يعتبرون الحرب العالمية الثالثة أمراً حتمياً[٨٦]. القادة السوفييت، بدورهم، رأوا ـ وهم الذين يعيشون صراعاً دائماً ـ أن التحدي الغربي الصريح هو من طبيعة الأشياء. لا تشرتشل ولا ترومان ولا ستالين، كان بوسعهم يومذاك الارتفاع إلى مستوى الإدارك الراجح ورؤية أن محاولات بناء «النظام الجديد» على أساس من رعب الإبادة المتداولة هي محاولات لا جدوى منها. لقد كان أولئك الرجال نَتاج زمانهم. وضع ستالين هو الأصعب: الولايات المتحدة تمتلك القنبلة الذرية، وهذا يجعلها أقوى من الاتحاد السوفييتي بما لا يقاس. يكفي القول أن الطاقة الصناعية للولايات المتحدة قد ازدادت خلال سنوات الحرب بنسبة ٥٠٪، وأصبح انتاجها للمكائن أكبر بأربعة أضعاف، أما إنتاجها لوسائل المواصلات فأكبر بسبعة أضعاف. والإنتاج الزراعي ازداد هو الآخر بنسبة ٦٠٪.

على نقيض من ذلك، كان الوضع في الاتحاد السوفييتي: آلاف النقاط الآهلة بالسكان تحولت إلى أنقاض، وسوء الموسم في عام ١٩٤٦ عمّق الأزمة. معظم الجزء الغربي من البلد كان يعيش أيام الاحتلال في لهيب حرب الأنصار، التي تشبه حريقاً في أراضي المستنقع: النار تنزل إلى الأعماق وتبقى هناك بانتظار هبة ريح. فما أن انتهى الاحتلال حتى راحت المجموعات المسلحة في أوكرانيا الغربية ومنطقة البلطيق (لتوانيا خصوصاً) تشن حرباً ضد السلطة السوفييتية. واستمرت حرب العصابات خمس سنوات (في أوكرانيا الغربية خصوصاً) رغم كل أوامر ستالين إلى بيريا. إليكم نتائج الصراع في شهر آذار (مارس)، شهر الخطاب الذي ألقاه تشرتشل.

«إلى الرفيق ستالين ١٩٤٦/٤/١٢

خلال شهر آذار (مارس) من عام ١٩٤٦، تم القضاء، في مناطق أوكرانيا الغربية، على ٨٣٦٠ من رجال العصابات بين قتلى وأسرى وأناس سلّموا أنفسهم، كما تم الاستيلاء على ٢٠ مدفعاً رشاشاً و ٧١٢ رشاشاً و ٢٠٢ بندقية و ٦٠٠ مسدس و ١٧٦٦ قنبلة يدوية، ٤ آلات طباعة و ٣٣ آلة كاتبة... أُلقي القبض على المرشد المحلي لتنظيم القوميين الأوكرانيين فيدوروك، وسكرتير التنظيم غورين، ونائب المسؤول المحلي فارفاريفيتش، ورئيس اتصالاتهم في منطقة كرافتشوك. عدد القتلى بين العاملين في الحزب والمؤسسات السوفييتية وضباط وجنود وزارتَيْ الداخلية والأمن والجيش الأحمر هو أكثر من ٢٠٠ شخص.

في لتوانيا أبيد ١٤٥ من رجال العصابات واستسلم ٧٥ شخصاً وألقي القبض على ١٥٠٠. تم الاستيلاء على ٤٤ مدفعاً رشاشاً و ٢٨٩ بندقية و ١٢٢ مسدساً و ١٨٢ قنبلة يدوية و ١٢ آلة للنسخ. تم القضاء على عصابات يوديوبكيس ونوريكيس وغيرهما... عدد القتلى من النشطاء الحزبين ووزارتي الداخلية والأمن والجيش الأحمر هو ٢١٥ إنسان...»[٨٧]. تلك فقرات فقط من تقرير وزير الداخلية كروغلوف.

الصعوبات في البلد على كل صعيد، وهاك الآن هذا التحدي السافر من قبل الغرب! في هيئة الأمم المتحدة، فُرضتْ عزلة صارمة حول الاتحاد السوفييتي. من حسن الحظ أن هنالك حق الفيتو في مجلس الأمن. ستالين يشعر أن مجابهة صعبة ومريرة، غير متكافئة، قد بدأت للتو. ولم يكن يفكر بالتنازل إطلاقاً: سيحوّل البلد إلى قلعة. لقد اعتبر ستالين أن «دوكترين ترومان» (مذهب ترومان) المناهض للشيوعية، الذي تم إعلانه، يجعل من المستحيل القبول بـ «خطة مارشال». كان الاتحاد السوفييتي على أشد الحاجة للمساعدة الاقتصادية، وربما كان يمكن الحصول عليها، لكن مقابل ثمن واضح هو قبول السيطرة الفعلية على الاقتصاد السوفييتي. على لسان مولوتوف في مؤتمر باريس (٢٧/٦ - ٢/٧/١٩٤٧) قال ستالين «نيت» (كلا!) (منذ تلك الأيام درجت الصحافة الغربية على نعت الدبلوماسيين السوفييت بلقب «مستر نيت»، السيد كلا. - المترجم). يبدو أن «الزعيم» أصاب في تحديد الأهداف الحقيقية من تلك الخطة، لأن ترومان سيقول لاحقاً في مذكراته وبصراحة: «لقد طرح مارشال من خلال خطته هدف تحرير أوروبا من العبودية التي كانت الشيوعية الروسية تهيؤها لها»[٨٨]. باختصار، بدأت «حرب باردة» طويلة الأمد.

تقول المحلّلة السياسية الفرنسية ليلى ماركو في كتابها «الحرب الباردة» إن عشر سنوات كاملة، بعد عام ١٩٤٦، كانت سنوات «تصعيد التوتر الذي راح لولبه يتسع مثل حمم بركانية تهوي إلى تحت، سائلة وفق منطقها الداخلي، الذي لا يعترف بالعقل الراجح»[٨٩]. المنطق الذي سالت بموجبه حمم الحرب الباردة كان يجعل ستالين يرى المخرج فقط في كسر الاحتكار الأمريكي للأسلحة الذرية. دفع الاتحاد السوفييتي ثمناً باهظاً من من حيث توتر الجهود لكي يضاعف انتاج الفولاذ والفحم والإسمنت قبيل عام ١٩٥٢ (بالمقارنة مع مستوى ما قبل الحرب) ولكي يزيد من انتاج النفط والطاقة الكهربائية. أصر ستالين، كما في السابق، على النظر إلى الترجيح المطلق للصناعة الثقيلة على أنه «قانون ثابت» في تطوير الاشتراكية. وأسفرت الجهود الفائقة، المبذولة في الصناعة الثقيلة وفي المجال العلمي، عن تهيئة المقدمات اللازمة لاختراق في المجال الذري أيضاً. كان ستالين يتلقى تقارير أسبوعية من بيريا حول سير الأمور في ساحات الأعمال السرية الموكلة إليه.

كان يوجد، بالأصل، مدرسة علمية جيدة، حيث أن أبحاث يوفيه وكورتشاتوف وفليروف ولانداو سمحت منذ ما قبل الحرب ببناء أول مفاعل لليورانيوم، لكن العمل توقف. في عام ١٩٤٢ استؤنف العمل على نطاق واسع تحت قيادة كورتشاتوف، وكان ستالين يستعجل ويستعجل... حتى أنه أمر بعدم التقتير في الأموال اللازمة لتسريع البرنامج الذري. هنالك جملة من الوثائق في أرشيف ستالين تدل على السير الدراماتيكي لـ «السباق» النووي، حيث كانت المهمة هي اللحاق بالأمريكيين. مثلاً:

«بتكليف من اللجنة الخاصة لدى مجلس الوزراء، قمنا ميدانياً، خلال الثلث الأول من شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٤٦ بتفتيش على أعمال بناء «المواقع الخاصة» بـ كورتشاتوف وكيكوين...»[٩٠]... ثم يضيف التقرير أنه تم اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتسريع أعمال البناء وإيصال عدد العاملين هناك إلى ٣٧٠٠٠ إنسان. وقع على التقرير: كروغلوف، بيرفوخين، كورتشاتوف.

في الفترة ذاتها قدّم كروغلوف وزافينياغين تقريراً إلى ستالين وبيريا: لأجل تسريع الأبحاث في مجال الإنشطار الذري الفعّال تم اجتذاب الأخصائيين السجناء (فترات سجنهم عشر سنوات فما فوق): س. فوزنيسينسكي، تيموفييف ـ ريسوفسكي، تسارابكين، فيشمان، كيريان، بوبوف، تكاتشيف، غوريونوف، باشيلوف وآخرين»[٩١].

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦، أجرى العلماء السوفييت أول تفاعل تسلسلي. وشغّلوا في السنة التالية مفاعلاً ذرياً جديداً، مما جعل مولوتوف في عام ١٩٤٧ يعلن رسمياً أن سر القنبلة الذرية لم يعد قائماً. في صيف ١٩٤٩، أجري التجريب الأول للقنبلة الذرية السوفييتية، وفي عام ١٩٥٣ جرّب العلماء السوفييت أول قنبلة نووية. كل نشاط ستالين كان مكرساً الآن لزيادة الجبروت الاقتصادي والعسكري للبلد، فالطريقة الوحيدة لدعم مجد الديكتاتور كان توطيد عظمة الدولة وجبروتها. ولقد تم تشغيل جزء كبير من معسكرات «غولاغ» للسجناء من أجل انجاز الأعمال الخاصة بالدفاع، حيث كان العديد من الوزراء يبدأون نشاطهم في انجاز أعمال ذات علاقة بالطاقة الدفاعية من الخطوة «الأولى»، أي من طلب اليد العاملة التي تخضع لإشراف بيريا:

«إلى الرفيق بيريا.

نظراً للضرورة القصوى في بناء قاعدة للأبحاث العلمية في الشرق، أرجو صدور توجيه منكم إلى وزير الداخلية كروغلوف حول تأسيس معسكر في موقع بناء الفرع التابع لمعهد «تساغي» المركزي، من عداد السجناء الموقوفين في معتقلات سيبيريا (ألف إنسان).

١٩٤٦/٧/٢٣

خرونيتشيف»[٩٢]

أو، هكذا، بكل صراحة سافرة:

«إلى الرفيق بيريا.

من أجل البدء بأعمال البناء، أرجو تنظيم معسكر إضافي (٥٠٠٠ إنسان) وتخصيص ٣٠ ألف متر من القماش المشمع لخياطة الخيم وكذلك ٥٠ طناً من الأسلاك الشائكة.

١٩٤٧/٣/٢٢

زاديميدكو»[٩٣]

مهما كان موقفنا من هذه الممارسة ومن ستالين، يجدر بنا التأكيد. بكل ما أوتي

من إرادة لا ترحم، وعبر جهود تفوق كل خيال ـ بذلها الناس السوفييت ـ، وعبر تضحيات مادية وبشرية هائلة، أحرز الديكتاتور قفزة كانت تبدو مستحيلة، فقضى على الاحتكار الأمريكي للسلاح الذريّ. هكذا أُرسي أساس التكافؤ الاستراتيجي.

كان عقل ستالين، كما عقول خصومه خلف المحيط، يفكر فقط ضمن إحداثيات «الأسود» و«الأحمر»، على مستوى الصراع الدائم والتنافس. فرغم ضعفه مقابل الخصم على صعيد الأكثرية الساحقة من المعايير، كان ينظر بعين التفاؤل إلى الخاتمة النهائية لتلك المجابهة.

بقصد الزيادة من فرص النجاح في الصراع الذي بدأ، اعتبر ستالين أن من الضروري تحفيز الحركة الجماهيرية الناشئة من أجل السلام ومناهضة الحرب، وكذلك تنشيط الأعمال المعادية للإمبريالية من قبل كافة الفصائل في الحركة العمالية والشيوعية العالمية. بعد نقاشات طويلة مع مولوتوف وجدانوف لجأ ستالين إلى خطوة، كان من الواضح سلفاً أنها ستستدعي موقفاً سلبيا في الغرب. فأسس هيئة لتنسيق النشاط بين الأحزاب الشيوعية، للعمل في ظروف احتداد المجابهة بين الشرق والغرب. واعتبرت العواصم الأوروبية والعواصم التي وراء المحيط أن تلك الخطوة هي بمثابة قبول لنداء التحدي في «الحرب الباردة».

لم ينسَ ستالين تردده الطويل قبل اتخاذ القرار بحل الكومنتيرن (بعد ٢٤ عاماً من وجوده). كان البعض قد نصحه بالإقدام على ذلك منذ بداية الحرب، لكنه وجد في نفسه من الحكمة ليدرك أن خطوة من هذا النوع ستُعتبر علامة ضعف أمام الفاشية والحلفاء، بعدئذ، اختار ستالين اللحظة المناسبة، ربيع عام ١٩٤٣، حين كان قد سُجِّل لحساب الاتحاد السوفييتي انتصاره في ستالينغراد. وكان الزعيم السوفييتي، المشغول بالحرب، يأمل أن تلك الخطوة سوف تلقى الآن تقديرا لائقاً لدى الولايات المتحدة وبريطانيا، فتدفعهما إلى فتح الجبهة الثانية. آنذاك كان ستالين يرى جيداً أن الكومنتيرن يتحدث «لغة السوفييت» منذ زمن، وأن التخلي عنه يجلب مكاسب أكثر من الخسائر. أما الآن، فما هي تصوراته؟ ما هي دوافعه لتأسيس مركز عالمي جديد للحركة الشيوعية؟

حين نشأت الأممية الشوعية(الكومنتيرن)، كان قادتُها يؤمنون باقتراب الثورة العالمية، خصوصاً لينين وتروتسكي وزينوفييف. لكن حين همد السيل الثوري وتعرّت الأسس المتينة للعالم القديم، ظهرت بجلاء طاقته الحياتية العالمية واتضح أن الكومنتيرن سيكتفي بدور محدود ـ بعد استقرار النظام الرأسمالي في العشرينات ـ وأن هذا الدور سيكون خاضعا لبلد تواجد الكومنتيرن. كان ذلك يترك المجال مفتوحا على الدوام أمام الحديث عن «يد موسكو» في هذا الحدث أو ذاك، وليس هذا حديثاً عديم الأسس. الآن، في ظروف الحرب الباردة، أحس ستالين أن استقطاب العالم ونشوء معسكرين يطرحان من جديد مسألة التفاعل بين الأحزاب الشيوعية. مع إنه كان يفهم استحالة العودة التامة إلى الوضع القديم، حتى على صعيد الشكل.

بادر الرفاق البولنديون ووافق ستالين... فانعقد، في ٢٢ ـ ١٩٤٧/٩/٢٧، في

مدينة «شكليارسكا بوريمبا» البولندية، اجتماع لممثلي تسعة أحزاب شيوعية في أوروبا. أوكل ستالين رئاسة وفد الحزب الشيوعي السوفييتي إلى جدانوف، الذي أرسل إليه قبيل الاجتماع برقية من بولندا تتحدث عن الخطط الأولية وعن اتفاق المشاركين في الاجتماع حول ما يلي:

«يُفترض بدء الاجتماع بتقارير إخبارية تقدمها جميع الأحزاب الشيوعية المشاركة. بعدئذ سيصاغ جدول الأعمال. اقترحنا النقاط التالية:

١ ـ حول الوضع الدولي ـ تقرير نقدمه نحن.

٢ ـ حول تنسيق نشاط الأحزاب. سنقترح على الرفاق البولنديين تقدم التقرير. الحصيلة يجب أن تكون تأسيس مركز تنسيق له مقره في وارسو. أظن أن التركيز يجب أن يتم خصيصاً على المبادىء الطوعية في هذا العمل.

أرجو توجيهاتكم.

جدانوف»[٩٤]

ستالين موافق... بعد أربع سنوات على نهاية الكومنتيرن، تم تشكيل «المكتب الإعلامي للأحزاب الشيوعية والعمالية» (كومنفورم)... واعتبر جدانوف أن أكثر الوفود نشاطاً وإيجابية كان الوفد اليوغسلافي، وقدّر عالياً تقرير ممثل يوغسلافيا، كارديل، وتقرير ممثل تشيكوسلوفاكيا، سلانسكي[٩٥]... بعد سنتين سيصدر بلاغ عن الكومنفورم ذاته ليقول إن «الحزب الشيوعي اليوغسلافي تحت هيمنة القتلة والجواسيس»، وفيما بعد سيتهم كارديل من قبل جدانوف بأنه «عميل امبريالي»، أما سلانسكي، فسيصبح بعد سنوات ضحية لمحاكمة مخزية وفقاً لسيناريو بيريا.

كان الموضوع الأساسي في تقرير جدانوف حول الوضع الدولي هو «تقسيم العالم إلى معسكرين متعارضين» وذلك كان جواباً على «دوكترين ترومان» المعادي للشيوعية وتقويماً لـ «خطة مارشال» التي اعتبرها التقرير «برنامجاً لاستعباد أوروبا». كذلك جدد جدانوف الهجوم على الاشتراكية ـ الديمقراطية، ولم يبخل بالعبارات المهينة بحقها. ستالين مصرّ على أخطائه دوماً.

لم ينعقد اللقاء التالي الذي كان من المقرر اجراؤه في بلغراد. لقد ساهمت شعوب يوغسلافيا مساهمة كبيرة في تحطيم الفاشية، وحصلت على معونة عسكرية سوفييتية لجيشها[٩٦]. لكن فجأة، اندلع نزاع خطير.

أثار حنق ستالين عدد من الإجراءات التي كان يعتبر أن من الضروري استشارته فيها: إرسال فوج جوي يوغسلافي إلى ألبانيا، وإعلان ديمتروف حول الإمكانية المبدئية لتأسيس «اتحاد فيدرالي» بين دول الديمقراطية الشعبية في شرق أوروبا، إلخ.

جرى لقاء بين الوفود: السوفييتي برئاسة ستالين، والبلغاري برئاسة ديمتروف، واليوغسلافي برئاسة كارديل، في موسكو بتاريخ ١٩٤٨/٢/١٠... كان ستالين يعتبر أنه يستطيع التصرف كما يشاء حتى مع حلفائه، ورأى في خطوات بلغاريا ويوغسلافيا «نهجاً خاصاً في السياسة الخارجية»... واقترح إنشاء فيدرالية بين بلغاريا

سوف أعرض مقاطع من هذه الرسالة، التي أرضت بدون شك غرور «القائد» إذا لم يلاحظ أن هذه الرسالة من فذلكات أجهزة الأمن:

«إلى الجنرال العظيم ستالين:

يشرفني أن أكتب هذه الرسالة لكم لأنني كنت دائماً أحمل مشاعر الحب والإجلال العميقين لحضرتكم. ويطيب لي أن أخبركم عن رغبتي في البقاء في الاتحاد السوفييتي. كانت «العسكريتاريا» اليابانية قد حددت في الماضي إمكانيات معارفي الشخصية؛ ولم أكن أعرف حقيقة الوضع في الاتحاد السوفييتي. لأول مرة خلال أربعين سنة سنحت لي الفرصة لقراءة كتبكم «مسائل اللينينية» و «تاريخ الحزب الشيوعي البلشفي». أنا الآن أعرف أن الاتحاد السوفييتي هو أكثر الدول ديمقراطية وتقدمية في العالم، وهو النجم الذي تهتدي به شعوب الدول المضطهدة لبناء مستقبلها... لقد قامت حكومة الاتحاد السوفييتي بإلغاء عقوبة الإعدام. وهذه الخطوة تفتح عصراً جديداً في مجال الحفاظ على القيم الإنسانية...

لقد تقدمت سابقاً بطلب السماح لي بالبقاء في الاتحاد السوفييتي، ولم يصلني جواب حتى الآن. أؤكد مرة أخرى على رغبتي في العيش والعمل هنا.

مع تمنياتي لكم بالصحة والسعادة

آيسينتسيوويلو بو إي»[٦]

قرأ ستالين النص المترجم لهذه الرسالة وتمعن فيه طويلاً، ثم قال لبيريا: «سوف نسلم الامبراطور إلى الصينيين». إن التقرير في مصير الامبراطور لا يقارن طبعاً بحب ستالين لتقرير مجموعات كبيرة من الناس؛ وكلما كان عدد هذه المجموعات أكبر، كلما كان ذلك أفضل.

إن ستالين، بإلغائه كل بدائل التطور الممكنة في المجتمع، جعل من تركته تركة سلبية بالمطلق. وأعتقد أنه ما كان يتوقع أن بداية هزيمته التاريخية قريبة جداً. في الفترة الأخيرة، عندما كان ستالين يضع ملاحظاته المختصرة على الوثائق التي صار نادراً ما يتصفحها، كان يرفع يده اليسرى إلى وجهه وكأنه يحجز أشعة الشمس (كانت هذه عادة عنده). في إحدى الصور القديمة نرى ستالين جالساً على حافة الطاولة بذقنه غير الحليقة، ومعطفه القديم، وحذائه المهترىء، وشعره الأشعث، نراه كذلك يرفع يده في نفس الحركة... هو الآن الجنرال العظيم، وأعتى ديكتاتور على وجه الأرض، وهذه الحركة ـ ليست لحماية «القائد» من أشعة الشمس؛ يمكن تفسيرها محاولة للاحتماء من هزيمته التاريخية المقبلة (وإن لم يكن مدركاً لذلك بنفسه).

الهزيمة التاريخية

على منصة المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، كان يقف خروتشوف، وقد أصيب كل أعضاء المؤتمر بصدمة بعد سماعهم خطابه. لقد انشقت المنصة فجأة أمام مندوبي المؤتمر عن شخصين: خروتشوف وشبح ستالين المعروف للجميع (الذي

أصبح غريباً الآن). هذه هي صورة الوضع عندما قام خروتشوف، السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، في ١٩٥٦/٢/٢٥، بقراءة خطابه الشهير (الذي أعد بشكل سري) أمام مندوبي المؤتمر العشرين. ما يقارب ١٥٠٠ مندوب كانوا يستمعون في حالة من التوتر، بصمت أحياناً، وأحياناً أخرى تصدر أصوات احتجاج وعدم رضى، وينظرون إلى «ذلك» الذي كان واقفاً على المنصة. كلما استمر في قراءة خطابه، كلما كانت صورة الشبح تبدو بوضوح أكثر في وعي المستمعين الذين كانوا يرون هذا الشبح مرة على يمين خروتشوف ومرة على يساره. كانت كلمات السكرتير الأول الجديد، بشكل سريع ولكن غير ملحوظ، ترسم صورة جديدة لـ «قائد الشعوب».

انجلى المشهد سريعاً عن شخصين جديدين: القائد الجديد للحزب، الذي كان أحد الأوفياء في محيط الديكتاتور الذي مات منذ ثلاث سنوات، والصورة الخرساء لـ «القائد» التي تحولت على هذه المنصة التاريخية إلى صورة دموية تعسفية مرعبة. كانت تلك ساعات تاريخية بحق.

كان خروتشوف يبدو وكأنه يستدعي الأرواح من عالم آخر. يبدو أن بيرديايف كان محقاً عندما قال في محاضراته التي ألقاها في موسكو في أكاديمية الثقافة الروحية المستقلة: «إن العودة إلى الماضي تحمل دائماً معها شعوراً خاصاً كأنه ناتج عن الاحتكاك بعالم آخر يختلف عن هذا العالم الواقعي التجريبي الذي يحيط بنا من كل الجهات ويضغط على صدورنا كالحلم المزعج الذي لا بد أن ننتصر عليه لنكون قادرين على الارتقاء إلى مستوى أعلى وأسمى...»(٧).

وحتى ساعات قليلة من بدء هذا المؤتمر، وسماع هذا الخطاب، لم يكن باستطاعة أحد أن يفترض أن الحزب ـ بعد سنوات التزوير والركود الطويلة ـ قادر على الارتقاء إلى هذا المستوى. ومهما كان موقفنا من خروتشوف الذي، كجزء من الإطار المحيط بستالين، يتحمل مسؤوليته عن سنوات الإرهاب وانعدام القانون، إلا أنه يجب الاعتراف بأنه قد حقق في هذا المؤتمر مأثرة وطنية تاريخية.

نحن نعرف اليوم، أنه، وبعد ستالين مباشرة، بدأت تظهر توجهات غير ملحوظة للتحرر من الستالينية. هذه التوجهات بدأت تظهر بوضوح أكبر بعد أن تم اعتقال وإعدام بيريا، لأن هذه الخطوة فسحت مجالاً أوسع للقيادة الجديدة كي ترى حقيقة الصورة التي كانت تختفي وراء الستائر الستالينية، مع أن جزءاً من هذه القيادة كان على علم ومعرفة جيدة بما كان يجري.

بعد أن تم تحديد موعد المؤتمر، وفي إحدى اجتماعات اللجنة المركزية التي سبقت هذا المؤتمر، قدم خروتشوف اقتراحاً بتشكيل لجنة للتحقيق في الخروقات التي كانت تتم أثناء المرحلة الستالينية. حسم خروتشوف خياراته في اتخاذ مثل هذا الاجراء، لا استجابة لـ «نداء ضميره وقلبه»، كما كان يؤكد، بل لأنه، وما أن تم وضع جثة ستالين المحنطة في ضريح لينين، حتى بدأت تنهال على اللجنة المركزية والحكومة السوفييتية، كمية لا حصر لها من رسائل المعتقلين وأقاربهم الذين زجهم ستالين خلف الأسلاك الشائكة. كانت هذه الرسائل تأمل في تحقيق العدالة التي كانت

متجاهلة بشكل فاحش. قام خروتشوف بإعداد كشوفات لهذه الرسائل وتصنيف محتواها. أظهرت هذه الكشوف والتصنيفات، من خلال «قضية لينينغراد» وقضايا بعض المحكومين إلتي وصلت إلى اللجنة المركزية، التزوير البشع والمجرم للكثير من القضايا والاتهامات الموجهة بحق هؤلاء الناس.

كان واضحاً أنه بعد سنوات قليلة ستنتهي فترة اعتقال العديد من المواطنين وسوف يتم الإفراج عنهم حسب المادة رقم (٥٨)، وسيعودون إلى المجتمع. سيعرضون كل الآلام التي عاشوها وكل الظلم الذي وقع عليهم؛ وسيقود هذا إلى أن يطالب الناس بمحاكمة المسؤولين عن هذه الجرائم البشعة التي ارتكبت بحق المواطنين والمجتمع. بعد موت ستالين وبيريا، لن يكون هناك أحد قادراً على الاحتفاظ بهؤلاء داخل السجون والمعتقلات. بمعنى آخر، إن خروتشوف كان قد أدرك أن البلد مقدم على خيارات صعبة ومعقدة وحاسمة.

إن اقتراح خروتشوف بتشكيل لجنة التحقيق بخروقات ستالين آثار ردود فعل ومعارضة عنيفة من قبل كل من مولوتوف وكاغانوفيتش وفوروشيلوف: ولكن بولغانين وميكويان وسابوروف، إضافة إلى مالينكوف المتردد، ضمنوا الأغلبية لخروتشوف. وتم تشكيل هذه اللجنة برئاسة بوسبيلوف الذي عمل لفترة طويلة في منصب رئيس تحرير صحيفة الـ «برافدا» ومن ثم رئيساً لـ «معهد ماركس ـ انجلز ـ لينين».

سمح خروتشوف لهذه اللجنة أن تدرس وثائق وأوراق وزارة الداخلية ولجنة الأمن الحكومية (كي. جي. بي). وتجدر الإشارة إلى أن بوسبيلوف قد بذل جهوداً كبيرة في عمله لهذه اللجنة، كتلك الجهود التي بذلها قبل سنوات مع ألسكاندروف وغالاكاتيونوف وكروجكوف وميتين وموتشالوف حينما قاموا بكتابة «سيرة ستالين المختصرة»! عندما انتهت اللجنة من عملها وقدمت النتائج إلى خروتشوف قبل المؤتمر بأيام، أدرك خروتشوف أن هذه الوثيقة، إمّا إنها ستحطم السور الذي كانت تختفي خلفه الخرافات والأساطير والأكاذيب الستالينية، أو ستقود إلى موته هو (خروتشوف) السياسي.

عرض خروتشوف النتائج التي وصلت إليها اللجنة أمام رفاقه وسألهم: ما الذي يجب أن نفعله الآن؟ كيف سننقل هذه النتائج إل مندوبي المؤتمر؟ ومن سيقوم بذلك؟ هل يقوم بذلك بوسبيلوف؟

مولوتوف وكاغانوفيتش وفوروشيلوف اعترضوا على هذا المسار بعناد ولفترة طويلة. على الرغم من أن مواقفهم هذه غير مسجلة في الوثائق الحزبية، إلا أن خروتشوف تحدث عنها لاحقاً في مذكراته. كانت الحجج التي طرحوها لردع خروتشوف عن نواياه وجيهة: ما الذي يجبرنا على أن نعرض أخطاءنا على العالم؟ أليس من الأفضل أن نصلح الوضع بشكل هادىء؟ وهل يدرك خروتشوف ما هي النتائج المترتبة على نشر استنتاجات اللجنة؟ ألسنا في النهاية في هيئة رئاسة اللجنة المركزية مسؤولين جميعاً (بهذا القدر أو ذاك) عن جرائم العهد الماضي؟ هل من

الممكن تجاهل كل هذه المخاطر؟ ولكن خروتشوف انتصر: قررت اللجنة الركزية في ١٩٥٦/٢/١٣ أن يتم عرض خطاب خروتشوف حول ظاهرة «عبادة الفرد» على مندوبي المؤتمر في جلسة مغلقة. كان خروتشوف نفسه يتردد أحياناً، ولكنه كان يتذكر رسائل المعتقلين، ويعود بذاكرته إلى الجنون الذي كان سائداً في تلك السنوات. وصل إلى قناعة راسخة: إن نتائج القمع والإرهاب الذي كان يمارس، والتجاوز الفظيع للقانون، لا يمكن إخفاؤه؛ فعاجلاً أم آجلاً سوف تتضح الحقيقة. لذلك، لا بد من المبادة وإخبار الحزب بهذه الحقيقة؛ ولم يكن خروتشوف ينوي إخبار الشعب بذلك.

بدت الأمور وكأنها تسير في طريقها المعتاد نحو المؤتمر العشرين الذي سيأخذ مكانه إلى جانب كل المؤتمرات «التاريخية» السابقة. ولكن ها قد حانت اللحظة الحاسمة. أبلغ مندوبو المؤتمر بأنه ستعقد جلسة مغلقة. بولغانين، الذي ترأس هيئة المؤتمر، أعطى الكلمة للسكرتير الأول للجنة المركزية للحزب. كانت هذه قمة تألق خروتشوف، الذي كان سابقاً ستالينياً متعصباً، ولم يعارض «القائد» ولو مرة واحدة. أظهر خروتشوف في تلك الساعة شجاعة تاريخية ورجولة ووطنية، وقدرة على تجاوز كل المغالطات السابقة. وسوف يتضح لاحقاً أن خطوة خروتشوف هذه لم تكن مصادفة.

بقدر ما كان خروتشوف منفذاً مطيعاً في إدارة ستالين، وشخصية غير ملحوظة، بقدر ما أظهر لاحقاً حزماً وإرادة صلبة، وقدم نفسه كسياسي وقائد نشط للحزب. إضافة إلى خطابه «السري» الشهير، قام بمجموعة من الخطوات السياسية غير العادية، سواءً على الصعيد الداخلي أو الخارجي. من بين هذه الخطوات زيارته ليوغسلافيا لترميم العلاقات مع الرئيس تيتو، وقيامه بنشر الصواريخ النووية في كوبا، ولقائه مع الرئيس الأميركي أيزنهاور، والخطوات الحازمة أثناء الأحداث في هنغاريا، وبناء علاقات صداقة مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وعدم المساومة مع ماوتسي تونغ، ودعمه لجمهورية فيتنام، وغيرها من المواقف التي تظهر السمات المعقدة والمتناقضة في شخصية السكرتير الأول. هذه الخطوات اللاحقة التي اتخذها خروتشوف، أثبتت أنه لم يقدم على خطوته بفضح الستالينية من فراغ، بل كان يمتلك صفات شخصية كالشجاعة والرجولة والحزم، التي أهلته لهذا الدور. ومع ذلك، ورغم صفاته السابقة، فإن نيكيتا خروتشوف كان ضعيفاً في تحليلاته السياسية، فكثيراً ما كان غير منطقي في مواقفه. وقد بالغ في تقديره لإمكانياته السياسية والفكرية، فالعديد من مواقفه كانت متهورة، إضافة إلى أنه كان مصاباً بالمرض «العام» المنتشر في هذا النظام السياسي، وهو اعتبار الوجه الأول في الحزب والدولة مرجعية أخيرة. فالمنظومة السياسية بعد ستالين بقيت على حالها السابقة، غير محصنة من القيصرية وتقديس الشخصيات القيادية. ولم تكن هناك أية ضمانات لعدم بروز ظاهرة «عبادة الفرد» مرة أخرى. إن خروتشوف وسياسته لم يقضيا على هذا التشوه العضوي في جسم النظام الذي لا يمتلك قيماً ديمقراطية حقيقية.

لقد ابتعدت قليلاً عن الموضوع الأساسي. ولكن بدون هذه الإضافات، من غير الممكن إظهار الأهمية التاريخية لهذا الجانب من المؤتمر العشرين الذي وجه ضربة

أولى وقوية للستالينية. لقد كان هذا المؤتمر بداية الهزيمة التاريخية لـ «القائد» الذي بنى خلال ثلاثين عاماً الاشتراكية الستالينية.

لن أقوم الآن بعرض النقاط الأساسية لخطاب خروتشوف، ولكنني سألقي الأضواء على دوره الكبير في بداية تراجع الستالينية، وما أثاره هذا الحدث من نتائج لها أهميتها العالمية.

وهكذا، على المنصة التاريخية كان هناك شخصيتان، خروتشوف المتحمس والمهتاج، وشبح ستالين. وفي الصمت المطبق على قاعة المؤتمر، كان السكرتير الأول يتنقل في خطابه من نقطة إلى أخرى. بوسبيلوف ومجموعته كانوا قد جهزوا وأعدوا هذا الخطاب بما يقارب الـ ١٥ فصلاً؛ وكان كل فصل من الفصول يلعب دوراً في رسم معالم الصورة البشعة لظاهرة «عبادة الفرد». ومع ذلك، فقد كان المنطق الداخلي لهذا الخطاب ضعيفاً؛ فعلى سبيل المثال، يبدأ الخطاب بالحديث عن مواقف كلاسيكيي النظرية من ظاهرة «عبادة الفرد»، وعن مواقف لينين ورأيه في ستالين. ثم ينتقل مباشرة للحديث حول «أعداء الشعب». وينتقل بعدها للحديث في قضايا نظرية عامة، مثل موقف لينين من المعارضة الحزبية ومن القيادة الجماعية. بعض القضايا كانت تكرر عناوين متشابهة: المسؤول عن الإرهاب، القمع والإرهاب، ظاهرة الإرهاب. كذلك تم في هذا الخطاب مناقشة قضايا من نوع: ستالين والحرب، النزاع مع يوغسلافيا، بيريا، وغيرها من المواضيع.

بدأ خروتشوف خطابه هادئاً: «إن هذا التقرير لا يهدف إعطاء تقويم لكافة جوانب حياة ونشاط ستالين؛ كذلك لا يهدف إلى الحديث عن أفضاله، لأن هذا الجانب قد تم إشباعه دراسة في العديد من الكتب والدراسات والنشرات التي ظهرت في حياة ستالين. ولا نريد أن ننفي دور ستالين في الإعداد للثورة الاشتراكية والمشاركة بصنعها، ولا أن ننفي دوره في الحرب الأهلية أو النضال من أجل بناء الاشتراكية. هذه حقائق معروفة للجميع. سوف نتطرق في هذا التقرير إلى مسألة لها أهمية كبيرة في حياة الحزب الحالية والمقبلة ـ وهي بروز وتبلور ظاهرة عبادة شخص ستالين. هذه الظاهرة كانت سبباً في مجموعة من الأخطاء والاختراقات للحياة التنظيمية الداخلية للحزب والاسس الديمقراطية التي يقوم عليها».

في هذه القاعة كانت تجلس مجموعة من المندوبين الذين يسمعون **للمرة الأولى** عن ما يسمى بـ «رسالة إلى المؤتمر» التي قدم فيها لينين رأيه وتقويمه لستالين منذ بداية العشرينات. كانت هذه الرسالة نوعاً من الفتح الذي سمح للحقيقة أن تتحرر من قيودها. على الرغم من أن خروتشوف أدان «تكتل تروتسكي ـ زينوفييف» و «اتباع بوخارين»، لكنه أكد على قضية هامة وهي أن الصراع مع المعارضة كان في الفترة اللينينية بشكله الإيديولوجي.

كان جوهر خطاب خروتشوف موجهاً لإدانة التجاوزات والخروقات القانونية التي قام بها ستالين: «الأمور واضحة. أظهر ستالين في تصرفاته ميلاً واضحاً نحو العنف وعدم التروي واستغلال مواقعه بشكل مسيء. وعوضاً عن العمل لإثبات مواقفه السياسية وحشد الجماهير حولها، كان يلجأ لأساليب القمع والقتل والإعدام. وهذا لم

يقتصر على أعداء الشعب، وإنما طال الناس البسطاء الذين لم يرتكبوا أية جريمة بحق الحزب أو السلطة السوفييتية».

تجمدت القاعة عندما تحدث بالتفصيل عن الشكل الذي كان يقوم به ستالين وأعوانه بتلفيق «القضايا» ضد من كانوا يسمون بـ«أعداء الشعب». وأوضح خروتشوف كيف تحول مفهوم «عدو الشعب» إلى تهمة تدميرية يمكن أن توجه ضد أي مواطن لا يتفق مع ستالين في أي موضوع من المواضيع، وضد من يُتهم فقط باحتمال قيامه بنشاط معاد.

عنما تكشفت هذه الحقائق للجالسين في قاعة المؤتمر بدأت صورة «القائد» المعروفة لهم جيداً ببذلته العسكرية، بدأت تتحول إلى رمز لجلاد الشعب الملطخ بدمائه.

استطاع خروتشوف، خلال ثلاث أو أربع ساعات، أن ينجز ما بدا مستحيلاً إنجازه ـ أن يبدد صورة ستالين كقائد. أكد في خطابه على أن ستالين كان غير كفؤ لمنصبه القيادي: «كان يعرف البلد واقتصادها من خلال ما تقدمه الأفلام»، وأما أثناء الحرب «فقد كان يعد الخطط الحربية على خارطة الكرة الأرضية»، ولم يكن يحسب أي حساب «لآراء القيادة الحزبية». إن السكرتير الأول (خروتشوف)، الذي كان يعرف حقيقة الوضع في مجال الاقتصاد الزراعي، استغل الوضع المزري في هذا المجال لتوجيه أقوى الضربات. أخبر خروتشوف مندوبي المؤتمر أن ستالين كان ينوي في الفترة الأخيرة أن يزيد الضرائب على العاملين في مجال الزراعة بما قيمته ٤٠ مليار روبل! هذه «فكرة خيالية لإنسان لا تربطه بالواقع أية صلات». نزع خروتشوف الهالة التي كان ستالين يحيط نفسه بها، هالة الإنسان الحكيم المبدع الذي لا يخطيء، وأثبت عدم جدارته القيادية.

بعد ذلك، قدم خروتشوف إثباتات تؤكد أن ستالين كان جلاداً سادياً فاقداً لأبسط الصفات الأخلاقية. أشار إلى قضايا كوسيور، تشوبار، بوستيشيف، كورساريف، إيخيه وغيرهم من القادة البلاشفة، مظهراً أن ستالين «هو الذي لعب دور المدعي العام والقاضي في كل هذه القضايا، وهو نفسه الذي أصدر الأوامر باعتقالهم». وأما «الاعتراف الذي كان أهم دلائل الإدانة، فقد كان الحصول عليه متعلقاً بشكل وتقنية الاستجواب». كان المحققون يحصلون على «الاعترافات» ـ يؤكد خروتشوف ـ على الرغم من أن هؤلاء لم يرتكبوا أية جريمة؛ فقد كان ذلك يتم بشكل واحد ـ هو إخضاعهم للتعذيب الجسدي غير المحتمل حتى فقدانهم الوعي والقدرة على التفكير السليم. هكذا كان يتم الحصول على «الاعترافات». أورد خروتشوف أدلة على كلامه مأخوذة من أمثلة محددة، وبذلك استطاع أن يرسم صورة جديدة لـ «القائد»، صورة ديكتاتور دموي طاغية.

وفي النهاية، يشكك التقرير «السري» الذي قدمه السكرتير الأول بصحة أساليب وأشكال عمل ستالين القيادية، حيث يؤكد على الغياب المطلق لمبدأ القيادة الجماعية في الهيئات الحزبية العليا، واستغلال السلطة بشكل سيء من قبل فرد واحد. فعلى سبيل

المثال: «خلال سنوات الحرب الوطنية العظمى، لم يعقد أي اجتماع للجنة المركزية (في الحقيقة عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً وحيداً عام ١٩٤٤ ـ المؤلف). قامت محاولة لعقد اجتماع لها في أكتوبر عام ١٩٤١، وتم استدعاء كل أعضاء اللجنة المركزية إلى موسكو، حيث انتظروا افتتاح الاجتماع لعدة أيام، ولم يتم هذا الافتتاح». ومع ذلك، يؤكد خروتشوف أن ستالين كان يستغل اسم اللجنة المركزية لتغطية كل تصرفاته الفردية دون العودة إلى اللجنة المركزية أو المكتب السياسي؛ حتى إنه لم يكن يعلمهم بالقرارات التي يتخذها باسمهم بشكل فردي، والتي تتعلق بقضايا حزبية وحكومية في منتهى الأهمية. ويورد خروتشوف مسألة الخلاف مع يوغسلافيا كأحد أمثلة نتائج السلطة الفردية السلبية، ويؤكد أن ستالين لعب «دوراً مخجلاً» في تعميق ذلك الخلاف.

وهكذا، فإن خروتشوف، في تقريره، أصاب عدة أهداف: أظهر الشكل الهش لعظمة «القائد» الذي كان «محروماً» من أي شكل من أشكال الكفاءة والحكمة والنظرة الصائبة. وأكد على أن مسؤولية الإرهاب والقمع والاستغلال السيىء للسلطة الفردية يقع على عاتق ستالين. وأدان مظاهر السلطة الفردية لـ «القائد» معتبراً إياها سبباً أساسياً لكل المصائب التي أحاقت بالحزب والدولة والشعب. كان لهذه التصريحات وقع الزلزال في وعي المجتمع. كانت هجوماً شجاعاً وغير متوقع على مظاهر القيصرية والتوتاليتارية وغياب القانون.

ولكن خروتشوف يبقى ابن مرحلته التاريخية. على الرغم من أن دوره في الهجوم على ظاهرة «عبادة الفرد» كافياً لإدخال اسمه في التاريخ، إلا أن التقرير الذي قدمه أحد منظري القصر الستاليني القدماء، لم يكن عميقاً جداً، ولم يمس إلا الظواهر السطحية للستالينية دون أن يغوص عميقاً في جذورها.

لم يتم تسليط الأضواء على دور ستالين في التشويه الفظيع للاشتراكية، بل على العكس، تم التأكيد على أن «ستالين، وبدون شك، له أفضاله على الحزب والطبقة العاملة وعلى الحركة العمالية العالمية... وقد كان ينطلق في تصرفاته من قناعة بضرورة هذه التصرفات لحماية مصالح الكادحين من ضرر الأعداء وهجوم المعسكر الامبريالي». وبذلك يكون ستالين قد خضع لنقد وإدانة شديدة من جهة، ومن جهة أخرى تلقى «صك غفران» أمام التاريخ.

افترض خروتشوف أن مناقشة ظاهرة «عبادة الفرد» وإدانتها داخل إطار الحزب فقط كافية للتخلص من التشويهات الستالينية، وقد صرح بذلك في خطابه داخل المؤتمر: «إن هذا الموضوع لا نستطيع أن نناقشه خارج إطار الحزب، وخاصة في الصحافة. لهذا فقد تمت مناقشته في جلسة مغلقة. علينا أن نعرف الحدود وأن لا نقوم بتعرية أنفسنا وعرض نقاط ضعفنا أمام الأعداء. أعتقد أن أعضاء الحزب يتفهمون ذلك!!».

عندما أنجز «المصلح» قفزته هذه لم يكن يدرك أن «التفكير السري» هو أحد أهم سمات العهد الستاليني، و «أن نعرف الحدود» تعني بالنسبة له أن لا نتحدث في هذا الموضوع مع الشعب، وبالتأكيد أن لا نعلن ذلك أمام العالم. هذا الإنسان الذي قام قبل

ست سنوات (١٩٥٠ م) بكتابة مقالة تحت عنوان «صداقة الشعوب الستالينية ـ ضمانة الانتصار لوطننا»، لم يستطع أن يتخلص في ساعة واحدة مما نما وترعرع في داخله على امتداد عشرات السنوات. إن خروتشوف، الذي لم يتجاوز «القائد» ولا لمرة واحدة في حياته، كان يدرك جيداً أن دوره هو التنفيذ دون التفكير. إنه نفسه يتذكر أنه كان عاجزاً عن حل أبسط القضايا في المجال الاقتصادي دون العودة إلى ستالين مباشرة؛ لأن اتخاذ أي اجراء دون العودة إليه كان تصرفاً خطراً. لنلقِ نظرة على مثال لهذه القضايا البسيطة التي كان يعود فيها خروتشوف لاستشارة ستالين:

«إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لعموم الاتحاد السوفييتي (بلشفيك).

إلى الرفيق ستالين:

الرجاء تجهيز الفرقة العسكرية التي تقوم بمطاردة أعضاء منظمة «أون» (منظمة قومية أوكرانية تأسست عام ١٩٢٩، قامت خلال الحرب الوطنية بالتعاون مع هتلر. في بداية الخمسينات قامت بنشاط مسلح لفصل أوكرانيا الغربية عن الاتحاد السوفييتي ـ المترجم) بالمواد التالية:

جلود متينة للأحذية العسكرية الطويلة	١٠٤٣٠٠ دسم
جلود ناعمة لمقدمة الحذاء	٧٧٤ دسم
جلود لنعل الحذاء	٢٠٣٨٠ دسم
....	
قماش أبيض للملابس الداخلية	١٩٦٠٠٠ متر
خيطان	٥٢٥ لفة خيطان

١٨/٩/١٩٤٦

خروتشوف

كروغلوف»(٨)

إذا كان رفاق ستالين في القيادة، يسألونه السماح بصرف خيطان، فإنهم غير قادرين حتى على السؤال في القضايا السياسية. لذلك، فإن خروتشوف، الذي وجه ضربة أولى إلى الستالينية، كان عاجزاً عن التخلص منها كلياً في بنائه وكيانه الخاص. فقد اتسم بيان اللجنة المركزية الصادر بعد المؤتمر بعدم الوضوح وبالتقويمات الناقصة، وبالوسطية. هذا البيان الصادر في ٣٠/٦/١٩٥٦(٩) يدين ظاهرة «عبادة الفرد» ولكنه ينتهي بعقد صلح ومساومة مع الستالينية. ظهر ذلك بوضوح في البيان، حيث يتحدث عن «أخطاء جدية» ارتكبها ستالين «في الفترة الأخيرة من حياته». ومن أجل شرح أسباب بروز هذه الظاهرة المتناقضة مع اللينينية، يستخدم البيان الحجج الستالينية نفسها: «بعد موت لينين، نشطت داخل الحزب التيارات المعادية ـ التروتسكيون والانتهازيون اليمينيون والقوميون البرجوازيون، الذين وقفوا ضد النظرية اللينينية القائلة بإمكانية انتصار الاشتراكية في بلد واحد، مما يعني واقعياً العودة لبناء الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي، لذلك قام الحزب بشن حرب لا هوادة فيها ضد أعداء اللينينية». ثم يضيف لاحقاً: «لذلك فُرض علينا أن نتراجع عن بعض

الممارسات الديمقراطية، وهذا مبرر في عملية نضال الشعب من أجل الاشتراكية، عندما يكون الأعداء الرأسماليون يحيطون بنا من كل الجهات. من الواضح أن ما ورد لا يشرح أسباب بروز ظاهرة «عبادة الفرد»، بل يبررها. يعود خروتشوف إلى الحديث عن «النواة اللينينية» التي قادت الحزب، بعد موت ستالين، للنضال ضد الستالينية.

في بيان اللجنة المركزية يتم التعرض لسؤال: «لماذا لم يقم هؤلاء الناس بمعارضة ستالين بشكل علني أثناء حياته، ولم يتخلوا عنه؟» وتأتي الإجابة، وعلى الرغم من نزعتها التبريرية، تحمل حقيقة مرة وقاسية: «إن أية معارضة له في تلك الظروف لم تكن لتلقى تفهماً من الشعب. ليست القضية في فقدان الشجاعة والرجولة الشخصية. كان من الواضح أن المعارضة لن تلقى أي دعم جماهيري». إن خروتشوف واللجنة المركزية لم يقولوا إن معارضة ستالين كان من المفروض أن تتم منذ البداية، عندما بدأت تظهر أولى بوادر النظام التوتاليتاري. على الرغم من عدم اعترافهم بذلك رافعين مسؤولية الحزب عن ظهور ديكتاتورية الفرد، إلا أنهم أضافوا أن «الشعب السوفييتي كان يعرف أن ستالين، وفي دفاعه عن الاتحاد السوفييتي ضد أعداء الاشتراكية كان يلجأ أحياناً!! (الإشارة للمؤلف) إلى أساليب غير مشروعة مخالفة للتعاليم اللينينية في الحياة الحزبية الداخلية. وهذه هي تراجيديا ستالين الأسالية!! (الإشارة للمؤلف)».

إذن، فإن هذه التراجيديا لم تكن تراجيديا ومأساة الشعب، إنما مأساة ستالين فقط... ثم يضيف البيان قائلاً: «ومن الغباء افتراض أن إدانة بعض أخطاء الماضي قد تعني تغيرات في البنيان الاجتماعي للاتحاد السوفييتي، أو تقود إلى البحث عن أسباب هذه الظاهرة في طبيعة هذا البنيان. إن هذا وذاك غير صحيح، وهو يتعارض مع الحقائق الواقعية». إن خروتشوف يدين ستالين ويسعى للحفاظ على النظام.

إن قراءة تقرير اللجنة المركزية يوحي بأن خروتشوف، بعد أن قام بتوجيه ضربة أولى إلى شبح ستالين في ١٩٥٦/٢/٢٥، بدأ، نفسه، يخشى من انتصاره! إذ لم يكن صدفة أن قامت اللجنة المركزية، والصحافة العلنية بالتكتم على التقرير «السري» وكأنها تهدف إلى إبقاء الشعب بعيداً عن الهزات الإيديولوجية. ولكن الحفاظ على السرية المطلقة لهذا التقرير، الذي تعرف عليه الحاضرون للجلسة السرية من مندوبي المؤتمر والحضور من الأحزاب الشيوعية الشقيقة، كان غير ممكن.

كان تسرب المعلومات قضية محتومة، فقد ظهر نص التقرير مطبوعاً في صحف الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا في بداية حزيران (يونيو) ١٩٥٦. أما داخل بلادنا، فقد قامت المنظمات الحزبية الرسمية، وعلى امتداد ثلاثة عقود، بالتستر على هذه القضية واعتبارها قضية ثانوية. وقد تم نشر هذا التقرير لأول مرة في ربيع عام ١٩٨٩ في «النشرة الإخبارية للجنة المركزية للحزب الشيوعي».

إن التستر على هذا التقرير كل هذه الأعوام دليل على أن الستالينية ما زالت، وبكل أسف، حية؛ وكل ما تم هو تغيير الشكل العام لها. كان حرياً بالحزب الذي بدأ بفضح الستالينية والقضاء عليها، أن يستمر في هذا الطريق حتى النهاية، وأن يقوم

بنشر تقرير مفصل يحلل فيه وجهة نظر الشيوعيين في هذه الظاهرة الغريبة عن الماركسية، طالما قد بدأ عملية التجديد في مؤتمراته واجتماعاته المركزية. كان الحزب عاجزا حينها، كما أظهرت الأيام بعد ذلك، عن فهم اليوطوبيا الهشة التي كانت قد تحولت إلى برنامج عمل!

إن الهجوم الثاني على ستالين والستالينية قام به خروتشوف في المؤتمر الـ ٢٢ للحزب. هذه المرة كان الهجوم بشكل علني. وقد كانت نتائج هذا الهجوم هي التضييق على نمط التفكير التوتاليتاري البيروقراطي، ولكن ليس القضاء عليه كلياً. بعد ذلك، وعلى امتداد ربع قرن، تم تجاهل هذا الموضوع نهائياً.

إن بريجنيف، الذي لم يحسم أمره كلياً تجاه إعادة ترميم ستالين والستالينية، قرر الأخذ بنصيحة سوسلوف وغيره من أعوانه بالتزام الصمت الكامل حول هذا الموضوع وكأن الفترة الستالينية كانت فترة مفقودة من تاريخنا. لقد تجوهلت كل الأعمال الشريرة لستالين، وكأنه لم يكن هناك معتقلات ولا آلاف، بل ملايين، الضحايا من معتقلين وقتلى. ولو بحثنا في كل الموسوعات والقواميس التي ظهرت خلال هذه الفترة، لما وجدنا فقرة واحدة تتحدث عن تروتسكي أو بوخارين أو زينوفييف أو كامينيف أو غيرهم من قادة تلك المرحلة.

إن الكتب التاريخية التي كان يؤلفها ويصدرها أمثال بوسبيلوف (المستعدين أن يكتبوا خطابات المديح لستالين ومقالات حول موته التاريخي في نفس الوقت) كانت مبسطة لأقصى الحدود، ولم يكن فيها أي ذكر لستالين. وكانوا يدعون أن الحزب كان يقود الدولة (دون أن يعقد مؤتمراته واجتماعاته!). عندما كان يتم تعداد قادة الحزب كان يذكر ستالين بشكل عابر كأحد الكثيرين غيره. كان يتم أيضاً تجاهل المؤتمر العشرين للحزب، على الرغم من الأهمية التاريخية لهذا المؤتمر. صار الوضع يوحي بأن شبح الستالينية قد بدأ في هجومه المضاد. إن ما حصل لم يكن صدفة، ذلك لأن ستالين قد مات، أما النظام الستاليني، قد بقي حياً.

إن الهجومين التاريخيين اللذين قام بهما خروتشوف ـ المصلح الرومانسي ـ تركا آثاراً عميقة في جسم الستالينية، ولكن ورثته قاموا بشكل هادئ، ودون ضجيج، بترميم هذه الآثار وتزيينها برتوش سياسية إيديولوجية اجتماعية. مُنعت الكتب التي كانت قد أصدرت في فترة «الانتعاش»، مثل كتب سولجينيتسين وغيره من الكتاب والمؤرخين. أما الكتب الرسمية التي كانت تتحدث عن فترة العشرينات والثلاثينات والأربعينات، بل وحتى عن الخمسينات، فقد كانت تعكس الأحداث التاريخية بشكل مزور.

ومع ذلك، فقد فعل تقرير خروتشوف فعله. بدأت مجموعة كبيرة من الأحزاب الشيوعية بمراجعة عميقة لكل برامجها ووجهات نظرها، وحاكمت الأحداث التاريخية بشكل جديد. أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي بياناً تتحدث فيه عن أن «بعض الصحف البرجوازية تشن حملة عنيفة ضد الاتحاد السوفييتي، حملة من الكذب والتزوير. وتقوم هذه الأطر الرجعية باستغلال إدانة ظاهرة «عبادة الفرد» في

داخل الحزب الشيوعي السوفييتي في حملتها هذه». أثرت هذه التصريحات على بعض الأحزاب، أما بعضها الآخر، فلم يتأثر. فعلى سبيل المثال، لم يقتنع الحزب الشيوعي الإيطالي بالشروحات الرسمية التي قدمها الحزب الشيوعي السوفييتي وبدأت قيادته، وبالتحديد الرفيق تولياتي، بدراسة الظاهرة الستالينية وطبيعتها وجذورها. وبدأ الحزب الشيوعي الفرنسي بدراسة مماثلة، إنما بحذر شديد.

تضامن الحزب الشيوعي الصيني في البداية مع تقرير خروتشوف، ولكن، وبعد تعمق الخلافات بين الحزبين (السوفييتي والصيني)، تراجع الحزب الشيوعي الصيني عن موقفه، وانتقل من موقع الداعم إلى موقع من يدين النتائج التاريخية للمؤتمر العشرين. عرض الحزب الشيوعي الصيني موقفه من الستالينية بشكل مختصر في مقالة مشتركة (لصحيفتين حزبيتين) في ١٣/٩/١٩٦٣، جاء فيها: «في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي قام الرفيق خروتشوف بالنفي الكامل وغير المبرر لستالين. لم يقم مسبقاً بمناقشة الأحزاب الشيوعية الشقيقة في هذا الموضوع ذي الأهمية لكل الأحزاب الشيوعية في العالم. ويريد أن يضع الجميع أمام الأمر الواقع، ويلزمهم، بعد المؤتمر، بموقفه». تصل المقالة بعد ذلك للنتائج التالية: «إن كل فضائل وأخطاء ستالين ـ حقائق تاريخية لا يمكن نفيها. ولكن، لو تمت مقارنة أخطائه بفضائله، لرجحت الثانية على الأولى. إن فضائل ستالين هي الجانب الأهم في نشاطه، أما أخطاؤه، فهي ثانوية قياساً لفضائله. كل شيوعي شريف يحترم التاريخ. عند محاكمته لمجمل نشاط ستالين، لا بد أن يرى الجانب الأهم منها أولاً. لذلك، وعندما يتم الخوض في أخطاء ستالين، لا بد من الدفاع عن الجوانب الإيجابية، لا بد من الدفاع عن الماركسية ـ اللينينية التي دافع عنها ستالين طوال حياته»(١٠). هذه نظرة محافظة، ولكنها مع ذلك، مدعمة بحجج.

ظهرت ردود فعل مختلفة في هذا الموضوع وغير مدعمة بحجج. في عام ١٩٧٩، وبمناسبة الذكرى المئوية لميلاد ستالين، صدر في البانيا كتاب «مع ستالين» لمؤلفه أنور خوجه. يصف أنور خوجا لقاءاته الخمسة مع ستالين «قائد الشعوب». إن هذا الكتاب لا يحتوي أية حجج مقنعة لعدم قبول القيادة الألبانية قرارات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي؛ ويحتوي على إدانة غاضبة وعاطفية لفكرة إدانة «القائد» و «الزعامة». يقول خوجه في كتابه: «إن نيكيتا خروتشوف وكل من يتفق معه قاموا، في المؤتمر العشرين، بتشويه صورة ستالين وإهانته بشكل مثير للقرف وبأسلوب تروتسكي بحت»(١١).

قام كل حزب من الأحزاب الشيوعية بـ «هضم» تقرير خروتشوف بطريقته الخاصة. فإلى جانب الصدمة وحالة الضياع، كان هناك بوادر تنشيط العمل النظري وإعادة تقويم الماضي ومحاولات تجديد أشكال العمل السياسي والفكري والاجتماعي. كل هذه المواقف المتناقضة، التي جاءت كردة فعل على ما حصل في موسكو في المؤتمر العشرين، أصبحت حقيقة واقعة. أعتقد أن خروتشوف نفسه لم يكن يتوقع أن خطوته ستثير كل هذه التناقضات.

خروتشوف، الذي كان موقع اهتمام ما يقارب ١٥٠٠ مندوب من أعضاء المؤتمر

العشرين، هو وشبح «القائد» الذي ذهب، تحول إلى قضية عالمية، تتضارب حولها الآراء وتتصارع (وهذا الصراع لم ينتهِ حتى الآن). وجهات نظر مختلفة حول مفهوم الاشتراكية. إن القوى التي تتبنى المفهوم الستاليني للاشتراكية مستعدة لكل شيء في سبيل الدفاع عن موقفها، بل هي مستعدة لاستخدام القوة العسكرية للمحافظة على الماضي كما هو. ولا تتجاوز إضافة بعض الرتوش التجميلية مع المحافظة على الجوهر(١٢).

لقد انقسمت القوى إلى معسكرين: معسكر بيروقراطي عنفي محدود وغير قابل للمساومة ومستعد لارتكاب أية جريمة في سبيل المحافظة على الفكرة، ومعسكر آخر ديمقراطي انساني وغير محدود النظرة وينطلق من أن الفكرة السامية يمكن تحقيقها بالاعتماد على أساليب نظيفة وإنسانية فقط. والمعسكر الثاني يعترف بالمساومات التاريخية وبمبدأ تعايش أنظمة سياسية وإيديولوجية مختلفة.

خروتشوف، حتماً، لم يكن يمتلك النظرة الديمقراطية الإنسانية التي نتعلمها ونكتسبها اليوم، ولكنه بدون شك قد فتح أبواب المعسكر الاشتراكي أمام القيم الروحية الجديدة التي، وحتى الآن، ما زال البعض يعتبرها خاطئة. نزع خروتشوف القناع عن الديكتاتورية والطغيان اللذين انعكست فيهما كل التناقضات المعقدة والصعبة لعصرنا الحالي. كان ستالين ماهراً في دمجه الفكرة السامية مع ممارسات لا إنسانية.

نستطيع اليوم أن نقول ان المؤتمر العشرين للحزب، على الرغم من كل النواقض التي عانى منها، أعطانا إمكانية إضافية لفهم العصر الذي نعيشه ولتعميق فهمنا للصورة السياسية لستالين.

سأعود مرة أخرى إلى ما قاله نيكولاي بيردياييف الذي فهم بشكل أعمق من غيره أسرار فلسفة التاريخ. إن التاريخ، ومن خلال الزحف الكوني الأبدي يمكّننا أن نحل الغاز هذه أو تلك من الشخصيات التاريخية، أو على الأقل أن نأمل بحلها. يقول بيردياييف: «إن كل إنسان بطبعه الداخلي هو عالم كامل، كون مصغر، ينعكس ويتجلى فيه عالم وحقبات تاريخية كاملة!!»(١٣).

إن كل باحث، يتجاوز حدود الزمان محاولاً أن يفهم ما قد ذهب وانقضى، يمتلك فرصة لأن يرى آثار ما قد خلفته أفكار وإرادة ورغبات الإنسان الذي يسعى لرسم صورته التاريخية. تساعد على ذلك عملية «التنقيب» عن بقايا وآثار الماضي المخيف. إن بقايا الستالينية تحتاج لتفهم وتحليل طويل.

إضافة إلى تحليل وقائع محددة، اضطررت في كتابي هذا أن ألجأ إلى منهجية فلسفية تاريخية تبدو وكأنها تنبؤ معكوس (تنبؤ بالماضي لا بالمستقبل). لا يمكننا التنبؤ بالمستقبل إلا إذا فهمنا الماضي حق فهمه.

المراجع

الفصل الرابع ـ بقايا القيصرية:

(١) د. ميريجكوفسكي. النذل القادم. دار بيروجكوف، ١٩٠٦. ص ٢٩.
(٢) برافدا. ١٥/١٠/١٩٥٢.
(٣) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ١٠٥. المجلد ٣. ل ٣٢٤ ـ ٣٢٧.
(٤) د. ميريجكوفسكي. النذل القادم. ص ٣٦.
(٥) غ. ف. بليخانوف. مؤلفات. المجلد ١٣. ص ٩٠، ٩٢.
(٦) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٣٣٧. المجلد ١. ل ٢٦.
(٧) المصدر السابق. د ٢٣٦. المجلد ٣. ل ١٨٠ ـ ١٨١.
(٨) ن. بيرديايف. جوهر التاريخ. فلسفة تجربة المصير الإنساني. باريس، ١٩٦٩. ص ٢٧.
(٩) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ١٣٢. المجلد ٤. ل ١٦٧ ـ ١٦٩.
(١٠) قرارات الحزب الشيوعي السوفييتي في المؤتمرات والكونفرنسات والاجتماعات العامة للجنة المركزية (١٨٩٨ ـ ١٩٧١). الطبعة ٨. موسكو. ١٩٧١. المجلد ٧. ص ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٠.
(١١) حول ستالين. بكين. ١٩٦٣. ص ٣، ٦ ـ ٧.
(١٢) أ. خوجه. مع ستالين. ذكريات. تيرانا، ١٩٧٩. ص ٢١.
(١٣) ن. بيرديايف. جوهر التاريخ... ص ٣١.

حكم التاريخ

هذه هي عثرة التاريخ القدرية.
طالما جرى الحديث عنها منذ القدم.
نيكولاي بيردياييف

في بداية عام ١٩٤٥، عندما كانت نهاية الحرب قد اتضحت، وفي أحد التقارير المسائية، قدم بيريا ورقة مكتوبة بخط جيد، بنفس النص، مطبوعة على الآلة الكاتبة، وضعهما بصمت أمام ستالين. أدرك ستالين أن بيريا لم يأتِ له بأوراق تافهة لا معنى لها. رمقه بتمعن ثم بدأ في القراءة:

«إلى يوسف فيساريونوفيتش المحترم:

نحن، أحفاد الكاتب ليو تولستوي: إليا إليتش وفلاديمير إليتش تولستوي، وعائلاتنا في يوغسلافيا التي حررها الجيش الأحمر من قوات الاحتلال الألمانية، عشنا مهاجرين لمدة ٢٣ عاماً. نطلب منكم الآن السماح لنا بالعودة إلى الوطن لكي نشارك في الحرب.

إننا ندرك بشكل كامل خطأنا وجريمتنا عندما هاجرنا إلى الخارج، ونطلب السماح لنا ومنحنا حق العودة لنتمكن من المشاركة في النضال الصعب الذي يخوضه شعبنا ـ تحت قيادة السلطة السوفييتية ـ من أجل سعادة وطننا.

عندما قمنا بمساعدة الجيش الأحمر في عملياته الحربية في منطقة سكننا، ارتبطنا قلبياً معه. ونحن على رغبة شديدة الآن ببذل جهودنا وأرواحنا في سبيل وطننا.

إننا نعلق آمالنا عليكم كإنسان قادر على أن يشعر ويتفهم صدق رغباتنا، وأن لا يرفض طلباتنا.

مع احترامنا العميق

١٩٤٥/١/٢٠
نوفي بيتشي ـ يوغسلافيا
إليا إليتش تولستوي
فلاديمير إليتش تولستوي»[١]

رفع ستالين رأسه ونظر مرة أخرى إلى بيريا، وقال في نفسه: «حتى هنا يُظهرون كبرياء النبلاء...»، «النضال الصعب الذي يخوضه شعبنا تحت قيادة السلطة السوفييتية»... جيد! اعترفوا بهذه السلطة، رغم أنهم لم يعترفوا بقائدها...». يقطع بيريا حبل أفكار «القائد» قائلاً بسرعة:

ـ ... إن إليا هذا إقطاعي سابق. في عام ١٩١٦ تخرج من قسم البحرية الحربية التابعة للجيش القيصري. في الحرب الأهلية حارب إلى جانب البيض. هرب بعد تدمير قوات كولتشاك في منطقة خاربين الصينية وسافر إلى اليابان، ثم إلى إيطاليا، ومن هناك إلى يوغسلافيا حيث يعيش منذ عام ١٩٢١. انضم في عام ١٩٣٣ إلى «الحزب الروسي الفتي» المعادي للسوفييت. عشية الحرب كان رئيساً لفرع الحزب في بلغراد. تعاون مع الصحيفة التي يصدرها الحرس الأبيض «الشؤون الروسية» حتى عام ١٩٣٩؛ هذه الجريدة كانت تنشر مقالات تسخر فيها من القادة السوفييت، وتنشر الدعاية للنظام الملكي. عاش لفترة طويلة في حالة فقر شديد. عمل محاسباً لفترة، ثم مع ابنه في تصليح الأحذية، وفي صناعة الألعاب. ابنه نيكيتا انضم الآن إلى إحدى فرق الجيش الأحمر...

ـ ما هي المعلومات عن الآخر ـ قاطعه ستالين.

ـ فلاديمير تولستوي... تلقى تعليمه في الفرقة الأولى في موسكو حتى عام ١٩١٧. تطوع للقتال ضد الألمان. بعد الثورة انضم إلى قوات الحرس الأبيض. هرب مع قوات غرانفيل إلى القسطنطينية. ثم هاجر إلى يوغسلافيا حيث عمل في مهنة البناء كعامل، ثم عمل مزارعاً في حديقة، ثم موظفاً في مخزن تابع لمصنع التبغ في مقدونيا...

ـ ماذا حول نشاطه المعادي للسوفييت؟

ـ ليس لدينا معلومات حتى الآن. ولكنه كان معتقلاً لدى الألمان بسبب مواقفه الداعمة للاتحاد السوفييتي.

استمر صمت ستالين، فقد وصلت إلى أسماعه أصداء الحرب الأهلية، وتذكر نهر الدماء الذي أريق. فكر مع نفسه بخبث: «كم هو عدد العائدين التائبين الآن؟ لقد أثبت التاريخ للجميع من هو الأقوى! ومن هو المحق!... إنهم الآن بقايا الماضي!...» تابع بيريا وكأنه على علم بما يفكر به «القائد»:

ـ لا بد أن يوغسلافيا تحوي الآن الكثيرين من بقايا الماضي هؤلاء: ضباط الحرس الأبيض والقوزاق... كذلك هو الحال في تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا... أعتقد أن الأخوة تولستوي يجب أن يجربوا معسكرات الاعتقال... ما الذي يدفعنا لأن نستثنيهم؟

صمت ستالين لدقيقة، ثم اعترض بشكل مفاجىء على رأي موظفه:

ـ انقل هذه الرسالة لمولوتوف، وليتم السماح لهم بالعودة. وليقم التاريخ بمحاكمتهم...

بعد شهرين ونصف من رسالة الأخوة تولستوي يصدر مولوتوف قراره: «السماح بعودة الاثنين إلى الاتحاد السوفييتي.

١٩٤٥/٤/٣
مولوتوف»[٢]

في شهر تشرين الأول (أكتوبر) حصلت عائلة وأحفاد الكاتب العظيم على الجنسية السوفييتية.

«ليقم التاريخ بمحاكمتهم» ـ تصريح غير عادي لستالين؛ فقد تعود أن يحاكم هو شخصياً. ظن «القائد» أن التاريخ سوف يحاكم الجميع باستثنائه. لقد افترض الديكتاتور أنه تسامى عن الماضي والحاضر والمستقبل. على الرغم من أنه يعرف أن الماضي يبتلع الكثيرين. إلا أنه يظن أنه لن يكون واحداً من هؤلاء الكثيرين. إن هذا المسيحي الذي أصبح ملحداً لأنه يعرف أن هذه الديانة العظيمة تفترض البعث. ولكنه لم يكن بحاجة لذلك، فقد آمن أن ذكراه خالدة وليس هنالك داعٍ لبعثها. أما المحاكمة... فإن عقلية ستالين السلطوية الدوغمائية توصلت منذ فترة طويلة إلى قناعة أن التاريخ لن يحاكمه، بل سيقوم بدراسته وبتبجيل وتعظيم اسمه. الجميع يرون ما صنعه: دولة عظمى، حزب واحد ووحيد، شعب متماسك ومتراص حقق بقيادته العديد من الانتصارات. كلا! إن ستالين لم يكن يفكر بأية محاكمة تاريخية.

هكذا كان يفكر ستالين فعلاً. ورد في «الموسوعة السوفييتية» التي صدرت بعد وفاته بعامين، أمام اسم ستالين: «رفيق وتلميذ لينين الوفي، والمتابع العظيم لرسالته الخالدة، قائد ومعلم الحزب الشيوعي والشعب السوفييتي وكل الكادحين في العالم»[٣]. لكن هذا المديح لم يستمر طويلاً.

نحن نعرف اليوم أن المحاكمة الأساسية لستالين بدأت في شباط (فبراير) ١٩٥٦، وهي مستمرة لما يقارب الثلاثين عاماً. حتى في سنوات حكم الفرد، كان هناك من يعلن رفضه لسياسة ستالين؛ وهذه بعض الأمثلة من الأرشيف العسكري. إن هذا الأرشيف يشهد أن موجة الإرهاب في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ لم تقابل بالطاعة العمياء. أثارت تلك الموجة نوعاً من الشك ومشاعر القهر، بل وأحياناً الاعتراض.

ورد في التقارير السياسية من فرقة الكوميسار غوفوروخين وفصيل الكوميسار فولكوف وفصيل الكوميسار كروغلوف التالي:

ـ الملازم في فرقة المدفعية (١٠١) شكروبات وهو غير حزبي يقول: «أنا لا أصدق ستالين بأن ياكير وتوخاتشيفسكي هما من أعداء الشعب».

ـ الجندي زوبروف يقول: «في ظل سلطة نيكولاي الأول لم تكفِ المشانق للجميع، كذلك الآن، لن تكفيهم الطلقات لكي يقتلوا الجميع».

ـ مدرس مدرسة المدفعية تروشينسكي يقول: «قد يكون ستالين بنفسه تروتسكياً!».

ـ قائد السفينة الحربية كيريلوف يقول: «لا أصدق أن بوخارين وغيره ـ هم من أعداء الشعب والاشتراكية. لقد أرادوا فقط أن يغيروا قيادة الحزب»(٤).

كان يرد في التقارير السياسية الكثير من مظاهر الاعتراض، وكانت تتم إضافة ملاحظات: فلان «يجري التحقيق معه في المخابرات» أو «حالات عدم التفهم والاحتجاج يتم قمعها في المكان».

إنني أتذكر، شخصياً، كيف أنه بعد الحرب، في نهاية الأربعينات، كان جارنا يقول لعمي بصوت منخفض: «لقد أهلك ستالين الكولخوزات... لقد وصلت الحالة بنا لأن «نذوق» الخبز في الأعياد فقط. كل شيء يذهب لهم وتأكله الضرائب... أية اشتراكية هذه؟!

إن أمثالي لم يروا شيئاً في هذه الحياة، نحن لا نعرف كيف يعيش الناس بشكل أفضل. الحياة الأخرى، حياة الكفاية ـ بدون الحاجة والممنوعات ـ حياة غريبة بالنسبة لنا. إن الفقر العام ومحدودية الإمكانيات أصبحت نمطاً طبيعياً لحياتنا؛ إن الذين يمتلكون إمكانية مقارنة حياتنا بحياة أخرى قادرون على الحكم على ستالين».

إنني، شخصياً كذلك، أعرف العديد من حالات الاعتراض والرفض، سواءً بشكل مباشر أو غير مباشر، حالات رفض قام بها عمال وفلاحون ومهندسون وكتاب وعلماء ممن حموا وعيهم وضميرهم من التشويه. إن حالات الرفض والتمرد الروحي والاجتماعي، وأحياناً التمرد العلني، لم تتم دراستها في واقعنا بشكل كافٍ.

حكم التاريخ يطلقه، قبل أي شيء، الشعب. هذا الشعب الذي سار ثلاثين عاماً خلف إنسان شوه فكرة عظيمة على الرغم من كونها يوطوبيا؛ لقد كان الفشل هو نتيجة محاولات تحقيق هذه الفكرة، حتى بعد مرحلة ستالين.

إن وضع ستالين على «منصة» الاتهام لعب دوراً كبيراً في تغيير صورته السياسية. وقد أشرت سابقاً إلى أن عملي هذا لا يكفي لرسم صورة كاملة لهذا الديكتاتور الطاغية، وهو لا يتعدى كونه مشروع عمل لمن يريد من بعدي أن يرسم صورته الكاملة. أصبح الآن واضحاً ما الذي يمكن كتابته اليوم عن ستالين. إن الكتابة عنه تعني البحث والتنقيب في ذلك العصر الذي طبعه هذا الشخص بطابع دموي. وفي كل الأحوال أستطيع اليوم، وعلى أساس تحليل آلاف الوثائق من مراسلات الديكتاتور وقراراته أو ذكريات من تعامل معه، أن أضيف بعض الرتوش الأخيرة على هذه الصورة. لذلك سأقوم بالإجابة على بعض الأسئلة التي أعتقد إنها ستكون مفيدة للجيل اللاحق في الحكم على ستالين والستالينية.

هل كان ستالين ثورياً؟

أعتقد أنه كان كذلك. ولكن إلى أي مدى وإلى أية فترة؟ خلال فترة العمل السري والمنافي والسجون، وفي فترة الثورة والحرب الأهلية، حيث كان للينين وتأثيره الفضل في تربية بعض الصفات التي تحلى بها في ذلك الوقت الكثيرون: الإيمان

بصحة الأفكار الماركسية، الثقة بأن الواقع يمكن تغييره تبعاً للقناعات، الميول نحو الراديكالية البرجوازية الصغيرة، الاعتماد المطلق على المقاييس الطبقية، النظرة العبثية للقيم الديمقراطية والإنسانية. كان ستالين في هذه الفترة، كما هو حال لينين، أحد اليعاقبة الروس.

لقد كان ستالين شخصاً غير ملحوظ قبل الثورة على الرغم من أنه يدخل في عداد قادة الثورة الأساسيين. لذلك يصعب على الباحثين في التاريخ أن يقولوا عنه شيئاً في فترة ما قبل انتصار الثورة. ومع ذلك، كان يمتاز بقدرة على اتخاذ القرارات بشكل مستقل في بعض الأحيان، وقد لاحظ لينين ذلك. هناك بعض الشهادات، التي لم تكن معروفة سابقاً، تثبت ذلك: عقدت هيئة مفوضي الشعب في ١٩١٧/١١/٢٨ اجتماعاً ترأسه لينين (وحضره تروتسكي، ستوتشكا، بيتروفسكي، مينجينسكي، غليبوف، كراسيكوف، ستالين، بونتش - بروييفيتش، وآخرون غيره). سأورد بعضاً من فقرات محضر هذا الاجتماع:

«... تمّت مناقشة...

٢ - مشروع قرار (مقدم من الرفيق لينين) لاعتقال الأعضاء البارزين في اللجنة المركزية للحزب المعادي للشعب (المقصود حزب الكاديت - المؤلف) ومحاكمتهم في المحكمة الثورية.

القرار:

تمت الموافقة (جميع الحضور مع القرار، ستالين ضده)»[٥].

إن هذا الموقف لستالين يبدو اليوم غير معقول. من الممكن أنه أراد بتصرفه هذا أن يعلن عن نفسه، ومع ذلك، فالوثائق تمتلك منطقاً عنيداً. إن هذه الحادثة البسيطة تشهد أن ستالين قطع مسافة كبيرة في تطوره الثوري. إنه لم يكن دائماً مصاص دماء. وقد كان تطوره في البداية هادئاً وإيجابياً، إذ ليس صدفة أن يرشحه لينين لمنصب الأمين العام للحزب، وأن يصفه لاحقاً بأنه من «أبرز القادة». لقد ذكرت سابقاً أن كامينيف هو الذي رشح ستالين لمنصب الأمين العام، ولكن ليس هناك أية وثائق رسمية هامة تثبت ذلك. كتب ميخليس في جريدة الـ «برافدا» في ١٩٤٩/٤/٩ مؤكداً أن لينين هو الذي رشح ستالين لمنصب الأمين العام. إلا أن ميخليس شخصية مغمورة جداً ولا يمكن اعتمادها كمرجع.

على كل حال، أريد أن أقول إن المنصب الرفيع لعب دوراً كبيراً في تغيير ستالين. من المعروف في التاريخ أن المقياس الأساسي لمعرفة حقيقة الناس هي امتلاكهم للسلطة: كيف سيتصرفون بهذه السلطة؟ لعبت السلطة دوراً كبيراً في إيقاظ الميول النائمة داخل هذه الشخصية التي لم تكن معروفة سابقاً بشكل جيد. لقد ظهر ستالين على حقيقته. بقي ستالين ولم يتغير، كل ما تغير هو تصرفاته بالسلطة التي أصبح يمتلكها. لقد صار ستالين، ببساطة، **لينينياً** قاسياً دموياً وغير مساوم.

بعد موت لينين، بدأ الثوري في ستالين يموت ليلد مكانه الديكتاتور. في بداية

الثلاثينات، بدأت المرحلة الأولى لولادة القيصرية. ولو استعملنا كلمات جان جوريس، لقلنا في وصف هذه المرحلة «إن ضياء الثورة بدأ يتلاشى في أجوار التيرميدور المعتمة»(٦). أما في مرحلة الطغيان، فمن الصعب أن نميز بين ستالين الديكتاتور والثوري السابق. هل من الممكن أن نصدق الآن أن ستالين في ١٩١٧/١١/٢٨ وقف ضد اعتقال قيادة حزب الكاديت؟ وهو نفسه، وبدون أي تأنيب ضمير، يقوم في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩، أي قبل فترة قصيرة من عيد ميلاده السبعين، بالموافقة على الأحكام التي أصدرتها لجنة خاصة تابعة لوزارة الداخلية السوفييتية بحق قائمة طويلة من الأسماء:

٢ أيلول ـ ٣٠ شخصاً يحكم عليهم بالأعمال الشاقة لمدة عشرين سنة.
١٠ أيلول ـ ٥٢ شخصاً يحكم عليهم بالأعمال الشاقة لمدة عشرين سنة.
١٦ أيلول ـ ٣١ شخصاً يحكم عليهم بالأعمال الشاقة لمدة عشرين سنة.
٢٤ أيلول ـ ٧٦ شخصاً يحكم عليهم بالأعمال الشاقة لمدة عشرين سنة(٧).

وهكذا الحال على امتداد الأشهر التي بقيت من حياته، مع أن الأغلبية العظمى من هؤلاء لم يرتكبوا أية جريمة. ألا نرى الآن ستالين جلاداً دموياً لشعبه؟ وهل نستطيع إلا أن نثبت هذه الحقيقة كسمة أساسية من سمات ستالين؟ هذه هي الحقب التي تطور فيها ستالين خلال ثلاثين عاماً؛ ابتدأها كإشتراكي ديمقراطي وأنهاها كطاغية دموي.

كان ستالين راديكالياً، ولكنه كان محروماً من الرومانسية الثورية؛ ولم يكن يحلق عالياً بأحلامه وأفكاره. حتى في تلك الفترة التي كان كل قادة الثورة البلشفية، وعلى رأسهم لينين، يحلمون باندلاع الثورة العالمية، كان ستالين غير مبالٍ بهذه الفكرة ولم يؤمن بها. وقد ابتسم ساخراً عندما قام بوخارين في المؤتمر الرابع للكومنتيرن (عام ١٩٢٢) بتقديم اقتراح حول حق الدولة البروليتارية في «التدخل والانتشار الأحمر» لأن «انتشار الجيش الأحمر يعني انتشاراً للاشتراكية سلطة الثورة البروليتارية»(٨). لقد كان أول أمين عام للحزب ينظر بعدم ثقة لثورية أوروبا، بل وحتى آسيا. لقد كانت الاشتراكية في بلد واحد تعجبه أكثر. من الممكن القول أن ستالين وتروتسكي كانا يتميزان بثورية برجوازية صغيرة مع فارق أن تروتسكي كان يطالب بـ «ثورة شيوعية عالمية»، بينما ستالين، الذي كان براغماتياً بطبعه، كان يعتبر الثورة الشيوعية العالمية فكرة طوباوية. إن ثورية ستالين كانت مع الانتشار «العميق» لا الانتشار «العريض».

تميز ستالين بنزعات انعزالية قوية؛ لذلك، قام بتثبيت «ستار حديدي» لعزل الاتحاد السوفييتي عن بقية العالم. إن قيام أي مواطن بزيارة «ولو كانت لمهام عملية»، إلى خارج الاتحاد السوفييتي، كان ينظر إليها بشك في الفترة الستالينية، بل وما بعد هذه الفترة. إذا كانت الدول الرأسمالية قد قامت في العشرينات بوضع حواجز لمنع انتشار «الوباء الأحمر»، فإن الصورة قد انعكست لاحقاً، إذ صار ستالين يضع هذه الحواجز؛ كان يضع هذه الحواجز خوفاً من معرفة الواقع.

إن معرفة الواقع على طرفي الستار الحديدي تمنعه من تأكيد الخرافة حول الفقر

العام والوضع المزري للعمال في الدول الغربية. لقد كان من الضروري عزل الشعب السوفييتي عن الحقيقة. كان ستالين يحتاج إلى الجمل الثورية فقط، لأن الثورة بحد ذاتها أصبحت لا تناسب الديكتاتور إذا لم تكن تحت إشرافه المباشر وموافقته.

ما هي صورة ستالين كرجل دولة؟

احتل ستالين المنصب الأول في الدولة ـ رئيس مجلس مفوضي الشعب ـ فقط في ٦/٥/١٩٤١. وقد بدأ نشاطه كرجل دولة في منصبين مهمين هما: رئيس مفوضية الشعب لشؤون القوميات ومفوض الشعب للجنة الرقابة العمالية الفلاحية. لم يعط الكثير من وقته للأفكار التي كان يعتبرها طوباوية، مثل فكرة انتهاء دور الدولة وموتها. وحين كان يتحدث عند هذه الفكرة، كان يقول ـ كما قال في المؤتمر الثامن عشر للحزب: إن موت الدولة وانتهاء دورها في المستقبل ممكن فقط بعد مرحلة تثبيتها وتصليب بنيانها. وأما في مرحلة ما بعد أكتوبر ـ فقد كان يقول ـ فنحن نحتاج إلى سلطة قوية «حديدية» لا تعترف بمقولات الديمقراطية البرجوازية.

لم يكن يخطر بباله أن الشعب يجب أن ينتخب في أجواء من الحرية ممثليه في السلطة، وإنه يجب أن يكون هناك مرشحون كثر لهذه المناصب. عندما وصل ستالين للسلطة كان يعتبر أن سلطته يجب أن تستمر إلى نهاية حياته، وفي الدولة اعتبر الجهاز الإداري من أهم مقوماتها؛ وأعطى جل اهتمامه لجهاز وزارة الشؤون الداخلية. وحتى الحزب نفسه حوله خلال فترة قصيرة إلى ما يشبه الجهاز الإداري، أو إلى محفل إيديولوجي حكومي.

لقد رأى ستالين في الدولة جهازاً للسلطة قادراً على أن يجعل هذه السلطة محقة دائماً. هو، طبعاً، لم يتدنَّ إلى مستوى المقولة المبتذلة: «الدولة ـ هي أنا» (وهي مقولة للويس الرابع عشر ملك فرنسا ـ المترجم)، بل إنه لم يشغل منصب الرجل الأول في الدولة إلا في عام ١٩٤١، ومع ذلك، امتلك كافة صلاحيات السلطة التشريعية والتنفيذية. حوّل ستالين الجهاز الحزبي الحكومي إلى إدارة لضمان سلطة الفرد غير المجزأة.

هذا الشخص لم يكن يعرف مؤلف أفلاطون ـ «الدولة»، ولو قرأه لدهش جداً لمدى تطابقه مع نموذج أفلاطون! لقد كتب أفلاطون أن «صياغة القوانين وإعلانها مقياس للعدالة، يلتزم به المواطنون... يعاقب كل من يتجاوز هذه القوانين... وهكذا، فالعدالة تحمل معنى واحداً هو إنها بالتحديد ما يناسب السلطة القائمة، فالسلطة ـ هي القوة. إن من يفكر بهذا الشكل يصل إلى النتيجة الصحية بأن العدالة واحدة في كل مكان: إنها ما يناسب الأقوى»[٩]. وهكذا، فعلى الشعب أن يأخذ في حسبانه أن الدولة هي وحدها التي تحدد ما هو عادل وما هو غير ذلك. يجب أن يعاقب بدون رحمة كل من يشكك بذلك.

كان يصل ستالين كَمٌّ كثير من الرسائل يومياً، ولكنه كان يقرأ أهمها. وفي كثير من الأحيان، كان يعتمد على وجهة نظر بوسكريبيشيف ومعاونيه. وفي كل الأحوال، لم

يكن ستالين يعطي مجالاً للتفكير، بعد قراءته لهذه الرسائل، بإمكانية أن تكون الدولة قد أخطأت. فمثلاً، في إحدى المرات، يُحضر مساعده مجموعة رسائل من أقرباء حفيد يوري بيستيل (أحد المشتركين في انتفاضة الديسمبريين في عام ١٨٢٥). تقول هذه الرسائل أن هذا الحفيد مسجون منذ عشر سنوات وهو معاق، يده مقطوعة. وتنتهي الرسائل بطلب الرحمة... ذلك أن اسم بيستيل يعني الكثير في تاريخ روسيا. ولكن ستالين ألقى بالرسالة جانباً دون أن يعلق بشيء.

وهذا مثال آخر، «... إن أبنائي الأربعة، وهم من حملة الأوسمة ورياضيون محترفون، هم الأخوة نيكولاي وألكساندر وأندريه وبيوتر، تم اعتقالهم في ١٩٣٩/٣/٢١. حكمت عليهم المحكمة العسكرية العليا للاتحاد السوفييتي، على أساس المادة (٨٥ ـ ١٠) من قانون الجنايات، بالسجن لمدة عشر سوات. الرجاء أن تسمحوا لأبنائي أن يحوزوا على شرف القتال في الجبهة.

١٩٤٤/٣/١٢

الكساندرا ستاروستينا»[١٠]

ألقى ستالين بهذه الرسالة جانباً: ليقم بيريا بالنظر في هذه الرسائل، فهو يعرف وجهة نظر «القائد» بأن الدولة لا تعاقب بدون سبب.

لماذا تم تثبيت البيروقراطية الشمولية في سنوات الحكم الفردي لستالين؟ لقد حصل ذلك لأنه في فترة حكمه الفردي لم يتم البناء الكامل للاشتراكية (كما كان ستالين يؤكد)، بل تم بناء نظام الثكنات التوتاليتاري. وفي مثل هذا البناء لا بد من البيروقراطية التي تقوم بتغطية المشاكل لا بحلها. كانت البيروقراطية تؤكد خلال سنوات طوال أن كل مشاكل السلطة والثقافة والفكر الاجتماعي وحقوق الإنسان كانت محلولة. وقد ساعدت الدولة بكافة الأشكال على تنمية البيروقراطية لأنها كانت بحاجة إلى من يقوم بمهمة الحراسة والتفتيش. كذلك ساعدت الظروف الدولة الخارجية على تقوية البيروقراطية. بقدر تراجع الحركة الثورية في الخارج، بقدر ما كانت تتزايد احتمالات الحرب، وبقدر ما كان الوضع الداخلي يحتاج إلى «شد البراغي». وفي النهاية تكون البيروقراطية هي المنتصر في البلد. البيروقراطية التي هيمنت على الفكر والحزب والشعب؛ وفي معبدها يتربع الكاهن الأساسي ـ «ستالين العظيم». إن «قائد الشعوب» أصبح رمز البيروقراطية الشمولية في المنظومة الشيوعية. إن الحمم الثورية المنطلقة من بركان ثورتي شباط (فبراير) واكتوبر همدت وتجمدت أمام لامبالاة البيروقراطية الستالينية. وسوف يمر زمن طويل قبل أن يقدم التاريخ حساباته المستحقة للدفع.

إن الحرية وديكتاتورية الفرد لا يمكن أن يلتقيا، وقد أراد ستالين أن يجمع بينهما. إن هذه الحقيقة كافية لأن يقوم التاريخ بحكمه. الديكتاتورية هي ضياع حرية الملايين، وإقرار حرية الطاغية وحده. لا بد من الإقرار بأن أعراض الأمراض الستالينية تم الحديث عنها من قبل غير البلاشفة قبل البلاشفة. في عام ١٩٣٢ صدر في باريس كتاب لـ ألسكاندروف «هل ستالين ديكتاتور؟»، الذي حاول أن يبحث في جذور وطبيعة الستالينية وخصائص السلطة الطاغية للدولة. يقول المؤلف إن ستالين «لم

يجمع السلطة في يديه اغتصاباً، بل إن تاج الزعامة قدمه له الجهاز الحديدي الذي يقف على رأسه مجموعة من قادة الحزب البارزين الأوفياء له، والذين يتفقون معه في كل شيء»[١١]. وأود أن أؤكد بهذا الصدد أن الحزب لا يستطيع أن يبرىء نفسه مما جرى في الماضي، ولا يستطيع أن يتنصل مما صنعته الستالينية. إن الدوغمائية والبيروقراطية لم تولدا الدولة والمجتمع الخاصين بهما فقط، بل ولّدتا أدواتهما التي كان الحزب الشيوعي من أهمها.

كان ستالين مؤمناً بقوة الآلة الحكومية الضخمة فقط؛ وكان ينظر بريب إلى أية ظاهرة من ظواهر المبادرات الاجتماعية المستقلة. إن أي تصرف مستقل لأية منظمة اجتماعية لا يتم أخذ الموافقة عليه من الجهاز (حتى ولو كان لا أهمية له) يعتبر ظاهرة عدائية. استطاع ستالين أن يجمع ما بين الاشتراكية والسلطة المطلقة، ولكن اشتراكيته هذه كانت اشتراكية الحكم المطلق.

هل كان ستالين قائداً حزبياً حقيقياً؟

إن هذا السؤال لا يطرحه المؤلف بقدر ما يطرحه الزمن. وللإجابة على هذا السؤال أقول التالي: إن ستالين عاجز عن أن يكون قائداً لحزب تقدمي. تخلى قبل الثورة، بتأثير لينين، عن قيم الاشتراكية الديمقراطية «المضللة». إن لينين وكل من كان معه، بقضائهم على المناشفة، حكموا على أنفسهم بالتفكير التوتاليتاري. ولهذا، فقد بدأ ستالين مباشرة بالعمل لتغييرات داخل الحزب نفسه. وعملياً، مع نهاية العشرينات، كان الحزب قد فقد بداياته الديمقراطية. لقد صار ستالين قائداً لحزب آخر. فما هي الأشكال التي تبدت من خلالها هذه التغييرات؟

تغيرت تركيبة الحزب، فلو نظرنا نظرة عميقة ومنهجية إلى تاريخ الحزب لوجدناه تاريخ صراعات مجموعات مختلفة، أو كما كانت تسمى ـ «تكتلات»، أو «معارضة». أعتقد أن الاختلاف في وجهات النظر كان يثير مخاوف غير مبررة. إن النضال من أجل الوحدة الفكرية هو في حقيقته نضال من أجل الحد من حرية التفكير؛ كان الحزب يحتاج إلى حراس الفكر. إن عدم إمكانية التعبير الحر عن وجهة النظر الخاصة، والاستعداد في نفس الوقت لتنفيذ وجهة النظر المقرة، وضعت الحزب أمام مخاطر التحولات العميقة لجوهره ومحتواه. وبفقدان الحزب لجوهره الاشتراكي الديمقراطي تحول إلى أداة توتاليتارية في يد الدبكتاتور. ثم تولدت الامتيازات، وتم تثبيت الحقوق المطلقة للجنة المركزية (التي تخفت خلفها إرادة ستالين). إن المركزية الديمقراطية تحولت إلى بيروقراطية مركزية، وتحجر الحزب. ماذا يعني هذا؟ إن هذا يعني أنه أصبح جسماً سياسياً اجتماعياً ضخماً من جهة، ومحروماً من أية قدرة على الإبداع من جهة أخرى. حتى أن لينين، مؤسس الحزب، أبدى قلقه من التوسع الكبير في صفوف الحزب. فقد كتب في رسائله إلى مولوتوف في آذار (مارس) ١٩٢٢ عارضاً قلقه من الترهل في صفوف الحزب، ومطالباً بالتدقيق في قبول الأعضاء الجدد: «إذا كنا نمتلك الآن ٣٠٠ ـ ٤٠٠ ألف عضو حزبي، فإن هذا العدد كبير جداً. كل المعطيات تؤكد بوضوح عدم التأهيل الكافي لأعضاء الحزب الجدد»[١٢].

وبفضل جهود ستالين وزينوفييف تم تسهيل شروط العضوية، فنما الحزب عددياً بشكل سريع. وكما تحدث الأمين العام في المؤتمر الرابع عشر، فإن عدد أعضاء الحزب في عام ١٩٢٥ وصل إلى ما يقارب المليون عضو(١٣).

دخل صفوف الحزب العديد من الأشخاص الذين لا يمتلكون أية أهلية سياسية، وينظرون بعداء لكل ما له علاقة بالاشتراكية الديمقراطية، ومستواهم العلمي والثقافي متدنٍ جداً. لقد رأى هؤلاء الناس في الحزب وسيلتهم لامتلاك وضع اجتماعي معين، وفي المقابل تم التشديد على شروط عضوية المختصين: من المهندسين والمدرسين والعسكريين القدامى. وبهذا تراجع مستوى الكفاءة العامة وتدنى مستوى النضج السياسي والاجتماعي.

لقد كان المقياس الأساسي للعضو الحزبي الجيد ـ هو استعداده لتنفيذ قرارات المركز، وتأييده لتوجهات اللجنة المركزية وأمينها العام. تحول الحزب كلياً، خلال فترة قصيرة بعد انتصار الثورة، إلى منظمة مطيعة تمتلك صفات الجهاز الإداري الخاص، ومشابهة لما أسميته سابقاً بالمحفل الإيديلوجي. وقد أصبح ستالين قائداً حزبياً لمثل هذا الحزب.

إضافة إلى ذلك، ومنذ بداية الثلاثينات، أصبح القسم الأساسي من الأعضاء والقادة الحزبيين الذين كانوا على اطلاع ومعرفة بالجوهر الاشتراكي الديمقراطي للحزب ـ على حد تعبير ستالين، وبفضل جهوده طبعاً ـ أصبحوا «خارج العربة». إن القائد الجديد للحزب ما كان ليستطيع أن يصبح حاكماً مطلقاً وقيصراً في الحزب والدولة بدون أن يجري تغييرات عميقة في تركيبة الحزب وفي الوظائف الحزبية؛ وقد تحقق له ذلك. وعندما قامت بقايا ممثلي حقبة ما قبل الثورة بإبداء قلقها كان الوقت متأخراً؛ وعملياً، كانت كل المراكز محتلة من قبل مرشحي الأمين العام.

لذلك، وعلى سؤال: «هل كان ستالين قائداً حزبياً حقيقياً؟» أجيب بشكل قاطع: لقد كان زعيماً لحزب ستاليني فاقد لكل ذخيرته من الاشتراكية الديمقراطية القديمة. لقد بقيت المركزية بدون ديمقراطية، والانضباط بدون الابداع. بقي عدم احترام وجهة النظر الأخرى. وضاعت حرية إبداء الرأي.

إن الجهاز الحزبي المركزي، في منتصف العشرينات، كان مسيطراً سيطرة مطلقة على التعيينات الحزبية في مختلف المناصب والمواقع. وقد أبقى ستالين هذا المجال تحت سيطرته الكاملة. فمثلاً في الأربعينات، عندما كان مالينكوف يقوم بالإشراف على التعيينات الكادرية، كان بشكل مستمر يبلغ «القائد» بالتغييرات في المستوى العلوي والوسطي لـ «الفيلق الستاليني». إن الاطلاع على أرشيف مالينكوف ومراسلاته وتقاريره لستالين يظهر أنه، ومن خلال هذه القناة، كان الجهاز البيروقراطي يتلقى مواد الترميم. إن كل الأجهزة المختلفة، سواء الحزبية أو الحكومية أو لجان السوفييت أو أجهزة الأمن، كانت تتلقى أعضاءها من خلال القوائم التي يرشحها مالينكوف ويقرها ستالين. فقد رشح مالينكوف العديد من الشخصيات مثل شتانكو ومازورين وبانفيلوف وإيفانوف وبارفينيف وأوليونين وغيرهم من الأسماء التي أسعدها الحظ أن تكون مرشحة بفضل إرادة «القائد».

استطاع ستالين أن يصير «قائداً» للحزب لأنه بنى مجتمعاً أحادي الجانب. لقد كتب خودينخوفي ـ كاليرغي في كتابه «البلشفية في أوروبا» الذي صدر عام ١٩٣٢ بأن ستالين قد صنع نظامه الخاص «... حيث تسود إرادة واحدة، وفهم واحد للعالم، وحزب واحد، ونظام واحد. إن كل الاتحاد السوفييتي ـ هو مزرعة واحدة، فيها كل المواطنين ـ جيش عمل واحد»(١٥). إن هذه الأحادية التي كانت تعتبر سابقاً علامة للقوة، اعتبرت فيما بعد ظاهرة تستحق النقد. إن التاريخ يثبت أن هذه الظاهرة هي ظاهرة سلبية. إن التعددية والليبرالية تساعد على الإبداع الاجتماعي والفكري والأخلاقي، أما الأحادية فهي باردة متجمدة؛ وستالين كان معجباً بالثانية إلى حد كبير. لم يكن ستالين نبياً على الرغم من أنه آمن باليوطوبيا. لقد كان ينظر أمامه وكأنه ينظر من خلال ثقب «التنشين» [التسديد على الهدف]. إن أحد أسرار انتصاره (ومأساة الشعب) يكمن في أنه استطاع أن يبني بشكل متدرج آلة ضخمة من المتفرجين. قد يكون من غير الصحيح أن نقول إن ستالين هو الذي بنى البيروقراطية، وليس العكس أيضاً، لأن كلاهما بحاجة للآخر. إن البيروقراطية الشمولية ما كان باستطاعتها أن تزدهر بدون هذا «القائد». كان ستالين يفهم الماضي بشكل أحادي، لأنه لو فهمه بشكل آخر لصار واضحاً له أن أية ثورة تخلق ثورة مضادة، سواءً كانت قوية أم ضعيفة. إن ثورة أكتوبر، عندما أسقطت ثورة شباط (فبراير)، خلقت أيضاً ردة فعل ثورة مضادة حملت في موجتها العديد من الأشخاص، كان من أبرزهم ستالين. ثبت الأمين العام على هذه الموجة، ودفع بكل منافسيه واحداً بعد الآخر إلى الهاوية. وعندما بدأت مرحلة الجزر الثوري كان ستالين قد ثبّت نفسه على الشاطىء ومعه مجموعته البيروقراطية التي احتلت كل المراكز الأساسية في النظام. وكما لاحظ تروتسكي، فإن «الخلفية الخنزيرية للبيروقراطية كانت أثقل من رأس الثورة»(١٦). ومنذ ذلك الحين أصبحت مهمة بناء الاشتراكية مهمة إدارية لا اجتماعية. لقد عدت مرة أخرى للفت انتباه القارىء لصفات ستالين كثوري وكرجل دولة، وكقائد حزبي؛ وقبل ذلك كنت قد حاولت أن أرسم صفاته كمنظر ودبلوماسي وقائد عسكري. إن كل هذه الصفات مجتمعة تساعد على وضع مشروع لدراسة كاملة وعميقة لهذه الشخصية التي ما زالت مجالاً للجدل المترافق مع إدانات حادة أو عدم تفهم محزن. لقد حاول البعض إنقاذ ما تبقى من عظمة هذا النجم السابق. وسوف يأتي اليوم الذي ترسم فيه الصورة الكاملة لهذا الشخص بفضل الجهود العامة وبفضل التاريخ الذي سيعطي حكمه.

نتيجة للتحليلات التي قمنا بها، يمكننا اليوم أن نقول إن ستالين شخصية سياسية حتى العظم، فقد كان يرى العالم من منظار مصالحه السياسية الخاصة، ومبادئه السياسية، وأضاليله السياسية. كان ستالين يعتبر أن تحقيق اليوطوبيا (جنة الأرض) ممكن، ولكنه يتطلب عذاب وأرواح الملايين من الناس. وسياسة ستالين من حيث الجوهر كانت تنطلق من قناعة بأن المسار التاريخي السابق ما هو إلا تجهيز وإعداد لـ «التاريخ الحقيقي» الذي هو رفاهية وسعادة الأجيال القادمة التي ستعيش في أرض الميعاد. لقد كان ستالين مستعداً لأن يضحي بماضي وحاضر الشعب في سبيل مستقبل واهي المعالم.

كم كان بيردياف على صواب عندما قال بأن الماضي واهي المعالم لأنه أصبح

غير موجود، وبأن المستقبل أيضاً واهي المعالم لأنه لم يوجد بعد. لم يستطع ستالين أبداً أن يتجاوز في السياسة الهوة ما بين الماضي والمستقبل، لأنه افترض أن الحاضر ما هو إلا «مرحلة استعداد».

لقد استعجل ستالين الزمن بشكل غير عقلاني، «لقد تأخرنا مدة ١٠٠ عام، ويجب علينا أن نتجاوزها بـ ١٠ أعوام»؛ وفي عجلته هذه كان مستعداً لتدمير ملايين الناس من أجل «الإنجاز السريع» لعملية إنشاء التعاونيات. كذلك قام بتدمير كل رفاقه القدامى في الحزب من أجل تحقيق الوحدة الفكرية، واعتبر ذلك طبيعياً. ويبدو أن ستالين كان مؤمناً بحق في قدرته على «إسعاد» الملايين من أبناء المستقبل عن طريق الجرائم العديدة التي يرتكبها الآن. إن سياسته ـ «صنع المستقبل» ـ هي سياسة مجرمة مهما كانت النوايا التي تسترت بها. من أجل تحقيق هذه السياسة كان ستالين، في حاضره، يتصرف بمستقبل الملايين من مواطنيه.

وهذه فقرة من إحدى الوثائق التي تتحدث عن تنفيذ قرارات ستالين:

«إن تقرير وزارة الداخلية ينص على أنه، إلى حين الأول من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٠، كان على قائمة من سيتم تهجيرهم ٢٥٧٢٨٢٩ مهجراً (مع عائلاتهم). سيتم تهجير ٨٩٤٤٣٢ إنساناً إلى كازاخستان، وأما الباقون فسوف يوزعون بالتساوي على آسيا الوسطى ومنطقة الأورال وسيبيريا. من بين هؤلاء المهجرين هناك ٢٧٨٦٣٦ يمتلكون بيوتهم الخاصة، و ٦٢٥٤٠٧ يمتلكون قطعاً صغيرة من الأرض وبعض المواشي المنزلية. في عام ١٩٤٩ تمت محاكمة ١٩٣٢ مهجراً لأنهم عادوا إلى مناطق سكنهم الأولى، وتمت محاكمتهم في محكمة خاصة، وحكم عليهم بالسجن لمدة عشرين عاماً مع الأشغال الشاقة. وتبعاً لقرار رئيس مجلس السوفييت الأعلى الصادر في ٢٦/١١/١٩٤٨، إن هؤلاء المواطنين قد تم تهجيرهم إلى الأبد»[١٧]. مهجرون إلى الأبد... يا له من قدر محتوم!... واشتراكية! تماماً كما في زمن القيصر: تهجير ونفي وسجن وأشغال شاقة، مع فارق بسيط هو في الأعداد! فهذه الأعداد أكثر بما لا يقارن من تلك في أيام القيصر. لقد كان بيرديايف على حق (سأعود مرة أخرى له) حين قال في كتابه «روح الثورة الروسية»: ليس هناك أي شعب تتوحد في داخله أزمان مختلفة بهذا الشكل، كاتحاد القرن العشرين بالقرن الرابع عشر داخل الشعب الروسي»[١٨]. فقسوة العصور الوسطى أتى بها ستالين إلى القرن العشرين.

إن التجربة التاريخية المحزنة التي يمثلها ستالين تناقض روح وتصرفات هذا الشعب الذي حاول أن يتخلص من الستالينية ـ وهذه المحاولة يمكن رؤيتها بشكل أوضح عند تحليل حياة كل شرائح المجتمع السوفييتي. ما زال البعض يجادل أن الناس كانوا يقتحمون الأخطار صارخين: «في سبيل الوطن!! في سبيل ستالين!!»؛ فهل من المعقول القول بأن أولئك الناس لم يكونوا يحبونه! كلا، من غير الممكن أن ننفي هذا، فقد أحبه الناس حقيقة، ولكنه هو لم يكن يحبهم!! وأكثر من ذلك، لقد خدع الملايين بخبث شديد عندما جمع بين ذاته والاشتراكية. لم يدرك حينها أنه بتصرفه هذا قد حكم على الاشتراكية وجنى عليها تاريخيا!! إن الإيمان باليوطوبيا انتقل بشكل أوتوماتيكي إلى إيمان بشخصه. وأعتقد أن هذه أغرب حالة عمى أصابت شعباً بأكمله.

لقد استطاع أن يسخر ميل ملايين الناس نحو العدالة الاجتماعية والسعادة والازدهار لأهداف أنانية فردية. إن الحماس الجماهيري والبطولة الجماهيرية ساعدت ستالين في بناء نظامه الثابت والذي كانت قيادته في يده وحده. حوّل الحاكم المطلق الدولة إلى «امبراطورية ستالينية»، حيث أفكاره وحده كانت تتمتع بأهمية تاريخية.

سوف يتواصل البحث عن الجذور العميقة للزعامة القيصرية التي استطاع ستالين أن يوهم الناس بأنها اشتراكية. إن غياب، وبالأحرى تدمير، كل البدائل المعقولة جعلت فرص ستالين قوية بهذا الشكل. وليس هناك من مجال للشك أن ستالين أدرك قبل غيره من المحيطين به «سر السلطة» عندما تتجمع في يد واحدة. وعندما قرأ كتاب لوزينسكي «تاريخ العالم القديم» في العشرينات، لا بد أنه قد أكد على بعض الفقرات. (أنا على قناعة بأن الحاكم المطلق قد أكد فقط على ما يحمل أهمية بالنسبة له).

في الفصل الذي يتحدث عن أوغسطوس (٦٣ ق.م. ـ ١٤ م: أول أباطرة الرومان. أعاد تنظيم الجيش ـ المترجم)، لا بد أنه قد وضع علامة بقلم الرصاص تحت الكلمات التالية: «المواطن الأول... القائد الأعلى». وعندما قرأ الفقرة التي تتحدث عن يوليوس قيصر، توقف ستالين أمام كلمات: «القائد المنتصر». وأما في كتاب «تاريخ روسيا»، فقد خط ستالين بقلمه تحت فقرة: «جنكيز خان قتل الكثير من البشر، قائلاً: إن موت المهزومين ضروري من أجل راحة المنتصر». نعم، لقد كان هو المنتصر، فكم من جثث القتلى قدمت من أجل «راحة المنتصر»، بما يزيد عن ما كان يحلم به جنكيز خان نفسه، ولكنه، وبعد مرور الوقت، سوف يتضح بأنه قد هزم تاريخياً.

هذه الإضافات تؤكد مرة أخرى أن ستالين كان مدركاً لما يريد. أما خصومه، فقد أدركوا ذلك بشكل بطيء.

لماذا لم يتم التصدي الحازم لظاهرة «الزعامة»؟ لا يكمن ذلك في الأسباب العديدة التي ذكرتها سابقاً فقط، هنالك سبب أساسي آخر هو غياب **التعددية والديمقراطية الحقة**، لأن وجودها هو الكفيل بمنع الطغيان الستاليني.

هرم مبني من الجماجم البشرية يقف على رأسه غراب. تلك اللوحة التي مثّل بها فيريشاغين الحرب، ويمكن أن تكون رمزاً لسلطة ستالين الفردية. هذا الرمز مبسط جداً لأنه يخفي ولا يظهر الذين تم خداعهم في آمالهم ومعتقداتهم وبقوا على قيد الحياة من أفراد الشعب. هذا الشعب ستبقى كل مآسي الماضي جزءاً من تاريخه الخاص... إن الماضي يبقى إلى الأبد. كل ما اقترفه ستالين سيقدم إلى محكمة التاريخ الطويلة والقاسية المطهرة. قال لينين: «يجب أن نمتلك القدرة على الاعتراف بالذنوب بدون خجل، لأن ذلك يقوي من قدرتنا على محاربتها»[١٩]. إن هذه الكلمات لا تزال تحتفظ بأهميتها، على الرغم من أن قائلها لم يكن ملتزماً بها. نعم، إننا نتجاوز شرور الستالينية ببطء. لا شك في ذلك، ولكن ذلك لا يعني أن نرفض الاشتراكية بشكل عام حتى وبعد هذه الخطيئة التاريخية الكبيرة (التي هي بالنسبة للشعب ـ مأساة). من السابق لأوانه أن نقول بعقم طريق التطور الاشتراكي، خاصة إذا كنا نفهم هذا الطريق بأنه الوسيلة للعدالة الاجتماعية، دون المساواة المطلقة ومحو الفروق الفردية.

إن عملية التجديد التي بدأنا بها لم تعطِ حتى الآن إجابة مقنعة على سؤال: ما هي الفرص التاريخية أمام الاشتراكية؟ وهل هي موجودة من الأساس؟ إن العديد من الخطوات الاجتماعية الحالية تبدو غير منهجية ووسطية. من وجهة نظري، فإن هذا يحصل لأننا لم نقم بدراسة تجربتنا التاريخية بشكل كافٍ ولم نستفد من تجارب الشعوب الأخرى.

من الضروري الآن، أن نرى، إضافة إلى الستالينية، **المجتمعات الديمقراطية المتحضرة**. ويجب أن نتخلى عن النظرة الإيديولوجية إلى الاشتراكية. أعود وأكرر أن الاشتراكية، إن كانت تمتلك فرصة، فإن فرصتها تكمن في السعي نحو العدالة الاجتماعية بدون أفكار المساواة المطلقة وإلغاء الفروق الفردية. إن العديد من الدول ـ عل خلافنا ـ لم تنحرف عن الطريق القويم للحضارة بالرغم من أنها ليست مثالية. إن شعبنا شعب عظيم وهو لن يرضى بالقليل؛ فبعد أن يتخلص من الستالينية سيسعى نحو حياة أفضل. إن ذاكرة الشعب لا تموت، وهي دائماً تلعب الدور الأساسي في «ترميم» الماضي. وأعتقد أن الأبدية التي يتحدث عنها الفلاسفة والمؤرخون والكتاب ما هي إلا ذاكرة الشعب، فهي التي تعطي الحكم العادل على المراحل التاريخية والأحداث والأشخاص؛ وتحافظ على العلاقة بين الأزمنة المختلفة. وبفضل هذه الذاكرة نعرف اليوم عن ستالين حقائق أكثر من تلك التي كنا نعرفها وهو على قيد الحياة. وبمساعدة هذه الذاكرة سوف نكون قادرين على أن نجتاز طريق التطهر وطريق الندم. أمامنا الكثير لنفعله من أجل أن ننفض عن أرواحنا القيود الستالينية. إن الذاكرة قادرة على أن تعيد الاعتبار لملايين الضحايا، ضحايا ستالين والستالينية.

قد يقول البعض إن مؤلف هذا الكتاب اقتصر على الألوان المعتمة في رسمه لصورة ستالين. في الحقيقة، لم أكن أحمل قناعات مسبقة عن هذا الإنسان، ولكن قبل عشر سنوات، وعندما بدأت بتجميع الوثائق والمعلومات لكتابة هذا الكتاب، لم أكن أتوقع أن أجد فيه كل هذه الصفات اللاأخلاقية والمتدنية. بعد دراسة الأرشيف واللقاءات مع الناس الذين عانوا من الجحيم الستاليني، كانت تلاحقني الأصداء الخافتة لأصوات الذين حرموا من الحياة بشكل وقح وقاسٍ. بعد كل ذلك، لم أستطع أن أكتب سوى ما كتبت.

إن تطور ازدرائنا لستالين مر بمراحل عدة. وأعتقد أنه عندما لن يبقى من الناس من عاش وعاصر الفترة الستالينية (ربما في القرن الواحد والعشرين)، قد تصبح النظرة إلى ستالين نظرة هادئة. قد تكون كلمة «هادئة» غير موفقة، لأن ذاكرة التاريخ ستحتفظ به كأحد أبرز الطغاة في تاريخ الحضارة. ولكن المسافة الزمنية التي ستفصل بينه وبين أبناء المستقبل سوف تخفف من حدة الألم. الزمن، إضافة إلى كونه أفضل كاتب ومحرر لتاريخ الأفراد، هو أفضل طبيب. ويدهشنا كيف استطاع الناس في ظروف الديكتاتورية (لا بسبب الخوف فقط) أن يصمدوا ببطولة وأن يحافظوا على إيمانهم بأفكار الديمقراطية والعدالة والإنسانية.

إن لجة الماضي لن تبتلع الطاغية، ويجب أن نفعل كل ما نقدر عليه لكي لا تضيع ذكرى الضحايا في نهر المستقبل. أنا أدرك أن شخصية مثل هذه ـ سواءً أردنا

أم لم نرد ـ سوف تبقى في التاريخ إلى الأبد (مثل تيمورلنك، جنكيزخان، هتلر وغيرهم من الطغاة). إن فهم مثل هذه الشخصية غير ممكن بدون اعتماد المقاييس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية؛ وهذا ما حاولت أن أقوم به؛ ولكنني أعتقد أن حكم التاريخ سوف يكون حكماً أخلاقياً.

إن أسمى شكل للسياسة، إذا لم يكن متحداً مع الأخلاق، يكون قيمة مزورة. إن ستالين، لكونه سياسياً قاسياً، أعطى للقسوة كل وجوده، ولم يبصر في السياسة مكاناً لأبسط القيم الأخلاقية. ولهذا فإن الإنسان كان بالنسبة للديكتاتور مجرد أداة أو وحدة إحصائية في العدد الجماهيري الضخم. إن التجاوز الإجرامي للقيم الأخلاقية انتقم من «المنتصر» لأن هزيمته التاريخية كانت حتمية. هذا ـ على ما أعتقد ـ أحد بنود الحكم التاريخي.

إن انتصار ستالين ومأساة الشعب تُظهر بوضوح الحقيقة القديمة، وهي أن الحقيقة هي الضحية الأولى لغياب العدالة. إن ستالين، وربما هذه كانت أكبر جرائمه، استطاع أن يزور العديد من الأفكار العظيمة وأن يستبدلها بخرافاته الخاصة. إن ستالين بحياته وتصرفاته أثبت أن الكذب شر مطلق؛ فكل المصائب تبدأ من الكذب. إن القسوة وحكم الفرد والبيروقراطية والدوغمائية والمركزية، كانت معمدة بالكذب. إن أي اتحاد مع الكذب سوف يقود إلى المصائب؛ وهذا أيضاً سيتم ذكره في حكم التاريخ.

إن محاولة صياغة الصورة السياسية لستالين أتاحت لي الفرصة لأشعر، بحدة وألم، بأن العديد مما تم ارتكابه في تاريخنا نتج عن إلغاء الحرية؛ هذه الحرية التي كانت هدفاً لكل الثورات الروسية. وعندما حصل الشعب البسيط على هذه الحرية لم يعرف كيف يتصرف بها. قام ستالين بنفي الحرية على أساس أنها تشكّل خطراً. إن الحرية قادرة عل العيش في ظروف الديمقراطية الحقيقية فقط؛ فإذا انعدمت الديمقراطية فإن الحرية تبقى على شكل ظل لعبودية ايديولوجية وخرافات وأختام ثقافية. إن ستالين لم يكن يحب حتى الحديث عن الحرية. لقد اغتالها، مفترضاً أنها تمتلك مصدراً واحداً ووحيداً لحياتها، مصدراً اجتماعياً. ولكن الحرية الاجتماعية لا تعبر عن نفسها إلا في وحدتها مع الحرية الروحية.

لقد اعتمدت في كتابي هذا، وقد أكون بالغت، على الضمير. إن أشخاصاً مثل ستالين يعتبرون الضمير «وهماً». وهنا لا يجري الحديث عن ضمير الطاغية، لأنه لم يكن يمتلك شيئاً من هذا القبيل، إن ما أقصده هو أولئك الناس الذين كانوا يشاركونه بارتكاب جرائمه مدركين أنهم يقومون بارتكاب الشرور. ومن سوء الحظ أن الكثيرين لم يستمعوا إلى صوت ضمائرهم. إن الكثيرين ممن عاشوا في منظومة العلاقات تلك كانت ضمائرهم ـ تبعاً لما يقوله كورولينكو «قد تجمدت وركدت»؛ وكان نتيجة ذلك أن قام شعب عظيم بزج ضميره في مخزن الاحتياط معطياً الإمكانية لـ «المفتش العظيم» أن يقوم بأعماله السوداء لسنوات طوال. وإن نحن استطعنا أن نحافظ على إيماننا بالقيم السامية، وكنا قادرين على الندامة، وعلى البعث والتجديد، فما ذلك إلا لأننا حررنا ضمائرنا من سطوة اللاحرية.

نعم تحررنا. ولكن من السابق لأوانه أن نقرع طبول النصر. وسوف أذكّر مرة

أخرى بأن روسيا، كما الاتحاد السوفييتي، شهدت محاولات عدة للتجديد؛ والكثير منها انتهى بهزيمة المصلحين. قد يكون من السابق لأوانه تأكيدنا على أن طريق التجديد لا عودة عنه؛ فالستالينية السياسية، وبكل أسف لم تمت كلياً؛ وهي كما في السابق خطرة وقادرة على الحياة. إن الأزمات وحلول هذه الأزمات تمتلك ـ إن صح التعبير ـ لا وجهاً تقدمياً وحسب، بل ومنطقاً محافظاً. وأرجو من الله أن لا تكون تخوفاتي لها وقع النبوءات. إن التاريخ الروسي والسوفييتي، ببساطة، يدفعنا للحذر. إننا في ممر انتقال طويل من المجتمع التوتاليتاري البيروقراطي إلى مجتمع ديمقراطي متحضر؛ والطريق هذه طويلة ولا بد من الصبر والإيمان.

إن الفكرة المحركة، والتي دفعتني لكتابة هذا الكتاب، هي: إن ضمير التاريخ حي دائماً وهو يعطي الفرصة، حتى عندما يكون انتصار شخص هو مأساة شعب بأكمله. ومن الممكن بعد أن نتجاوز عتبة القرن الواحد والعشرين، وننظر إلى ستالين (أحد قادة النظام التوتاليتاري والذي مني في النهاية بهزيمة تاريخية)، فسوف نراه بشكل آخر، بشكل أعمق وأصح.

أود أن أذكر بأن هذا الكتاب قد تمت كتابته بشكل أساسي ونحن جميعاً لا نزال في قبضة «الكائن» الستاليني الخانقة.

أنا الآن على قناعة تامة أن الحرية لا تمتلك بدائل. وعندما انتهيت في عام ١٩٨٥ من كتابة هذا الكتاب لم يكن لدي فرص كبيرة لنشره؛ ولكننا في ذلك الحين كنا ندخل مرحلة جديدة مليئة بالأحداث. وكثير من الأمور التي كنت أعتبرها «كفراً»، أصبحت واقعاً عادياً.

في هذه الطبعة الجديدة قمت ببعض التعديلات الطفيفة. وأتمنى ان ما لم أستطع أن أورده في «ستالين»، سأتمكن من أن أذكره في كتبي اللاحقة «تروتسكي» و «لينين». إن حياة ومصير هؤلاء «القادة»، على ما أعتقد تعطي فكرة عن مآسي المرحلة السوفييتية من تاريخنا.

وسوف أنهي كتابي هذا بما ذكرته في المقدمة: قد يكون حكم البشر زائلاً، ولكن حكم التاريخ أبدي.

المراجع

الخاتمة ـ حكم التاريخ.

(١) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ١٠٣. المجلد ٣. ل ٤٠٠.
(٢) المصدر السابق. ل ٣٩٩، ٤٠٨.
(٣) القاموس الموسوعة. في ٣ مجلدات. موسكو، ١٩٥٥. المجلد ٣. ص ٣٠٧.
(٤) الأرشيف المركزي الحكومي للجيش السوفييتي. ف ٣٣٩٨٧. أوب ٣. د ٩٩٣. ل ١٦٤، ١٧٩، ١٨٠، ٢١٧.
(٥) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ١٣٠. أوب ١. ل ٢٠.
(٦) Joures AE x J. Histoire socialiste de la Revolution francaise. Paris, p. 448.
(٧) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. ٢٣٦. المجلد ٣. ل ١٤٥، ١٦١، ١٦٦، ١٩٤.
(٨) المؤتمر العالمي الرابع للأممية الشيوعية. موسكو ـ براغ، ١٩٢٣. ص ١٩٦.
(٩) أفلاطون. مقالات. المجلد ٣. الجزء ١. ص ١٠٧.
(١٠) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ١. د ٨١٨٠. ل ٥٦٧.
(١١) الكساندروف. هل ستالين ديكتاتور؟ تحليل تاريخي للدوغمائية. باريس: البعث، ١٩٣٢. ص ٢٥.
(١٢) ف. إ. لينين. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٥. ص ١٨.
(١٣) المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي لعموم الاتحاد السوفييتي (بلشفيك). تقرير بالاختزال. موسكو ـ لينينغراد، ١٩٢٦. ص ٥١ ـ ٥٢.
(١٤) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٢٥٦. المجلد ١، ٢، ٣.
(١٥) ر. كودنخوفه ـ كالرغي. البلشفية وأوروبا. برلين ـ ريغا، دار ب. لاميه، ١٩٣٢. ص ٣٢.
(١٦) ل. تروتسكي. ما هو الاتحاد السوفييتي وإلى أين يسير؟ باريس، ١٩٣٦. ص ٧٩.
(١٧) الأرشيف المركزي الحكومي لثورة أكتوبر. ف ٩٤٠١. أوب ٢. د ٢٦٩. المجلد ١. ل ١٤١ ـ ١٤٦.
(١٨) ن. بيرديايف. روح الثورة الروسية. باريس، ١٩٢٣. ص ٤.
(١٩) ف. إ. لينين.. الأعمال الكاملة. المجلد ٤٣. ص ٢٣١.



محتويات الكتاب







المؤلف

- ديمتري فولكوغونوف:
- مستشار الرئيس الروسي بوريس يلتسين.
- عمل في وزارة الخارجية السوفييتية.
- زار البلاد العربية مرات عدة.
- ترجم كتابه هذا إلى الانكليزية والفرنسية والإيطالية.
- سيصدر له عما قريب كتابان، عن لينين، وتروتسكي.

الكتاب

(...) في السنوات الأخيرة، وتحت تأثير المعلومات السلبية عن ستالين وأعماله الإجرامية أخذت تتبلور فكرة أن إمكانياته العقلية لم تكن تتعدى مستوى الوسط. ويؤكد البعض بشكل قطعي أن وصف تروتسكي لستالين بأنه «رجل وسط (عادي) مرموق (بارز)» كان دقيقاً. يصعب علينا موافقته الرأي، إذ كيف يمكن لإنسان مجرد من القدرات العقلية أن يصل منذ ١٩١٢ إلى أجهزة قيادة الحزب؟ وكيف نفهم، إذن، عبارة لينين التي نعت بها ستالين بـ«القائد البارز»؟ كيف استطاع ستالين الانتصار في الصراع السياسي داخل الحزب في العشرينات رغم أن أعداءه كانوا يفوقونه في العديد من المجالات؟

(...) تقويم شخصيّة ستالين يتم عادة استناداً إلى جرائمه، دمويته، قساوته، عدم رحمته تجاه من يعتبرهم أعداءً له. إن ذلك يعطينا فكرة عن قدرات ستالين العقلية بشكل غير مباشر، لكنه، وبشكل أساسي، يصف حدود الأخلاق عند هذا الرجل. وهنا يكمن جوهر عقل ستالين. فهو يتحلى بالذكاء ـ إنني متأكد من ذلك ـ وفي الوقت نفسه، منعدم الإنسانية. لو كان من الممكن وصف قدرات ستالين العقلية بشكل مختصر لتوصلنا إلى المعادلة التالية: «مواهب بارزة لذكاء شرير». إنني أعتبر أن الانحطاط الأخلاقي بحدّ ذاته فجوة حقيقية في الإدراك الإنساني. فقلب ستالين كالظلام الحالك، لا توجد فيه أي نجمة خير... يمكننا القول أن ذلك الظلام قادر على الحط من المستوى الفكري وتحويل الإنسان إلى مجرد آلة.

(...) ليس من السهل أن يرى المرء إبداع ستالين في اتخاذ قراراته. فهو يتتبع دائماً القوالب والصيغ الدوغمائية والقوانين الجامدة. وفي الوقت ذاته، كان ستالين يتمتع بالفكر الحدسيّ. تأتي استنتاجاته وقراراته، أحياناً، وكأنها تقفز عن عدة درجات من الوعي. التفكير الحدسي يقفز عن الدرجات المنطقية في التفكير، ويصل رأساً إلى النتيجة، إلى الملخص. وبالطبع يؤدي مثل هذا النقص في الوعي إلى شكوك لا أساس لها. وهذا ـ بالضبط ـ ما كان موجوداً لدى ستالين. كان قادراً على النظر إلى أحد زملائه ليسأله فجأة: «لماذا تتهرّب من النظر في عيوني؟»، وشكه المرضيّ في مثل هذه الحالة، ليس تجسيداً لتفكيره الحدسي (إذ إن جميع افتراضات ستالين تفتقد للأساس الواقعي) بقدر ما هو تعبير عن موقفه السلبي: فهو يرى في الجميع أعداء كامنين.

منشورات:

دار المشرق للطباعة والنشر والتوزيع

قبرص ـ نيقوسيا ـ جادة مكاريوس ـ ٩٢
هاتف: ٣٥٣٤٣٤ فاكس: ٣٥٤٣٤٣

ثمن النسخة ١٠ دولارات أميركية